سلسلة بلاغتنا ولغتنا (٢)

البلاغة

فنونها وأفنانها

علم البيان والبديع

الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

البلاغة

فنونها وأفنانها

علم البيان والبديع

حقوق الطبع محفوظة

١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م

الطبعة الثانية عشر

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٨/٨/٢٨٢٣

دار النفائس

للنشر والتوزيع-الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤٠

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤١

Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

www.al-nafaes.com

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الخلق لساناً، وأوفاهم بياناً، وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار ومن تبعهم بإحسان ..

أما بعد:

فلقد منّ الله علينا بإخراج الكتاب الأول في البلاغة، الذي اشتمل علم المعاني، وهذا هو الكتاب الثاني في (علم البيان والبديع)، نرجو أن يمنّ الله علينا بإتمامه، وله الحمد في الأولى والآخرة.

ونهجنا فيه هو نهجنا في الكتاب الأول، اللهم إلا ما تقتضيه الضرورة، وتدعو إليه الحاجة، وتتطلبه طبيعة البحث من فروق بين العِلْمينِ تحتّم علينا بعض التغيير، ففي الكتاب الأول رأينا لزاماً علينا أن نكثر من الأمثلة التي نوضح بها الأسلوب المتحدث عنه، ذلك أن طبيعة النظم وما فيه من فروق دقيقة بين الأساليب تختلف كثيراً عن طبيعة علم البيان الذي يعتمد الصورة، لذلك رأينا أنفسنا أقل حاجةً للأمثلة الخاصة في هذا الكتاب.

وآثرنا أن نكثر من الأمثلة والشواهد من الكتاب الكريم، والسنّة المطهرة، علاوةً على ما نذكره من الصور الشعرية، إلا أننا لم نكتف بالشعر القديم؛ بل رأينا من الفائدة أن ننقل للقارئ بعض الصور الشعرية في أقوال المعاصرين من الشعراء.

ولقد أفدت كثيراً من «أسرار البلاغة» للشيخ عبدالقاهر الجرجاني - رحمه الله - ، ومن «دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل» للأستاذ عبدالهادي العدل أستاذ البلاغة في كلية اللغة العربية في الأزهر - جزاه الله خيراً - .

وقد جهدت في هذا الكتاب ما جهدت في سابقه من يسر العبارة، وسهولة الأسلوب. والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به، وأن يمنّ عليّ بالقَبول والأجر، وأعتذر عن زلة أو هفوة وقعت عن غير قصد، أو كانت نتيجة غفلة أو جهل في قضية من القضايا، فما نحن إلا بشر، وأرجو أن يجد فيه أساتذة البلاغة وطلابها بغيتهم وضالّتهم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. فضل حسن عباس

القسم الأول

علم البيان

تمهيد

البيان تعريفه وتطوره:

وردت كلمة البيان ومشتقاتها كثيراً في كتاب الله تعالى، وفي سنّة الرسول ﷺ . فعلى حين نقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [البقرة:٢٦٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] فالمبيِّن في هذه الآيات هو الله تعالى - نقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، ونقرأ ثالثاً قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وفي آية أخرى نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥].

والمعنى المتبادر لهذه الآيات جميعاً هو الظهور والكشف والإيضاح، فالله تبارك وتعالى يبين آياته للناس، فيوضحها ويكشفها، فلا يبقى فيها أي خفاء، والنبي ﷺ يبين ما نزّله الله فيشرحه، ويرشد إلى ما فيه من أسرار ودقائق، وقد يكون هذا البيان من الرسول ﷺ توضيحاً لمبهم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تقييداً لمطلق، وقد يكون غير ذلك مما ذكر في موضعه.

والذين أُخذ عليهم الميثاق من أهل الكتاب كان لا بد أن يُظهِروا للناس أحكام الله من غير تحريف أو تبديل، والذين سكنوا في مساكن الظالمين اتضح لهم الأمر، وظهرت لهم النتائج، وتأصلت في نفوسهم القناعات بما حدث للسابقين.

فالبينة: كما يقول الراغب[1]: «هي الدلالة الواضحة حسيّة كانت أو عقلية».

وهو ما اختُص به الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤]، ومهما اختلف المفسرون في كلمة «البيان» فإن اختلافهم لا يخرج عن كونه اختلاف تنوُّع.

(فقد قال ابن زيد والجمهور: البيانُ: المنطق والفهم والإبانة، وهو الذي فُضل به الإنسان على سائر الحيوان. وقال قتادة: هو بيان الحلال والشرائع، وهذا جزء من البيان العام، وقال محمد بن كعب: ما يقول وما يقال له، وقال الضحاك: الخير والشر، وقال ابن جريج: الهدى، وقال يمان، الكتابة) [2].

وهناك غير هذه الأقوال؛ ولكنها ترجع - كما رأيت - إلى معنى الكشف، سواء قلنا: إن هذا الكشف أمر لسانيٌّ أو غير لساني، أم قلنا: إنه هو الفهم الذي مُنحه الإنسان وفُضِّلَ به على غيره.

ولقد جعل الله القرآن الكريم بياناً، في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]. فالقرآن، يكشف للإنسان عوامل الرقي، وأسباب السعادة؛ ليسلك مسالكها، ومواطن الزلة ليتجنبها؛ ذلك هو المعنى العام لهذه المادة وما يتفرع عنها.

والعربية - كما تعلم - لغةُ السعة والجمال؛ أعطيت خاصية، قلّ أن تجدها في غيرها من اللغات؛ وهي الصلة التي تكون بين الألفاظ بعضها مع بعض من جهة، وبينها وبين المعاني من جهة أخرى. لذلك قد نجد معاني كثيرة للكلمة، لكننا بعد الإمعان والتدقيق، لا نستطيع أن نرجعها إلا إلى أصل واحد، ويُظن لأول وهلة، أن هذه المعاني بعيدة بعضها عن بعض؛ لذلك كان السياق خير موجِّه، بل معيِّناً للمعنى.

---

(١) المفردات، ص٦٨.

(٢) البحر المحيط، ٨/ ١٨٨.

فلقد جاءت كلمة البيان ومشتقاتها في مواضع كثيرة من السنّة المطهرة، نكتفي منها بموضوعين اثنين:

أحدهما: قوله ﷺ: «إن من البيان لسِحْراً»[1]، السياق الذي ورد الحديث فيه، يظهر لنا منه أن البيان «إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب» - كما يقول ابن الأثير -[2]، وهذا المعنى وإن كان خاصاً، فإنه لا يخرج عن الكشف.

الثاني: قوله ﷺ: «البذاءُ والبيان شعبتان من النفاق»[3]، والسياق يدلنا على أن المقصود بالبيان: التصنع في القول والتفاصح والتكلف، مما يكون الباعث عليه العجب والغرور.

ومهما قيل في البيان بعد ذلك، فإنه لن يخرج عن هذه المعاني التي ذكرناها لك، مستوحاة من الكتاب والسنّة.

نظن أن أول من توسع في هذه الكلمة، وبسط معانيها، أبو عثمان الجاحظ، ألم يسمِّ أعظم كتبه وأكثرها شهرة «البيان والتبيين»؟. فقد عرّف البيان - تارةً - تعريفاً عاماً بقوله: «إنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته ويلم بما فيه». وتارة بقوله: «إنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي». وبيّن أن هذه الدلالة لا تنحصر في القول؛ بل إنها تكون بخمس طرق؛ فقد تكون هذه الدلالة باللفظ، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بالخط، أو العَقد أو الحال[4].

ثم ينقل لنا بعض التعريفات الخاصة، فيذكر ما قاله جعفر بن يحيى: «أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّي عن مغزاك، وتُخرِجه من الشِّركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، مع السلامة من التكلف والتصنع والتعقيد». ويعلق الجاحظ على هذا التعريف، بأنه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب ٥٠ (إن من البيان لسحرا)، وكتاب النكاح، باب ٤٨، (الخطبة) ورواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٢) النهاية لابن الأثير، ١/ ١٧٤.

(٣) رواه الإمام أحمد، ٥/ ٢٦٩. ورواه الترمذي، كتاب البر، باب ما جاء في العي، ٨/ ١٨٢.

(٤) العقد: الحساب والتفاهم بعقد الأصابع، والحال، أي: الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض وفي كل صامت وناطق.

منسجم مع ما قاله الأصمعي في تعريف البليغ، بأنه «من طبّق المِفْصَل، وأغناك عن المُفَسِّر».

وندرك مما سبق، أن كلمة البيان أصبحت مرشحة، كي يراد منها اتجاه خاص في القول، ولعل هذا الاتجاه كان أول ما أشار إليه الحديث النبوي «إن من البيان لسحراً».

ولا يفوتنا هنا مقارنة الجاحظ بين تعريف جعفر بن يحيى للبيان، والأصمعي للبليغ، بأن كلمة (البيان) كانت مرادفة لكلمة (بلاغة)، وهذا ما يكاد يُجمع عليه القوم، وهذا كذلك ما استمر إلى عصر الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - فكانت كلمات البراعة والبلاغة والفصاحة والبيان والبديع ألفاظاً ذات مدلول واحد مع اختلاف طفيف نجده بين كاتب وآخر.

ولعل خير دليل على ما قلناه، ما نجده للشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - في كتابه (دلائل الإعجاز)، ودلائل الإعجاز - كما تعلم - تحدث فيه عن نظرية النظم، أي: علم المعاني كما عُرف فيما بعد، ومع ذلك نجده في أول هذا الكتاب يتحدث عن البيان فيقول: «ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخُ أصلاً، وأبسقُ فرعاً، وأحلى جنىً، وأعذبُ وِرداً، وأكرمُ نِتاجاً، وأنورُ سِراجاً، من علم البيان، الذي لولاه لم ترَ لساناً يحوك الوشي[١]، ويصوغ الحَلْيَ، ويلفِظُ الدُرَّ، وينفثُ السحر، ويُقري الشَّهد[٢]، ويريك بدائع من الزهر، ويَجنيك الحلوَ اليانع من الثمر، والذي لولا تحفِّيه[٣] بالعلوم، وعنايتُه بها، وتصويرُه إياها، لبقيت كامنة مستورة، ولما اسْتَبَنْتَ لها يَدَ الدهرِ صورةً[٤] ولاستمر السّرار[٥] بأهِلَّتِها، واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء. إلا أنك لن ترى على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه، ومُنِيَ من الحَيف بما مُنِي به، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه»[٦].

---

(١) الوشي: النقش.

(٢) الشهد: العسل.

(٣) تحفيه: حفاوته وإكرامه.

(٤) يقولون: (لا أفعله يدَ الدهر) أي: لا أفعله أبداً.

(٥) بفتح السين وكسرها: آخر ليلة من الشهر والمراد خفاء القمر فيها.

(٦) دلائل الإعجاز، ص٥٥، تحقيق عبدالمنعم خفاجي.

فالشيخ - رحمه الله - لا يقصد بعلم البيان هنا المصطلح الذي استقر عليه الأمر فيما بعد، وإنما يعني به البلاغة بعامة، ومن بعد عبدالقاهر جاء الزمخشري - رحمه الله - وهو أول من فَصَل علم البيان عن غيره من المباحث البلاغية وبخاصة علم المعاني، ولكننا مع ذلك لم نعثر على تعريف محدد عند الزمخشري لهذا العلم.

وبقي الأمر كذلك إلى أن استقرت البلاغة وأصبح لها مفاهيمها المحددة المنضبطة، حيث أصبح علم البيان له شخصيته المستقلة وأبحاثه المتميزة، وموضوعاته الخاصة، فمجاله الصورةُ التي يبدعها المتكلم، فيصور بها المعنى الذي يريد.

تلك عجالة لتاريخ هذه الكلمة وتطورها، إلى أن غدت علماً مستقلاً، وفناً له أثره الخلاب.

فائدة علم البيان:

ومما هو جدير بالعناية، وحريّ أن يقدّم على غيره، حتى يكون بحثنا على أسس ثابتة؛ الحديث عن فائدة هذا العلم، والثمرة العملية المرجوّة منه، ولعل مما يُعينُنا على ذلك إن شاء الله، ومن الله وحده العون؛ أن نرجع بك قليلاً إلى علم المعاني، فلقد عرفت هناك، أن ذلك العلم، هو الذي يعينك على تركيب الجملة تركيباً يتفق وأوضاع الناس الذين تخاطبهم؛ هو نظرية النظم - كما عرفت - تؤكد الكلام إذا كان هناك ما يقتضي التأكيد، وذلك إذا كان المخاطب مُنكِراً لما تقول، فتكون بهذا موافقاً لمقتضى الحال ومقتضى الظاهر، أو تُنزِّل غير المنكِر منزلة المنكِر، لما ترى من غفلة أو ما يشبهها، فتكون بذلك موافقاً لمقتضى الحال، لكنك خرجت عن مقتضى الظاهر.

وقد يقتضي منك المقامُ تقديم الفاعل، أو تقديم الفعل، وقد ترى أن المقام مقامُ تأخير لا تقديم، وقد تجد أن من الحكمة أن تطيل في كلامك وتطنب، أو توجز وتقصِّر، وقد تجد من المناسب أن تستعمل أسلوب القصر، وقد يكون هذا القصر بـ (إنما) تارة وبـ (ما، وإلا) تارة أخرى، وقد تجد لزاماً عليك أن تفصل بين جملتين لما بينهما من كمال اتصال أو كمال انقطاع، وقد تصل بينهما لما بينهما من جامع يقتضي الوصل، وقد تعرّف الخبر أو تنكّره، كما تمليه عليك دواعي التعريف أو التنكير، وقد تضطر لوجود الشرط في حديثك فتعبر تارة بـ (إنْ) وتارة بـ (إذا) وتارة بـ (لو). وقد تجد أن المقام يحتم عليك أن تجعل فعل

الشرط ماضياً تارة ومستقبلاً أخرى، وقد تحذف حينما تجد أنّ الحذف أولى من الذكر، وقد قررت لك هذا وغيره في موضعه.

علم المعاني - إذن - هو علم النظم، وهذا النظم لا بد له من خطوتين اثنتين:

أولاً: ترتيب المعاني في نفسك لتكون منسجمة مع ما تريد أن تتحدث عنه، سواء كان هذا الحديث لنفسك أم لغيرك.

ثانياً: ترتيب الألفاظ في نطقك، وهذه ناشئة عن التي قبلها.

علم المعاني - إذن - هو مطابقة ما على اللسان لما في النفس، وهذه قضية تعتمد أول ما تعتمد على الفكر، ولكن الإنسان ليس فكراً وحده، فلقد أراد الله له أن يكون له مع الفكر عاطفة، ومع العقل وجدان، ومع المنطق أحاسيس ومشاعر، ولعلك الآن بدأت تدرك وظيفة علم البيان، فإذا كان علم المعاني يعتمد أول ما يعتمد على الفكر الذي تطابق به بين ما رتبته في نفسك وما ينبغي أن ترتبه في نطقك، فإن علم البيان، هو ذلك العلم، الذي يُحدِث أثراً في نفسك، ويسمو بعاطفتك، ويرهف حسك.

ولا بد للبلاغة من هذين الركنين: أن يكون الكلام متلائماً مع أوضاع المخاطبين، وأن يكون مؤثراً في النفس حتى تتفاعل معه وتتجاوب. فالركن الأول: وظيفة علم المعاني، والركن الثاني: مهمة علم البيان.

علم البيان - إذن - علم الصورة البديعة، التي من شأنها أن تهز أعطاف النفس، ونحن لا نريد أن نفاضل بين العلمين إذ لا غَناء بأحدهما عن الآخر، وإن كانت قضية النظم أدقَّ مسلكاً، وأدلَّ على الإعجاز، إلا أن علم البيان أدعى للتأثير، وأدنى إلى العاطفة.

يمكنك بعد الذي قدمته لك، أن تدرك أن علم البيان، هو العلم الذي تستطيع بواسطته وبمعرفته أن تؤدي المعنى الواحد الذي تريد تأديته بطرق مختلفة من اللفظ، بعضها أوضح من بعض، وإن شئت فقل بعضها أكثر تأثيراً من بعضها الآخر، ولكن حذار أن تهمل جانب النظم، فإن الكلام الفصيح البليغ إما أن يرجع إلى النظم وحده، وإما أن يرجع إلى اللفظ، وذلك لما فيه من صور بديعة، وتراكيب مؤثرة كالاستعارة والكناية وغيرهما[1].

---

(١) دلائل الإعجاز، ص١١٤.

علم البيان، هو علم الصور الكلامية المؤثرة، ولا ريب أن الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلامية أم الصور الحسية، فهناك الصورة التي تروقك وتعجبك، وهناك الصورة التي تُستكره وتُسْتَبشَع، ولكن ثالثة تصل إلى أعماق نفسك، بل تهز هذه النفس هزة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصوِّر في تحسين صورته، يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين، فالصورة الجيدة المؤثرة لا بد لها من خيال خَصْب، وعاطفة مشبوبة، وإحساس مرهف، وذهن ثاقب يشترك فيهما المصوِّر والمصوَّر له على السواء. وكما يصدق هذا على الصورة الحسية، يصدق على الصورة الكلامية كذلك.

ولكن كيف يمكن أن نؤدي المعنى الواحد بعبارات بعضها أوضح من بعض، وأكثر تأثيراً من بعضها الآخر؟ خذ (الكرم) أو (البخل) و(الجرأة) أو (الجبن)، و(الحسن) أو (القبح)، و(العفة) وأي معنى شئت، وانظر إلى كلام الشعراء والبلغاء، تجد أن كلاً منهم كانت له طريقته في التعبير عن المعنى الذي يريد، فكان بعضهم يرتفع ويسمو، وكان الآخر يبدع غائصاً، باحثاً عن الجوهر الذي يزين فيه كلامه، وثالث تلقاه قريباً فيما يلقيه، مبتذِلاً فيما يحكيه.

والمعاني في صورها المؤثرة مما يَحمدُ الناسُ فاعلها، ولكن التعبير عن هذا المعنى يأخذ ألواناً كثيرة من القول، وتجد هذه الأقوال مبثوثة في الأدب العربي على اختلاف أعصاره وأمصاره، خذ مثلاً قول المتنبي(١):

تَعَرَّضَ لي السَّحابُ وقَدْ قَفَلْنا ... فقُلْتُ إليكَ إنَّ مَعِي السَّحَابا

وخذ قول أبي تمام(٢):

هُوَ البَحْرُ مِنْ أيِّ النواحي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ سَاحِلُهُ

واستمع إلى قول إبراهيم بن هَرْمَة(٣):

---

(١) ديوان المتنبي، ١/ ٢٧٣.

(٢) شرح ديوان أبي تمام، إيليا الحاوي، ص٤٢٦، والقصيدة في مدح المعتصم.

(٣) العوذ: جمع عائذ، وهي التي مضى على ولادها عشرة أيام، ثم هي مُطْفِل، ومعناه لا يمتع الأمهات من الإبل بأبنائها، بل يذبحها ولا يشتري منها إلا قريبة الأجل.

لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفِصالِ وَلا أبتاعُ إلاّ قريبةَ الأجَلِ

وإلى قول أبي نواس[1]:

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحْ

وإلى قول مسلم بن الوليد[2]:

تَظَلَّمَ المالُ والأعداءُ مِن يَدِهِ لا زَال لِلْمالِ والأعداءِ ظَلاَّما

وقال ابن هَرْمَة[3]:

وما يَكُ فيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي جَبانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيل

ومن أقوالهم: «فلانٌ كثيرُ الرماد»، ويقولون: «فلانٌ إذا قُدِح لا يُصْلَد» يريدون أنه كالزند الذي يقدح فَيُري. هذه الأقوال - وغيرها كثير - تدور حول معنىً واحد وهو الكرم، ولكنك تجد بعضها أوضح من بعض، وهكذا كل معنى تريد التعبير عنه، وربما تجد المعنى الجيد لم تتح له الصورة الجميلة، فلا يروقك ولا يستهويك، وربما تجد المعنى المبتذل أتيحت له الصورة الجيدة فيروقك ويستهويك، وذلك كثير؛ ألا ترى إلى قول ابن الأنباري[4]، في رثاء ابن بقية حين صلبه عضد الدولة:

عُلُوٌّ في الحَيَاةِ وَفي المَماتِ لَحَقٌّ تِلْكَ إحْدى المُعْجِزاتِ
كَأنَّ النّاسَ حَوْلَكَ حِيْنَ قاموا وُفُودُ نَداكَ أيّامَ الصِّلاتِ
كَأنَّكَ قائِمٌ فيهم خَطيباً وكُلُّهُمُ قِيامٌ للصَّلاةِ

وما كانت إلا وصفاً لمصلوب، وذكر فيها من التشبيهات والأوصاف البديعة والصور التي تختلب الآذان، وتجتلبُ الأذهان، ما جعل بعض الأمراء يتمنى أن يكون مكان ذلك المصلوب، الذي قيلت فيه تلك القصيدة، وهذا كثير في الأدب العربي.

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز، ص١١٤.
(٢) العمدة لابن رشيق القيرواني، ١/ ٢٧١.
(٣) دلائل الإعجاز، ص٣٠٩.
(٤) ديوان المعاني، ٢/ ١٧٩. اليتيمة، ٢/ ٣٤٤. ٣٤٥. نداك: كرمك، الصِّلات: الهبات والعطايا.

علم البيان - إذن - بحاجة إلى معرفة، واطلاع على تراثنا وثروتنا الأدبية، وإذا نظرت إلى الأمثلة التي ذكرتها لك - من قبل - وجدتها قد اختلف قائلوها زماناً ومكاناً، وهذا يحتم عليك - كما قلت - أن تشحذ من عزيمتك، وأن تعلو همتك لاقتناص هذه الدرر من مظانّها. يقول الأستاذ المراغي - رحمه الله تعالى - :

«قضية هذا أن الضليع بهذا الفن المطلع على كلام العرب منثوره ومنظومه إذا حاول التعبير عما يختلج في صدره من المعاني وجد السبيل ممهداً، فيختار ما هو أليق بمقصده وأحنّ إلى مطلبه من فنون القول وطرق الكلام.

فإذا حث همة الشجعان لاقتحام غمار الوغى بَهَرَهُم بساحِرِ بيانه، وعظيم إحسانه، فإن شاء شبههم بأُسودِ خَفَّان[١] فقال: كأنكم أسود لها في غيل خَفّان أَشْبُل، وإن أحب استعار وقال: إني أرى هنا أسوداً تتحفز للكر والفر وتثب لاقتناص فرائسها، ولها قَرَم[٢] إلى الأخذ بنواصيها وحز أرؤسِها، وإن أراد كنى عن مقصده وَوَرّى عن مراده فقال: البسوا لعدوكم جلد النمر[٣]، واقلبوا له ظهر المجن، فإنه قد ورم أنفه عليكم وداسكم تحت أقدامه...» .

«... وإن دعا النفوس لمكرمة وهز العطف لمحمدة أمكنه أن يقول: كأنكم البحور يعم فيضها القاصي والداني، ويَطُمُّ إنْعامُها على الفقير والغني، أو يقول: هذي البحور على سواحلها القصاد تتقاذف أمواجها بما يغني الفقير ويفرِّج كربة المستجير، أو يقول: إني أرى فصلاناً مهزولة، ورماداً كثيراً، وكلاباً لا تنبح طارقاً؛ ومجداً مُدّ سُرادقه[٤] وندى ضُربت خيامه...»[٥].

وسيمر بك شرح هذه العبارات إن شاء الله.

---

(١) مأسدة مشهورة بضراوة أُسْدِها - وهي بين الثّني وعُذَيب - لسان العرب - .

(٢) شهوة الطعام.

(٣) كناية عن إظهار العداوة.

(٤) السرادق: كل ما أحاط بالشيء من حائط أو مضرب.

(٥) علوم البلاغة، للمرغي، ص٢٠٩-٢١٠.

وإذا عدت إلى الأمثلة السابقة سواء ما ذكرته لك من قبل أم ما نقلته لك عن الشيخ وفكرت فيها ملياً تجد أنها لا تخلو عن ثلاثة ألوان من القول. فبعضها تشبيه وبعضها مجاز وبعضها كناية.

أما الفرق بين هذه الألوان فذلك يتكفل لك به هذا العلم أو الفن، ولذا يمكننا أن نحصُر الحديث عن هذا العلم في أبوابٍ ثلاثة ولكلٍّ فصولُهُ ومسائله:

الباب الأول: التشبيه.

الباب الثاني: المجاز.

الباب الثالث: الكناية.

الباب الأول

التشبيه

الباب الأول

التشبيه

التشبيه كما يدل عليه الأصل اللغوي لهذه الكلمة هو: «الدلالةُ على مشاركةِ أمرٍ لأمر» وإن شئت قل: «هو إلحاق أمرٍ بأمرٍ بأداةِ التشبيهِ لجامعٍ بينهما».

وتدرك من هذا التعريف أن هناك أمرين ألحقنا أحدهما بالآخر أو شارك أحدهما الآخر، وأن هناك معنى جمع بين هذين الأمرين، وأداة ربطت أحدهما بالآخر، تلك أمور أربعة وهي التي سَمَّوْها أركان التشبيه، فالأمران هما: المشبه والمشبه به، والرابط بينهما هي أداة التشبيه، والمعنى الذي اشترك الأمران فيه وجُمع بينهما من أجله هو وجه الشبه، فإذا قلت: «أخلاق عليٍّ كالنسيم في الرقة»، فإن هذا تشبيه اشتمل على هذه الأركان الأربعة، لأنك شبهت الأخلاق بالنسيم، فالأخلاق مشبّه، والنسيم مشبّه به، والأداة: هي الكاف، أما المعنى الجامع بين المشبه والمشبه به: فهي الرقة وتسمى: وجه الشبه.

أركان التشبيه إذن هي: المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، ولكن هذه الأركان ليست سواء فبعضها يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه معلوم للنفس، لا تجد النفس في تقديره صعوبة ولا حرجاً، بينما لا يمكن الاستغناء عن بعضه الآخر، فالذي يمكن الاستغناء عنه من أركان التشبيه: الأداة، ووجه الشبه، فيمكنك أن تقول في التشبيه السابق: «أخلاقُهُ نسيمٌ» وإذا قلت: «عليٌّ كالأسدِ في الشجاعة»، و«فاطمة كالشمس في البهاء»، و«عزمُهُ كالسيف في المضاء» فإنك في هذه يمكن أن تستغني عن الأداة ووجه

الشبه فتقول: «عليٌ أسدٌ»، «فاطمةُ شمسٌ»، «عزمُهُ سيفٌ»، وسموا هذا: التشبيه البليغ وهو ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

أما الركنان الآخران، وهما: المشبه والمشبه به، فلا يمكن الاستغناء عن واحد منهما، فهما طرفا التشبيه، فإذا حذف أحدهما خرج الكلام عن كونه تشبيهاً وأصبح من باب الاستعارة كما ستعرفه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

التشبيه بين الوسيلة والغاية:

تُوهِمُ عباراتُ كثير من الكاتبين بأن التشبيه ليس إلا وسيلة يُتوصل بها إلى معرفة الاستعارة، لأن معرفة الاستعارة مبنية عليه، ومع تقديرنا لهذا القول من الناحية العلمية، ومن حيثُ صحةُ نتائجه، إلا أننا لا يمكننا أن نسلِّم لأولئك بكل ما قالوه فالتشبيه في الواقع ليس فقط وسيلة نتوصل به إلى بحث آخر، إنما التشبيه كغيره من أساليب القول وفنونه جيء به ليؤدي رسالة ذاتَ أثر، وليحققَ أغراضه النفسية والنفيسة المقصودة من علم البيان، فهو من هذه الناحية لا يقل عن الاستعارة أو الكناية، بل نظن أن الأثر الذي يُحْدِثُهُ التشبيه في النفس ربما يزيد على ما يُحْدِثُهُ غيرُه من الأساليب، ذلك أن المجاز والكناية لا تدركهما النفس بيسر وسهولة، أضف إلى ذلك أن التشبيه يمكن أن يكون أوسع دائرة من حيث الجمهور الذي يتأثر به، ولأمرٍ ما كَثُرَ في كلام الله تعالى وكلام نبيّه ﷺ، وفي الكلام البليغ للأقدمين والمُحْدَثين على السواء، بل تجده في غير الكلام البليغ مما هو وليد البيئات المتعددة، وأنك لواجدٌ في كلام العاديِّين من الناس تشبيهات رائعة إذا وضعت لها القوالب المقبولة كانت ذات أثر وشأن.

التشبيه، ليس إذن وسيلة نتوصل ونتوسل به إلى معرفة أسلوب آخر، وإنما هو مقصود لذاته، فإذا كان الهدف من علم البيان التأثير في النفوس، فإن من أكثر أبوابه تأثيراً التشبيه.

ولقد كان التشبيه من أول الأساليب التي أشار إليها الأقدمون، فإنك لتجد له أصولاً عند أبي عبيدة، والفراء، والجاحظ وله فيه إشارات لطيفة، ونظن أن المبَرِّدَ - من الأقدمين - هو أول من توسع في بحثه للتشبيه، وقسّمه ومثل له، وتتابع العلماء بعد ذلك يظهرون بدائعه، ويشرحون روائعه.

قال أبو هلال العسكري: «التشبيه: يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغنِ أحد منهم عنه، قد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يستدل به على شرفه وموقعه من البلاغة»[1].

وقال الزمخشري في تفسيره، عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، قال: «ولِضربِ الأمثال، واستحضارِ العلماء المُثُل والنظائر، شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تُريك المُتَخَيَّلَ في صورة المحقَّقِ، والمتوهَّم في معرض المُتيقَّنِ، والغائبَ كأنه مشاهد، وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ، وقمعٌ لسَوْرة الجامح الأبيّ، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين أمثاله، وفشا ذلك في كلام الرسل والأنبياء والحكماء، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]»[2].

وقد بلغ عبدالقاهر في ذلك مبلغاً عظيماً، يقول: «إذا جاء التمثيل في أعقاب المعاني، أو أُبرزت هي باختصار في مِعْرَضِه[3]، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبهةً[4] فأكسبها مَنْقَبَةً[5]، ورفع من أقدارها، وشَبَّ[6] من نارها، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة[7] وكَلَفاً[8] وقَسَرَ الطباع على أن تُعطيها محبةً وشغفاً، فإن كان[9] مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظم، وأهَزَّ للعِطْف[10]، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على

---

(١) الصناعتين، ص١٨٣-١٨٤، طبعة الخانجي، سنة ١٣٢٠هـ.
(٢) الكشاف، ١/ ٣٧.
(٣) المعرَض: ثوبٌ تُجلى فيه العروس ليلة العرس.
(٤) أبهة، أي: عظمة.
(٥) منقبة، أي: مفخرة.
(٦) شبَّ: أوقد.
(٧) الصبابة: الشوق.
(٨) الكلف: حُبُّ الشيء والولع به.
(٩) أي: المعنى.
(١٠) العِطْف: الجانب، والمعنى: أدعى للزهو.

المُمْتَدَح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب والمنائح[1]، وأسْيَرُ على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر. وإن كان ذمّاً، كان مسه أوجع، ومَيْسِمُه[2] ألذع، ووقعه أشد، وحدُّهُ أحد. وإن كان حِجاجاً كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وإن كان افتخاراً كان شأْوُه[3] أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألدّ، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب[4]، وللسخائم[5] أسَلَّ، ولغَرْبِ الغَضَبِ[6] أفَل[7]، وفي عُقَد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلّي الغَيَاية، ويُبَصِّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل، وهذا الحكم، إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه»[8].

فمثال ما كان مدحاً قول البحتري يمدح يعقوب بن إسحاق بن نوبخت[9]:

دانٍ إلى أيـــدي العفـــاة وشاســـعٌ ... عـن كـل نِـدٍّ في النَّـدَى وضَريـبِ[10]

كالبـــدر أفــرط في العلـــوِّ وضَـــوْؤُه ... للعُـــصبة الـــسارين جِـــدُّ قريـــبِ[11]

وقول الآخر[12]:

---

(١) جمع منيحة وهي الناقة التي يُجعل لمن تُمنح له لبنُها ووبرُها وولدُها.
(٢) الميسم: آلة الكيّ.
(٣) الشأو، أي: الشأن.
(٤) خَلَبَ فلاناً، أي: خدعه وفتن قلبه.
(٥) السخائم: الأحقاد والضغائن.
(٦) غرب الغضب، أي: حدته.
(٧) يقال: انْفَلَّ السيف إذا انكسر والمراد هنا انكسار حدة الغضب.
(٨) أسرار البلاغة – تعليق وشرح محمد النجار، ص١٠٨.
(٩) ديوان البحتري، ١/ ١١٤.
(١٠) الضريب: المثل والنظير، وعَطَفُه على الند: عَطْف تفسير، العفاة جمع عفيف: وهو الذي لا يسأل الناس من فقر.
(١١) أي: بالغ الغاية في القرب.
(١٢) ذكر هذا البيت في الحماسة غير منسوب، وذكر التبريزي أنه لأبي الشَّغب العبسي أو الأقرع بن معاذ القشيري.

وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ المَكَارِمِ هِزَّةٌ   كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ البَارِحِ الغُصُنُ الرَّطِبُ[1]

ومثال الذم قول مروان بن أبي حفصة[2]:

زَوَامِلُ للأشْعارِ لا عِلْمَ عِنْدَهُمْ   بِجَيِّدِها إلاّ كَعِلْمِ الأباعِرِ

لَعَمْرُكَ ما يَدْري البَعيرُ إذا غَدَا   بأوْسَاقِهِ أوْ رَاحَ ما في الغَرائِرِ[3]

ومثال الاحتجاج قول أبي ذؤيب يحتج على استحالة اجتماعه وابن أخته على عشق امرأة واحدة[4]:

تُريدِينَ كَيْما تَجْمَعيني وَخَالِداً   وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ في غِمْدِ؟

ومثال الافتخار قول المتنبي[5]:

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيُعْجِزُكُمْ   ويَكْرَهُ اللهُ مَا تَأْتُونَ والكَرَمُ[6]

مَا أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصَانَ عَنْ شِيَمي   أنَا الثُرَيَّا، وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ[7]

ومثال الوعظ قول صالح بن عبدالقدوس:

إذا وَتَرْتَ أمْرَأً فَاحْذَرْ عَداوَتَهُ   مَنْ يَزرَعِ الشَّوكَ لا يَحْصُدْ بِهِ عِنَباً[8]

---

(١) البارح: ريح الصيف الحارة، والغصن بسكون الصاد، وحرك اتباعاً للضرورة.

(٢) دلائل الإعجاز، ص١٣٧. أسرار البلاغة، ص١٠٣.

(٣) الزوامل: جمع زاملة وهي التي يُحمل عليها من الإبل وغيرها، والأباعر: جمع أبعرة، التي هي جمع بعير، والوسق حمل البعير وجمعه أوساق، والغرائر: جمع غرارة وهي وعاءٌ من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه.

(٤) ديوانه، ص٣٣. مجمع الأمثال، ٢/ ١٩.

(٥) ديوانه، شرح البرقوقي، ٤/ ٨٧.

(٦) يقول: كم تحاولون أن تجدوا فيّ عيباً تعيبونني به فيعجزكم وجوده، وهذا الذي تفعلون يكرهه الله ويكرهه الكرم - وهذا تعنيفٌ لسيف الدولة لإصغائه للطاعنين به.

(٧) ذان، أي: العيب والنقصان، يقول: إن بُعد ما بيني وبين النقصان والعيب كبعد الثُريا من الشيب والهرم؛ فكما لا يلحقها الشيب والهرم، لا يلحقني العيب والنقصان.

(٨) نهاية الأرب، ٣/ ٨٢. وَتَر فلاناً، أي: قتل حميمه فتركه فرداً.

يقول الأستاذ البرقوقي: «وبعد، فهذا الضرب من البيان - التشبيه - على حدّته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفْلِق[1]، والكاتب البليغ، في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يضع الكلام بعيد المرام، قريباً من الأفهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس، وما ماثل ذلك مما اشتهر أمره، وجرى لذلك مجرى الحقيقة، وإنما هو يدقّ ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب، ويرقص الهام[2]، وحتى يخرج مثله عن طوق البشر جميعاً»[3].

(١) يقال: أفلق الشاعر: أتى بما يعجب في شعره فهو مُفْلِق.
(٢) الهام: جمع هامة وهي الرأس. ويرقص الهام، أي: يعجب الناس فيحركون رؤوسهم.
(٣) التلخيص في علوم البلاغة، شرح الأسناذ عبدالرحمن البرقوقي، ص٢٤٢.

الفصل الأول

أركان التشبيه

الركنان الأولان: المشبه والمشبه به:

عرفت أن للتشبيه أربعة أركان: المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، وعرفت أن المشبه والمشبه به يسميان طرفي التشبيه، لأنه لا يمكن حذف أحدهما أو الاستغناء عنه، فإذا حذف أحدهما خرج الكلام عن حد التشبيه، ودخل في باب الاستعارة التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وطرفا التشبيه قد يكونان محسوسين، وقد يكونان معقولين، وقد يكون المشبه معقولاً والمشبه به محسوساً، أو على العكس من ذلك، أي: يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً.

١ - الحِسِّيّان:

وهو ما يُدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة:

أ- ما يدرك بالبصر: سواء الألوان، أم الأشكال، أم المقادير، أم الحركات، وذلك كتشبيه الخد بالوردة الحمراء، والشعر الأسود بالليل في السواد، ومن ذلك قول أبي قيس ابن الأسلت[١] يشبه الثريا بعنقود الكَرْم المُنَوِّر:

وَقَدْ لاحَ في الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأى   كَعُنْقودِ مُلاَّحِيَّةٍ[٢] حِينَ نَوَّرا

---

(١) الأغاني، ١٥/ ١٥٩. الإيضاح، ٣/ ٣٢.

(٢) ملاّحية: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.

ومنه قول الشاعر[1]:

أنـــتَ نَجـــمٌ في رِفعَـــةٍ وَضِـــياءٍ ... تَجْتَلِيـــكَ العُيُـــونُ شَرْقـــاً وَغَرْبـــاً

فشبه ممدوحه بالنجم في الرفعة والضياء، وقال الطُّغرائي[2]:

وَذي شِـــطاطٍ كَـــصَدْرِ الـــرُّمح مُعتَقَـــلٍ ... بِمِثْلِـــهِ غَـــيْرَ هَيّـــابٍ ولا وَكِـــلِ[3]

فشبه القامة بالرمح. وكقول الحارث بن سعيد التغلبي[4] يشبه القدَّ اللطيف بالغصن أو بالألف:

غَـــزَالٌ فَـــوْقَ مـــا أصِـــفُ ... كَـــأَنَّ قَوامَـــهُ أَلِـــفُ

ب- ما يدرك بالسمع من الأصوات: ومنه قول ذي الرمّة[5]:

كَـأَنَّ أصْـواتَ مِـنْ إيغـالِهِنَّ بِنـا ... أوَاخِـرِ المَـيْسِ أنْقـاضُ الفَـرارِيجِ[6]

يريد الشاعر أن بعض الرحل يحك بعضه، فيحصل صوت شبيه بصوت صغار الدجاج من شدة السير، واضطراب الرحل، وهو ما يقال له النقيض، ومنه قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٣]، فالنقيض صوت الرحل. وهذا يدلنا على ما للبيئة من أثر في التشبيه من جهة، وعلى سليقة القوم اللغوية وقدراتهم على التعبير من جهة أخرى.

وكقول امرئ القيس:

---

(١) البلاغة الواضحة، ص٢٣. تجتليك: تنظر إليك.

(٢) ديوانه، ص٣٠٢.

(٣) الشّطاط: بفتح أوله وكسره: الطول. الوكل: المتواكل.

(٤) نهاية الأرب، ٢/ ١٠١. والقَوام، بالفتح: القامة وحسن الطول.

(٥) ديوانه، ٩/ ٢٥. العمدة، ٢/ ٤٨.

(٦) الإيغال: مصدر أوغل في السير إذا أسرع وأبعد، والضمير للإبل، والأواخر جمع آخرة، وآخرة الرحل: هو العود الذي يستند إليه الراكب، الميس، شجرٌ صلب تُتخَّذ منه الرحال، وهنا يعني الرحال نفسها. وأنقضت الدجاجة إنقاضاً: صوتت، وصوتها هو النقيض، أراد الشاعر (كأن أصوات أواخر الرحل - أواخر الميس - أنقاضُ الفراريج) فأخر المضاف إليه عن المضاف، وهذا من التعقيد اللفظي الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب فارجع إليه إن شئت.

يَغِـــطُّ غَطــيطَ البَكْــرِ شُــدَّ خِناقُــهُ   لِيَقْتُلَنِـــي والمَــرْءُ لَــيْسَ بِقَتَّـــالِ[1]

يصور غضب رجل أظهرت زوجه ميلاً نحو امرئ القيس، فيشبه صوت غطيطه في نومه بغطيط البكر، وهو الفتيُّ من الإبل الذي يُشَد حبل حول خِناقه لترويضه، وقال ذو الرُّمَّة[2] يصف إبلاً:

كــأنَّ عـــلى أنْيابِهـــا كُـــلَّ سُـــحْرةٍ   صِياحَ البَـوازي مِـنْ صَرِيـفِ اللوائِـكِ

والمعنى أن سامع صوت الإبل يظن أن صوت البوازي - جمع باز وهو الطير المعروف - جارٍ على أنيابها، وبما أن منشأ هذا الظن هو مشابهة صريف أنياب الإبل - أي صوتها - لصياح البوازي، جعل الشيخ عبدالقاهر هذا البيت مثالاً لتشبيه ذلك الصريف بصياحها.

وقال تميم بن مُقبل يصف قلبه[3]:

وللفُـــؤادِ وَجيـــبٌ تَحْـــتَ أبْهُـــرِهِ   لَــدْمَ الغُــلامِ وَراءَ الغَيْـــبِ بِـــالحَجَرِ

فشبه صوت دق القلب بالصوت الحاصل من دق الغلام بالحجر من وراء الحائط.

ومنه قول أبي العتاهية يمدح الرشيد[4]:

وَزَحْــفٍ لَــهُ تَحْكِـي الــبُروقَ سُـيُوفُهُ   وَتَحْكِـي الرُّعــودَ القَاصِـفاتِ حَـوافِرُه

فشبه صوت وقع حوافر الخيل بالرعود القاصفة.

ج- **ما يُدرك بالذوق:** وذلك كتشبيه بعض الفواكه بالعسل، وكقول امرئ القيس[5]:

كَـــأَنَّ المُـــدَامَ وَصَـــوْبَ الغَـــمام   ونَـــشْرَ الخُزامَـــى ورِيـــحَ القُطُـــرْ

---

(١) يغط من الغطيط: وهو صوت البعير إذا هدر، والبَكر: ولد الناقة الفتيّ.

(٢) ديوانه، رقم ٥٥/ ١٦. اللوائك: الأنياب ومفردها لائك.

(٣) المعاني الكبير، ١/ ١٦. الوجيب: خفقان القلب واضطرابه. الأبهر: الشريان الخارج من القلب. واللدم: الضرب بشيء ثقيل يُسمع وقعه.

(٤) أبو العتاهية حياته وشعره، محمد محمود الدش.

(٥) شروح التلخيص، ٣/ ٤٣٢.

يُعَـــلُّ بِـــهِ بَـــردُ أنيابِهَـــا إذا طَـــرَّبَ الطـــائِرُ المُـــستَحِرْ[1]

د- **ما يدرك بحاسة الشم من الروائح**: كتشبيه بعض الأشياء بالريحان أو الكافور، وتشبيه النكهة بالعنبر.

هـ- **ما يُدرك بحاسة اللمس من حرارة وبرودة**: ورطوبة ويبوسة، وخشونة وغيرها، وذلك كتشبيه اللَّيِّن الناعم بالخز، وتشبيه الخشن بالمِسْح[2]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

لهـــا بَـــشَرٌ مِثْـــلُ الحَريـــرِ ومَنْطِـــقٌ رَخيـمُ الحَـوَاشِي لا هُـراءٌ ولا نَـزْرُ[3]

وألحقوا بالطرفين المدركين بالحواس، الأمور المُتَخَيَّلَة؛ ويعنون بها الأشياء التي ليس لها وجود في الواقع، إلا أن الأجزاء التي تتركب منها مدركة بالحواس، ومنه قول أبي بكر محمد بن أحمد الصنوبري[4]:

وكَـــأنَّ مُحْمَـــرَّ الـــشَّقِيقِ إذا تَـــصَوَّبَ أوْ تَـــصَعَّدْ
أعْـــلامُ يـــاقوتٍ نُـــشِرْنَ عـــلَى رِمـــاحٍ مِـــنْ زَبَرْجَـــدْ

يشبه محمر الشقيق، وهو ما يعرف بشقائق النعمان، والريح تسفّله تارة وتُصْعِدهُ أخرى، وأوراقه الحمر على سيقانها الخضر، شبهها بأعلام ياقوت منشورة على رماح من زبرجد، والياقوت أحمر والزبرجد أخضر، ووجه الشبه شيءٌ أحمر فوق شيء أخضر متحرك، تارة يصعد وتارة ينزل، وليس هناك في الخارج أو في الواقع أعلام من ياقوت، وليس هناك رماح من زبرجد إلا أن الأشياء التي رُكبت منها هذه الأجزاء مدركة بالحواس، فهناك رماح وأعلام، وياقوت وزبرجد، إلا أن الأعلام ليست من ياقوت،

---

(١) المدام: الخمر يداوم على شربها، صوب الغمام: نزول المطر من السحاب، الخزامى: نبت طيب الرائحة، والقطر: نوع من الطيب، يُعَل: يُمزَج، برد أنيابها: ريقها، طرَّبَ: صوَّت، المستحر: المصوّت وقت السَّحَر يريد (أنها طيبةُ ريح الفم في الوقت الذي تتغير فيه الأفواه بعد النوم).

(٢) المِسْح: كساءٌ من شَعر كثوب الرهبان، والجمع: أمساح ومسوح.

(٣) البَشر، أي: الجلد والبشرة، رخيم الحواشي: ليِّنُ نواحي الكلام، الهراء: الكلام الكثير ليس له معنى، النزر: القليل، يقول: هو بين ذلك.

(٤) المطوَّل، ص٣١٣. محمرّ الشقيق: شقائق النعمان. تصوّب، أي: انحدر ونزل.

والرماح ليست من زبرجد، والياقوت والزبرجد من الأشياء الكريمة التي تتخذ حلية وزينة.

ومن هذا القبيل قول أبي الغنائم الحمصي[1]:

خَـــــــــوْدٌ كَـــــــــأَنَّ بَنَانَهَـــــــــا ... فِي خُـــــــــضْرَةِ الـــــــــنَّقْشِ الُمـــــــــزَرَّدْ
سَـــــــــمَكٌ مِـــــــــنَ البِلَّـــــــــوْرِ فِي ... شَـــــــــبَكٍ تَكَـــــــــوَّنَ مِـــــــــنْ زَبَرْجَـــــــــدْ

فهو يشبه البنان وقد أحاط به النقش المزرد بسمك من البلور، وهذا السمك قد أحاط به شبك من زبرجد، ووجه الشبه - كما ترى - صورة شيء أبيض يحيط به شيء أخضر، وإذا نظرنا إلى المشبه به فإننا لا نجد له وجوداً في الخارج؛ لأنه ليس هناك سمك من البلور ولا شبك من زبرجد، إلا أن أجزاء هذا المشبه به كلها مما يدرك بالحواس، فهناك سمك ولكنه ليس من البلور، وهناك بلور، وكذلك الشبك والزبرجد، كل هذه العناصر موجودة في الخارج مدركة بالحواس، إلا أن الشكل الذي تخيله الشاعر لا وجود له.

وقريب من هذا قول ابن المعتز[2]:

كَـــأَنَّ عُيُـــونَ النَّـــرْجِسِ الغَـــضِّ حَوْلَنَـــا ... مَـــــدَاهِنُ دُرٍّ حَـــــشْوُهُنَّ عَقيـــــقُ

فالمداهن: جمع مُدْهُن، وهو ما يوضع فيه الطيب، وهي وإن كانت في واقع الناس، إلا أن الناس لا يستعملون مداهن من درّ ولا يحشونها بالعقيق كذلك.

٢- العقليان:

أما الطرفان العقليان فهما ما يدركان بالعقل؛ كتشبيه الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وكما ألحقوا بالطرفين الحسيين ما سموه خيالياً - وهو ما ركّبه الخيال من أجزاء محسوسة - فلقد ألحقوا بالعقليين نوعين اثنين:

النوع الأول: الأمور الوجدانية: وهي الكيفيات التي تدركها النفس، كاللذة والألم، والحب والبغض، والطمأنينة والخوف؛ وإنما ألحقوا هذه الوجدانيات بالطرفين العقليين،

---

(١) ديوانه، ٤/ ٣٧٥. الخود: الفتاة الناعمة حسنة الخُلق.
(٢) ديوان ابن المعتز، ٤/ ١٦٥. الوساطة، ص٢٠٦.

لأنها لا تُدْرَك بالحواس، وليست من القضايا الفكرية، ويسمّي الشيخ عبدالقاهر هذا النوع «عقلياً غير حقيقي» وكأن العقلي عنده قسمان اثنان:

١ - عقلي حقيقي.

٢ - عقلي غير حقيقي، ويعني به الأمور الوجدانية.

النوع الثاني: ما سموه وهمياً: وعرفوه بأنه الذي لا وجود له في الخارج، ولو وُجد لأدرك بالحواس، وأظن أن الفرق بينه وبين الأمور الخيالية التي ألحقت بالمحسوسات ظاهر، فالأمور الخيالية أجزاؤها التي ركبت منها موجودة في واقع الناس ومدركة بالحواس - كما مر من قبل - ، أما الوهمي فلا وجود له في الخارج، لا من حيث التركيب، ولا من حيث الأجزاء، وقد أجمع الأقدمون والمحدَثون على التمثيل لهذا النوع بقول امرئ القيس[1]:

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ

فشبه أسنان الحربة بأنياب الأغوال، وهي مما لا وجود له في الخارج، ولكن الغول لو وجد لأُدرك بالحواس، والغول ما كان يتوهمه العرب، وقد كثر في أشعارهم.

ومثلوا له كذلك بقول الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٢-٦٥]، ولا أدري كيف سووا بين الآية الكريمة وبين الشعر، إذ الغول من الأمور المتوهمة التي لا حقيقة لها، ولكن الشياطين ليست كذلك، فشتان بين الغول والشيطان، والشيطان ليس أمراً متوهماً، الشيطان له وجوده الحقيقي. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

---

(١) ديوانه، ص٢٤. المشرفي: أحد أوصاف السيف نسبةً إلى المشارف: قرىً من أرض اليمن.

إذن قضية الشيطان ليست وهماً، كل ما هناك أننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا. ولو أنهم قسموا هذا النوع إلى ما هو متوهم لا وجود له كالغول، وإلى ما له حقيقة لا يرى بالعين كالشيطان، لأحسنوا أيما إحسان.

٣- ما كان المشبه عقلياً والمشبه به محسوساً:

كتشبيه الحجة بالشمس، والمنيّة بالسبع، والعزم بالسيف، والأخلاق بالعطر، والأمل عند المتشائم بالليل، والحظ كذلك، والأخلاق بالفلاة الواسعة.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي العلاء(١):

وكالنّارِ الحياةُ فَمِنْ رَمادٍ أواخِرُها وأوَّلُها دُخانُ

وقول البوصيري - رحمه الله -(٢):

والنَّفسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

ولما كان وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، ولما كان المحسوس أكثر تأثيراً في النفس؛ كانت أكثر التشبيهات من هذا القبيل؛ أي: تشبيه المعقول بالمحسوس، وسيأتي لك مزيدٌ من الأمثلة عندما نحدثك عن التشبيهات في القرآن الكريم والسنّة المطهرة.

٤- ما كان المشبه محسوساً، والمشبه به معقولاً:

كتشبيه العطر بالخلق الكريم، والنجوم بالسُّنن، والليل بالصدود، ولهذا القسم مزيد بحث إن شاء الله.

الركن الثالث من أركان التشبيه: الأداة:

وأداة التشبيه: هي ما يربط بين المشبه والمشبه به، وقد تكون حرفاً، أو فعلاً، أو اسماً.

---

(١) ديوان سقط الزند، القصيدة الثالثة، ١/ ٤٧، والقصيدة في مدح أبي الفضائل سعد بن شريف.

(٢) ديوانه، ص٢٣٩.

أولاً: حرفاً:

أ- الكاف: ويليها المشبه به دائماً، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور:٣٩]، وقال ﷺ : «الناس كإبلٍ مائةٍ لا تجد فيها راحلة»[١]، وقال البوصيري - رحمه الله تعالى - في البيت الذي مرّ بك من قبل:

والنَّفسُ كالطِّفلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفطِمْهُ يَنفَطِمِ

وقد لا يليها المشبه به صراحة؛ وذلك إذا كان التشبيه مركباً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

ففي الآيتين الكريمتين دخلت الكاف على (الماء)، ولا يعقل أن تشبه الحياة الدنيا بالماء، وإنها المقصود تشبيه الدنيا بنضارتها وزينتها، واغترار الناس بها، ثم ما يعقب ذلك من ألمٍ وتفرق، وتنغيص وكدر وزوالٍ، بالنبات ينزل عليه الماء فيكسبه خضرةً وزهواً، ولكنه بعد ذلك يصفرُّ فيكون هشيماً وحطاماً. فأنت ترى أن الكاف لم تدخل على المشبه به صراحة، وإنها ذلك يحتاج إلى تأويل.

ب- كأنّ: قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن:٥٨]، وقال البوصيري[٢] في وصف أصحاب الرسول ﷺ - رضي الله عنهم - :

كَأَنَّهُمْ في ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبىً ... مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

---

(١) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب قوله: (الناس كإبل مائة)، ٤/ ١٩٧٣.

(٢) ديوانه، ص١٩٩. ربى: جمع ربوة وهو المكان العالي.

يقول: إن ثبوتهم على ظهور الخيل، إنما يرجع إلى حزمهم وعزمهم وقوتهم لا إلى الحُزُم التي شدت بها بطون الخيل.

ويرى بعض العلماء أن «كأنّ» مركبة من كلمتين (الكاف) و(إنّ) الدالة على التأكيد، فالبيت السابق أصل معناه: إنهم في ظهور الخيل كنبت ربى، ولكن الكاف دخلت على (إنَّ) ففتحت همزتها. ومن هنا تدرك أن «كأنّ» أدل على تأكيد الكلام من الكاف؛ ولهذا جاءت في القرآن الكريم في المواطن التي يستحسن فيها توكيد الكلام وتثبيته في النفوس قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

وذهب بعض العلماء إلى أنها لا تكون للتشبيه إلا إذا كان خبرها جامداً، أما إذا كان خبرها مشتقاً فإنها تفيدُ الظنَّ والشكّ، فإذا قلت: (كأنّ خالداً قائم) فإنها تفيد الظن، لأن (قائم) وهي خبر كأن، اسم فاعل، واسم الفاعل من المشتقات، ولكن جمهرة العلماء على أنها للتشبيه في جميع أحوالها، فمعنى (كأن خالداً قائم) أي: أن حالته التي هو عليها الآن تشبه حالته وهو قائم.

ثانياً: فعلاً:

وقد تكون أداة التشبيه فعلاً مثل: يَحْكي ويُشبه.

وَطُنْبورٍ[1] مَليح الشَّكْلِ يَحكِي بنَغْمَتِهِ الفَصيحَةِ عَنْدَليبَا

وقال السريُّ الرَّفاء في وصف شمعة[2]:

مفتولةٌ مجدولةٌ تَحْكي لنا قَدَّ الأَسَلْ[3]

وكقولنا: (هذا يُشبه هذا).

---

(١) الطنبور: آلةٌ من آلات الطرب ذات عنق وأوتار.

(٢) ديوانه، ص٣٨٤.

(٣) القدّ: القامة، الأسل: الرماح.

ثالثاً: اسماً:

وقد تأتي أداة التشبيه اسماً، قال أبو بكر الخالدي[1]:

يَـــا شَــــبيهَ البَـــدْرِ حُـــسْناً وَضِـــــياءً وَمَنَــــــالاً
وَشَــــبيهَ الغُــــصْنِ لِينــــاً وَقَوامــــــاً وَاعْتِـــــدالاً

وقد يدل على الأداة فعل ليس فيه معنى التشبيه، كأفعال اليقين والرجحان[2] كقولك: (رأيت هنداً بدراً)، (وعلمت خالداً أسداً)، وجعل بعضهم منه قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩]، ومنه قوله ﷺ : «لقد وَجَدْتُهُ بحراً»[3].

ملحوظة: وقد تحذف الأداة لقيام الدليل عليها، كما تقول: «العلم نور»، و«خالد سيف» و«حمزة أسد».

الركن الرابع من أركان التشبيه: وجه الشبه:

ووجه الشبه: هو المعنى الذي يلحظه المتكلم للجمع بين المشبه والمشبه به، كالشجاعة التي لوحظت بين حمزة والأسد «حمزة أسد الله وأسد رسوله»، والصرامة التي لوحظت بين خالد وبين السيف «خالد سيف من سيوف الله»، والوضاءة التي لوحظت بين سعاد وبين الشمس، وينبغي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، حتى يصح التشبيه. وهذا الوجه:

١ - إما أن يكون حسياً أو عقلياً.

٢ - وإما أن يكون مفرداً أو متعدداً.

---

(١) اليتيمة، ٢/ ١٨٩.

(٢) راجع الأفعال الدالة على اليقين والرجحان في علم النحو.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، ٥/ ٢٢٤٤، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب، ٤/ ١٨٠٢.

٣- وقد يأتي صورة منتزعة من أشياء متعددة.

أولاً: وجه الشبه الحسي والعقلي:

١- الحسي: وذلك كقول الأقرع بن معاذ القشيري[١]:

وتَأْخُـــذُهُ عِنْـــدَ المَكَـــارِمِ هِـــزّةٌ　　كَما اهْتَـزَّ تَحْـتَ البـارِح الغُـصُنُ الرَّطِـبُ

فوجه الشبه هنا يدرك بالبصر، وهو الاشتراك في هيئة الحركة، ومنه قول ابن المعتز[٢]:

كَـأَنَّ عُيُـونَ النَّـرْجِسِ الغَـضِّ حَوْلَنـا　　مَـــداهِنُ دُرٍّ حَـــشْوُهُنَّ عَقيـــقُ

وقوله[٣]:

فَكَـــأنَّ الـــبَرْقَ مُـــصْحَفُ قـــارٍ　　فَانْطِبَاقـــاً مَـــرَّةً وانْفِتاحـــا

فوجه الشبه مؤلف من اللون والشكل المدرك بالحسّ. ومنه قول ذي الرُّمّة:

كَـأنَّ أصْـواتَ مِـنْ إيغـالِهِنَّ بِنَـا　　أواخِـرِ المَـيْسِ أنْقَـاضُ الفَـراريج[٤]

فوجه الشبه هنا يُدرَك بالسمع، وهو الاشتراك في النغمة الخاصة.

ومنه تشبيه الشيء إذا استدار بالكرة تارة، وبالحلقة تارة أخرى فنقول: «الأرض كالكرة» ووجه الشبه هنا الاشتراك في الشكل والصورة، ومنه قول الطُّغْرائي[٥]:

وذِي شِـطاطٍ كَـصَدْرِ الـرُّمْح مُعْتَقِـلٍ　　بِمِثْلِـهِ غَـيْرَ هَيَّـابٍ وَلاَ وَكِـلِ[٦]

وقول الحارث بن سعيد التغلبي[٧]:

غَـــزالٌ فَـــوْقَ مَـــا أصِـــفُ　　كَـــأنَّ قَوامَـــهُ أَلِـــفُ

(١) الحماسة، ص٦٣٠. البارح: ريح الصيف الحارة.
(٢) ديوانه، ص٥١٤. قصيدة (النرجس).
(٣) ديوانه، ص١٩١، قصيدة (عَرَف الدار).
(٤) نسبق شرح البيت، ص٢٨.
(٥) ديوانه، ص٣٠٢.
(٦) سبق شرح هذا البيت، ص٢٨.
(٧) نهاية الأرب، ٢/ ١٠١.

والوجه: الاشتراك في الهيئة فإن كلاً مستوٍ منتصب.

٢- العقلي: وذلك كقولك: فلان كحاتم في الكرم، وكالأسد في الشجاعة، وكالثعلب في المكر، وكالثور في القوة. ومنه قول أبي فراس[١]:

وقَــدْ صــارَ هــذا النَّــاسُ إلاَّ أقَلَّهُــم ... ذِئابــاً عــلى أجــسادِهِنَّ ثيــابُ

ثانياً: تقسيمه إلى مفرد ومتعدد:

قد يكون وجه الشبه مفرداً، كما تقول: «هو كالأسد في الشجاعة»، وقد يكون متعدداً، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به، كالأُتْرُجَّة طَعْمُها طَيِّبٌ وريحُها طيب»[٢] فإن وجه الشبه هنا الطعم والرائحة.

ومنه قول الشاعر[٣]:

أنْــتَ نَجْــمٌ في رِفْعَــةٍ وضِــيَاءٍ ... تَجْتَلِيــكَ العُيُــونُ شَرْقــاً وَغَرْبــاً

فوجه الشبه: الرفعة والضياء، ولو اقتصر على أحدهما لكفى.

وقد يكون المتعدد حسياً وعقلياً معاً، كما تقول: «الطالب كأستاذه في مشيته وخُلُقه وعلمه».

ثالثاً: تقسيمه إلى تحقيقي وتخييلي:

ويعنون بالتحقيقي ما كان موجوداً في المشبه به، سواء وجد في المشبه أم لم يوجد، فمثال ما وجد في المشبه والمشبه به معاً: «هو كالأسد شجاعة»، و«هي كالشمس وضاءة»، فإن الوضاءة والشجاعة موجودتانِ في المشبه به، وهما كذلك في المشبه، ومثال ما لم يوجد في المشبه قولك: «كلامه كالعسل في الحلاوة» فإن الحلاوة موجودة حقيقة في العسل وليست موجودة في الكلام إلا على سبيل التأويل، لأن الحلاوة مما تستريح لها النفس وتلذ

---

(١) ديوان أبي فراس - جمع وتعليق ونشر سامي الدهمان، ٢/ ٢٢.
(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضائل القرآن.
(٣) البلاغة الواضحة، ص٢٣. تجتليك: تنظر إليك.

بها، فالموجود في الكلام - إذن - لازم الحلاوة لا الحلاوة نفسها، فوجه الشبه في هذه الأمثلة تحقيقي.

أما التخييلي فهو ما لا يوجد في المشبه به في الحقيقة إلا على سبيل التخيل، ويكون هذا في التشبيه المقلوب أو في التشبيه الذي يكون فيه المشبه حسياً والمشبه به عقلياً.

استمتع إلى قول التنوخي[1]:

وكَأنَّ النُّجومَ بَيْنَ دُجاها سُنَنٌ لاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِداعُ

فإن وجه الشبه صورة شيء أبيض مضيء له بريق ولمعان تحيط به أجرام مظلمة سوداء، وهذا وإن كان موجوداً في المشبه إلا أنه ليس موجوداً في المشبه به على الحقيقة، اللهم إلا على سبيل التخيل، فالمشبه به السنن التي لاح بينهنّ ابتداع أو اللاتي ظهرن بين البدع، والإضاءة والظلمة ليست حقيقة في السنن والبدع - كما تعلم - ولكن لما كانت السنن هادية إلى البر مبينة للخير وكانت البدع على العكس من ذلك، تصورنا البياض في السنن والسواد في البدع، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء ليلُها كنهارها»[2] ومن هذا القبيل قول أبي طالب الرقي[3]:

ولَقَدْ ذَكَرْتُكِ والظَّلامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى وفُؤادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ

فلقد شبه الشاعر الظلام بشيئين: شبهه أولاً بيوم النوى، أي: يوم الفراق وشبهه ثانياً بفؤاد من لم يعشق، ووجه الشبه الحلكة والسواد، وهذه وإن كانت موجودة في الظلام على الحقيقة، إلا أنها ليست موجودة في يوم النوى وفي الفؤاد الذي لم يعشق إلا على سبيل التخيل، وبيان ذلك: أنهم أحبوا يوم التلاقي فتخيلوه كأنما هو أبيض مشرق، وكرهوا يوم النوى - الفراق - فوصفوه بأنه أسود حالك، ولا سواد في الحقيقة ولكنهم تخيلوا ذلك تأثراً من ألم الفرقة، وكذلك حينما تصوروا القلوب والأفئدة تصوروا أفئدة العاشقين

(١) اليتيمة ٢/ ٣١٠. المطول، ص٣١٥.
(٢) رواه ابن ماجة - المقدمة باب اتباع سنّة الخلفاء الراشدين المهديين، ١/ ١٦.
(٣) اليتيمة، ١/ ٢٤٤. المفتاح، ص١٤٦.

مضيئة بحرارة العشق، وعلى هذا فقد تخيلوا الفؤاد الذي لم يعشق مظلم الجنبات، فوجه الشبه - كما ترى - إنما وجد في المشبه به على سبيل التخيل.

ومن هذا قول ابن بابك[1]:

وأرضٍ كَـأخْلاقِ الكَـريم قَطَعْتُهـا ... وقـدْ كَحَّـلَ اللّيـلُ السِّماكَ فأبْصَرا

فإن وجه الشبه في هذا التشبيه السعة، والسعة موجودة في الأرض على سبيل الحقيقة، ولكنها في أخلاق الكرام ليست كذلك، وإنما هي موجودة على سبيل التخيل لأن السعة والضيق توصف بهما الأشياء المادية.

رابعاً: وقد يكون وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، فإن وجه الشبه هنا ليس شيئاً واحداً وإنما هو صورة منتزعة من أمور كثيرة، فهي صورة من يجهد نفسه ويتعبها بأشياء نفيسة دون أن يحصل على جدوى ولهذا مزيد بحث إن شاء الله.

تلك هي أركان التشبيه، مفصلة بعد أن عرفتها مجملة.

قضيتان مهمتان:

ولا بد أن نقف معك، وتقف معنا عند قضيتين اثنتين أشرنا إليهما من قبل:

أولاهما: كون المشبه حسياً والمشبه به عقلياً.

والثانية: كون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه.

وكل منهما ذات صلة بأختها فالحديث عن إحداهما يستلزم الحديث عن الأخرى.

أما القضية الأولى: فلقد وقف منها بعض العلماء موقف الرفض والإنكار مدعياً أن ذلك لا يتمشى مع البداهة والفطرة والمنطق، ونظن أن هذا الرأي غير سديد إذ ورود هذا الضرب في الكلام البليغ يكفي لردّ هذا القول ونقضه.

---

(١) المفتاح، ص١٤٧. السماك: أحد السماكين وهما نجمان نيّران أحدهما في الشمال وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السماك الأعزل.

أما القضية الثانية: وهي كون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، فهذا ما تستدعيه طبيعة التشبيه، - اللهم - إلا إذا كان هناك غرض للمتكلم، سواء كان هذا الغرض: المبالغة أم التخيل أم التندر والظرافة والاستملاح، فيقلب التشبيه فيظهر وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به، وهذه قضية أشار إليها الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - وسنفصل لك فيها بعض التفصيل: فاعلم - هديت إلى الرشد - أن هنا أسلوبين اثنين:

أولهما: أن يكون المشبه عقلياً والمشبه به حسياً.

ثانيهما: أن يكون كل من المشبه والمشبه به حسيين.

الأسلوب الأول: تشبيه المعقول بالمحسوس:

ففي الأسلوب الأول لا يحسن العكس إلا إذا كان للمتكلم هدف وغرض بياني، ويكون ذلك على سبيل التخييل لا التحقق، انظر إلى قول القاضي التنوخي[1].

وَكَـــأنَّ النُّجُـــومَ بَـــيْنَ دُجَاهـــا ... سُـــنَنٌ لاحَ بَيْـــنَهُنَّ ابْتِـــداعُ

ومن قبل هذا البيت في القصيدة نفسها:

رُبَّ ليـــلٍ قَطَعْتُـــه كَـــصُدُودٍ ... وَفِـــراقٍ مـــا كـــانَ فيـــهِ وَدَاعُ
مُـــوحشٍ كالثَّقيـــلِ تَقْـــذَى بـــه العـــينُ ... وتَـــأْبى حَديثَـــهُ الأسْـــمَاعُ
وكـــأنَّ النُّجُـــومَ بَـــيْنَ دُجاهـــا ... سُـــنَنٌ لاحَ بَيْـــنَهُنَّ ابْتِـــداعُ
مُـــشْرِقاتٌ كـــأنَّهُنَّ احتِجَـــاجٌ ... فيـــهِ لِلخَـــصْمِ والظَّـــلامِ انْقِطـــاعُ

في هذه الأبيات تشبيهات أربعة: واحد منها تشبيه محسوس بمحسوس وهو تشبيه الليل بالثقيل في قوله: موحش كالثقيل تقذى به العين، والثلاثة الباقية كلها تشبيه محسوس بمعقول، فالأول: تشبيه الليل بالصدود والفراق، والليل محسوس والصدود والفراق معقولان لا يدركان بالحس، والثاني: تشبيه النجوم بالسنن وقد تقدم هذا من قبل، والثالث: تشبيه النجوم بالحجج، فقد تخيل التنوخي:

أولاً: أن في الصدود والفراق ظلاماً.

---

(١) اليتيمة، ٢/ ٣٩٤. وتقدم ذكره ص٣٩.

وثانياً: تخيل أن هذا الظلام فيهما أقوى منه في الليل.

وكذلك في البيت الثاني والثالث تخيل أن للسنن والحجج إشراقاً، وأن هذا الإشراق أقوى فيهما من النجوم، فأنت تجد أن في كل تشبيه - من هذا القبيل - تخَيُّلَيْن للشاعر.

وقد تقدم معنا قول أبي طالب الرقي[1]:

ولَقَــدْ ذَكرتُــكِ والظَّــلامُ كَأَنَّــهُ ... يــومُ النَّــوَى وفُــؤادُ مَــنْ لَمْ يَعْــشَقِ

فقد تخيل الشاعر أن في يوم النوى وفؤاد من لم يعشق ظلمةً وسواداً وأنه أقوى فيهما من الليل.

وانظر إلى قول الصاحب إسماعيل بن عبّاد وقد أهدى عطراً إلى القاضي أبي الحسن الجرجاني[2]:

يــا أيُّهــا القــاضِي الــذي نَفْــسِي لَــهُ ... مَــعَ قُــربِ عَهــدِ لِقائِــهِ مُــشْتَاقَهْ

أهْــدَيْتُ عِطــراً مِثْــلَ طيــبِ ثنائِــهِ ... فكَــأنَّما أُهْــدِي لَــهُ أخْلاقَــهْ

فقد شبه العطر بالأخلاق، وهو تشبيه محسوس بمعقول، إذ تخيل أن للأخلاق طيباً ورائحة زكية، وتخيل ثانيةً أن هذه الرائحة أقوى في الأخلاق منها في العطر.

وعوداً إلى القاضي التنوخي فهو يقول[3]:

فَــانْهَضْ بنــارٍ إلى فَحْــم كــأنَّهُما ... في العَــيْنِ ظُلْــمٌ وإنْــصَافٌ قَــدِ اتفَقَــا

جاءتْ ونَحْنُ كَقَلبِ الـصَبِّ حـينَ سَـلاَ ... بَرْداً فَـصِرْنا كَقَلْـبِ الـصَّبِّ إذ عَـشِقا[4]

ففي البيت الأول شبه النار والفحم بالإنصاف والظلم بجامع الإشراق والسواد، فتخيل أن للإنصاف إشراقاً هو أقوى فيه من النار، وأن للظلم سواداً هو أقوى فيه من الفحم. أما البيت الثاني: ففيه تشبيهات: أحدهما التشبيه بقلب السالي، أي: الخالي من

(١) اليتيمة، ٢/ ٣٩٤، وتقدم ذكره ص٣٩.

(٢) اليتيمة، ٣/ ١٧٨. إرشاد الأريب، ١٤/ ٢٠.

(٣) اليتيمة، ٢/ ٣١٣.

(٤) الصبّ: المشتاق.

العشق في البرودة. الثاني: التشبيه بقلب العاشق في الحرارة، لأنهم يتخيلون أن القلب العاشق حار، وأن القلب الخالي من العشق بارد ليس فيه حرارة، وهذان التشبيهان - في هذا البيت - من تشبيه المحسوس بالمحسوس فليس مما نحن بصدده.

واستمع إلى قول ابن طباطبا[1]:

كَأنَّ انتِضاء البَدْرِ مِنْ تَحتِ غَيْمَةٍ نَجَاةٌ مِنَ البأساءِ بَعْدَ وُقُوع[2]

ففيه تشبيه محسوس بمعقول، فهو يشبه البدر وقد انكشف من تحت الغيم الذي كان يحجب نوره بالنجاة من البأساء، فقد تخيل الشاعر هنا أن الظلام في البأساء أقوى منه في الغيم وأن الإشراق في النجاة من البأساء أقوى منه في القمر.

تشبيه المحسوس بالمعقول - إذن - يقصد به الشاعر إلى التخييل، ولكنه تخييل مزدوج: فهو يتخيل في المعقول صفة محسوسة أولاً، وأن هذه الصفة أقوى في المعقول منها في المحسوس ثانياً.

الأسلوب الثاني: تشبيه المحسوس بالمحسوس:

طرفا التشبيه إذا كانا محسوسين يمكن أن يُجعل كل منهما مكان الآخر، فتجعل المشبه به مشبهاً وبالعكس، هذا إذا لم يكن هناك تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه، بحيث يكون وجه الشبه في المشبه به أمراً لا مزيد عليه، ولهذا عابوا على البحتري تشبيهه الليل بالمداد في قوله[3]:

على بابِ قِنّسْرينَ والليْلُ لاطِخٌ جَوانِبَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ بِمِدادِ

وفضلوا عليه قول ابن الرومي حيث شبه المداد بالليل في قوله[4]:

حِبْرُ أبي حَفْصٍ لُعابُ اللَّيْلِ يَسيلُ للإخْوانِ أيَّ سَيْلِ
بِغَيْرِ ميزانٍ وَغَيْرِ كَيْلِ

(١) المفتاح، ص١٤٧. أسرار البلاغة، ص٢٦٤.
(٢) انتضى السيف: سلّه، وانتضاء البدر: ظهوره من دائرة الغيم، والبأساء: الداهية.
(٣) ديوانه، ١/ ٢٤٧. ديوان المعاني، ١/ ٢٤٤.
(٤) أدب الكاتب، ٩٤. شرح الإيضاح، ٢١٧.

وهناك أصول تعورف عليها بين الناس؛ كالوضاءة في الشمس، والشجاعة في الأسد، والسواد في الليل، والمسك في الطيب، والعسل في الحلاوة، والصاب[1] في المرارة، والبحر في الغزارة، (ومادر) في البخل، (وحاتم) في الكرم، ففي هذه الأمور وأمثالها لا ينبغي العكس حتى للمبالغة.

أما ما جاء من أقوال الشعراء مخالفاً لهذه الأصول المتعارف عليها، كتشبيه الشمس بالمرآة، وتشبيه غرّة الصباح بالوجه، في قول محمد بن وهيب[2]:

وبَـــدا الـــصَّباحُ كَـــأنَّ غُرَّتَـــهُ ... وَجْـــهُ الخَليفَـــةِ حـــينَ يُمْتَـــدَحُ

وقول ابن المعتز[3]:

فَخِلْتُ الـدُّجَى والفَجْـرُ قـد مـدَّ خَيْطَـهُ ... رِداءً مُوشّـــىً بالكَواكِـــبِ مُعلَـــماً[4]

فقد أجاب الشيخ عن ذلك، بأن المقصود من هذه التشبيهات ليس التشبيه من حيث اللون فحسب، وإنما المقصود التشبيه من حيث اللون والشكل. هذا ما ذهب إليه الشيخ رحمه الله. ولكن يظهر أن عنصر المبالغة يمكن أن يراعيه الشاعر إذا كان المقام يعين على ذلك، وإليك أمثلة مما يجوز فيه عكس التشبيه، فيكون الشيء مشبهاً تارة ومشبهاً به تارة أخرى فمن ذلك:

١ - تشبيه النجوم بالمصابيح في قول حُنْدُج المُرِّي[5]:

نُجُومُـــهُ رُكَّـــدٌ لَيْـــسَتْ بِزائِلَـــةٍ ... كَـــأنَّما هُـــنَّ في الجَـــوِّ القَنادِيـــلُ[6]

وعكسوا ذلك فشبهوا المصابيح بالنجوم، ومن ذلك قول السريّ الرَّفَّاء[7] يمدح الوزير المهلبي، وقد رُكزت له رماح عليها شمع عند إقبال الليل فأضاء المكان وحَسُن:

---

(١) الصاب: شجرٌ مرّ له عصارة بيضاء كاللبن شديدة المرارة إذا أصابت العين أتلفتها.
(٢) الأغاني، ١٧/ ١٤١. المطول، ٣٣٤.
(٣) ديوان المعاني، ١/ ٣٤٤.
(٤) المقصود من العلم في هذا الرداء هو الفجر.
(٥) الحماسة، ٤/ ٣٢٥.
(٦) رُكّد: جمع راكد، أي: واقفة لا تتحرك.
(٧) ديوانه، ص١٧.

لَقِــيَ النُّجــومَ وَقَــدْ طَلَعْــنَ بِمِثْلِهــا   وأعــادَ جُــنْحَ اللَيْــلِ وَهْــوَ ضَــحاءُ[1]

٢- تشبيه الخدّ بالورد ومن ذلك قول ابن المعتز[2]:

غِلاَلَـــةُ خَـــدِّهِ صُـــبِغَتْ بِـــوَرْدٍ   وَنُـــونُ الـــصَّدْغِ مُعْجَمَـــةٌ بِخَـــالِ

وعكسوا فشبهوا الوردَ بالخد كقول خالد الكاتب[3]:

عَـــشِيَّةَ حَيَّـــانِي بِـــوَرْدٍ كَأَنَّـــه   خُـدُودٌ أُضِـيفَتْ بعـضُهنّ إلى بعـضِ

٣- تشبيه النرجس بالعيون ومن ذلك قول أبي نواس[4]:

لَـــدَى نَـــرْجِسٍ غَـــضِّ القِطَـــافِ كَأَنَّـــهُ   إذا مـــا مَنَحْنـــاهُ العُيُـــونَ عُيُـــونُ

وعكسوا فشبهوا العيون بالنرجس ومنه قول ابن الرومي[5]:

لَـــوْ كُنْـــتَ يَـــوْمَ الـــوَدَاعِ حاضِرَنَـــا   وَهُـــنَّ يُطْفِـــئْنَ غِلَّـــةَ الوَجْـــدِ
لَمْ تَـــرَ إلاّ الـــدُّمُوعَ سَـــاكِبَةً   تَقْطُـــرُ مِـــنْ مُقْلَـــةٍ عَـــلى خَـــدِّ
كَـــأَنَّ تِلْـــكَ الـــدُّمُوعَ قَطْـــرُ نَـــدىً   يَقْطُـــرُ مِـــنْ نَـــرْجِسٍ عَـــلى وَرْدِ

التشبيه - في البيت الأخير - مركب، شبهت صورة الدموع تنهمل من العين على الخد بصورة قطر الندى يقطر من النرجس على الورد، والعين فيه مقابِلةٌ للنرجس، ووجه الشبه دائرة بيضاء تحيط بدائرة أخرى أصغر منها مخالفة لها في اللون، فالنرجس ورقُهُ أبيض ووسطه أصفر.

---

(١) الجنح: بالكسر أو الضم: الجانب أو الناحية من الليل، والضحاء: قرب منتصف النهار، أي: ساطعاً مضيئاً.

(٢) ديوانه، ص٥٧٠. قصيدة (دعيني)، غلالة خده، أي: صفحة خده، والصدغ: ما بين العين والأذن، ونون الصدغ كناية عن خصلة الشعر المتدلية على الخد على شكل حرف نون، وقد جعل الخال على الخدّ نقطة حرف النون.

(٣) الوساطة، ص١٨٧.

(٤) ديوانه، ٣٣٨. ديوان المعاني، ٢/ ٢١. الغض: الطري الناعم.

(٥) الوساطة، ٢٤٢. ديوان المعاني، ١/ ٢٥٥.

٤- تشبيه الثغر وهو مَقْدَم الأسنان بالأقحوان، وهو زهرٌ ذو ورق أبيض صغير يشبه الأسنان في لونه وشكله، ومنه قول البحتري[1]:

كـأنّما يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أَوْ أقاحْ[2]

وعكسوا فشبهوا الأقحوان بالثغر، كقول القاضي التنوخي[3]:

أقْحُوانٌ مُعانِقٌ لِشَقيقٍ كَثُغورٍ تَعَضُّ وَرْدَ الخُدُودِ
وعُيُونٌ مِنْ نَرْجِسٍ تَتَراءَى كعُيُونٍ مَوصُولَةِ التَسْهيدِ

فوصف العيون بالتسهيد، إما لدوام انفتاحها وإما لأنه أراد تشبيه النرجس بها في الذبول، فقد قيل: إن في نَوْره انكساراً وفتوراً لا تَرى فيه وَرَقَةً قائمة.

٥- تشبيه ثُدِيِّ الكواعب بالرمان كقول النَّمِري:

رُبَّما تَبيتُ أَنامِلي يَجْنِينَ رُمَّانَ النُّحورِ

إضافة الرمان إلى النحور من إضافة المشبه به إلى المشبه.

وعكسوا كذلك فشبهوا الرمان بالثدي، كقول أبي النصر سعيد بن الشاه:

وَرُمّانَةٍ شَبَّهْتُها إذْ رَأَيْتُهَا بِثَدْيِ كَعابٍ أو بِحُقَّةِ مَرْمَرِ
مُنَمْنَمَةٍ، صَفْرَاءَ نُضِّدَ حَوْلَها يَواقِيتُ حُمْرٌ في مُلاءٍ مُعَصْفَرِ[4]

٦- تشبيه الجداول والأنهار بالسيوف، كقول أبي فراس الحمداني:

والماءُ يفْصِلُ بَيْنَ زَهْرِ الرَّوْضِ في الشَّطَّيْنِ فَصْلاَ
كَبِساطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ أَيْدِي القُيُونِ عَلَيْهِ نَصْلاَ[5]

---

(١) ديوانه، ١/ ٢٣٦، قصيدة (معدن الجود) في مدح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بن خاقان.

(٢) منضد: مرصوص بعضه إلى بعض، والبرد: قطع الثلج الصغيرة.

(٣) اليتيمة، ٢/ ٣١٣.

(٤) الكعاب: الفتاة الناهد، والحقّة: وعاء من الخشب. منمنمة: المنمنم هو المزخرف المزركش، نُضِّدَ: رُتِبَ ونُسِق، الملاء: جمع ملاءة وهي الملحفة أو ما يفرش على السرير، مُعصفر، أي: مصبوغٌ بالعصفر وهو نبات يُصبغ به الحرير.

(٥) ديوانه، ص٩٠. اليتيمة، ١/ ٢٤. القيون: جمع قَيْن: وهو الحدّاد، ثم أطلقت على كل صانع.

فشبه هيئة الماء يفصل أزهار الروض، الواقعة على شطية بهيئة نصل - أي سيف - جردته القيون على بساط موشى منقوش، ووجه الشبه هيئة ذلك البياض المستطيل البَرَّاق بين تلك الألوان المختلفة المنتظمة، ومنه قول ابن بابك:

فَـــمَا سَـــيْلٌ تُخَلِّــصُهُ المَحـــاني كــما سُـلَّتْ مــن الخِلَـلِ المَناصِـلْ[1]

المحاني: جمع محنية، وهي منعطف في الوادي، والخلل: جفن السيف المغشّى بالأدَم، والمنصل هو السيف.

وهذه التشبيهات - كلها - على سبيل الحقيقة لا على سبيل التخيل.

الخلاصة: أن تشبيه المحسوس بالمحسوس قد يعكس فيه الطرفان على سبيل الحقيقة - إذا لم يكن تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به من حيث وجه الشبه - ، وقد يعكسان على سبيل التخيل والمبالغة، وذلك إذا كان هناك تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه، وضابط ذلك كما ذكره الشيخ عبدالقاهر:

١ - كل تشبيه صريح كان الغرض منه الجمع بين المشبه والمشبه به في الصورة، أو الشكل، أو اللون، أو هيئة ملتئمة من أمرين فأكثر على وجه يوجد في الفرع على حدّه في الأصل، أو قريباً منه، ولم يقصد فيه إلى مبالغة وإلحاق ناقص بكامل، فإن العكس فيه يستقيم على سبيل الحقيقة.

٢ - وكل تشبيه قصد فيه إلحاق الناقص بالكامل مبالغة في امتيازه على غيره في الوصف، فإن العكس فيه لا يستقيم فيه على سبيل الحقيقة[2].

ومن الخير أن نوضح لك ما قال الشيخ، حتى لا يبقى في عبارته لبس أو غموض، بيان ذلك:

(١) انظر: أسرار البلاغة، ص١٨٧، تحقيق: هـ. ريتر ودراسات تفصيلية لبلاغة عبدالقاهر، ص٢١٩.

(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر.

أنك إذا شبهت شيئاً بشيء، وكان وجه الشبه متقارباً في الشبه والمشبه به - بحيث لم يكن هناك تفاوت كبير - فإنه يجوز لك أن تعكس التشبيه، يكون ذلك على سبيل الحقيقة، مثال ذلك: (تشبيه الخد بالورد، والعيون بالنرجس، والدمع باللؤلؤ، والأسنان بالبَرد).

إن وجه الشبه في هذه التشبيهات جميعاً، يكاد يكون واحداً في المشبه والمشبه به، ولذا فإننا يمكن أن نعكس هذه التشبيهات، فنشبه النرجس بالعيون، والورد بالخد..

أما إذا كان هناك تفاوت كبير في وجه الشبه بين المشبه والمشبه به، كتشبيه (الكلام بالعسل في الحلاوة)، (والحسناء بالشمس في الوضاءة)، (والوجه بالصبح)، (والمداد بالليل)، فإن عكس هذه التشبيهات - إن وجد - فإنما يكون على سبيل التخيل والادعاء، لا على سبيل الحقيقة والواقع.

وبعد أن حدثناك عن أركان التشبيه، وما يتعلق بها، يجمل بنا أن نحدثك عن أقسام التشبيه.

الفصل الثاني

أقسام التشبيه

أقسام التشبيه عند المبرد:

لعل أول من فصّل القول في التشبيه (أبو العباس المبرّد) في كتابه (الكامل) فقسمه إلى أربعة أقسام:

١ - التشبيه المُفْرِط: وهو التشبيه المبالغ فيه أو المبالغ في الصفة التي تجمع بين المشبه والمشبه به. كقول الخنساء في أخيها صخر[١]:

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

فجعلت المهتدي يأتم به، وجعلته كنار في رأس علم، والعلم: الجبل، ... ومن تشبيه المحدَثين المستطرف قول بشار[٢] واصفاً قلبه إذا ذُكرت محبوبته:

كأنَ فُؤادَهُ كُرَةٌ تَنَزّى ... حِذارَ البَيْنِ إنْ نَفَعَ الحِذارُ

يُرَوِّعُهُ السِّرَارُ بِكُلِّ أمْرٍ ... مَخافَةَ أنْ يَكُونَ بِهِ السِّرَارُ[٣]

وقال الحسن بن هانئ[٤] في صفة الخمر:

---

(١) ديوانها، ص٣٨٦.

(٢) ديوانه، ٣/ ٢٢٤.

(٣) تنزى - بحذف إحدى التائين - تتوثب، السرار بفتح السين وكسرها: وهو مغيب القمر آخر ليلة من الشهر، يقول: محاق القمر روّعني فكلما رأيت شيئاً خفتُ أن يحل به ذلك المحاق، والمعنى: أنه من شدة الحذر يحسبُ كلَّ متسارّين يتسارران في شأنه.

(٤) وهو أبو نواس، ديوانه، ص٥٣٨.

فـــإذا مـــا اجْتَلَيْتَهـــا فَهَبـــاءٌ ... يمنــعُ الكــفَّ مــا يُبيــحُ العُيُونــا[1]
أكــلَ الــدَّهْرُ مــا تَجَــسَّمَ مِنْهَــا ... وتَبَقَّـــى لُبَابُهـــا المَكْنُونـــا[2]
فَهْـــيَ بِكْـــرٌ كأنَّهـــا كُـــلُّ شيءٍ ... يَتَمَنَّـــى مُخَـــيَّرٌ أنْ يَكُونـــا[3]
في كُـــؤُوسٍ كـــأنَّهُنَّ نُجُـــومٌ ... جَارِيَـــاتٌ، بُرُوجُهَـــا أيْـــدِينَا[4]
طالعـــاتٍ مَـــعَ الـــسُّقَاةِ عَلَيْنـــا ... فـــإذا مـــا غَـــرَبْنَ يَغْـــرُبْنَ فِينَـــا[5]

فهذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدَثين[6].

٢- التشبيه المصيب: ويعني به ما خلا من المبالغة، وأخرج الأغمض إلى الأوضح.

قال امرؤ القيس في طول الليل[7]:

كَـــأنَّ الثُّرَيّـــا عُلِّقَـــتْ في مَـــصَامِهَا ... بِـــأمْرَاسِ كَتّـــانٍ إلى صُـــمِّ جَنْـــدَلِ[8]

فهذا في ثبات الليل وإقامته، والمَصَام: المقام، وقيل لِلْمُمْسِك عن الطعام: صائم لثباته على ذلك، ويقال: صام النهار: إذا قامت الشمس.

وقال في ثبات الليل[9]:

فَيَـــا لَـــكَ مِـــنْ لَيْـــلٍ كـــأنَّ نُجُومَـــهُ ... بِكُـــلِّ مَغَـــارِ الفَتْـــلِ شُـــدَّتْ بِيَـــذْبُلِ

---

(١) يقول: إنك تراها بعينك لكنك لا تلمسها لأنها هباء.
(٢) أي: أنها برئت على الزمن ولم يبقَ إلا روحها المستور.
(٣) أي: أنها تجسّد كل ما يريده المرء ويتمناه.
(٤) يَقرِن كؤوس الخمرة بين أيدي الندامى بالنجوم الجاريات.
(٥) أي: الكؤوس تغرب في أجوافهم.
(٦) الكامل، ٦/ ١٧١.
(٧) ديوانه، ص١٩.
(٨) المصام: المقام وزناً ومعناً، يريد في مكانها الذي قامت وثبتت فيه، وكذلك مصام الفرس ومصامته: المكان الذي تربط فيه، أمراس: جمع مرس وهو الحبل، صم جندل: حجارةٌ صماء غير متخلخلة وهي التي تكون في مجرى النهر، الجندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر.
(٩) ديوانه، ص١٩.

المغار: الشديد الفتل، يقال: أغرتُ الحبل: إذا شددت فَتْلهُ، ويَذبُلُ جبل بعينه[1].

وقال أيضاً[2]:

كـأنَّ أبَانـاً في أفـانِينَ وَدْقِـهِ   كَبـيرُ أُنـاسٍ في بِجـادٍ مُزَمَّـلِ[3]

٣- التشبيه المُقارِب: كقول ذي الرُّمَّة[4]:

وَرَمْـلٍ كـأوْراكِ العَـذَارى[5] قَطَعْتُـهُ   وَقَـدْ جَلَّلَتْـهُ المُظْلِـماتُ الحَنَـادِسُ

الحِنْدِسُ: اشتداد الظلمة، وهو توكيد لها، يقال: ليل حندسٌ، وليلٌ أليلُ: مظلمٌ..

ومن التشبيه الحسن قول الشاعر (وهو الشَّمّاخ)[6]:

كَـأنَّ المَـتْنَ والـشَّرْخَيْنِ منْـهُ   خِـلافَ النَّـصْل سِـيطَ[7] بِـهِ مَـشيجُ

يريد سهماً رمي به فأنفذ الرَّمِيَّةَ وقد اتصل به دمُها، والمتن: متن السهم[8] وشرخُ كلِّ شيءٍ حَدُّه، فأراد شَرْخَيْ الفُوقِ[9] وهما حرفاه، والمشيجُ، اختلاط الدم بالنطفة[10].

---

(١) ذكر ياقوت أنه جبل في طريق نجد.

(٢) ديوانه، ص٢٥.

(٣) أبان: جبلٌ، وهما أبانان، أبان الأسود وأبان الأبيض - ذكر ياقوت أن أبان الأسود لبني فزارة خاصة، وأبان الأبيض لبني عبس، وبينهما ميلان وكلاهما محدد الرأس كالسنان - الودق: المطر، الأفانين: الضروب والأنواع، بجاد: كساءٌ مخطط: (شبه الجبل وقد عمه المطر والخصب بالشيخ الضعيف الملفوف في بجاد، وخص الشيخ لأنه متلفحٌ أبداً متزملٌ في ثيابه).

(٤) ديوانه، ص٢٥٦.

(٥) أخرجه مخرج المبالغة، جعل أوراك العذارى مشبهاً به، والمألوف تشبيهها بالرمل، والأوراك: جمع ورك وهي مؤنثة: ما فوق الفخذ كالكتف للعضد.

(٦) ذكر في رغبة الأمل أن هذا البيت لزهير بن حرام الهذلي وليس للشماخ.

(٧) سيط به: خُلط به، والمشيج هنا الدم.

(٨) متن السهم وسطه أو ما دون الريش إلى وسطه.

(٩) الفُوق من السهم: حيث يثبت الوتر منه.

(١٠) الكامل، ٢/ ١٠١٦. رغبة الأمل، شرح الكامل، ٧/ ١٠.

٤- التشبيه البعيد: وهو الذي لا يقوم بنفسه، أي: يحتاج إلى تفسير فكقول الشاعر[(١)]:

بَــلْ لَــوْ رَأَتْنِــي أُخْــتُ جِيرانِنَــا   إذ أَنَــا فِي الــدَّارِ كَــأَنِّي حِمَــارْ

فإنما أراد الصحة! فهذا بعيد لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره. وقال الله عز وجل وهذا البيّن الواضح: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، والسِّفْر: الكتاب، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ في أنهم قد تَعامَوْا عنها، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها، حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها[(٢)].

نلاحظ مما سبق أن المبرد قسم التشبيه من حيث الواقع والحقيقة، وذلك لأنه لغوي، ونظرة اللغويين تختلف عن نظرة البيانيين، فاللغويون يتعاملون مع واقع الكلمات بقطع النظر عما لها من ظلال وارفة، وإيحاءات بديعة، ويذكرنا صنيعهم بهذا التشبيه الذي ذكره عبدالقاهر وفضله واستحسنه، وإن كان بعض اللغويين وجد فيه إفراطاً، فقد ذكر الزجاجي في أماليه عن ثعلب، قال: كنا عند ابن الأعرابي فأنشد قول جرير[(٣)]:

وَيَــوْمٍ كَإِبْهَــامِ القَطَــاةِ مُــزَيَّنٍ   إِلَيَّ صِــبَاهُ، غالِــبٍ لِيَ بَاطِلُــهْ

رُزِقْنــا بِــهِ الــصَّيْدَ الغَزِيــرَ وَلَمْ نَكُــنْ   كَمَــنْ نَبْلُــهُ مَحْرُومَــةٌ وَحَبائِلُــهْ

وَذلِــكَ يَــوْمٌ خَــيْرُهُ دونَ شَرِّهِ   تَغَيَّــبَ وَاشِــيهِ، وأَقْــصَرَ عاذِلُــهْ

فعجبنا من تشبيه قِصَر اليوم بإبهام القطاة، فقال ابن الأعرابي: أحسن منه قول الآخر:

وَيَــوْمٍ عِنْــدَ بَــابِ أبي نَعِــيمٍ   قَــصيرٍ مثــلِ ســالِفَةِ[(٤)] الــذُّبَابِ

---

(١) رُوي هذا البيت عن بندار، الكامل، ٢/ ١٣٦.

(٢) رغبة الأمل شرح الكامل، ٧/ ٣٧.

(٣) ديوانه، ص٣٨٤، يشبه اليوم بإبهام القطاة لقصره - القطاة: طائرٌ صغير - وكذلك الأيام السعيدة تكون قصيرة، ثم يقول: من حسن ذلك اليوم أنه لم يكن فيه لا واشٍ ولا عاذل.

(٤) السالفة: جانب العنق.

قال الزجاجي: «وهذا نهاية الإفراط والخروج عن حدود التشبيه المصيب»[1] فانظر حكم الزجاجي، وحكم الشيخ، فالشيخ نظر إلى طرافة التشبيه فاستحسنه، والزجاجي نظر إلى غلوه فلم يستصوبه.

أقسام التشبيه عند الرماني:

ثم جاء الرماني، فبعد أن عرف التشبيه بقوله: «هو العَقد على أن أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسٍّ أو عقل» قسمه إلى تشبيه: حسي نفسي، ثم قال - وهذا الذي يعنينا - : يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء، وذلك أنه يكسب الكلام بياناً عجيباً، وهو على طبقات في الحسن كما بيّنا، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما. والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه:

١- منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة.

٢- ومنها إخراج ما لم تجرِ به عادة إلى ما جرت به عادة.

٣- ومنها إخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة.

٤- ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة.

ثم جاء بالأمثلة على هذه الأقسام من القرآن الكريم، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [النور:٣٩]، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيّرُهُ إلى عذاب الأبد في النار - نعوذ بالله من هذه الحال - وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ [إبراهيم:١٨]، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع

(١) أمالي الزجاجي، ص١٩٤-١٩٥.

عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة.

«ومن الثاني، قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف:١٧١]، هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة، وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ليطلب الفوز من قِبَله ونيل المنافع بطاعته،، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:١٩-٢٠]، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجرِ به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكها إياهما، وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة.

ومن الثالث، قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١]، فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة وقد اجتمعا في العظم، وقال عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح، وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل.

ومن القسم الرابع، قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن:٢٤]، فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها، وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخّر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة، وقد اجتمعا في الرخاوة والجفاف، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح»[1].

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، النُكت في إعجاز القرآن للرماني، ص٨٠-٨٥.

ونرى أن تقسيمات الرماني - مع ما فيها من ملحوظات جيدة أفاد منها المتأخرون - إلا أنها تقوم على أساس عقلي، ولقد كان الجاحظ - وهو أسبق من الرماني بالطبع - وإن كان يتفق معه في الاعتزال، فإنه قد سجل بعض الملحوظات النفيسة وهو يتحدث عن التشبيه في مثل قول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:١٧٥]، وقوله: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات:٦٥].

ومهما يكن من أمر فإن تقسيمات الرماني للتشبيه بقيت ردحاً من الزمن أساساً يعول عليه من بعده، وهذا أبو هلال العسكري ينهج النهج نفسه، حتى إن بعض الكاتبين - سامحهم الله - نقل كلام العسكري في الصناعتين - وهو نفسه كلام الرماني - وبين الرجلين ما يزيد على قرن ولم يشر إلى الرماني - وهو الأسبق - من قريب أو بعيد[1].

وبعد أن استقرت علوم البلاغة على ما هي عليه الآن، كادت هذه التقسيمات تُتناسى واستبدلت بتقسيمات أُخر جعلت بعض علماء البلاغة أنفسهم يضيقون بها ذرعاً، فهذا العلاّمة الثاني السعد التفتازاني - رحمه الله - في شرحه المطوَّل على التخليص يذكر أن كثيراً من هذه التقسيمات (التي ذكرها صاحب التلخيص) ليس تحتها طائل فائدة، وسنقتصر على أهم هذه التقسيمات مجملين ما يكفي فيه الإجمال ومفصلين ما تدعو الحاجة لتفصيله، وقد تقدم أن التشبيه له طرفان، وأداة ووجه، فمن الطبيعي أن نذكر تقسيمات التشبيه أولاً من حيث طرفاه، ثانياً من حيث أداته، ثالثاً من حيث وجهه.

أولاً: تقسيم التشبيه من حيث طرفاه:

١ - **طرفا التشبيه قد يكونان مفردين**، كتشبيه الحسناء بالشمس، وقد يكونان مقيدين، وقد يكون أحدهما مقيداً والآخر مفرداً، والقيد قد يكون شبه الجملة، وقد يكون حالاً، وقد يكون صفةً، وجعلوا منه المضاف إليه، مع أن المضاف إليه - كما ذكره علماء المعاني - لا يُعدّ من القيود ولا صلة الموصول[2]، ولعل عذر علماء البيان أنهم لا يتكلمون عن الجملة وأجزائها إنما يتكلمون عن أحد طرفي التشبيه.

---

(١) انظر: علم البيان للدكتور عبدالعزيز عتيق.

(٢) راجع تقسيم الجملة في الجزء الأول.

فمن الطرفين المقيدين قولهم: «الساعي في غير طائل كالراقم[١] على الماء»، «عِلْمٌ لا ينفع كدواء لا يَنْجَع»، «الطامع في النصر من عدوه كالهارب من الرمضاء إلى النار»، «الكلمة الصعبة المفيدة كالدواء المر»، «الكلمة الطيبة كريح الصبا»، «الحسناء السيئة كخضراء الدِّمَنِ»[٢]، «الولد العاق كجمر الغضا»[٣]، «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

هذه التشبيهات إذا نظرت إلى طرفيها المشبه والمشبه به، تجد أن كلاً منهما مقيدٌ بقيد، وإذا نظرت إلى هذه القيود في كل من الطرفين تجده تارة شبه جملة، وتارةً مضافاً إليه كما في (خضراء الدمن) وتارة صفة.

وقد يكون المشبه مفرداً والمشبه به مقيداً ومنه قوله ﷺ: «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تجدُ فيها راحلة»[٤] ومنه قول الخنساء[٥]:

أغَــرُّ أبْلَــجُ تــأتَمُّ الهُــداةُ بِــهِ كأنَّــهُ عَلَــمٌ فِي رَأسِــهِ نــارُ[٦]

ومنه قولهم: «الثغر كاللؤلؤ المنظوم»، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك كقولهم: «العين الزرقاء كالسهام»، و«الشعر الأسود كالليل».

---

(١) الراقم على الماء، أي: الذي يكتب على الماء.

(٢) خضراء الدمن: النبات يُرى له نضارةٌ وهو منتن الأصل وبيء المرعى، ينبت في الأرض النتنة، ويروى هذا عن الرسول ﷺ وهو ضعيف.

(٣) الغضا: شجرٌ من الأثل، خشبه من أصلب أنواع الخشب وجمره يمكث طويلاً لا ينطفئ، ووجه الشبه ظاهر؛ فكما أن جمر الغضا يظلّ مشتعلاً فكذلك عقوق الولد لوالديه يصعب أن تنطفئ حرقته في قلبيهما.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الرقائق، باب ٣٥، رفع الأمانة. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: (الناس كإبلٍ مائةٍ).

(٥) ديوانها، ص٣٨٦. وهناك روايةٌ أخرى (وإن صخراً لتأتم الهداةُ به).

(٦) جعل صاحب جواهر البلاغة، الأستاذ أحمد الهاشمي رحمه الله - المشبه به هنا من قسم المركب، وما نظنُّ الأمر كذلك بل هو من المقيد؛ لأن المركب هيئةٌ من شيئين أو أكثر كما ستعرفه فيما بعد وليس الذي معنا هنا من هذا القبيل.

ولا بد من أن ننبه على أمرٍ: وهو أن التشبيه المقيد - سواءٌ كان القيدُ في أحد طرفيه أم في كليهما - إنما هو الذي يكون القيد فيه ذا صلة بوجه الشبه كالأمثلة المتقدمة، فإنك إذا رجعت إليها فستجد أن القيد في كل واحدٍ منها له صلة وثيقة بوجه الشبه، أما إذا كان القيد ليس كذلك - أي: لا صلة له بوجه الشبه - فإن التشبيه يعد مفرداً لا مقيداً، فإذا قلت: «رأيت فتاةً ذاتَ عفة وحياء كالشمس»، فإن هذا التشبيه لا يعد مقيداً مع أن المشبه - وهو (فتاة ذاتُ عفةٍ وحياء) مقيدٌ لكن قيده هذا ليس له صلة بوجه الشبه من قريب أو بعيد، فليس كقولنا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» أو «الساعي في غير طائل كالراقم على الماء»، فإن كل قيد في هذين التشبيهين له صلةٌ بوجه الشبه في كلٍّ منهما، كذلك قولك: «خالدٌ يخفض جناحهُ للناس كالبحر»، فإن هذا التشبيه ليس مقيداً؛ لأن وجه الشبه هو الكرمُ والجود، وخَفْضُ الجناح للناس إنما يدل على خُلُقٍ آخر.

٢- وقد يكونان متعددين كلاهما أو أحدهما، ولهذا صور كثيرة:

أ- فقد يكون المشبه واحداً ولكن المشبه به متعدد.

ب- قد يكون المشبه متعدداً والمشبه به واحد.

ج- قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه إلا أنه يؤتى بالمشبهات أولاً ثم يؤتى بالأشياء المشبه بها ليقابل كل واحد بما يناسبه.

د- قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه كذلك إلا أنه يذكر مع كل مشبه المشبه به.

وإليك البيان:

(د-١)- استمع إلى قول الشاعر أبي بكر محمد الخالدي[1]:

يا شَبيهَ البَدْرِ حُسْناً ... وَضِياءً وَمَنَالا
وشَبيهَ الغُصْنِ ليناً ... وَقَواماً واعْتِدالا
أنتَ مِثْلُ الوَرْدِ لَوْناً ... ونَسيماً ومَلالا[2]

---

(١) اليتيمة، ٢/ ٢٢٦.

(٢) المَلال: قصرُ الإقامة، وفي مثل هذا المعنى يقول الشاعر:

لا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْداً ... إنَّ عَهْدي لَكَ آسٌ =

زارَنَــــا حَتَّــــى إذا مــــا سَرَّنــــا بــــالقُرْبِ زالا

تجد أن المشبه واحد، ولكن المشبه به متعدد، فقد شبه المحبوب أولاً بالبدر، وثانياً بالغصن، واستمع إلى قول الآخر:

مَــــرَّتْ بنــــا رَأْدَ[1] الــــضُّحَى تَحْكِــــي الغَزَالَــــةَ والغَــــزَالا

وقول البحتري[2]:

كــــأَنَّما يَبْــــسُمُ عَــــنْ لُؤْلُــــؤٍ مُنَــــضَّدٍ أَوْ بَــــرَدٍ أَوْ أَقَــــاحْ

وكقوله[3]:

ذاتِ حُسْنٍ لَـوْ اسْـتَزَادَتْ مِـنَ الحُـسْنِ إلَيْــهِ لَمَــا أَصَــابَتْ مَزيــداً
فَهــيَ كالــشَّمْسِ بَهْجَــةً والقَــضيبِ اللَّــدْنِ قَــدّاً والــرِّيمِ طَرْفــاً وَجيــداً[4]

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨].

وتأمل في هذه جيعاً، فإنك تجد المشبه واحداً، ولكن المشبه به متعدد. واستمع إلى قول أمير الشعراء[5]:

لَمَّــا خَطَــرْتَ بِــهِ الْتَفُّــوا بِــسَيِّدِهِمْ كَالـشُّهْبِ بالبَـدْرِ أَوْ كَالجُنْـدِ بـالعَلَمِ[6]

ومن هذا قول الشاعر:

أَنْــتَ كاللَّيْــثِ فِي الــشَّجاعَةِ والإِقْــدامِ والــسَّيْفِ في قِــراعِ الخُطُــوبِ

= فالمعروف أن الورد لا يدوم طويلاً بعكس الآس: وهو نباتٌ معروفٌ يبقى مدة طويلةً قبل أن يذبُلَ ويذوي.

(١) رأد الضحى: وقت انبساط شمسه وارتفاع نهاره.

(٢) ديوانه، ١/ ٢٣٦.

(٣) ديوانه، ١/ ٣٠٦.

(٤) اللدن: اللين الناعم، القدّ: القامة.

(٥) الشوقيات، ١/ ١٩٨، قصيدة (نهج البردة).

(٦) يقول: لما مررت بالمسجد الأقصى التفّ حولك الرسل والملائكة كما تلتف الشهب حول البدر أو الجند حول العلم.

ويسمى هذا النوع من التشبيه (الجمع)؛ لأن المتكلم جمع مشبهاتٍ بها متعددة لمشبه واحد، وتأتي بلاغة هذا التشبيه من أن المتكلم أرشد إلى معانٍ كثيرة في المشبه وصفات متعددة، فجعل لكل معنى ولكل صفة مشبهاً به يعتمد عليه، انظر إلى البيت المتقدم وهو قوله:

ذاتِ حُسْنٍ لـو اسـتزادت مـن الحُسْن   إلَيْـــهِ لَـمَـــا أصـــابَتْ مَزيـــداً

فقد نظر إلى المرأة من حيث الوضاءة فشبهها بالشمس، ومن حيث القد فشبهها بالقضيب، ومن حيث الجيد والطرف فشبهها بالريم.

(د-٢)- وهذا عكس سابقه: المشبه متعدد والمشبه به واحد، ونمثل له بقول الشاعر:

صَـــدْغُ الحَبيـــبِ وَحَـــالِي   كِلاهُمَـــا كاللَيَـــالِي
وثَغْـــــرُهُ فِي صَـــــفَاءٍ   وأدْمُعِـــــي كـــــاللآلِي

فالمشبه متعدد، فقد شبه شعر الحبيب وحظه، بالليل في السواد، فأما تشبيه الشعر بالليل فللسواد في كليهما، وأما تشبيه حظه بالليل، فلأنه لم ينعم بوصال حبيبه، وفي البيت الثاني مشبهان، الأول: ثغر الحبيب، والثاني: دموع الشاعر، والمشبه به واحد وهي اللآلئ.

ويسمى هذا النوع التسوية، لأنه سوّى بين المشبهات بحيث جعل لها مشبهاً به واحداً، وهذا - بالطبع - أقل بلاغة من سابقه، وننبهك هنا على أنه لا بد من مناسبة بين كلا المشبهين، فهم قد شبهوا الرمش بالسهم، وشبهوا الكلمة تخرج من صاحبها بالسهم، فلو أنك قلت: «الرمش والكلمة كالسهم» لم يكن له في النفس لطف وقبول، كاللطف الذي وجدته في البيتين السابقين.

لا بد إذن من جامع، فلو قلت: «أخلاق فلانة وأعطافها كالمسك، وكلامها وريقها كالشهد»، كان ذلك مما تأنس به نفسك، كما إذ قلت: «عزمه ولسانه كالسيف»، «وشعره ووجه كالصبح» - تعني به الشيب - ، و«التفاحة والبرتقالة كالعسل»، و«فلان وفلانة كالثعلب»، كان مقبولاً كذلك، وفائدة هذا القسم الاختصار والإيجاز.

(د-٣)- أن تذكر المشبهات على حدة، ثم تذكر الأشياء المشبه بها على حدة - كذلك - ويمثلون له ببيت امرئ القيس[١]:

كـأن قلُـوبَ الطَـيْرِ رَطْبـاً ويَابِـساً لَدَى وَكْرِها العُنّـابُ والحَـشَفُ البـالي[٢]

ففي الشطر الأول ذكر مشبهين: الأول قلوب الطير وهي رطبة، والثاني قلوبها وهي يابسة، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين، فالقلوب الرطبة شبهها بالعُنّاب، والقلوب اليابسة شبهها بالحشف البالي، ومثل هذا قول ابن المعتز[٣]:

ليـلٌ وبَـدْرٌ وغُـصْنٌ شَـعْرٌ وَوَجْـهٌ وَقَـدٌّ
خَمْـرٌ وَدُرٌّ وَوَرْدٌ رِيـقٌ وثَغْـرٌ وَخَـدٌّ

ففي البيت الأول جمع بين مشبهات عدة وذلك في الشطر الأول ثم ذكر المشبه به - لكل منها - في الشطر الثاني، فالليل في الشطر الأول المشبه، والشعر مشبه به، وكذلك البدر مشبه والوجه مشبه به، كذلك الغصن مشبه والقدّ مشبه به، وفي البيت الثاني كذلك؛ فالخمر مشبه والريق مشبه به، كذلك الدر والثغر والورد والخد.

ومثل هذا قوله:

تَبَـسُّمٌ وَقُطُـوبٌ في نَـدىً وَوَغـىً كَالْغَيْـثِ وَالْـبَرْقِ تَحْـتَ العَـارِضِ الـبَرْدِ

ففي الشطر الأول مشبهان، الأول: تبسم الممدوح وذلك في نداه وكرمه والثاني: تقطب وجهه في الوغى والحرب، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين وهما الغيث والبرق، ويعنون به ما يكون من لمعان السيف في شدة الوغى، ويسمى هذا النوع (ملفوفاً) لأنه لف المشبهات معاً، والأشياء المشبه بها كذلك.

(د-٤)- أن يذكر عدة تشبيهات ولكن كل تشبيه على حدة لا يتداخل مع غيره.

كقول محمد بن لنكك:

---

(١) (دلائل الإعجاز، ص٢٨٥. المطول، ٣٣٨)، ديوانه، ص٣٨.
(٢) الوكر: العش، والحشف: التمر الرديء لا نوى له، والعناب: شجر أحمر لين الأغصان.
(٣) العمدة، ١/ ٢٩٢.

الخَـــدُّ وَرْدٌ والعِـــذَارُ[1] رِيـــاضٌ والطَّـــرْفُ لَيْـــلٌ والبَيَـــاضُ نَهَـــارُ

ففي البيت أربعة تشبيهات ولكنها مذكورة كل على حدة، ومن هذا القبيل قول المرقش الأكبر[2]:

النَّـشْرُ مِـــسكٌ وَالوُجُـــوهُ دَنَـــا نِـــيرٌ وَأَطْـــرَافُ الأكُـــفِّ عَـــنَمْ

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

إنَّـــمَا الـــنَّفْسُ كَالزُّجَاجَـــةِ والعِلْـــمُ سِراجٌ وَحِكْمَـــــــةُ الله زَيْـــــتُ
فـــإذا أشْرَقَـــتْ فَإنَّـــكَ حَـــيٌّ وإذا أظْلَمَـــــتْ فإنّـــكَ مَيْـــتُ

فقد شبه النفس بالزجاجة، والعلم بالسراج، وحكمة الله بالزيت.

وسموا هذا (مفروقاً) لأنه فرّق بين التشبيهات فجاء كلٌّ مستقلاً عن صاحبه. وأظنك تدرك مما تقدم أن أبرز ميزة لهذه الأقسام الإيجاز، وما نظن أن وراءها أغراضاً بيانية ذات خطر وشأن.

٣- قد يكون الطرفان مركبين، وقد يكون أحدهما مركباً والآخر مفرداً، ولعلك يجول في خاطرك وتتساءل عن الفرق بين المركب والمتعدد، والأمر يسير سهل، فلقد رأيت حينما حدثناك عن المتعدد أنه يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض، وإنما جمع بين المتعددات للإيجاز والاختصار، أما المركب فليس كذلك، إذ لا يمكن الفصل بين أجزائه، ولو أنك فصلت بينها لاختلّ المعنى، وزال رونقه، وبطل القصد الذي أراده المتكلم.

تأمل قول القاضي التنوخي[3]:

كَـــأَنَّمَا المَـــرِّيخُ والمُـــشْتَرِي قُدَّامَـــــهُ في شَـــامِخِ الرِّفْعَـــــةْ
مُنْـــصَرِفٌ بِاللَيْـــلِ عَـــنْ دَعْـــوَةٍ قَـــدْ أُسْرِجَـــتْ قُدَّامَـــهُ شَـــمْعَةْ

---

(١) العِذار: هو عارض الوجه أو جانب اللحية.

(٢) المفضليات ٢/ ١٩، القصيدة رقم ٥٤، الصناعتين، ص١٨٩، النشر: الريح الطيبة، العنم: نبات أملس دائم الخضرة، يتخذ من أزهاره خضاب.

(٣) اليتيمة، ٢/ ٣١٠. نهاية الأرب، ٧/ ٤٢.

فكّر في هذا التشبيه، ترى أن الشاعر يشبه حال المريح والمشتري يسير أمامه في رفعة وعلوّ برجل يسير في جُنْح الليل وقد انصرف من دعوة بعد أن انفض المجلس وأسرجت أمامه شمعة، المشبه - إذن - المريخ والمشتري أمامه، والمشبه به المنصرف من الدعوة وقد أسرجت أمامه شمعة، وأنت تجد هنا أن كلاً من المشبه والمشبه به مركبان، حاول الآن في نفسك أن تفض هذا التركيب وتفصل أجزاءه بعضها عن بعض، ستجد أن هذه المحاولات - مهما كثرت - لا تجديك شيئاً، بل تذهب هباءً، فلو أردت أن تشبه المريخ بمنصرف من الدعوة، وأن تشبه المشتري بالشمعة، إذن لذهب رونق المعنى، وفسد الذوق البياني، وأظلمت صورته الرائعة البديعة، وتدرك أن هذا يختلف كل الاختلاف عن بيت امرئ القيس المتقدم.

كَـــأنَّ قُلُـــوبَ الطّـــيرِ رَطْبـــاً وَيَابِـــساً

إذ يمكنك هناك أن تفصل بين التشبيهات، فتقول: كأن قلوب الطير الرطبة العُنّاب، وكأن قلوبها اليابسة الحشف البالي، ولكن الهدف من الجمع بينهما الإيجاز والاختصار - كما قلنا من قبل - أما هنا فالأمر يختلف كل الاختلاف، إذ لا يمكننا أن نشبه المشتري بالشمعة، والمريخ بالمنصرف عن الدعوة كما عرفت.

وانظر إلى قول ابن المعتز[1]:

كَأنّـــهُ وكَـــأنَّ الكَـــأْسَ في فَمِـــهِ ... هِـــلالُ أوّلِ شَـــهْرٍ غـــابَ في شَـــفَقِ

ويروى هذا البيت:

كأنـــه وَكَـــأنَّ الكَـــأْسَ في يَـــدِهِ ... هِـــلالٌ تَـــمّ وَنَجْـــمٌ غـــابَ في شَـــفَقِ

فالشاعر يريد أن يشبه الكأس - وقد غاب جزء منها بين شفتي شاربها - بصورة الهلال الذي غاب في الشفق، حاول أن تفرق أجزاء هذا التشبيه - كما حاولت في سابقه - ستجد النتيجة واحدة، فلا معنى لتشبيه الكأس بالهلال والشفة بالشفق لأن ذلك غير مستقيم وتفسد به الصورة التي أرادها الشاعر.

---

(١) ديوانه، ٣/ ١٦٣. ديوان المعاني، ١/ ٣٠٧.

واستمع إلى قول بشار[1]:

كَـأنَّ مُثـارَ النَّقْـعِ فَـوْقَ رُؤوسِـنا ... وأسْـيافَنَا لَيْـلٌ تَهـاوَى كَواكِبُـه

فالشاعر يريد أن يشبه ساحة الوغى، وما فيها من غبار كثيف، والأسياف ذات اللمعان والبريق، وهي تتساقط في هذا الغبار الكثيف، يشبه هذه الصورة بالليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب، ولو أردت أن تفصل بين أجزاء هذا التشبيه وتفرق بعضها عن بعض فتشبه مثار الغبار بالليل، تشبه الأسياف بالكواكب، كلاً على حدة، أذهبت جمال الصورة، ورونقها وبهاءها.

أظنك أدركت الآن وتذوقت الفرق الهائل بين المتعدد والمركب، فالمتعدد يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعضه، فيمكنك أن تفصل التشبيهات في البيت السابق:

لَيْـلٌ وَبَـدْرٌ وَغُـصْنٌ ... شَـعْرٌ ووجْـهٌ وَقَـدُّ

فتقول الليل كالشعر، والبدر كالوجه، والغصن كالقدّ.

أما المركب فإن الفصل فيه غير ممكن، نعم، قد نجد بعض التشبيهات المركبة يمكن فصل بعضها عن بعض فنُخَيَّرُ بين أن نَعدَّها من المركب أو من المتعدد، ولكننا نُحَكِّمُ الذوق في ذلك. انظر إلى قول أبي طالب الرقي[2]:

وَكَـأَنَّ أجْـرامَ النُّجُـوم لَوامِعـاً ... دُرَرٌ نُثِـرْنَ عَـلى بِـساطٍ أزْرَقِ

يشبه أجرام النجوم لوامعاً في السماء بالدرر المنثورة على بساط أزرق، فأنت ترى أنه من الممكن أن تشبه النجوم بالدرر تشبيهاً على حدة، ثم تشبه السماء ببساط أزرق تشبيهاً آخر، ولكنك لا تجد لهذا من الحسن والرونق والروعة والتأثير ما تجده للتشبيه في حالة تركيبه، فكونه تشبيه صورة بصورة خير من أن تجعله تشبيهين متعددين.

ونضيف - بعد هذا - أن هناك فرقاً آخر بين التشبيه المتعدد والمركب - غير ما ذكرناه - من إمكان الفصل بين أجزائه أو عدم إمكانه، هذا الفرق هو: أن الغرض من التشبيه المتعدد كان الإيجاز والاختصار، أما الغرض من التشبيه المركب - فليس كذلك -

(١) الوساطة، ٢٣٧. ديوان المعاني، ٢/ ٦٧.

(٢) اليتيمة، ٢٤٤، ٢٤٥.

إنما هو: جمال الصورة، وقوة التأثير في النفس، وخصوبة خيال المتكلم، وفيه لطف المنشأ، وجليل الغاية، وحلاوة الثمرة.

ثانياً: تقسيم التشبيه من حيث الأداة:

ينقسم التشبيه من حيث الأداة إلى مرسل ومؤكد:

فالمرسل ما ذكرت فيه الأداة، كما مر في الأمثلة السابقة.

والمؤكد: ما حذفت منه الأداة كقولنا: «العلم نور في الهداية»، و«حمزة أسد في الشجاعة»، ولهذا القسم صور متعددة.

١ - قد يأتي على صورة مبتدأ وخبر كالمثالين السابقين.

٢ - وقد يأتي على صورة المبتدأ والخبر، ويكون الخبر مضافاً، وإليك الأمثلة التالية:

يمكنك عند تقدير أداة التشبيه: أن تقدم أحد المتضايفين على الآخر، فإذا قلت: «هو ملجأ المساكين، وحصن الضعفاء، وكعبة القاصدين، وروضة المشتاقين»، فيمكنك أن تقدر الكاف بإبقاء الكلام على ما هو عليه، فتقول: «أنت كحصن الضعفاء، وكملجأ المساكين، وككعبة القاصدين، وكروضة المشتاقين».

وجاز لك - ثانياً - أن تقدم المضاف إليه على الأداة، وهو أحسن من سابقه، وأجمل وقعاً على النفس، فتقول: «أنت للمساكين كالملجأ، وللضعفاء كالحصن، وللقاصدين كالكعبة، وللمشتاقين كالروضة»، وهنا تكون قد فككت المتضايفين بعضهما عن بعض.

٣ - أن يكون المشبه به مصدراً (مفعولاً مطلقاً) فتقول: «كرَّ كرَّ الأسد»، «وأقبلَ إقبال النسيم»، و«دبّ دبيب المرض» ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، ومنه قوله ﷺ: «يَنْطِلِقُ أحدُكم إلى أخيه يَعَضُّهُ عَضيضَ الفَحْلِ، ثم يأتي يلْتَمِسُ العَقْلَ، لا دِيَةَ لك»[1].

٤ - أن يكون المشبه به حالاً «كرَّ حمزة أسداً» و«أقبلت سعاد بدراً».

(١) رواه الإمام أحمد، ٤/ ٢٢٣. ورواه ابن ماجة - كتاب الديات - باب (من عضّ رجلاً فنزع يده فندر ثناياه)، ٢/ ٨٨٦. والحديث في رجل عضَّ يدَ أخيه، فجذب الآخر يده فطرح ثنيته، فأتى الرجل رسول الله ﷺ يطلب عَقْل ثنيته، أي: ديتها، فأجابه الرسول بأنه ليس له دية.

٥- أن يكون المشبه به مضافاً، والمشبه مضافاً إليه، تقول: «سبحانك اللهم، وقد أبدعْتَ ليلَ الشَّعْرِ، وعاجَ العنق، ولَحْظَ السهم، وَوَرْدَ الخَدِّ، ونرجسَ العيونِ».

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

والـرِّيحُ تَعْبَـثُ بِالغُـصُونِ وَقَـدْ جَـرى ذَهَـبُ الأصـيلِ عَـلى لُجَيْنِ المـاءِ

والأصل: أصيل كالذهب، وماء كاللجين.

وكقول الشريف الرضي[1]:

أرْسَـى النَّـسِيْمُ بِـوَادِيكُمْ وَلاَ بَرِحَـتْ حَوامِـلُ المُـزْنِ في أجْـداثِكُم تَـضَعُ
ولا يَـزَالُ جَنـينُ النَّبْـتِ تُرْضِـعُهُ عَـلى قُبُـورِكُمُ العَرَّاصَـةُ الهَمِـعُ

فالتشبيه في البيت الأول في قوله: «حوامل المزن»، حوامل مضاف والمزن مضاف إليه، والأصل فيه «مزن كالحوامل» فشبه المزن بالحوامل لأن كلاً منهما يُرجى منه الخير، وفي البيت الثاني تشبيه آخر وهو قوله: «جنين النبت» والأصل «نبت كالجنين».

وقال شوقي[2]:

جُبْـتَ الـسَّمواتِ أوْ مَـا فَـوْقَهُنَّ بهـم عَـلَى مُنَـوَّرَةٍ دُرِّيَّـةِ اللُّجُـم[3]

واعلم أنهم يفضلون التشبيه المؤكد على التشبيه المرسل لأنه أبلغ؛ فإن حذف الأداة يشعرك بقرب اتحاد المشبه بالمشبه به، أما ذكر الأداة، فإنه يُذهِب من النفس هذا الرونق، بل تشعر بشيء من البُعد. وأضف إلى ذلك أنه أوجز - كذلك - مما ذكرت الأداة فيه، ولا تظننَّ أن كل تشبيه مؤكد حذفت أداته يجب أن يكون أبلغ على الدوام مما ذكرت فيه الأداة، فقد يبدع الشاعر في تشبيه ذُكِرت أداته ويقصر في تشبيهٍ حُذِفت منه الأداة.

المعوَّل - إذن - على الصورة التي يبرزها المتكلم، فإذا تساوت الصورتان كان المؤكد أبلغ من المرسل.

---

(١) ديوانه، ١/ ٦٤٧. العَرّاص: السحاب ذو البرق والرعد، الهَمِعُ: السحاب الماطر.
(٢) الشوقيات، ١/ ١٩٨.
(٣) بهم: المراد مررت ببعضهم في السموات، منورةٍ دريّةِ اللجم: المراد البراق.

ثالثاً: تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه:

ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه:

١ - **إلى مفصل ومجمل**: فالمفصل ما ذكر فيه وجه الشبه، كقولنا: «هي كاللؤلؤ في الصفاء»، والمجمل ما لم يذكر فيه وجه الشبه، ويمكنك أن تدرك على ضوء ما سبق: أن التشبيه إن ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه فهو (مرسلٌ مُفصَّل) - «هي كالشمس في الحسن» - وإن ذكرت فيه الأداة وحذف وجه الشبه، فهو (مرسلٌ مُجْمَل) - «هي كالشمس» - وإن حذفت منه الأداة وذكر فيه وجه الشبه فهو (مؤكَّدٌ مُفصَّل) - «هي شمسٌ في الحسن».

أما إن حذفت الأداة ووجه الشبه فهو التشبيه (البليغ) - «هي شمس» و«هو أسد» - ومنه قوله ﷺ : «والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»[١] وإنما كان تشبيهاً بليغاً لأنه حذفت منه الأداة ووجه الشبه، فصار المشبه والمشبه به كالشيء الواحد، وفي هذا ما فيه من زيادة الدلالة على اتحاد المشبه والمشبه به.

٢ - **ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى تمثيل وغير تمثيل**: فالتمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أشياء متعددة، والتشبيه غير التمثيل ما لم يكن وجه الشبه فيه كذلك، وهذا موضوع حريّ بالتفصيل جدير بالتوضيح والتمثيل، فلنعقد له باباً خاصاً، ولنعرض أولاً لما فيه من آراء ثم نبين حقيقته وروعته وموقعه مستمدين العون من الله.

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الطهارة)، باب (فضل الوضوء)، ١/ ٢٠٣.

تشبيه التمثيل

لا بد أن نعرض - أولاً - لآراء العلماء وهم يتحدثون عن التشبيه والتمثيل، هل هما شيء واحد؟ وإن لم يكونا كذلك فما هو ضابط الفرق بينهما؟ وبمَ يختلف كل عن الآخر؟

فلقد ذهب بعضهم إلى أن التشبيه والتمثيل كليهما شيء واحد، ومن أولئك صاحب المثل السائر، - ابن الأثير - فهو يقر أن لا فرق بين التشبيه والتمثيل.

ولكن جمهور العلماء على أن التشبيه شيء والتمثيل شيء آخر، وقد اختلف هؤلاء في تحديد الفرق بينهما، وسنقتصر على أقوال ثلاثة نختار بعدها ما نرجحه مبينين سبب هذا الترجيح.

المذهب الأول: مذهب عبدالقاهر:

ذهب الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله تعالى - إلى أن التشبيه أعم من التمثيل، والتمثيل أخصّ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، ولكنه حينما أراد أن يفرق بينهما نظر إلى وجه الشبه، فوجد أن الشبه تارة يكون عقلياً وتارة يكون حسياً، والعقلي قد يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تأويل، وقد لا يكون كذلك، بل لا بد فيه من التأويل، هذه أقسام ثلاثة لا بد أن تتنبه لشرحها.

فالقسم الأول: وهو ما يكون وجه الشبه فيه حسياً كالحمرة التي شبه من أجلها الورد بالخدّ، والسواد الذي شبه من أجله الشعر بالليل، والبياض الذي من أجله شبّه الماء باللجين، فوجه الشبه في هذه التشبيهات محسوس كما ترى.

القسم الثاني: ما كان وجه الشبه فيه عقلياً لا يحتاج إلى تأويل، الشجاعة ليست من الأمور المحسوسة إنما هي أمر عقلي، وكذلك الجود، وقل مثل هذا عن البخل والجهل والجبن، فإذا قلنا: «خالد كالأسد في الشجاعة»، فإن الشجاعة التي هي وجه الشبه موجودة في المشبه والمشبه به دونما حاجة إلى تأويل، فلو لم يكن خالد شجاعاً ما شبه بالأسد، وكذلك قولنا: «هو كحاتم في الجود» فإن الجود موجود في كليهما فلو لم يكن

جواداً ما شُبّه بحاتم. وكذلك إذا قلت: «هو كالثعلب في المكر، وكاليهود في الجبن والبخل» فإن وجه الشبه في هذه الأمثلة جميعاً موجود في الأصل الذي هو المشبه به، وهو موجود كذلك في الفرع الذي هو المشبه.

أما **القسم الثالث**: وهو ما كان وجه الشبه فيه عقلياً لا بد فيه من التأويل فإليك أمثلته حتى يستبين لك تمام الاستبانة ويظهر لك غاية الظهور:

«كلامك كالعسل في الحلاوة»، «رِمْشُها كالسيف في الحدة»، «كلامها كالنسيم في الرقّة»، «ذكره كالمسك في الطيب»، انظر إلى هذه الأمثلة وتأمل وجه الشبه في كل واحد منها وفكّر جيداً فيما بين هذا وبين القسم الذي قبله من فروق.

انظر في المثال الأول: «كلامه كالعسل في الحلاوة» الحلاوة وجه الشبه، ولكن تُرى هل الحلاوة في العسل كما هي في الكلام؟ إن الحلاوة وصف حقيقي للعسل أما الكلام فلا يوصف بها إلا بعد ضرب من التأويل، ذلك أن الحلاوة مما تميل إليه النفس ويأنس بها الطبع، فإذا وصف الكلام بها فإنهم لا يريدون الحلاوة ذاتها وإنما يريدون لازمها، وما ينتج عنها من أثر. إن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا: «خالد كالأسد في الشجاعة» - وهو القسم الثاني الذي ذكرناه لك من قبل - وبين قولنا: «كلامه كالعسل في الحلاوة»، ذلك أن الشجاعة موجودة في طرفي التشبيه كليهما وجوداً حقيقياً، فكما هي موجودة في الأسد فهي كذلك في خالد، إلا أنها أقوى في المشبه به، أما الحلاوة فليست كذلك لوجودها في الأصل وهو المشبه به يختلف تماماً عن وجودها في الفرع وهو المشبه، وجودها في الأصل على سبيل الحقيقة، لكن وجودها في الفرع يحتاج إلى تأويل.

ولولا أن الحلاوة لم توجد في العسل وفيما يشبهه لما استطعنا أن نصف بها الكلام، أما الشجاعة فلو لم توجد في الأسد لأمكن أن يتصف بها خالد وغيره.

وكذلك تقول في الأمثلة الباقية، فالحدّة التي هي وجه الشبه، إنما يوصف بها السيف على الحقيقة ولكن وصف الرمش بها لا بد فيه من تأويل إذ المراد ما تقتضيه الحدّة وما ينشأ عنها من التأثير مثلاً، وكذلك الرقة والطيب تقول فيهما ما قلناه في المثالين السابقين، ألا ترى أن الطيب هو وصف على الحقيقة للمسك، ولما جعلناه للمشبه فليس ذلك من باب الحقيقة إنما هو على سبيل التأويل كما قلنا، فمن نتائج الطيب أنه يستريح له الفؤاد.

وهكذا كل ما يشبه هذه الأمثلة مثل: «هو كالجبل في العلو» و«الجدول في الرقة»، ومنه المثل: «هم كالحلقة المُفْرَغَة لا يُدْرَى أين طرفاها» - وهو مثل يضرب للأكفاء يستوون في الفضل والنبل - وأصله أن امرأة سُئلت عن أولادها أيهم أفضل؟ فقالت هذه المقالة فصارت مثلاً. فوجه الشبه وهو الإحكام موجود على الحقيقة في الحلقة المفرغة وهو المشبه به.

إذا عرفت هذه الأقسام الثلاثة:

١ - وجه الشبه الحسي.

٢ - وجه الشبه العقلي الذي لا يحتاج إلى تأويل وهو ما وجد في المشبه والمشبه به على الحقيقة.

٣- وجه الشبه الذي يحتاج إلى تأويل وهو ما كان وجوده في الأصل (المشبه به) يختلف عن وجوده في الفرع (المشبه). أقول: إذا عرفت هذه الأقسام فأيها الذي يجعله الشيخ من باب التمثيل؟

إن القسم الأول والثاني يرى الشيخ أنهما ليسا حريين باسم التمثيل، إنما التمثيل هو القسم الثالث فحسب. التمثيل عند الشيخ - إذن - ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي، وهو ما يختلف وجوده في المشبه به عن وجوده في المشبه.

التمثيل - إذن - لا يأتي عند الشيخ إذا كان وجه الشبه حسياً، مفرداً كان، أم مركباً، أم صورة منتزعة من متعدد، والتمثيل لا يأتي عند الشيخ إذا كان وجه الشبه عقلياً لا يحتاج إلى تأويل. يقول الشيخ عبدالقاهر: «اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأول.

والثاني: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من تأول.

فمثال الأول: تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبَّه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه، وبالحلقة في وجه آخر، والتشبيه من جهة اللون، كتشبيه الخدّ

بالورد، والشعر بالليل، والوجه بالنهار، وتشبيه سِقْط النار بعين الديك... وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، وبالذئب في النُكر. والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما.

فالشبه في هذا كله بيّن لا يجرى فيه التأول، ولا يُفتَقر إليه في تحصيله، وأي تأوُّل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة؟ وأنت تراها - ها هنا - كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل.

ومثال الثاني: وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأوُّل، كقولك: «هذه حُجَّةٌ كالشمس في الظهور»، فقد شبَّهتَ الحجة بالشمس من جهة ظهورها، كما شبَّهْتَ فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما، إلا أنك تعلَم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأوُّل، وذلك أن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرِها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك إذا لم يكن بينك وبينه حجاب، ولا يظهر لك إذ كنت من وراء حجاب.

ثم تقول: إن الشُّبهة نظير الحجاب فيما يُدرَك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤيةَ ما هي شُبهة فيه، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه، ولذلك تُوصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلبُ إدراكه، ويَصرِف فكرَه للوصول إليه من صحّةِ حكمٍ أو فساده، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحةِ ما ادُّعي من الحكم، قيل: «هذا ظاهر كالشمس»، أي: ليس ها هنا مانع عن العلم به، ولا للتوقف والشك فيه مساغ، وأن المُنكِر له إما مدخول في عقله، أو جاحد مباهت، ومسرف في العناد، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصرٍ، ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكارها، فقد احتجْتَ في تحصيل الشبه الذي أثبتَّهُ بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول كما ترى.. ».

ثم يقول: «وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام، والتمثيل أخصّ منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً، فأنت تقول في قول أبي قيس بن الأسلت:

وَقَــدْ لاحَ في الــصُّبْح الثُّرَيّــا لِمَــنْ رَأى   كَعُنْقُــودِ مُلاَّحِيَّــةٍ[1] حِــينَ نَــوَّرا

إنه تشبيه حسن، ولا تقول: هو تمثيل، وكذلك تقول: ابن المعتز حَسَنُ التشبيهات بديعُها، لأنك تعني تشبيهه المبصَرات بعضَها ببعض، وكل ما لا يوجد الشبه فيه من طريق التأول كقوله[2]:

كَــأنَّ عُيــونَ النَّــرجِسِ الغَــضِّ حَوْلَنــا   مَــــدَاهِنُ دُرٍّ حَــــشْوُهُنَّ عَقيــــقُ

وما كان من هذا الجنس ولا تريد نحو قوله[3]:

إصْــــبِرْ عَــــلى مَــــضَضِ الحَــسو   دِ فــــإنَّ صَــــبْرَكَ قاتِلُــــــهْ
فالنَّــــــارُ تَأْكُــــــلُ نَفْــــسَهَا   إنْ لَمْ تَجِــــــدْ مَــــــا تَأْكُلُــــــهْ

وذلك أن إحسانه في النوع الأول أكثر وهو به أشهر، وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ «المثل» لا يستعمل فيه أيضاً فلا يقال: ابن المعتز حسن الأمثال، تريد به نحو الأبيات التي قدمتها وإنما يقال: صالح بن عبدالقدوس كثير الأمثال..

ولكن إن قلت في قول ابن المعتز:

فَالنَّــــــارُ تَأْكُــــــلُ نَفْــــسَهَا   إنْ لَمْ تَجِــــــدْ مــــــا تَأْكُلُــــــهْ

إنه تمثيل، فمثل الذي قلتُ ينبغي أن يقال، لأن تشبيه الحسود - إذا صُبِر عليه وسُكت عنه وترك غيظه يتردد فيه - بالنار التي لا تُمَدُّ بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً، مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة.

فقد تبين بهذه الجملة وجهُ الفرق بين التشبيه والتمثيل، وفي تتبّع ما أجملتُ من أمرهما، وسلوك طريق التحقيق فيهما، ضربٌ من القول ينشط له من يأنسُ بالحقائق... وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول، وأن هذا الضرب فرع له ومرتَّب عليه»[4].

---

(١) ملاحيه: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.
(٢) ديوانه، ص٥١٤.
(٣) ديوانه، ص٥٧٩.
(٤) أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبدالعزيز النجار، ص٨٥-٩٤.

وإنما أطلت في بيان رأي الشيخ لأني وجدت بعض الكاتبين يقرر شيئاً آخر غير الذي قرره الشيخ، «ثم يروح يشرح - أي الشيخ عبدالقاهر - قوله هذا في إسهاب مفاده أن التشبيه العام هو ما كان وجه الشبه فيه مفرداً، أي: صفة أو صفات اشتركت بين شيئين ليس غير، وأن تشبيه التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه صورة مأخوذة أو منتزعة من أشياء متعددة»[1].

المذهب الثاني: مذهب السكاكي:

اتفق السكاكي مع الشيخ عبدالقاهر على أن التشبيه إذا كان وجه الشبه فيه حسياً، سواء كان مفرداً أم صورة لا يسمى تمثيلاً، ولكن مع هذا الاتفاق فإن السكاكي خالف الشيخ من جهة ثانية، فالشيخ - كما عرفنا من قبل - يرى أن تشبيه التمثيل ما يحتاج وجه الشبه فيه إلى تأوُّل، سواء كان هذا الوجه مفرداً أم صورة منتزعة من متعدد.

تشبيه التمثيل عند الشيخ - إذن - قد يكون وجه الشبه فيه مفرداً، أما السكاكي فذهب إلى أن تشبيه التمثيل لا ينبغي أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً بل لا بد أن يكون هيئة منتزعة من متعدد يقول: «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي، وكان منتزعاً من عدة أمور، خُصّ باسم التمثيل كالذي في قوله:

إِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُو ... دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تأْكُلُ نَفْسَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تأْكُلُهْ

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تُمَدُّ بالحطب، فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم له، وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقاولة، مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى نفثة المصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك، وإنه كما ترى منتزع من عدة أمور، وكالذي في قوله[2]:

وإنَّ مَنْ أدّبْتَهُ فِي الصِّبَا ... كالعُودِ يُسقَى المَاءَ في غَرْسِهِ
حتَّى تَراهُ مُورِقاً ناضِراً ... بَعْدَ الذي أبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

---

(١) علم البيان، عبدالعزيز عتيق، ص٦٢.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٤٨.

فإن تشبيه المؤدَّب في صباه بالعود المسقي، أو أن الغرس المؤنق بأوراقه ونضرته ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق، مرضي السيرة، حميد الفعال، لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه، وكمال استحسان حاله، وإنه - كما ترى - أمر تصوري لا صفة حقيقية، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور... ».

«... وكذا الذي في قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥] فإن وجه الشبه بين أحبار اليهود الذين كُلِّفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بذلك، وبين الحمار الحامل للأسفار، وهو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء بالانتفاع به، مع الكد والتعب في استصحابه، وليس بمشتبه كونه عائداً إلى التوهم ومركباً من عدة معانٍ»[1].

المذهب الثالث، مذهب صاحب الإيضاح الخطيب القزويني:

جاء الخطيب القزويني فلخّص مفتاح السكاكي، ولكنه خالفه في بعض القضايا البلاغية، ومن القضايا التي خالفه فيها قضيتنا التي نتحدث عنها، فهو يرى أن التمثيل لا ينبغي أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً - وبهذا يتفق مع السكاكي في مخالفة الشيخ عبدالقاهر - ولكنه يرى بعد ذلك أننا لا ينبغي أن نقتصر في التمثيل على وجه الشبه العقليّ المركب، فهناك صور حسية بديعة لوجه الشبه حريّ بها أن يزيّن بها التمثيل.

دائرة التمثيل عند الخطيب - إذن - أوسع منها عند السكاكي، فإذا كان السكاكي يقتصر في التمثيل على كون وجه الشبه صورة عقلية، فإن الخطيب يجعل من التمثيل الصورة الحسية كذلك، وهذا الذي استقرت عليه كلمة البيانيين لذا فهو المعتمد المرجح، وإليك بيان ذلك.

توضيح لما سبق:

ولعلك الآن تستطيع أن تفرق بين هذه الآراء الثلاثة، وإليك زيادة بيان لتستقر القضية في نفسك استقراراً تاماً.

---

(١) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي، ص١٤٨-١٤٩.

١ - «الحجة كالشمس في الظهور»، «النظرة كالسهم نفوذاً»، هذا من التمثيل عند الشيخ؛ لأن وجه الشبه فيه يحتاج إلى تأويل، فالظهور في الحقيقة صفة للشمس، والنفوذ صفة للسهم. وليس تمثيلاً عند صاحب المفتاح، ولا عند صاحب التلخيص؛ لأن وجه الشبه فيه مفرد، وهما يشترطان الصورة المنتزعة في وجه الشبه.

٢ - وَقَدْ لاَحَ في الصُّبْحِ الثُّرَيّا لِمَنْ رأى   كَعُنْقُودِ مُلاّحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

وقول ابن المعتز[١]:

قَدِ انْقَضَت دَوْلَةُ الصِّيام وَقَدْ   بَشَّرَ سُقْمُ الهِلالِ بالعِيدِ
يَتْلُو الثُرَيّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ   يَفْتَحُ فَاهُ لأكْلِ عُنْقُودِ

هذه التشبيهات جميعاً ليست بتمثيل عند الشيخ عبدالقاهر، ولا عند السكاكي كذلك؛ لأن وجه الشبه فيها حسي، ولكنها تمثيل عند الخطيب، لأن وجه الشبه - وإن كان فيها محسوساً - إلا أنه صورة منتزعة من متعدد.

٣- قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة:٥]، وقول ابن المعتز[٢]:

إصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُو   دِ فَإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا   إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

الآية الكريمة والبيت تمثيل عندهم جميعاً لأن وجه الشبه فيهما صورة عقلية.

واعلم أن الشيخ حينما تكلم عن التمثيل لم يكن علم البيان قد استقر على ما هو عليه، وكان لا يزال في طور نموّه، ولهذا نجد الشيخ تارة يمثل للتمثيل بما عدّوه فيما بعد من الاستعارة التمثيلية. وإذ قد عُرفت هذا فإن الذي استقر عليه البيانيون فيما بعد هو ما ذهب إليه الخطيب من أن تشبيه التمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، محسوسة كانت الصورة أم معقولة، ذلك لأن هناك إبداعاً في كثير من الصور الحسية

(١) ديوانه، ٣/ ٨٧. الصناعتين، ١٩٤.
(٢) ديوانه، ٤/ ٣٧٥. نهاية الأرب، ٣/ ١٠٠.

تتفاعل معها النفوس، فتجد فيها ضالتها وبغيتها، وسنقيم لك الشواهد على ذلك بما نذكره لك من أمثلة ونمتعك به من كلام مؤثر بليغ وصور خلاّبة جذابة.

التشبيه التمثيلي كما استقرت عليه أقوال البيانيين:

قد قدمنا لك - من قبل - حينما حدثناك عن أقسام التشبيه من حيث طرفاه، بعض الأمثلة عن التشبيه المركب، وهذا سيعينك على فهم التمثيل وتذوقه، راجع تلك الأبيات التي ذكرناها هناك:

كَأَنَّما المَرِّيخُ والمُشْتَرِي ... قُدَّامَهُ في شامِخِ الرِّفْعَةْ
مُنْصَرِفٌ بِاللَّيلِ عَنْ دَعْوَةٍ ... قَدْ أُسْرِجَتْ قُدَّامَهُ شَمْعَةْ
كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ الكَأْسَ في فَمِهِ ... هِلالُ أَوَّلِ شَهْرٍ غابَ في شَفَقِ
كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوقَ رُؤوسِنا ... وأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُه

وستجد أن هذه التشبيهات جميعاً كان فيها كل من المشبه والمشبه به صورة خاصة، ففي البيت الأول. المشبه (المريخ والمشتري يسير أمامه)، والمشبه به (منصرف من دعوة في جنح الليل يسير وقد أُسرجت أمامه شمعة). والمشبه في البيت الثاني: (صورة إنسان وسيم وقد دخل بعض الكأس بين شفتيه)، والمشبه به (الهلال وقد غاب في الشفق)، والمشبه في البيت الثالث: - كما عرفت - (مثار النقع في ساحة الوغى والسيوف ذات اللمعان تتساقط فيه)، والمشبه به (الليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب).

ووجه الشبه في هذه جميعها صورة منتزعة من أشياء متعددة؛ فوجه الشبه في البيت الأخير صورة أجرام ذات لمعان تتساقط في ظلام حالك، ووجه الشبه في البيت الثاني صورة شيء أبيض غيّب في شيء من الحمرة، وفي البيت الأول: صورة جرم كبير يتقدمه شيء مضيء.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ [الجمعة:٥]، فالمشبه اليهود وقد كُلِّفوا بالتوراة والقيام بما فيها من تكاليف فيها الخير لهم؛ ولكنهم أعرضوا عنها ولم ينتفعوا بها؛ والمشبه به: الحمار يحمل الأسفار الثمينة النفيسة المفيدة، ولكن ليس له منها إلا التعب والإجهاد، ووجه الشبه صورة

منتزعة من متعدد: صورة من هُيئت له نفائس الأشياء فلم يزدد بها إلا تعباً دون أن يحصل على فائدة. استمع إلى قول كثير[1]:

لَقَدْ أطْمَعَتْنِي بِالوِصَالِ تَبَسُّماً ... وَبَعْدَ رَجَائي أعْرَضَتْ وَتَوَلَّتِ
كَمَا أبْرَقَتْ قَوماً عِطاشاً غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فهو كما تراه في شكواه وقد أطمعته محبوبته بالوصال لما رأى من تبسمها وبشاشة وجهها، ولكنه حينما منّى نفسه بالرجاء تركته وأعرضت عنه، فما مثله إلا كمثل قوم عطاش وقد رأوا غمامة في السماء فأيقنوا بالمطر الذي سيُذهِب ظمأهم، ولكنها سرعان ما انقشعت فما زادهم ذلك إلا تألماً وحسرة، ويمكنك أن تستخرج الصورة التي هي وجه الشبه (صورة من أيقن بالوصول إلى الهدف بعد أن بدت أسبابه ومقدماته ولم يبق بينه وبين ما يريد إلا قيد أنملة فتبددت آماله، وضاعت أمانيه). واستمع إلى قول الشاعر:

دَانٍ إلى أيْدِي العُفَاةِ وَشَاسِعٌ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَضَرِيبِ[2]
كَالْبَدْرِ أفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوْؤُهُ ... لِلْعُصْبَةِ السَّارينَ جِدُّ قَرِيبِ

فهو يشبه الممدوح وهو قريب إلى سائليه، ينالون من عطاياه، ويسعدون بوجوده؛ ولكنه مع هذا القرب بعيد في منزلته ورفعته وعلو شأنه، يشبهه بالبدر وقد أفرط في العلو ولكن ضوءه قريب لأولئك السارين في جنح الليل، ووجه الشبه صورة ذلك الشيء القريب من ناحية ولكنه البعيد من ناحية أخرى. ويقول أبو فراس[3]:

والمَاءُ يَفْصِلُ بَينَ زَهْـ ... ـرِ الرَّوْضِ في الشَّطَّيْنِ فَصْلا
كَبِسَاطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ ... أيْدِي القُيُونِ عَلَيْهِ نَصْلا

يشبه حال ماء الجدول، وهو يجري بين روضتين على شاطئيه حلاّهما الزهر البديع ألوانه، منبثاً بين الخضرة الناضرة، بحال سيف لمّاع لا يزال في بريق حدته وقد جرده

(١) نهاية الأرب، ١/ ٧٨. المطول، ٣٢٦. أسرار البلاغة، ص٩٨ تحقيق هـ. ريتر.
(٢) الضريب: المثل والنظير، وعطفه على الندّ عطف تفسير، سبق توثيق البيت، ص٢٤.
(٣) سبق البيتان، ص٤٦.

القيون على بساط من حرير مطرز، ووجه الشبه وجود بياض مستطيل حوله اخضرارٌ فيه ألوان مختلفة. ويقول ابن المعتز(١):

قَـدِ انْقَـضَتْ دَوْلَـةُ الـصِّيام وَقَـدْ بَـشَّرَ سُـقْمُ الهِـلالِ بالعيـدِ
يَتْلُـو الثُّرَيّـا كَفَـاغِرٍ شَرِهٍ يَفْـتَحُ فـاهُ لأكْـلِ عُنْقُـودِ

فشبه صورة الهلال والثريا أمامه بصورة شَرِهٍ فاتح فاه لأكل عنقود من العنب، ووجه الشبه صورة شيء مقوس يتبع شيئاً آخر مكوناً من أجزاء صغيرة بيضاء. ويقول ابن الرومي(٢):

مـا أنْـسَ لا أنْـسَ خبّـازاً مَـرَرْتُ بِـهِ يَـدْحو الرِّقاقَـةَ وشْـكَ اللَّمْـح بالبَـصَرِ
مَـا بَـيْنَ رُؤْيَتِهَـا في كَفِّـهِ كُـرَةً وَبَـيْنَ رُؤْيَتِهَـا قَـوْراءَ كـالقَمَرِ
إلاّ بِمِقْـدارِ مـا تَنْـدَاحُ دائِـرَةٌ في صَـفْحَةِ المـاءِ تَرْمـي فِيـهِ بِـالحَجَرِ

يشبه حال عجينة الرقاقة في يد الخباز تكون في أول أمرها كرة صغيرة ثم تنبسط وتستدير بسرعة بحال دائرة الماء الناشئة من إلقاء حجر فيه، تكون في أول أمرها صغيرة ثم تنداح سريعاً، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول أمره صغيراً مستديراً ثم يأخذ في الاتساع والانبساط وشيكاً. وقال في الشيب(٣):

أوّلُ بَـدْءِ المَـشيبِ وَاحِـدَةٌ تُـشْعِلُ مـا جَـاوَرَتْ مِـنَ الـشَّعَرِ
مِثْـلُ الحَرِيـقِ العَظِـيمِ تَبْـدأُهُ أوّلَ صَـوْلٍ صَـغيرةُ الـشَّرَرِ

يشبه حال الشيب يبتدئ بشعرة تؤثر فيما جاورها من الشعر الأسود فيشيبُ جميعاً بحال الحريق العظيم تبدؤه شرارة صغيرة، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول الأمر صغيراً ثم لا يلبث أن ينتج أمراً عظيماً خطيراً، وقال أبو تمام في مغنية تغني بالفارسية(٤):

---

(١) سبق هذان البيتان ، ٧٤.
(٢) ديوانه، ٢/ ٢٧٧.
(٣) ديوانه، ٢/ ٢١٠.
(٤) نُسبا لأبي تمام في زهر الأدب، ١/ ١٦١، وفيه قوله – أبي تمام – إنه أخذ هذا المعنى من بشار بن برد في قوله: =

وَلَمْ أفْهَـــمْ مَعانِيَهـــا ولَكِـــنْ وَرَتْ كَبِـدي فَلَـمْ أجْهَـلْ شَـجَاها
فَبِـتُّ كَـأَنَّني أعْمَـى مُعَنّـى يُحِـبُّ الغانِيَـاتِ وَلا يَراهــا

يشبه الشاعر حاله وقد أثار نغمُ المغنية بالفارسية في نفسه كامنَ الشوق وهو لا يفهم لغتها، بحال الأعمى يهوى الغانيات وهو لا يرى شيئاً من حسنهن، ووجه الشبه صورة قلب يتأثر وينفعل بأشياء لا يدركها كل الإدراك.

ويقول آخر في صديق عاق:

إنّي وَإيّـاكَ كَالصَّادِي[1] رَأى نَهَـلاً وَدُونَـهُ هُـوّةٌ يَخْشَى بِهَـا التَّلَفَـا
رَأى بعَيْنَيْـهِ مـاءً عَـزَّ مَـوْرِدُهُ وَلَـيْسَ يَمْلِـكُ دَونَ المـاءِ مُنْـصَرَفا

يشبه الشاعر حاله مع صديقه العاق وقد دعا الوفاء الشاعر إلى الإبقاء على مودة هذا الصديق، ودعاه ما رآه فيه من العقوق إلى قطعه، وهو بين الأمرين حائر ولكنه يصغي أخيراً إلى داعي الوفاء، يشبه حاله مع صديقه بحال عطشان، رأى ماء، وتحول بينه وبين الشرب منه هوّة يخشى منها الهلاك على نفسه لو دنا منه، فوقف حائراً ولكنه لا يستطيع الانصراف عن الماء، ووجه الشبه صورة من يريد شيئاً فتحول العقبات دونه فتدركه الحيرة ولكنه لا ييأس.

ويقول المتنبي في وصف أسد[2]:

يَطَـأُ الثَّـرى مُتَرَفِّقـاً مِـنْ تِيهِـهِ فَكَأنَّـهُ آسٍ يُجُـسُّ عَلـيلاَ

يشبه هيئة الأسد وهو يمشي على الثرى برفق من شدة زهوه بنفسه بهيئة الطبيب الذي يَجُسُّ المريض برفق، ووجه الشبه صورة شيء يمس شيئاً آخر في رفق وتؤدة.

=

يـا قـومُ أذني لـبعض الحـيِّ عاشـقةٌ والأذنُ تَعْـشَقُ قبـلَ العَـيْنِ أحيانـا
قـالوا بمـن لا تَـرَى تهـذي؟ فَقُلْـت لهـم الأذنُ كَـالعَيْنِ تُـوفي القَلْـبَ مَـا كانَـا
وهما ليسا في ديوان أبي تمام.

(١) الصادي: العطشان.
(٢) ديوانه، ٣/ ٤٤٣.

ومن ذلك قولك: «المتردد في الأمور يجذبه رأي هنا ورأي هناك كريشة في مهب الريح» وقولك: «الكلمة الطيبة لا تثمر في النفوس الخبيثة كالحبة الصالحة لا تنبت في الأرض السَّبِخَة» ومنه قولك: «العالم المتواضع لا يزيده تواضعه إلا رفعة وشرفاً كالشعلة إذا نُكِّست زادت اشتعالاً»، «المذنب لا يزيده الصفح إلا تمادياً كاللئيم لا يزيده الإحسان إلا تمرّداً».

هذا هو التشبيه التمثيلي يقع من النفس خير موقع، وقد تنافس فيه الشعراء والبلغاء - كما رأيت - .

أما غير التمثيل: فهو ما لم يكن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، بل يكون وجه الشبه فيه أمراً واحداً وربما يكون أكثر من شيء واحد فمثال الأول: قول امرئ القيس[1]:

وَلَيْلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أرْخَى سُدُولَهُ   عَلَيَّ بأنواعِ الهُمُومِ ليَبْتَلِي

فوجه الشبه هنا الشدة والصعوبة ومثال الثاني:

أنْتَ نَجْمٌ في رِفْعَةٍ وَضِياءٍ   تَجْتَلِيكَ العُيُونُ شَرْقاً وغَرْبا

فوجه الشبه هنا الرفعة والضياء إلا أننا يمكن أن نستغني بأحدهما عن الآخر أو نقدم أحدهما على الآخر وهذا ممتنع في تشبيه التمثيل.

(١) ديوانه، ص١٠٧.

التشبيه الضمني

ويسمى التشبيه الكنائي.

عرفت صوراً كثيرة للتشبيه - فيما مضى - فتارة يأتي على صورة مبتدأ وخبر، وتارة على صورة المضاف والمضاف إليه، وتارة على صورة مصدر، وأخرى في صورة حال إلى غير ذلك - مما عرفت من قبل - ، ولكن هذا النوع من التشبيه لا يأتي على أي صورة من تلك الصور المعروفة، إلا أنك تلمح معناه وأنت تقف تتأمل في البيت من الشعر، أو في الجملة من النثر، لتستخرج التشبيه من بين أثنائهما، من أجل ذلك سمي ضمنياً لأنه لا يذكر صراحة في الكلام.

ولا بد من أن ننبهك هنا على قضيةٍ ذات شأن وهي أن التشبيه الضمني ليس قسيماً لتشبيه التمثيل، أي: ليس أحدهما يقابل الآخر[1]، ذلك لأن النظر في تشبيه التمثيل إلى وجه الشبه، سواء كان التشبيه صريحاً أم غير صريح. أما النظر في التشبيه الضمني فهو من هذه الحيثية - أعني كونه غير صريح - وستدرك هذا حينما نشرح لك هذا النوع من التشبيه فتحسن تذوقه وتنجذب نفسك إليه:

يقصد المتكلم إلى هذا الأسلوب من التشبيه حينما يأتي بمعنى من المعاني وقضية من القضايا ثم يرى أن يأتي لها ببرهان ودليل ويقيم عليها الحجة، ولقد فطن الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - بصفاء ذهنه، وثاقب فكره، إلى هذا الأسلوب، حيث قسم التمثيل إلى قسمين:

الأول: الذي يجيء أعقاب المعاني.

الثاني: أن يبرز المعنى باختصار في معرضه ويُنقَل عن صورته الأصلية إلى صورته.

---

(١) كالاسم والفعل فكلٌّ منهما قسيم للآخر.

ومن القسم الأول التشبيه الضمني، صحيح أن القسم الأول لا يشمل التشبيه الضمني وحده - كما توهمه عبارة بعض الكاتبين المحدَثين[1] - إنما يشمله وغيره، فالتشبيه الذي يأتي عقب المعاني نوعان:

أحدهما: التشبيه الضمني.

وثانيهما: كل تشبيه صريح جاء عقب المعنى ومنه البيت الذي تقدم معنا من قبل[2]:

دانٍ إلى أيْدِي العُفاةِ وشَاسِعٌ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدى وَضَرِيبِ

فلقد تم المعنى في هذا البيت ثم جاء بالتشبيه بعد تمام المعنى وهو قوله:

كَالبَدْرِ أفْرَطَ فِي العُلوِّ وَضَوْؤُهُ ... لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

التشبيه الذي يأتي عقب المعنى - إذن - منه ما هو ضمني ومنه ما هو صريح، والذي يعنينا الآن هو النوع الأول: كل تشبيه ضمني إذن لا بد أن يأتي عقب المعنى، أي: عقب تمام المعنى الذي يريده المتكلم ليكون بمثابة دليلٍ وبرهان. استمع إلى قول أبي تمام[3]:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلَةٍ ... طُوِيَتْ، أتاحَ لَها لِسانَ حَسُودِ

وهنا تجد أن المعنى الذي قصده الشاعر قد تم وكمل ولكنه أحس بأن هذا القول يحتاج إلى حجة، فأنَّى للحسود أن يكون سبباً في انتشار الفضيلة التي طويت وغُيّبت؟ وكأنما الأمر يحتاج إلى حجة تصدقه فأعقبه بالبيت الآخر:

لَوْلا اشْتِعالُ النَّارِ فِيما جَاوَرَتْ ... مَا كانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ العُوْدِ

ألا ترى أن الشاعر هنا قد أزال من نفسك كل ما علق فيها من شك، وأزاح عنها كل شبهة، ولم تَرْتَبْ بأن لسان الحسود يكون سبباً في نشر الفضيلة المغيَّبة، ألا ترى هذه النار التي تأكل الأخضر واليابس أكانت تفوح رائحة العود الزكي ويُعرف الجيد من غيره

---

(١) انظر البلاغة والتطبيق.

(٢) تقدم هذا البيت، ص٢٤، ٧٦.

(٣) ديوانه، ص٨٥. ديوان المعاني، ١/ ٤٦.

لولا اشتعال النار في كل ما حوله؟، وأنت تدرك أن هذا التشبيه لم يأت على صورة من الصور التي عرفتها من قبل، ولكنك تلمح بكل وضوح أن هنا تشبيهاً رائعاً بديعاً لا يقل أثراً في النفس عن التشبيه الصريح، واستمع إلى قول الآخر[1]:

إصْبِرْ عَلى مَضَضِ الحَسُو دِ فَإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ

ولا ريب أن المعنى الذي يقصده الشاعر معنى تام ليس فيه نقص، ولكن كيف يتأتى أن يقتل الحاسد بصبر المحسود، وهنا يبرز الشاعر لك ما يبدد كل ما يدور حول هذا المعنى من شُبه فيقول:

فالنَارُ تَأكُلُ نَفْسَها إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

ألست تجد أن هذا الدليل يشرق في نفسك، بهذا الأمر المشاهد المحسوس. أليست هذه النار يأكل بعضها بعضاً؟ إن لم تجد ما يذكي أُوارَها[2]، ويزيد اشتعالها؟ وهذا هو شأن الحسود يقتله حسده إذ لم يبلغ ما يتمناه.

وهذا الرافعي - رحمه الله - يذكر في أحد كتبه معاتباً شاكياً:

يا مَنْ عَلى الحُبِّ يَنْسانا ونَذْكُرُه لَسَوْفَ تَذْكُرُنا يَوْماً ونَنْساكَ

ولقد تمت القضية التي يريد الشاعر بها لا مزيد عليه، ولكن هل يتأتى ذلك؟ وكيف؟ وهل ينسى المحب؟ وهل يتذكر السالي؟ وتأتي الحجة لتبدد كل ما في هذه التساؤلات من غموض كما يبدد الفجر ظلمة الليل. فاستمع إليه يقول بعد ذلك:

إنّ الظَّلاَمَ الذي تَجْلُوهُ يا قَمَرُ لَهُ صَبَاحٌ، مَتَى تُدْرِكْه أخفَاكَ

أليس القمر هو الذي يجلو الظلمة، ولكن ماذا يكون بعد ذلك؟ إن للظلمة صباحاً سيُخفي هذا القمر تماماً حينما يدركه، ألا تجد في التشبيه الضمني الإقناع والإمتاع معاً؟

واستمع إلى قول فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري[3]:

---

(١) وهو ابن المعتز، ديوانه، ص٥٧٩.
(٢) الأوار: حر النار.
(٣) ديوان سقط الزند، ص٢٢٨، قصيدة (إلا في سبيل المجد).

وإنْ كُنْتَ تَبْغي العَيْشَ فابْغ تَوَسُّطاً ... فَعِنْدَ التَنَاهِي يَقْصُرُ المُتَطاوِلُ

ومن الذي يقتنع بمثل هذا؟ ومن الذي يرضى بالتوسط؟ ومن الذي لا يحاول أن يصعد إلى القمة؟ وما بال أبي العلاء يطلب منا ما تأباه نفوسنا، ولكن لنتمهل خير من أن نتعجل فماذا عنده بعد ذلك:

تُوقَّى البُدُورُ النَّقْصَ وهيَ أهِلَّةٌ ... ويُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوامِلُ

هذا البدر الذي لا يخفى - كما يقولون - يكون أبعد ما يكون عن النقص وهو هلال ولكنه حينما يكمل ويصبح تِمّاً[1] يتلألأ ويسطع. هناك يعرض له النقص.

واستمع إلى أبي تمام[2]:

وطُولُ مُقامِ المَرْءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ ... لديباجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

ثم يأتيك بالدليل لهذه القضية وهو المشبه به:

فَإنِّي رَأيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً ... إلى النَّاسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وقد يكون في تعليل الشاعر ما يبعث الأمل، ويدفع اليأس، ويستدرّ به عطف المخاطب، واستمع إلى قول المتنبي[3]:

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنّي ... أسرَعُ السُّحْبِ في المَسيرِ الجِهامُ

هل تصدق أن الإبطاء في العطاء من الخير؟ ومن هذا الذي يمكن أن يقنع بهذا القول؟ ولكن الشاعر استطاع أن يقنع نفسه ويرضي ممدوحه (أسرع السحب في المسير الجهام) إن أكثر السحاب سرعة ذلك الذي ليس فيه ماء. واستمع إلى قول البحتري[4]:

وقَدْ زَادَها إفْراطَ حُسْنٍ جِوارُها ... خَلائِقَ أصْفارٍ مِنَ المَجْدِ خُيَّبِ

---

(١) تَمَّ تِمّاً، أي: كمُل واشتد وصَلُب، والمراد: أصبح تاماً كاملاً.

(٢) ديوانه، ١٠٠-١٠١. الموازنة ٣١، يقول: إن الرجل إذا استمرت إقامته بين أهله وعشيرته ملّوه وربما كرهوه، ولكنه إذا أقام حيناً واغترب حيناً آخر فإنهم يزدادون به تعلقاً وبه محبةً.

(٣) ديوانه، ٤/ ٢٢٤. السيب: العطاء والمعروف ونحوه.

(٤) ديوانه، ١/ ١١٨. قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك)، أصفار من المجد: خالون من المجد..

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الكَواكِبِ أنْ تُرَى طَوالِعَ في دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

يقول: إن مما زاد الممدوح فضلاً وزاد أخلاقه حسناً مجاورته لأقوام بعيدين عن الخير خُيَّبٍ من المجد والمروءة وكذلك النجوم تزداد تألقاً وسناً حينما تظهر في ظلمة الليل الحالك.

ومن هذا قول المتنبي يمدح سيف الدولة[1]:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنْهُمْ فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

كيف يفوق الأنام وهو منهم؟ ولكن أليس المسك من دم الغزال، وأين هذا من ذاك؟ وقريب من هذا:

وما أنا مِنْهُمُ بالْعَيْشِ فيهم

ولكن كيف لا تكون منهم وأنت بينهم؟ ويردّ على تساؤلك هذا بقوله:

ولكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرُّغَامُ

إن مستقر الذهب في التراب، فهل نستطيع أن نقول: إن الذهب تراب؟

والحقُّ أن هذا الأسلوب من التشبيه فيه عمق الفكرة، وغزارة المعنى، وحرارة الإمتاع، ووضوح الإقناع، فكّر في نفسك، وفي حالك وحال أمتك، وقد أرادت أن تخفي مرارة الضيم، ولوعة الأسى، وألم الهزيمة، أرادت أن تخفي ذلك كله لتقنع بفاخر الثياب، والرياش، وشامخ البنيان، وأصبح الهوان في حياتها أمراً ليس ذا بال، وكأنما يخاطبها الشاعر قديماً بقوله:

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهَلْ يَروقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ؟

حقاً إن ذا الضيم لا ينبغي أن يعجبه ما يتمتع به من مُتع، ويقيم الشاعر البرهان على ذلك:

وهل يروقُ دفيناً جودة الكفن

---

(١) ديوانه، ٣/ ٢٠.

وماذا يضير الدفين أيّاً كان كفنه. وشبيه بهذا قول الآخر:

مَــنْ يَهُــنْ يَــسْهُلِ الهَــوانُ عَلَيْــهِ   مــا لِجُــرح بمَيِّــتٍ إيــلامُ

وقد يتوسل الشاعر بهذا الأسلوب بما أعطي من بيان فيتوصل إلى ما يريده وهو يقيم الحجة والبرهان. استمع إلى أبي تمام[1] وهو ينفي عن نفسه عيب الفقر، ويبين لليلاه أنها لا ينبغي أن تنكر عليه فقره، وخلو يده من المال، فذلك ليس عيباً في الرجال:

لا تُنْكِـري عَطَـلَ الكَـريم مِـن الغِنَـى

ولكن لماذا؟ فيبين أن ذلك أمر طبعي بدهي، أن يكون ذو المجد متصفاً بضيق ذات اليد.

وهذا المعنى في قول جؤيةَ بن النضر أو النضر بن جؤية[2]:

لا يَـأْلَفُ الـدِّرْهَمُ المَـضْرُوبُ صُرَّتَنـا   لَكِــنْ يَمُــرُّ عَلَيْهــا وَهْــوَ مُنْطَلِــقُ

يقول:

لا تُنْكِـري عَطَـلَ الكَـريم مِـنَ الغِنَـى   فَالــسَّيْلُ حَــرْبٌ لِلْمَكــانِ العَــالِي

وإذا كانت لا ينبغي أن تنكر عليه الفقر فينبغي أن لا تنكر كذلك هذا الشيب الذي لاح في رأسه، فجعلها تعرض عنه وهو لا يزال فتىً في ضحوة عمره:

قَــدْ يَــشيبُ الفتــى ولَــيْسَ عَجيبــاً   أنْ يُــرَى النَّــوْرُ في القــضيبِ الرَّطِيــبِ

فإذا كان النَّوْرُ يرى في القضيب الرطيب فلماذا تنكر على الفتى أن يشيب؟!

ومن التشبيه الضمني قول ابن الرومي[3]:

وَيْــلاهُ إنْ نَظَـرَتْ وَإنْ هِـيَ أعْرَضَـتْ   وَقْــعُ الــسِّهَام وَنَــزْعُهُنَّ ألــيمُ

ذلك هو أسلوب التشبيه الضمني، ومما سبق يتبين أن هذه التشبيهات كلها أو جلّها من قسم التمثيل، كما يتبين لنا كذلك أن لهذا الأسلوب من المحاسن الكثيرة حيث يشترك

---

(١) ديوانه، ص٢٤٦.

(٢) الإيضاح، ٢/ ١١٣. معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، ١/ ٢٠٧.

(٣) ديوانه، ٣/ ٤٥٧، قصيدة (قلبي سقيم).

في تذوقه الفكر والوجدان معاً، ولا عجب في ذلك فهو ضمني، زاده نقابه الذي ينتقبه حسناً وبهاءً.

أسباب تأثير التشبيه:

وقد تتساءل هنا عن سبب تأثير التشبيه في النفوس، وما يحدث فيها من أُنْس، وقبل أن نبين لك هذه الأسباب ونشرحها، يجدر بك أن تعلم أن هناك جهات كثيرة تشترك في التشبيه.

١ - وأول هذه الجهات براعة المتكلم، وهذه البراعة تقوم على دعائم وأسس:

أ- من هذه الدعائم الخيال الخصب.

ب- العاطفة الجياشة.

ج- الذهن الذي يجعل المتكلم قادراً على الاستنتاج ليجمع بين الأشياء، إذ إن المتكلم ليس هو الذي يوجد الرابطة بين الأشياء، وينشئ ما بينها من وجوه اتصال، واتفاق، ومناسبة، إنما وظيفته أن يستنتج الروابط والصلات بين الأشياء المختلفة المتنافرة.

٢- وثاني هذه الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه الحسّ، ومن البدهيّ أن تكون النفس أكثر تأثراً بالمحسوس من المعقول، ولذا وجدنا المشبه به لا يكون في الغالب إلا من المحسوسات.

٣- وقد يكون من الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه: العقل، ومع ذلك، لا يستقل وحده في تأثير التشبيه، إنما يكون مبنياً على الحس، مع أن الحس والعقل، كليهما لا يكفيان ولا يفيان لكي يكون التشبيه مقبولاً وجيّداً، بل لا بد أن تشترك معهما النفس كذلك، وهذا كلام مجمل لا بد له من تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

أولاً: ولعلك تدرك - بعد هذا - أن من أول أسباب تأثير التشبيه أنه ينقلها - النفس - من المعقول إلى المحسوس، ومن الفكرة إلى الفطرة، ومن الغموض إلى البديهة. ومن شأن هذا أن يزيل ما فيها من شكوك، ويذهب ما فيها من أوهام، فليس الخبر

كالعيان - كما يقولون - ولا تنسَ أن صلة النفس بالمحسوسات أسبق من صلتها بالمعقولات.

ثانياً: ومن أسباب تأثير التشبيه ما في التشبيه من الجمع بين الأشياء المتباعدة، وفي هذا السبب من الطرافة ما تستريح له النفس.

ثالثاً: ومن أسباب تأثير التشبيه - وهو ناشئ عما قبله - حاجته إلى الفكر، وفي هذا السبب لذة تسعد بها النفس، ويستريح لها القلب. ولنمثل لك الآن بما يبين لك هذه الأسباب ويوضحها:

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤] فالآية الكريمة تبين أن الذين يدعون من دون الله لا يحصلون على شيء من تعبهم وجهدهم، لأن الذين يُدعون لا يستجيبون لهم بشيء، وهذا المعنى - مع كونه مسلّماً غير مشكوك فيه - إلا أن التشبيه جيء به ليزيد هذا المعنى تثبيتاً وتأكيداً، وتقريراً في النفس، وهو من المعاني المحسوسة المرتكزة في البديهة، إن من يبسط كفيه إلى الماء - طمعاً في أن يصل الماء إلى فيه ليشرب ويبلّ ظمأه - ، لن يصل إلى ما يريد، ولن يحصل على بغيته.

استمع إلى قول ابن لنكك[(١)]:

إذا اخو الحُسْنِ أضْحَى فِعْلُهُ سَمِجاً ... رَأيتَ صورَتَهَ مِنْ أقْبَحِ الصُّوَرِ

وهذا المعنى مما تقبله النفس ولا ترتاب فيه، ولكن الشاعر أراد أن يقرر لك هذا المعنى ليثبت في نفسك خير ثبوت، ويتأكد خير تأكيد، فجاء في البيت الثاني وهو قوله:

وَهَبْهُ كَالشَّمْسِ في حُسْنٍ أَلَمْ تَرنا ... نَفِرُّ مِنها إذا مالَتْ إلى الضَّرَرِ

ألا ترى كيف وضَّح لك الصورة وفصلها؟ وكيف جمع بين الأشياء المتباعدة؟ فأخو الحسن إذا قارف أفعالاً مذمومة، فحري أن يهجره الناس، ويبتعدوا عنه، وهذه الشمس

(١) اليتيمة، ٢/ ٣٣٠. نهاية الأرب، ١/ ٤٤.

في حسنها ودفئها، إذا قويت حرارتها وتأكد ضررها، ابتعد عنها المعجبون بدفئها وسطوعها.

واستمع إلى قول أبي تمام[1]:

وَطُـولُ مُقَـامِ المَـرءِ في الحَـيِّ مُخْلِـقٌ　　لِديبَاجَتَيْـهِ فَـاغْتَرِبْ تَتَجَـدَّدِ

وهذا معنى جيد يقول: إن طول مكث المرء في مكان ما، يُنقص من شوق الناس إليه، فيخلَق كما يخلَق الثوب، ولم يرد الشاعر أن يلقي إليك هذا المعنى دون أن يدلل له، ويأتي عليه بشواهد من المحسوس فقال:

فَـإنِّي رَأَيْـتُ الـشَّمْسَ زِيْـدَتْ مَحَبَّـةً　　إلى النَّـاسِ أنْ لَيْـسَتْ عَلَـيْهِمْ بِـسَرْمَدِ

فالشمس؛ إنما يزداد الناس حباً لها، وشغفاً بها، لأنها ليس دائمة، بل هي تروح وتجيء، وتغيب وتطلع، وتغرب وتشرق، وإذا كانت المعاني، - في الأمثلة السابقة - مؤكَّدة غير مشكوك فيها، وإنما زادها التشبيه تأكيداً وتثبيتاً فإن هناك معاني قد تشك فيها النفس، ولا تطمئن إليها، فيأتي التشبيه ليزيل هذا الشك، كي تطمئن لها النفس، انظر مثلاً إلى قول القائل: (قد يشيب الفتى) وهذا المعنى ربما ينازع فيه بعض الناس، فمن المعلوم أن الشيب إنما هو من شأن أولئك الذين تقدمت بهم السن، وبلغوا من الكِبَر عتياً، وليس من شأن أولئك الذين لا زالوا في ضحوة العمر وشبابه، لكن الشاعر أراد أن يزيل هذا الشك من النفس فقال:

قَـدْ يَـشيبُ الفَتَـى ولَـيْسَ عَجِيْبـاً　　أنْ يُـرى النَّـوْرُ في القَـضِيبِ الرَّطِيـبِ

وخذ قول المتنبي:

وَمَـا أنـا مِـنْهُمُ بِـالعَيْشِ فِـيهِمْ

وهذا المعنى يصعب على النفس أن تتقبله لأول وهلة، فكيف يُتصور أن من نشأ في قوم ليس منهم؟ فأراد الشاعر أن يزيل ذلكم التوهم وهذا الشك فقال:

وَمَـا أنـا مِـنْهُمُ بِـالعَيْشِ فِـيهِمْ　　وَلكِـنْ مَعْـدِنُ الـذَّهَبِ الرُّغَـامُ

---

(١) ديوانه، ص١٠٠-١٠١.

وخذ قول المتنبي:

فَــإنْ تَفُــقِ الأنــامَ - وأنْــتَ مِــنْهُمْ - فــإنَّ المِــسْكَ بَعْــضُ دَمِ الغَــزَالِ

فإنك واجدٌ فيه قريباً مما وجَدته في سابقه، إذ كيف يمكن أن يتفوق على الأنام وهو واحد منهم؟ فأراد أن يبرهن لهذا المعنى حتى تطمئن به النفس؛ وذلك بأن المسك وهو من الأشياء الثمينة المحببة إلى النفس ليس إلا من دم الغزال.

وهكذا لو استقرأت الكلام البليغ لوجدت كل تشبيه يؤثر في النفس لا يخلو عن واحد من الأسباب التي ذكرتها لك، وقد تجتمع له كلها أو بعضها، فكثير منه ما ينقلك من المعقول إلى المحسوس وهو السبب الأول، وكثير منها ما يجمع بين الأمور الغريبة فيغدو بحاجة إلى الفكر، استمع إلى قول البحتري[1]:

ضَــحُوكٍ إلى الأبْطــالِ وَهْــوَ يَــروعُهُمْ وللــسَّيْفِ حَــدٌّ حــينَ يَــسْطُو وَرَوْنَــقُ[2]

فانظر كيف جمع بين الضحك والهيبة، وكيف استدل لذلك بالسيف الذي اجتمعت له الحدةُ واللمعان، وانظر إلى قول أبي الحسن بن مقلة[3]:

لَــستُ ذا ذِلَّــةٍ إذا عَــضَّني الــدَّهْرُ ولا شَــــامِخاً إذا واتـــــاني

أنــا نــارٌ في مُرْتَقــى نَظَــرِ الحاسِــدِ مــاءٌ جــارٍ مَــعَ الإخْــوانِ

وأنت تدرك بأن مما يزيد هذه التشبيهات روعة أنْ جمعت بين هذه الأشياء المتباعدة، وربما المتناقضة كذلك.

وقد تتساءل: كيف يكون التشبيه مؤثراً في النفس وهو بحاجة إلى الفكر؟ أليس ذلك متناقضاً مع ما عرفناه من قبل، من أن الكلام البليغ هو ما يكون معناه إلى نفسك أسرع من وصول اللفظ إلى أذنك؟ أليست حاجة التشبيه إلى فكر تدخله في باب التعقيد المنافي للبلاغة؟

---

(١) ديوان البحتري، ٢/ ٧٦.

(٢) رونق السيف: ماؤه وحسنه.

(٣) اليتيمة، ج٣، ص١٠٠.

ونجيبك أولاً: بأن الفكر ركيزة أساسية للتمييز بين الكلام المبتذل والكلام الجيّد، هذا بالنسبة لقائله، وهو كذلك بالنسبة إلى السامع حتى يمتاز الفطن عن غيره.

وأما ثانياً: فإنهم لم يذموا التعقيد من أجل حاجته إلى الفكر، وإنما ذُمّ التعقيد لما فيه من سوء الترتيب وضعف التركيب من جهة، ولقلة فائدته وثمرته من جهة ثانية.

«وإنما ذم التعقيد لأن صاحبه أساء التعبير عن المعنى، ولم يرتب الألفاظ الترتيب الملائم له، فشاك طريق السامع إليه ووعر مذهبه، وقُسِّم فكره، ووُزِّعَ ظنه، وتركه حائراً لا يدري من أين يتوصل إليه، ولا كيف يطلبه، أما التمثيل وسائر الأساليب البليغة، والكلام المخلَّص من شوائب التعقيد فإن صاحبه يتحرى فيه حسن البيان، ويخلصه من سوء الدلالة، فيرتب الألفاظ الترتيب الذي يهدي إلى المعنى، ويفتح الطريق للفكر ويمهده، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار وأوقد فيه الأنوار».

«وخلاصة القول: إن المجهود الفكري في التعقيد زائد على ما ينبغي للمعنى، ومنشؤه من عمل المتكلم وسوء عبارته، وثمرته تافهة، وإن المجهود الفكري في التمثيل مناسب للمعنى ومنشؤه لطفه ودقته، وفائدته جليلة، ولذلك كان الأول باعثاً على الذمّ، والثاني موجباً للمدح»[1].

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير، تأليف عبدالهادي العدل، ص١٢٥.

التشبيه القريب والتشبيه الغريب

ومما يتصل بموضوعنا الذي نتحدث عنه أن التشبيه منه ما هو قريب مبتذل، ومنه ما هو غريب، وضابط الفرق بينهما:

أن التشبيه الغريب هو: ما لا يُنتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد تلبث وتذكر، وفكر للنفس في الصور التي تعرفها، لأن وجه الشبه في المشبه به مما لا ينزع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم بديهةَ النظر إلى المشبه.

أما التشبيه القريب فهو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى تلبث وتذكر، لأن وجه الشبه في المشبه به مما يسرع حضوره إلى الخاطر عند أول النظر إلى المشبه[1].

وأسباب القرب منها ما يرجع إلى المشبه به، ومنها ما يرجع إلى وجه الشبه، أما ما يرجع إلى المشبه به، فهو كثرة تردده على الحواس.. وأما ما يرجع إلى وجه الشبه فهو أن يكون مجملاً لا تفصيل فيه، وعلى هذا يمكنك أن تعرف أسباب الغرابة، إذ بضدها تتمايز الأشياء، فأسباب الغرابة:

١ - أن يكون المشبه به مما لا يكثر تردده على الحواس.

٢ - وأن يكون في وجه الشبه تفصيل.

فإذا قلت: «هي كالبدر في الحسن، وكالشمس في الوضاءة»، «وهو كالبحر في الجود، وكالأسد في الشجاعة، وكالليل في الوحشة وكالثعلب في المكر» فإن ذلك كله من التشبيه القريب لأن المشبه به يتردد كثيراً على الحواس، ولأن وجه الشبه لا مجال فيه للتفصيل، ولكن التشبيه الغريب هو الذي تظهر فيه الروعة، وتلمح فيه الإبداع، ويتسابق فيه البلغاء، ويزداد به الحسن، وتجد فيه الدقة في لفظه، والرقة في معناه.

ولكي تتبين ما قلناه نعقد لك موازنة بين بعض الأقوال:

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٥.

قال عنترة في ورد بن حابس وقد قتل نضلة الأسدي[1]:

يُتـــــابعُ لاَ يَبْتَغــــــي غَــــيْرَهُ   بـــــأبْيَضَ كَــــالْقَبَسِ الْمُلْتَهِــــبْ

وقال امرؤ القيس[2]:

جَمَعْـــــتُ رُدَيْنِيّـــــاً كَـــأنَّ سِـــنانَهُ   سَـــنَا لَهَـــبٍ لَمْ يَتَّـــصِلْ بِـــدُخَانِ[3]

يشبه كل منهما السيف باللهب، إلا أن عنترة اكتفى بتشبيهه بالقبس الملتهب فحسب، ولكن امرأ القيس كان أبعد نظرة فكان أكثر إبداعاً، فلقد استعرض في نفسه أوصاف الشعلة شكلها، ولونها، ولمعانها، واضطرابها، ووجد كل ذلك يحقق الشبه، ولكنه رأى شيئاً آخر يقدح فيه - الشبه - ويعيبه، وهو ما في رأس الشعلة من الدخان، فإنه ليس له ما يقابله في رأس السنان فنفى اتصاله باللهب، لكي يؤدي التشبيه كما هو على التحقيق[4].

ومثل هذا قول امرئ القيس[5]:

كَـأنّ عُيُـونَ الْـوَحْشِ حَـولَ خِبائِنَـا   وأرْحُلِنَـا الجَـزْعُ الَّـذِي لَمْ يُثَقَّـبِ

والخباء والرحل: ما يُعمل به من الوبر والصوف على عمودين أو ثلاث، فإن كان على أكثر من ذلك سمي بيتاً، وهو ما تتخذه البادية في حلها وترحالها، والجَزْع بفتح الجيم وسكون الزاي هو الخرز.

والذي يعنينا - هنا - ما لاحظه الشاعر في التشبيه فقد شبه عيون الوحش بالخرز، ولكن في الخرز شيء غير موجود في العيون وهو التثقيب، ففطن الشاعر إلى هذه النكتة في التشبيه فوصف الخرز بأنه غير مثقب، فكان ذلك دليلاً على دقته في تشبيهاته.

---

(١) ديوانه، ص٣٠.

(٢) العمدة، ٢/ ٥٢. الصناعتين، ١٨٧.

(٣) الرُّدَينيّ: نسبة إلى ردينة وهي امرأة كانت تثقف الرماح مع زوجها سمهر، فنسبت إلى كلٍّ منهما.

(٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر، ص١٦٣.

(٥) ديوانه، ص٢٥، قصيدة (لبانات الفؤاد المعذّب).

ومن التشبيه الغريب قول أبي قيس بن الأسلت[1]:

وقَـدْ لاَحَ في الـصُّبْح الثُّرَيَّـا لِمَـنْ رأى كَعُنقـودِ مُلاّحيَّـةٍ حِـينَ نَـوَّرا

وإنما جاءت غرابة هذا التشبيه لما في وجه الشبه من تفصيل، فهو مركب من اللون والشكل لأنه عبارة عن اجتماع أجرام صغيرة بيض، مستديرة، متقاربة، غير متلاصقة، على شكل مثلث ذي قدر مخصوص[2].

ومن التشبيه الغريب قول ابن المعتز:

فَجَـاءَتْ بِهَـا فِي كَأسِـهَا ذَهَبِيَّـةً لَهَـا حَـدَقٌ لَمْ تَتَّـصِلْ بِجُفُـونِ

شبّه فقاقيع الخمر بالحدق، في الشكل واللون، وقد نظر الشاعر إلى أوصاف العيون فوجد فيها شيئاً لا يوجد في المشبه، وهو ما يحيط بها من الجفون فنفى اتصالها به تحقيقاً للشبه، فكان غريباً.

وقال ابن المعتز يصف بازي الصيد[3]:

غَـدَوْتُ في ثَـوْبٍ مِـنَ الليْـلِ خَلَـقْ بِطَـارِح النَّظْـرَةِ في كُـلِّ أُفُـقْ[4]
ذِي مِنْـسَرٍ أقْنَـى إذا شَـكَّ خَـرَقْ مُخْتَـضِبٍ في كُـلِّ يَـوْم بِعَلَـقْ[5]
فكُـلُّ عَظْـم مَفْـصِلٌ إذا عَلِـقْ وَمُقْلَـةٍ تَـصْدُقُهُ إذا رَمَـقْ
كأنَّهَـا نَرْجِـسَةٌ بِـلا وَرَقْ يَنْـشُبُ في الـدِّيباج حَتّـى يَنْفَتِـقْ

يشبه في الشطر الأول الليل، وقد مزقته تباشير الصباح بالثوب الخلق الممزق، ثم لما أراد تشبيه عين البازي بالنرجسة نظر في أوصافها فوجد فيها شكل العين، (دائرة تحيط بدائرة أخرى مخالفة للونها)، ووجد شيئاً آخر لا نظير له في العين وهو (الورق الأخضر

---

(١) سبق ذكر البيت ص٢٧.
(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر، ص٩.
(٣) ديوان ابن المعتز، ٤/ ٤١. ديوان المعاني، ٢/ ١٤٠.
(٤) خلق: مهترٍ بالٍ، بطارح النظرة في كل أفق: كناية عن البازي الذي يطرح نظره في كل أفق.
(٥) منسر: منقار، أقنى: الذي ارتفع أعلاه واحدودب وسطه، إذا شك خرق، أي: إذا نقر شيئاً خرقه، مختضبٍ في كل يومٍ بعلق: كناية عن تخضب منقاره بدم فريسته على الدوام.

المحيط بها) فنفاه تحقيقاً للتشبيه، ثم وجد عين البازي يحيط بها ريش ناعم منقوش فأراد أن يحقق ذلك في المشبه به فوصف النرجسة بأنها نشبت في الديباج حتى انخرق فبقيت هي في وسطه وهو محيط بها.

وتقرير التشبيه هكذا: شبه عين البازي يحيط بها الريش المنقوش نقشاً جميلاً بنرجسة لا ورق لها، يحيط بها ديباج منقوش كذلك، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع هذه الأوصاف (الشكل المستدير بين النقش الجميل)[1].

وقد ينظر في التشبيه إلى الحركة دون شيء آخر، كما في هذا التشبيه، ومنه قول ابن المعتز كذلك[2]:

فَكَأنَّ البَرْقَ مُصْحَفُ قارِ ... فَانْطِباقاً مَرَّةً وانْفِتاحا

فهو لم يرد أن يشبه شكل البرق بشكل المصحف، إنما أراد أن يشبه حركة البرق بحركة قارئ ذي لوثة غير طبيعي، يطبق المصحف تارة، ويفتحه أخرى، والتشبيه غريب كما ترى !

ومن التشبيه الغريب قول الشاعر:

والشَّمْسُ كَالمِرْآةِ في كَفِّ الأَشَلْ ... لَمَّا بَدَتْ مِنْ خِدْرِها فَوْقَ الجَبَلْ

ولقد جاءت غرابة التشبيه لأن المشبه به قلما يتردد على الحواس، فقد لا يرى الإنسان في حياته أشل مرتعشاً يحمل في يده مرآة، «ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، والحركة السريعة المتصلة، وما يحصل بسببها من التموج والاضطراب حتى يرى الشعاع كأنه يهم بأن ينبسط، حتى يفيض على جوانب الدائرة ثم يبدو له فيرجع من الانبساط إلى الانقباض كأنه يجتمع من الجوانب إلى الوسط، والشمس إذا أحدّ الإنسان النظر إليها وجدها مؤدية لهذه الهيئة، وكذلك المرآة في كف المرتعش، لأن حركته تدوم وتتصل ويحصل منها ذلك، فقد اقترن بهيئة الحركة لون الجسم، وهو الإشراق، وشكله: وهو الاستدارة.

---

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر، ص١٦٤، ١٦٥.

(٢) ديوانه، ص١٣٢.

وجاءت غرابة هذا التشبيه من كثرة التفصيل إذا نُظر إلى اللون والشكل والحركة الدائمة، وهذا تفصيل، ثم نظر إلى حركة الشعاع وتموجه بين انبساط وانقباض... إلخ، وذلك تفصيل آخر، ومثله لا يدركه الإنسان إلا إذا استأنف تأملها، وكان متثبتاً متمهلاً»[1]. وانظر إلى قول المعري[2] يصف نجماً:

يُسْرِعُ اللمْحَ في احْمِرارٍ كَمَا ... تُسْرِعُ في اللمْح مُقْلَةُ الغَضْبانِ

فإن تشبيه لمحات النجم وتألقه مع احمرار ضوئه، بسرعة لمحة الغضبان من التشبيهات النادرة التي لا تنقاد لأديب[3].

وهكذا تبدو قدرة الشاعر حينما يعقد لك المشابهة بين أمرين فتحس نفسك بالأنس، وفؤادك بالطرب، وكأن الأمر من قبل لم يخطر لك على بال. استمع إلى قول المتنبي وقد جمع لك أمرين في التشبيه كانا بعيدين عن مخيلتك ولكن مجرد سماعك بهما يشعرك بالقرب بينهما، كأنما تخاطب نفسك فتلومها على غفلتها، ما أقرب أحدهما للآخر؟! استمع إليه[4]:

بَلِيتُ بِلَى الأطْلالِ إنْ لَمْ أقِفْ بِهَا ... وُقُوفَ شَحيح ضاعَ في التُّرْبِ خاتَمُهْ

أرأيت إلى هذه البراعة في التصوير، والخصوبة في الخيال؟، إنه يدعو على نفسه إنْ لم يقف بهذه الأطلال وقوف الحسرة والألم، ولكنه لا يكتفي بهذا، بل يبين لك مقدار هذه الحسرة، وهذا الألم، وهو يشبهه بوقوف شحيح ضاع خاتمه في ركام التراب.

وبالجملة فإن التشبيه كلما دقّ وجه الشبه فيه وكان المشبه به غير مألوف، فهو من التشبيه الغريب، ولكن البيانيين لا يقفون في التشبيه الغريب عند هذا النمط من القول، وإنما يعدّون من الغريب كذلك ما كان من الأمور المتخيّلة التي لا وجود لها مجتمعة في الخارج وإنما الموجود عناصرها وأجزاؤها فجمعوا هذه الأجزاء بعضها لبعض ليُكوِّنوا

---

(١) دراسات تفصيلية، ص١٨٨.

(٢) ديوان سقط الزند ص١٣٤، قصيدة (علّاني).

(٣) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص٢٨٦.

(٤) شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي، ٤/ ٥٩.

مشبهاً به على سبيل التخييل، وهذا كثير وبخاصة عند شعراء العصر العباسي ومن بعدهم، ويمثلون له بقول أبي بكر الصنوبري:

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيقِ	إذا تَصَوَّبَ أوْ تَصَعَّدْ
أعْلامُ يَاقُوتٍ نُشِرْنَ	عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

تصور أوراق شقائق النعمان - وهو نبت معروف - ، والرياح تصعدها وتصوبها أي: ترفعها وتسفلها، فأراد أن يجعل لها شبهاً فشبهها بأعلام من الياقوت حمراء منشورة على زبرجد أخضر.

ندرك مما سبق أن بلاغة التشبيه، لا تقف عند عنصر واحد، فلا يكفي أن يكون التشبيه حسياً فحسب، كما لا يضير التشبيه أن يكون فيه عنصر عقلي كذلك، إنما ترجع بلاغة التشبيه إلى ما يحدثه في النفس من أثر، فبقدر ما تتفاعل النفس مع التشبيه تكون بلاغته وجودته، وهذا بالطبع إنما يرجع إلى قدرة المتكلم وبحثه عن الروابط الدقيقة بين الأشياء، حتى يريك الأمر على غير ما تعرف، ويدلك على ما هو مرتكز في طبيعتك مما هو خافٍ عليك.

انظر إلى قول ابن الرومي وقد أغرى به بعض مبغضيه أحد الشعراء الهجّائين، وكان يسمى مثقالاً، ولكن هجاء مثقال لابن الرومي لم ينقص من قدره. ونحن نعلم أن الهجاء فيه انتقاص من قدر المهجو، ولذا عاقب عمر بن الخطاب ﷺ الحطيئة وقد هجا الزِّبْرقان ابن بدر - رضي الله عنهما - ، ولكن ابن الرومي أراد بأسلوب التشبيه أن يبين أن هذا الهجاء لا ينقص من قدر المهجو، وإنما يزيد من فضله ونبله، فنبهنا إلى أمر من الأمور البدهية الذي لا ينكره واحد من الناس، ولنستمع إليه[1]:

ثُمَّ حاوَلْتَ بالمُثَيْقِيلِ تَصْغيري	فَما زِدْتَنِي سِوى التَّعْظِيمِ
كَالَّذِي طأْطَأَ الشِّهابَ لِيَخْفَى	وَهُوَ أدْنَى لَهُ إلى التَّضْرِيمِ

(١) ديوانه ٣/ ٤٢٧.

يقول: لقد أغريت بي مثقالاً ليهجوني ويغري بي، ولكن ذلك ما زادني إلا تعظيماً ورفعة، فما مثلي ومثله إلا كمن يطأطئ شهاب النار ليخفي نوره وليطفئ شعلته، ولكن ذلك لا يزيده إلا اشتعالاً وإضراماً.

وهاك مثالاً آخر: نحن نعلم أن ليس من الخير للكريم أن يجاور اللئام، ولا للفاضل أن يكون مع ذوي النقص، ولكن أسلوب التشبيه وقد صوره الشاعر بفكره وإبداعه بيراعِهِ جعل الأمر على العكس من ذلك، ففيه زيادة منقبة وشرف، ويقول البحتري[1]:

وَقَـدْ زادَهـا إفْـراطَ حُسْنٍ جِوارُهـا خَلائِـقَ أَصْـفارٍ مِـنَ المَجْـدِ خُيَّـبِ

وَحُـسْنُ دَرَارِيِّ الكَواكِـبِ أَنْ تُـرى طَوالِـعَ في دَاجٍ مِـنَ اللَّيْـلِ غَيْهَـبِ

وقد قدمناه من قبل فارجع إليه إن شئت.

وأخيراً لا آخراً استمع إلى قول ابن بابك يمدح أبا علي أحمد بن حمولة وزير فخر الدولة[2]:

وَرَآكَ لِلتَّـشْرِيفِ أَهْـلاً فـاجْتَبى بِوفائِـهِ، مَلِـكٌ يَقـولُ ويَفْعَـلُ

وَأَعَـرْتَ شَـطْرَ المُلْـكِ ثَـوْبَ كَمالِـهِ والبَـدْرُ في شَـطْرِ المَـسَافَةِ يَكْمُـلُ

والذي يعنينا مَن قيل فيه، وما قيل مِن أجله هذا الشعر، وسبب ذلك أنه لما مات الصاحب بن عبّاد - وزير فخر الدولة - كان المرشح للوزارة بعده أحد الرجلين: أبي علي ابن حمولة، وأبي العباس الضبي، فأخذ كل منهما يبذل لفخر الدولة الأموال الطائلة ليستوزه فرأى أن يأخذ ما بذلاه ويوليهما معاً معتلاً بأن مكان الصاحب لا يملؤه أحدهما وحده، فاشتركا في الوزارة، فكان كل واحد منهما كأنه وزير لشطر الملك، فأراد ابن بابك أن يدفع توهم أن ذلك ينقص من قدر أبي علي، يقول: إنك ألبَسْتَ شطرَ المُلك الذي وليته ثوبَ الكمال، لأنك كامل، ولا بدع في أن تكون كاملاً في نصف المُلك، فإنك شبيه بالبدر الذي يكون في نصف الشهر، ووجه الشبه كمال كلٍّ في النصف[3].

---

(١) ديوانه ١/ ١١٨، قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك).

(٢) اليتيمة، ٣/ ٣٤٩.

(٣) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر، ص١١٣.

الفصل الثالث

التشبيه في القرآن

ونرى لزاماً علينا ونحن نتحدث عن التشبيه أن نعقد فصلاً خاصاً نتحدث فيه عن تشبيهات القرآن الكريم، وآخر عن التشبيهات في السنّة النبوية، إذ الرسول ﷺ هو سيد الناطقين بالضاد وأفصحهم، وقد أعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً.

نتائج مما سبق:

وقبل أن نحدثك عن تشبيهات القرآن نرجو أن نستذكر معاً بعض النتائج والملحوظات التي يمكن أن نستنتجها ونلحظها مما قدمناه لك عن التشبيه.

أولاً: ولعل من أول هذه النتائج وأولاها بالتسجيل، أن هذا التشبيه يتأثر بالبيئة، بل إنه يخضع لها، وتتحكم فيه، وتضفي عليه كل سماتها، وتمنحه جميع خصائصها، ولا أدل على ذلك من أننا رأينا التشبيه في العصر الجاهلي كانت عناصره منتزعة من بيئتهم الخاصة، فالبقر الوحشي، وحمار الوحش، والعقاب والغراب، وعيون الطير وقلوبها، والسيف والنار، ونقيض الرحل وصوته، وصوت البازيّ، والريم، والطلل، والكواكب، وقد تجد السفينة وموج البحر على قلّةٍ، إلى غير ذلك مما كان تقتضيه وتحتمه بيئة أولئك في جاهليتهم.

ولقد أُعطوا حظاً من النباهة واليقظة والقدرة على التصوير والتعبير فكان لا بد من أن يستثمروا ذلك كله دون أن يعطّلوه، فرأينا هذه اليقظة، وتلك البلاغة، وهذه القدرة على التصوير، وهذا الجمال في العبارة، يُستثمر في أمور ليست ذات شأن، ولكن الذي رجحها ورشحها وجودُها في تلك البيئة، فالحشرات على اختلافها، ومستنقعات الماء،

والوحوش، والرياح، تلك هي المواد التي غالباً ما كانوا يصنعون منها تشبيهاتهم، فقلوب الطير تارة كالعناب، وتارة كالحشف البالي، وعيونها كالخرز الذي لم يُثقَّب، والأعطاف كالمسك وكالطيب، والريق كالشراب، حتى ما كان بعيداً عن بيئتهم يقربونه فيشبهونه بما هو من أشياء البيئة كتشبيه السفينة بولد الناقة في قول الأعشى[١]:

تَقِــصُ الــسَّفِينُ بجانِبَيْــهِ كَــما   يَنْــزُو الرُّبَــاحُ خَــلا لَــهُ كَــرَعُ[٢]

وإذا تركنا هذا العصر إلى العصر الإسلامي نجد أن التشبيه - مع ما بين العصرين من تقارب - أصبحت له عناصره التي استمدت وجودها من البيئة، ألا تنظر إلى بيت حسان[٣]:

وَقافِيَـــةٍ عَجّــتْ بِلَيْــلٍ رَزينَــةٍ   تَلَقَّيْــتُ مِــنْ جَــوِّ الــسَّمَاءِ نُزُولَهَــا

فإذا جاوزنا ذلك إلى العصر العباسي وجدنا الاختلاف الكبير، والبون الشاسع، في عناصر التشبيه حيث أصبحت هذه العناصر بعيدة عما قبلها اللهم إلا من حيث الصورة والشكل، فمداهن الدرّ المحشوة بالعقيق، وأعلام الياقوت، والرماح من زبرجد، وشبك الزبرجد، والسمك من البلور، والزوارق المحملة بالعنبر إلى غير ذلك من أنواع الحلي والأزهار والروائح.

وإذا تركنا العصر العباسي فإننا نجد أن الصورة التشبيهية - إن قُبل التعبير - كانت تسيطر عليها البيئة فتلبسها ما تكسوه لكل من هو في كنفها مما يعرفه الناس، ولعل خير شاهد على هذا، هذا العصر، وأنت إذا تتبعت الصور الأدبية وجدت كثيراً مما هو جديد لم يعرف من قبل، ولعلنا نوفق إن شاء الله، أن نعقد فصلاً في آخر هذا الكتاب نتحدث فيه عن الصورة عند المحدَثين تشبيهاً كانت أم غير تشبيه.

---

(١) أسرار البلاغة، ص١٦٧، تحقيق هـ. ريتر، الصناعتين ٦١.

(٢) تقص: تثب، والنزو: الوثوب، والرُّبَّاح بضم الراء وتشديد الباء، وخففت الباء للضرورة: الفصيل أو القرد، وخلا: من الخلو، والكرع: الغدير أو ماء السماء، شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه لأنه إذا نزا كانت له حركات متفاوتة، ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب.

(٣) ديوانه، ص١٩٦، قافية: أي قصيدة، عجت بليلٍ، أي: صاح بها صاحبها في الليل، تلقيت من جو السماء نزولها: أراد أنه أوحي إليه بها.

ولكن مع اختلاف البيئة وطغيانها على التشبيه فإننا نجد أشياء لا تتغير من حيث العنصر والحقيقة، وإن تغيرت من حيث الصورة والشكل.

ثانياً: رأينا أن التشبيهات فيما مضى كان منها ما يأتي للإيجاز والاختصار فهو عنصر أساسي لا يستغنى عنه، ومنها ما ليس كذلك، وإنما جيء به بعد تمام الكلام وكمال المعنى وكان الهدف منه زيادة التقرير والتوضيح، وذلك ما ذكرناه لك عند أول حديثنا عن التشبيه الضمني.

ثالثاً: وثالثة هذه النتائج أن بعض هذه التشبيهات - وهو القليل - كانت تُلاحَظ فيها الدقة من حيث العبارة، لتؤدي المعنى أداءً تاماً غير منقوص، كما رأينا في بيت امرئ القيس السابق وهو يصف الرديني باللهب الذي لم يتصل بدخان، وعيون الطير بالخرز الذي لم يثقب. وفي غير هذين مما ذكرناه لك من قبل.

ولكن كثيراً من التشبيهات لم نجد فيها تلك الميزة - أعني ليس فيها تلك الدقة - التي لوحظ فيها دقة التعبير، بحيث تتفق مع الصورة اتفاقاً كاملاً. وهناك أمر آخر اختلفت فيه تلك التشبيهات كذلك، فكما اختلفت من حيث الصورة ودقة التعبير عنها، فقد اختلفت من حيث الألفاظ التي اختيرت لها. وهناك اختلاف ثالث من حيث الصورة نفسها كما عرفته من قبل وكما ستعرفه فيما بعد.

وهذه بعض الحقائق التي أمكننا أن نستخلصها من دراستنا للتشبيه:

١ - خضوعه للبيئة.
٢ - مجيئه بعد تمام الكلام.
٣ - عدم التزام الدقة في كثير منه.
٤ - اختلاف كثير من التشبيهات من حيث اختيار اللفظ.
٥ - اختلافه من حيث الصورة جمالاً وروعة.

خصائص التشبيه في القرآن:

التشبيهات في القرآن الكريم، مع أنها ليست بدعاً من التشبيه، ذلك أن القرآن الكريم عربي من حيث الأسلوب، ومن حيث النظم، ولكننا نجد مع ذلك أن لتشبيهات القرآن خصائص ومميزات:

أولاً: وأولى هذه الخصائص أن تشبيهاته غير مقيدة ببيئة معينة، فلم تنحصر في عصر دون عصر، ولم تقتصر على مكان دون مكان، إنما هي تشبيهات عامة تستمد من الطبيعة عناصرها، وتأخذ من الكون أجزاءها، فليست لفئة خاصة ولا لقوم بأعيانهم، فمشهد الماء الذي ينزل من السماء، فتحيا به الأرض، ومشهد الزرع الذي ينبت فيكون له شطؤه الذي يحيط به، والسراب في الفلاة، والظلمات في البحر، والموج والأمواج المتلاطمة، والرماد الذي تبدده الرياح في يوم عاصف، والفراش المبثوث، والعهن المنفوش، والجبال، والخُشُب المسنّدة، والجنة بالروضة المرتفعة. كل هذه العناصر وغيرها مما لا يختص به زمان معين، أو مكان معين، أو جنس معين. ومع كونها كذلك، إلا أننا إذا أعدنا النظر مرة أخرى نجد أن لها ميزة ثانية، وهي أنها لا غناء عنها في حياة الإنسان، مُتَمَدْيِناً وغير مُتَمَدْيِن، وذلك مما يزيدها تأثيراً في النفس، ونفوذاً في الفؤاد، هذه واحدة.

ثانياً: أن هذه التشبيهات جاءت متسقة مع الغرض الذي سيقت من أجله، فقد نجد الشيء الواحد شبه به أكثر من أمر، وذلك لأن هذا الشيء لوحظت فيه صفات متعددة، فروعي كل جانب ليتناسب ويتطابق مع المشبه الذي قصد القرآن الحديث عنه.

ثالثاً: الدقة في اختيار الألفاظ، وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته التي تحدث عنها، فألفاظ القرآن - كما تعلم - جميعها مختارة منتقاة، فإنك لن تجد أي لفظة يمكنك أن تستبدل بها غيرها، أو تستغني بها عن غيرها، ولو أنك أدرت اللغة كلها، وأردت أن تأتي بكلمة مكان كلمة ما استطعت.

رابعاً: وتشبيهات القرآن بعد ذلك كله، كانت بعيدة عن ترف الخيال، ورعونة العاطفة، وسرف القول وفضوله، فهي - إذن - عناصر أساسية في الموضوع، وأجزاء رئيسة في الجملة.

خامساً: ولما كان القرآن كتاب هداية للأحياء ما دامت الحياة، فإن تشبيهاته جميعاً كانت كلها تدور حول هذا الإنسان، تشبهه تارة وتشبه له تارة أخرى، تشبهه بما يناسب وضعه، وتشبه له بما يحيط به من هذا الكون مما لا غناء عنه في حياته ووجوده.

هذه بعض خصائص التشبيه في القرآن، ولكي نتصور ذلك تصوراً عملياً فلا بد أن نَنعَم ونُنْعِم النظر بالوقوف مع بعض هذه الآيات الكريمة:

أ- هذا القمر الذي تغزَّل فيه الشعراء شبهوه تارة، وشبهوا به أخرى، والذي امتنّ الله علينا بأن جعله نوراً. يشبهه القرآن الكريم، وقد اضمحل نوره بالعرجون القديم ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩]، وفي هذه الكلمة من الدلالة على الضآلة والضعف ما فيها، «فهذا القمر بهجة السماء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنساً، يصبح بعد هذا كله دقيقاً، نحيلاً محدودباً، لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له ولا عناية بأمره، ترى في كلمة العرجون، ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً»(١).

ب- واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن:٢٤]. حيث شبهت السفن في البحر بضخامتها وعظمها بالأعلام - الجبال الرواسي الشامخات - وإنما اختير لفظ الأعلام دون الجبال، لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر، ولقد ذكرت الجبال في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:٤٢]، لأن ذكر الجبل ألصق بالسياق الذي جاءت من أجله، فهي تتحدث عن الطوفان، يوم أن فجرت الأرض عيوناً، وفتحت السماء بماء منهمر.

وكما شبه الموج بالجبال، فإننا نجده يشبه بالظلل. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢]، وإنما اختيرت كلمة الظلل هنا، لأن الحديث عن أولئك الذين يتعرفون على الله في الشدة دون الرخاء، وكلمة الظلل توحي بالرهبة، كأن هذا الموج ارتفع إلى رؤوسهم، مما يجعل هلاكهم غير مرتاب فيه، على أن الجبل قد شبه بالظلة في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف:١٧١]، ذلك لأن الآية هنا جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وكيف رفع الجبل فوق رؤوسهم تخويفاً لهم، ووعيداً علّهم يرجعون عن ضلالاتهم.

---

(١) من بلاغة القرآن، ص١٩٢.

وهكذا تجد التشبيه في كتاب الله ينسجم انسجاماً تاماً مع السياق الذي جاء من أجله. انظر إلى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، ثم فكّر لماذا أوثرت كلمة اللباس هنا؟ وقل لي بربك هل تجد شيئاً أكثر ما تكون له النفس حاجة، وأشد ما يكون لها وقاية، أكثر من اللباس؟ ومع كونه كذلك، فهو ينشر في أجواء النفس البهجة والسرور، وهو بعد ذلك كله زينة وكمال. أعرفت سر اختيار الكلمة إذن؟

ج- وإليك مثالاً آخر: آكل الربا يستبيح جهد الناس وعرقهم، فيحرمهم لذة الاستقرار النفسي، وربما ينتج عن ذلك كثير من الآلام والأمراض النفسية أو الجسدية، فما هو التشبيه الذي اختير له في كتاب الله. اقرأ قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، هذا الذي يتخبطه الشيطان من المس بعيد عن كل استقرار نفسي، وراحة في الجسم، وسلامة في العقل، وهل الجزاء إلا من جنس العمل؟

د- وعلى العكس من هذا انظر إلى المؤمن الذي ملأ نور الإيمان قلبه، حتى إن الله تبارك وتعالى مثّل هذا النور بقوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

فانظر إلى نور الله في قلب المؤمن، وانظر إلى هذه العناصر التي اختيرت لهذا التشبيه:

١- المشكاة حتى لا يتوزع هذا النور ويتفرق.

٢- المصباح.

٣- الزجاجة.

٤- الزيت الذي يوقد منه هذا المصباح.

٥- الزيتونة لا هي بالشرقية التي تحرم ضوء الشمس حين غروبها ولا هي بالغربية التي تحرم ضوء الشمس حين إشراقها، إنما ترتشف من الشمس في كل وقت.

ومن الخير أن نسلك بك مسلكاً لتلمّ بكثير من تشبيهات القرآن وتقف على خصائصها، ونعني بهذا المسلك أن نقف مع أسلوب التشبيه في كتاب الله من حيث الموضوعات التي جاءت بهذا الأسلوب.

أولاً: الترغيب والترهيب:

والقرآن قد يستعمل أسلوب التشبيه للترغيب أو الترهيب، وذلك ليقرر الأمر المرغَّب فيه كي تقبل النفس عليه، ويبين المرهَّب منه كي تنفر النفس منه، استمع إليه وهو يرغب المؤمنين كي تلتئم وتلتحم صفوفهم في الجهاد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف:٤]، ولم يكتف بذكر كلمة (البنيان) فحسب، وإنما هو بنيان قد رُصّ بعضه فوق بعض، فأُحكمت لبناته، والمشبه به - البنيان - من الأمور التي لا تغيب عن الإنسان ألبتة.

واستمع إليه يرشد المسلمين وبخاصة ذوي الزوجات المتعددات يرشدهم حتى لا يحيفوا على نسائهم ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩]، فهو يصور اضطراب المرأة وقلقها وعدم استقرارها على حال، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء[١].

وها هو القرآن يحذّر من نقض العهد ويبين ما له من نتائج ضارة وآثار سيئة فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ...﴾ [النحل:٩٢].

ومن الموضوعات الخطيرة التي استُعمل فيها أسلوب الترغيب والترهيب: موضوع النفقة في سبيل الله، نجد القرآن يرغب المسلمين كي تكون نفقتهم خالصة لوجه الله تعالى، لا يقصدون مع ذلك شيئاً آخر، وهو مع ذلك يحذر من أن تكون النفقة رئاء الناس، يفتخر بها المنفق ليمدحه الناس، ويثنوا عليه، وسنضرب لكل من هذين مثالين من كتاب الله.

---

(١) من بلاغة القرآن، ص١٩٨.

أما الذي ينفق في سبيل الله تعالى فقد شبهه القرآن تارة بالحبة تنبت سبع سنابل، وتارة أخرى بجنة بربوة أصابها مطر كثير فآتت أكلها ضعفين، أو أصابها مطر قليل فزكت وطابت، ولكل من التشبيهين غرضه وغايته.

أما النوع الثاني: وهو الإنفاق رئاء الناس، أو الإنفاق من مصدر غير طيب فقد شبهه القرآن بحجر صلد عليه تراب جاءه وابل فتركه صلداً، وشبهه ثانياً بزرع جاءته ريح باردة فأهلكته.

وإنما كان للقرآن الكريم عنايته بقضية الإنفاق لأن أمر المال من الأمور التي تشح عليها نفس الإنسان وتلك طبيعته ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨]، فلقد رغب القرآن في هذا الإنفاق، ولما كان أسلوب التشبيه من الأساليب المؤثرة في النفوس نجد القرآن يسلك هذا المسلك ويأتي بهذا الأسلوب - أسلوب التشبيه - ترغيباً في أمر الإنفاق وتأكيداً له.

١ - قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

والمشبه به: وهو الحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، مما لا يجهله أحد، لأن أمر الزراعة من الأمور التي يحوطها الإنسان بكل عناية ورعاية في جميع العصور، فالتشبيه منتزع من الطبيعة، ثم هو بعد ذلك عنصر أساسي في الجملة، وانظر كيف اختيرت كلمة (سنابل) على (سنبلات)، والتشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد: وهي صورة الذي يبذل قليلاً ليجني منه الكثير. ولا تنسَ ما في الآية من تجسيد وتصوير: فصورة الحبّة التي تفرّع من ساقها شعب متعددة من الأشياء التي تراها العين وتحس بها النفس.

٢ - قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥]، يشبه إنفاق أولئك الذين ينفقون ابتغاء

مرضاة الله، وتثبيتاً من أنفسهم في طيبه وزكائه، بجنةٍ في مكان مرتفع أصابها مطر شديد، فتضاعف محصولها، فإن لم يصبها وابل فطل وهو المطر القليل، وفي التشبيه إشارة إلى أن هذه النفقة تزكو وتطيب قلّت أم كثرت.

هذا هو أسلوب الترغيب أما أسلوب الترهيب وهو التحذير من أن تكون النفقة ليست خالصة لوجه الله.

فأولاً: نقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٦٤].

شبّه الله نفقتهم بصفوان - وهو الحجر الأملس - ، عليه تراب فحسبوه صالحاً للزرع فبذروا فيه حبهم، فلما جاءه المطر أزال التراب عنه فتركه صلداً، وذهب هباءً لكل ما يتوقعه الزرّاع.

ثانياً: وقد شبه القرآن كذلك نفقة أولئك الذين ينفقون فخراً، ليمدحهم الناس في نفقتهم، بزرع جاءته ريح باردة فأهلكته - لم تبق فيه شيئاً - قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١١٧].

فانظر كيف شُبهت نفقة المؤمنين بتشبيهين اثنين، ونفقة غيرهم بتشبيهين اثنين كذلك، والمطر الذي كان سبباً في النمو والزكاء هو الذي كان سبباً في الهلاك والخسران، وإذا نظرت إلى هذه التشبيهات جميعاً فإنك لا تجد عنصراً غريباً على أي واحد من الناس مهما اختلف الزمان والمكان.

ثانياً: الإنسان في القرآن:

أ- شبه الله المؤمنين الذين شَرُفوا بصحبة الرسول ﷺ - وقد كانوا قلة ضعفاء - ، بزرع أخرج شطأه وهي تلك الفراخ والشعب التي تتشعب في ساق النبات فتحميه من

الآفات، فيستغلظ هذا الزرع فيستوي على ساقه، فهو يعجب الزراع في قوته ونموِّه، وكذلك أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم جميعاً. وقد قوي بعضهم ببعض حتى أصبح هذا الدين قوياً فكان كما قال الله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ، وهذا التشبيه كما تراه فيه هذا التصوير والتجسيد المحسوس مما ليس غريباً على النفس، لذلك كان له ذلك التأثير البديع، وهو تشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

ب- أما المنافقون فنجد أن القرآن يرسم لهم صوراً متعددة، طبقاً لأحوالهم، فالمنافقون كانوا يظهرون الإيمان - كما تعلم - وإظهارهم للإيمان كان يدفع عنهم الأذى، حيث كانت تجري عليهم أحكام الإسلام، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم.

وللمنافقين حالة ثانية: وهو ما كانوا يشعرون به من الحرج والضيق، وذلك حينما تنزل الآيات تفضح أمرهم، فادعاؤهم الإيمان لا يجديهم، وتظاهرهم به لا ينفعهم، وهناك حالة ثالثة، لا من حيث ادعاؤهم الإيمان ولا من حيث الحرج الذي يجدونه إنما روعيت فيها هيئاتهم الظاهرة التي تعجب الذين يرونهم، وهناك حالة رابعة، وهي حالتهم عندما يجيئهم الخوف ويدعون إلى الجهاد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يشبه كل حالة من هذه بما يناسبها ويتلاءم معها.

ففي الحالة الأولى نقرأ قول الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]، فهو تشبيه لحال المنافقين وقد ادعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، فظنوا في أنفسهم أن هذا الخداع لن تكون له نهاية، ولكن هيهات، فمثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فبددت الظلمات وأضاءت ما حوله، وبينما هو كذلك في فرحه ومرحه وسروره، وبهجته، وإذ بهذه النار تخمد وتنطفئ فلا يبقى منها شيء.

أما في حالتهم الثانية وهي حالة الحرج والضيق فنقرأ قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩].

يشبه القرآن حالهم في هذا الضيق، وتلك القسوة، وذلكم الحرج، بقوم يسيرون والمطر الكثير الشديد ينزل من السماء، وقد أظلم الجو، ومع هذا المطر رعد قاصف، وبرق شديد اللمعان، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا أصوات الرعد، وهذا البرق الشديد يكاد يخطف أبصارهم، ولكن مع شدته يضيء لهم إذا مشوا فيه، فإذا ذهب وقفوا في أمكنتهم، فهم في شدة على كل حال. وكذلك كان المنافقون، فهم مع ادعائهم الإسلام كانوا يخشون دائماً أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم، فهم مضطربون دائماً، لا يستقر لهم قرار، يبين هذا قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤].

أما حالتهم الثالثة فقد شبههم القرآن بالخُشُب المسندة، فشأن الخَشَب أن يستفاد منه في البناء والسفن، وغير ذلك، أما عندما يكون مسنداً فستنخره السوس دون الاستفادة منه، فهُم وإن أعجبك مظهرهم، لكن مخبرهم وحقيقتهم ليست شيئاً، وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ ﴾ [المنافقون:٤]، وفي مثل هذا يقول الشاعر:

لا يَخْدَعَنَّكَ اللِّحى ولا الصُّوَرُ ... تِسْعَةُ أعشارِ مَنْ ترى بَقَرُ
تراهُمُ كالسَّحابِ مُنْتَشِراً ... ولَيْسَ فيها لِطالِبٍ مطرُ
في شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَهٌ ... لَهُ رَواءٌ ومَا لَهُ ثَمَرُ

وأما حالتهم الرابعة: فقد شبههم القرآن بحالة الذي يغشى عليه من الموت. قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [محمد:٢٠].

ج- أما الكافرون فنجد لهم في القرآن الكريم تشبيهات كثيرة متعددة مع أن كل واحد يختلف عن الآخر، ذلك لأن الموضوعات التي تناولتها هذه التشبيهات ليست سواء، ومن هنا اختلفت صور التشبيه باختلاف الأغراض.

١- فمن حيث الإعراض عن الحق والتولي والابتعاد نجد هذه الصورة الدقيقة ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر:٤٩-٥١]، فانظر إلى تلك الصورة لهؤلاء وهم يفرّون من الداعي، ويعرضون عن الحق، ولكن هذا الإعراض لا يزيدهم إلا حيرةً وخوفاً؛ فما أشبههم بهذه الحمر الوحشية النافرة الشاردة، وهي تفر من أسد خشية أن يفترسها.

إن التشبيه هنا مع ما فيه من إبداع التصوير وروعته، نجد فيه كذلك من دقة التعبير وموضوعيته، ذلك أنهم شُبّهوا بالحمر، والحمر مثال في البلادة، ثم هم قد فرّوا من قسورة، وفي هذا إيحاء أن الداعي إلى الحق حريّ به أن يكون أسداً فتكون الشجاعة من أبرز صفاته، وشتان بين ما فَرَّ من أجله هؤلاء وبين ما تفرّ من أجله الحمر المستنفرة، أليسوا أضل من الحمر سبيلاً؟ وانظر إلى كلمة (مستنفرة) وما فيه من السين والتاء، وكلمة (فرّت) كل هذا وغيره من الخصائص التي حدثتك عنها في تشبيهات القرآن مما له عمله في النفس، وتأثيره في القلب.

٢- وقد يُشبَّه الكافرون وهم يُدْعَوْنَ إلى الحقّ وقد أحاطت بهم الغفلة، فهم لا يسمعون من الداعي إلا حروفاً وأصواتاً لا يفقهون منها شيئاً، فما أشبههم بتلك الأنعام التي تسمع صوت داعيها وراعيها، ولكنها لا تميز ما يضر مما ينفع. نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:١٧١]، المشبه هنا: الداعي إلى الإيمان وهو يدعو أولئك الغافلين، والمشبه به: الراعي الذي يصيح بهذه الأنعام التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ووجه الشبه صورة من لا يميز بين ما يضره أو ما ينفعه.

وقريب من هذا التشبيه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ

أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩]، إلا أن الفرق بين هذا التشبيه وبين الذي قبله، أن التشبيه السابق نظر إلى حال الداعي لأولئك الكافرين، أما هذا التشبيه فليس كذلك، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية فإن هذا التشبيه فيه تفصيل؛ فقد ذكر الاستعدادات التي مُكّن منها أولئك، فقد هيّأ الله لهم القلوب ليفقهوا بها الأمور وهذا ما لم يهيأ للأنعام، صحيح أنهم كانت لهم العيون والآذان التي يشتركون فيها مع الأنعام، ولذلك نجد القرآن حينما شبههم بالأنعام يُضرب عن هذا التشبيه فيقول: «بل هم أضل»، وإنما كانوا أضل لأن الأنعام لم تملك هذه الوسائل التي يملكونها، وهكذا نجد أن التشبيهات في القرآن بعيدة كل البُعد عن شبهة التكرار وشائبته.

وقد يشبهون بالأنعام ولكن من وجه آخر وصفة غير الصفات التي مرت معنا من قبل، فالأنعام لا تبغي إلا أن ترتع وتأكل من أجل أن تملأ بطونها وليس وراء ذلك شيء، فالأكل هو الغاية. وكذلك أولئك فهم يعيشون ليأكلوا، وشتان بينهم وبين من يأكل ليعيش، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [محمد:١٢]، وشتان بين هؤلاء وبين من يتقوى في أكله على عمل الخير والطاعة، ومن هنا كان المؤمن يأكل في معىً واحد والكافر في سبعة أمعاء.

تلك تشبيهات ثلاثة شبه الكافرون فيها بالأنعام، ولكن كان لكل واحد منها جهته وموضوعه كما رأيت.

٣- وقد يكون المشبه أعمال الكافرين لا ذواتهم وأحوالهم، وهنا نجد أن موضوع التشبيه كذلك ليس شيئاً واحداً، فقد يعمد التشبيه ليقرر أن هذه الأعمال سوف تتلاشى مع كثرتها، بحيث لا يبقى لها أثر مهما أريد لها أن تضخّم ومهما أحيطت بها من هالات، ومهما اصطُنع لها من دعاية، ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وتشبيهات القرآن قد يُفصِّل بعضها ما يجمله الآخر، فقد يقتضي السياق إجمال الصورة دون التفصيل. نقرأ قول الله تبارك وتعالى في تفصيل التشبيه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨]، فالقرآن لم يشبّهها بالرماد فحسب، ولكنه رماد أصابته ريح شديدة، وليس هذا فحسب بل في يوم عاصف كذلك فماذا عساها تبقي منه يا ترى؟ كذلك أعمال أولئك. أرأيت دقة فيها الاستيعاب، استيعاب الموضوع المتحدث عنه أكثر من هذه الدقة. إنك بكل طمأنينة تقول: (لا).

وقد يعمد التشبيه إلى شيء آخر، فنحن نعلم أن الأعمال ليست سواء، فهناك الأعمال التي ليست في ظاهرها سوءاً، وهناك الأعمال التي هي سوء في الظاهر والباطن، نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٣٩-٤٠].

والقارئ يدرك لأول وهلة - والله أعلم بمراده - أن الأعمال في الآية الأولى هي تلك الأعمال التي تبدو في ظاهرها خيراً، ويظهر أن لها بريقاً ولمعاناً، يدلنا على ذلك أنها شبهت بسراب بقيعة فيظن من رآه أنه ماء، ويجدُّ في طلبه، ولكنه يوقن بعد ذلك أنه واهم حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ومع أسلوب التشبيه نجد الدقة في التعبير، تظهر تلك الدقة في كلمة (الظمآن) حيث اختيرت هذه الكلمة لتصور شدة الحاجة، والضرورة الملحة على طلب الماء، كذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ فهناك قصدٌ في طلبه تدل عليه هاتان الكلمتان: (حتى)، (إذا)، ثم لا تنس كلمة (شيئاً) حيث استعملت بدل كلمة ماء، أي لم يجد أي شيء يمكن أن يكون له وجود، وهذه الكلمة تجعل التشبيه يلتقي مع التشبيه الذي قبله، ثم ما أروع ما ختمت به الآية الكريمة ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

أما النوع الثاني من الأعمال فهو السيئ في ظاهره وباطنه، فقد جاء تشبيهاً في الآية الثانية بهذه الظلمات الكثيفة في بحر لجيّ، وفيه الأمواج المتلاطمة بعضها فوق بعض، ومن فوق هذه الأمواج السحب المتلبدة، حتى إن الإنسان إذا أخرج يده لم يكد يراها، وما

قيل عن دقة التعبير في التشبيه الأول يقال في هذا كذلك، يدلك على هذا كلمة (أخرج) وكلمة (لم يكد)، ثم ما أجمل ما ختمت به الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

٤- وقد يكون التشبيه لفئة خاصة من الكافرين وفي حالة خاصة كذلك، ونذكر لذلك مثالين من كتاب الله:

المثال الأول: تشبيه اليهود: أولئك الذين أكرمهم الله بالتوراة، وأورثهم الكتاب، ولكنهم اتخذوه ظهرياً، نبذوه وراء ظهورهم وأعرضوا عن هدايته، فحرفوا كلماته، وبدلوا أحكامه. قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة:٥]، فالمشبه به هو الحمار، ولكن ليس مطلقاً ولكنه الحمار الذي يحمل أسفار العلم المفيدة بل غزيرة الفوائد، ولكن ليس له في حملها إلا الإجهاد والمشقة والتعب، وكما أن المشبه والمشبه به مركبان فوجه الشبه كذلك، وهو صورة من يُتعِب نفسه ويجهدها بكل نفيس دون أن يحصل من ذلك على طائل.

المثال الثاني: من أكرمه الله بالآيات والهداية ولكنه انسلخ منها قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، فالمشبه به وهو الكلب في أخص وأخس صفاته أنه يلهث في كل حال. قال الجاحظ: «فزعموا أن هذا المثال لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لأنه قال: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ فما يُشبَّه حالُ من أعطي شيئاً فلم يقبله، - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي إنْ حملت عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شد عليك نبحه، مع أن قوله: (يلهث) لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد ومن تعب، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر، قلنا له: إن قال: (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فقد يستقيم أن يكون الرّادُّ لا يسمَّى مكذباً، ولا يقال لهم: كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات

والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه، فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفسية في وزن طلبه والحرص عليها، والكلب إذ أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً عليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش»[1].

٥- وقد يشبه الكافرون وهم يعتمدون على معبوداتهم المتعددة فلا تغني عنهم شيئاً بما يقتضيه السياق، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤]، قف مع روعة هذا التشبيه، ونظن أنه كان الأصل لكل التشبيهات التي استعملها الشعراء في معناه فيما بعد، وانظر إلى المشبه به: وهو الباسط كفيه إلى الماء يظن أن ذلك يغني عنه شيئاً وسيبلغ فاه وأنى له ذلك، ألا تجد في هذا التشبيه تلك الصورة التامة لأولئك الذين يدعون من دون الله، أن ذلك سيصل بهم إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المقصودة، وما هم ببالغين ذلك.

٦- وفي تشبيه آخر نقرأ قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١]، وإذا كان بيت العنكبوت لا يغني عنه شيئاً، فلا يقيه شراً، بل لا يؤويه لوهنه وضعفه. وإذا كانت خيوط العنكبوت من أقوى الخيوط، - كما يقول أصحاب الاختصاص - وبيته من أوهن البيوت، فإن ذلك يطلعنا على دقة التشبيه، لأن أولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء، وقد منحهم الله العقل الذي يستنيرون به، هم الذين يهلكون أنفسهم فلا يغني عنهم أولياؤهم شيئاً، وانظر إليهم إن شئت في عصر العلم وما يعانونه من التحطم النفسي، والانهيار العصبي، وسل الإحصائيات تنبئك بذلك.

(١) الحيوان، ١/ ١٦-١٧.

٧- وقد يشبه الكافرون المعرضون عن الآيات، وقد فقدوا الطمأنينة، وتملكتهم مشاعر الضيق، والإحساس بالحرج، بمن يصعد في السماء قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، «شُبه بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة»[1].

٨- وقد يشبه الذين أحاطت بهم سيئاتهم فغشيتهم الذلة، وغطى سواد الأعمال وجوههم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس:٢٧]، فانظر إلى هذا التصوير البديع المروع المرهب، كيف انتزعت فيه قطع من الليل المظلم فجعلت غطاء لهذه الوجوه.

٩- وقد يكون التشبيه في القرآن لأولئك الذين حلت بهم العقوبة بعد تكذيبهم لأنبيائهم، ومن ذلك ما شبه به المكذبون من قوم هود ﷺ، وقد سلطت عليهم ريح صرصر عاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة:٧]، وفي آية أخرى ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر:١٩-٢٠]، فكر في هذا التطابق، فقد أهلكوا بالريح، ولما كان من شأن الريح القوية أن تقتلع الأشجار، ومن أضخمها النخيل شبهوا بأعجازها.

ومثل هذا ما حدثنا القرآن عن ثمود - قوم صالح ﷺ - ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، والحظيرة ما يتخذ للغنم لتأوي إليه، فانظر كيف تصبح هشيماً لأنها متخذة من القشّ وما يشبهه، ومثل هذا ما حدثنا القرآن عن أصحاب

---

(١) روح المعاني، ٨/ ٢٢.

الفيل بقيادة أبرهة ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل:٥]، وللعصف صورة في النفس بعد أن يُفصل عن الحَبّ، فما بالك بصورته بعد أن يؤكل ؟! فأعجاز النخل المنقعر، وهشيم المتحظر والعصف المأكول، كلها أمور مشاهدة من جهة، وهي مما تمله النفس ولا ترغبه من جهة أخرى، ولكن ما الذي يؤثر في النفس؟ إن هذه الأشياء التافهة ليست إلا نهاية لأولئك المتجبرين المعتدين المعرضين عن الحق، فالقرآن يقصد من التشبيه التنبيه إلى المادة الهشة من الهشيم، والعصف المأكول ومن أين أتت وكيف تحولت؟ ومن هؤلاء الذين تحولوا فأصبحوا كذلك؟!

١٠- وقد يكون التشبيه من حيث القلق النفسي وسوء العاقبة، ونمثل له بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، وللعلماء مسلكان في تقدير هذا التشبيه؛ بعضهم يفرق أجزاءه فيجعله تشبيهات متعددة، وآخرون يجعلونه تشبيهاً واحداً مركباً، وهو الذي يعجبني وأميل إليه[١].

يشبه القرآن الكريم المشرك الذي حُرم طمأنينة الإيمان، فهو نهبٌ للهواجس والوساوس، تلازمه ليله ونهاره، فلا يستقر على حال، فهو في انحدار دائم، يشبهه بمن خرّ من السماء، من مكان ساحقٍ مرتفع - وما أشد وقع كلمة الخرور في هذا الموقع - فهو سقوط فيه مفاجأة ورعب، فمثل المشرك وحاله كمن خرّ من السماء، وبينما هو كذلك فإما أن تختطفه الطير لتجعله فرقاً ومزعاً، وإما أن يسلم منها فيهوي إلى مكان سحيق، فهو انحدارٌ لا يشبهه شيء، بحيث يصير أبعدَ ما يكون عن عالمه الذي كان يعيش فيه، فهو بين حالين لا أقول أحلاهما مرّ، بل كلاهما غايةٌ في المرارة والألم، فهو إما أن تخطفه الطير حين خروره من السماء فيكون إرباً، وإما أن يهوي في مكانٍ سحيق لا قرار له، وهكذا حال المشرك وعاقبته فما أعظم القرآن الكريم في صوره وسوره.

(١) راجع الكشاف، ج٣، سورة الحج آية ٣١.

ثالثاً: تشبيهات عامة:

وإذا كانت التشبيهات السابقة لفئات الناس فهناك تشبيهات أُخَر ليست لفئة من الناس دون فئة، ولكنها تشبيهات عامة لكل ما يحيط بهؤلاء جميعاً، ومن هذه التشبيهات:

١ - الدنيا: والإنسان مطبوع على حب الحياة وربما تملكه هذه الحياة فتنسيه إنسانيته، وتطغى على كل معاني الخير، لذلك نجد عناية القرآن ببيان حقيقة الدنيا، وهي في الواقع عناية بالإنسان نفسه، حتى لا تطغى عليه شهواته، فنجد القرآن يعقد للدنيا تشبيهات بما يحيط بهذا الإنسان مما لا يجهله أحد، وهذه تارة تجيء مجملة وتارة مفصلة كما قلنا من قبل.

فمن المجمل قوله سبحانه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف:٤٥]، فقد شبهت الدنيا في سرعة زوالها بهذا النبات، الذي ينزل عليه الماء من السماء ولكنه بعد خضرته وبهجته يصبح هشيماً حتى إن الرياح لتذروه فلا تبقي له أثراً، وهناك تشبيه آخر فُصّل فيه كل من المشبه والمشبه به وهو قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠]، فلقد ذكر المشبه بأداة القصر، وما يستهوي الناس في هذه الدنيا فيستغرق أعمارهم جميعها، ويشغلون به أنفسهم وأوقاتهم، وماذا غير اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، أما المشبه به فهو ذلك النبات الذي أحياه الغيث فأعجب الكفار نباته، ومن الممكن أن نفسر الكفار هنا بالزّراع، واختيار الكلمة هنا له إيحاءاته الكثيرة ولكن سرعان ما يزول هذا العجب إذ لا يلبث فيهيج فتراه مصفراً. ولقد لوحظ في هذا التشبيه كذلك الدقة في التعبير مع جمال التصوير، نلمح هذا في كلمة (الكفار) وفي الفعل المضارع (تراه) ولم يقل: «هاجَ فاصْفَرّ» وما ذلك إلا لتستحضر الصور المشخصة أمامك، وفي كلمة (ثم) الدالة على التراخي، وهو أمر لا مناص منه مهما امتدّ وقته وطال أمده.

وهناك تشبيه ثالث فُصّل فيه المشبه تفصيلاً تاماً، وذكرت فيه الصورة بجميع أجزائها وعناصرها ذلك هو قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، والتفصيل في المشبه به يوحي للنفس تفصيلاً في المشبه، فالمشبه به هنا ذلك النبات الذي لا غناء للإنسان وللأنعام عنه، وقد نزل عليه الماء من السماء فنما فاهتزت به الأرض وربت، وأخذت زخرفها وتزينت وبلغت غاية حسنها، ونهاية بهجتها، وهنا وقد أصبح كل شيء على أحسن ما يرام، وأجمل ما يُرى، جاءت اللحظة الحاسمة ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾، والليل والنهار في هذه الدنيا يجتمعان، ولكن في أمكنة مختلفة فهنا ليل وهناك نهار، وماذا بعد ذلك؟ ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هكذا بهذه الفاء الدالة على التعقيب التي لا تدع مهلة، ولا تقبل تسويفاً.

٢- الآخرة: أول ما يلفت الانتباه أن القرآن الكريم وهو يبين للناس أمر البعث، وحقيقة الآخرة، لم تكن أدلته من ذلك النوع التجريدي، البعيدة عن مواطن التأثير، فجعل من أسلوب التشبيه، ومن أبرز عنصرين فيه وهما: الحسّ والنفس، البرهان الساطع، والدليل القاطع، على إثبات هذه القضايا الخطيرة الشأن، اقرأ قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل:٧٧]. وقضية البعث في الحقيقة أخطر قضية، لأن كل ما بعدها ينبني عليها، وها هو القرآن الكريم يسلك في ذلك أيسر المسالك، وأسهلها وأبعدها عن التعقيد، استمع إليه يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]، ومن الذي يستطيع أن ينكر وجوده وأن له بداية؟ العود كالبدء، ذلك تشبيه بسيط سهل لا ينازع فيه صاحب فطرة سليمة، وعقل سوي، فهو يبعثكم كما خلقكم.

وإذا كان هذا التشبيه يستند إلى الإنسان نفسه، فهناك تشبيه آخر يستند إلى ما حول هذا الإنسان، مما لا تنازع فيه الحواس، بل هو مما يجتمع عليه جميع الناس، نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف:٥٧]، هذا هو

المشبه، أترى أن أحداً يمكن أن ينازع فيه؟ أليست الرياح تحمل سُحباً تساق إلى الأرض الهامدة الميتة الخاشعة؟ ينزل عليها الماء، وتخرج به الثمرات المختلفة، أما المشبه به فهو ما ختمت به الآية ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧]، فإذا كان المشبه أمراً فطرياً فلم لا يكون المشبه به كذلك؟ أليس العقل والحس والنفس، تشترك كلها في إثبات هذا التشبيه؟ ولما كانت هذه القضية أكثر شأناً وخطراً من غيرها عمد القرآن إلى تثبيتها في النفوس في أكثر من موضوع، وبأكثر من أسلوب، والذي يعنينا أسلوب التشبيه ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر:٩]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:١١].

وبعد قضية البعث نجد تصويراً لمشاهد كثيرة من مشاهد الآخرة بأسلوب التشبيه، نكتفي بذكر بعضها:

١- فيشبه الناس تارة بالفراش المبثوث. ومن ذا الذي يجهل الفراش وهو يتدافع إلى الضوء؟ ويشبهون تارة ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، وكيف تكون حالتهم وهم يتدافعون بسرعة، وقوة حركة لصنم، سواء كان من أصنام الجاهلية الأولى أم من أصنام القرن العشرين، وتارة يشبهون بالجراد المنتشر، وللجراد في تصور الناس - حتى في عصرنا هذا - إيحاءات معروفة لا تنكر، فهم اليوم يحاربونه بالطائرات.

٢- أما الجبال فتارة تشبه بالعهن المنفوش، ومن الذي يجهل الصوف في لينه وخفته؟ ولكنها في مرحلة أخرى تشبه بالسحاب ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، إن قلنا: إن الآية تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهناك تفسير آخر للآية الكريمة، وأسلوب التشبيه وارد على كلا التفسيرين. وتارة كالكثيب المهيل من الرمل، وهي مراحل مختلفة تمر بها الجبال، أعني هذه التشبيهات كل منها يدل على مرحلة لها وقتها الخاص بها.

٣- والسماء الصافية المتلألئة كما نراها في دنيانا، سيكون لها شأن آخر يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨].

فالآية الأولى ذُكر فيها تشبيهان - وسيمر بك بعض الآيات التي تتحدث عن الآخرة فيها تشبيهان كذلك - شُبِّهت السماء بالوردة أولاً وهي النَّوْرةُ المعروفة بشدة حمرتها، وذهب بعض اللغويين من المفسرين إلى أن المقصود بالوردة هنا ليست النَّوْرَة - أعني الوردة المعروفة للناس - إنما هي الفرس الوردي الذي يتغير لونه بتغير فصول السنة(١).

أما التشبيه الثاني فهو تشبيه السماء بالدهان - والدهان جمع دهن - فلأن السماء يعتريها في ذلك اليوم العظيم ألوانٌ وذَوْبٌ وتميُّع. وهكذا نجد أن كل تشبيه من التشبيهين يؤدي غرضاً؛ فالأول: تشبيه من حيث شدة الحمرة، والثاني من حيث التموُّج والذوبان.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ المهل: هو دُرْدِيُّ الزيت، أي: عَكَرُه، ومن الذي لا يعرف عكر الزيت، كما يطلق المهل على مائع الفِلِزّ المذاب، وهو تشبيه لا يخلو من رعب ورهبة؛ فهذه السماء الصافية المتلألئة التي لا زالت توحي إلى الشعراء وتبعث في نفوسهم بديع القول وروعة الصنعة ستتحول يوم القيامة إلى هذا اللون من العُكرة والكدورة التي تبعث الرعب والخوف في قلوب الرائين وأعينهم.

٤ - أما الجنَّة فتجد أن أسلوب التشبيه الذي جاء في كتاب الله يضع الصورة أمامك، ليأنس بها القلب، أو تنخلع لها النفس، فالجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وانظر ماذا يحدث هذا التشبيه في النفس؟ عرض السماء والأرض، أيُّ سعة تلك؟ وأنّى للنفس أن تحيط بذلك؟!

٥ - أما الحور العين فتارة يُشَبَّهْنَ بالياقوت والمرجان، وتارة بالبيض المكنون، وتارة باللؤلؤ، ولا تظنن أن الغاية من هذه التشبيهات كلها شيء واحد، إن كل تشبيه يهدف إلى غرض معين، وله إيحاؤه الخاص، فالتشبيه بالياقوت والمرجان، المراد منه الصفاء والنقاء،

---

(١) وهذا ما ذهب إليه الفراء، حيث قال: (أراد بالوردة الفرس، الوردةُ تكون في الربيع وردةً إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردةً حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغُبرَة، فشبه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخيل). معاني القرآن للفراء، ٣/ ١١٧.

وأما التشبيه باللؤلؤ فيجمع إلى ما تقدم النفاسةَ، وكلها مما تتخذه النساءزينة لهن، وهذه الصلة بين المشبه والمشبه به مما تزيد النفس تأثراً وتفاعلاً وتعلقاً بهذا التشبيه، وأما التشبيه بالبيض فيشير إلى الرقة، وشدة الحساسية وما يتطلبه ذلك من قوة الملاحظة، والمحافظة، هذا عن الجنة، فماذا عن النار؟!

٦- أما النار فـ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات:٣٢-٣٣]، فهما تشبيهان:

الأول: تشبيهها بالقصر: وهو البيت من الحجر كما هو معروف عند العرب، وقيل: القصر: قِطع الحطب الغليظ، والأول أرجح وأولى، وهو تشبيه من حيث العِظَم، أي: أن الشرارة الواحدة من شرر جهنم تشبه القصر في عِظَمها.

أما التشبيه الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ فكما شبه شرر جهنم بالقصر من حيث عِظمُها، شبهه بالجمالات الصفر - وهي جمع جمل - من حيث شكلها ولونها وكثرتها، وهذا تشبيه جارٍ على سنن العرب؛ فالذي يتتبع أقوال الشعراء في الجاهلية وبعدها يجد مثل هذه التشبيهات، وللعرب تشبيهات بديعة تدلّ على ذكاء وأريحية وفطرة ذكية وسليقة درّاكة، ألا تراهم قد شبهوا النوق وهي واقفة بالقصور، بينما شبهوها وهي سائرة بالصقور، فقالوا: (إنْ وَقَفْنَ فَمَجادِل، أو مَرَرْنَ فَأجادِل) والمجادل القصور، والأجادل الصقور.

ولا تعجبن من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر في الذكر، ولا من الجمع بينهما في التشبيه، فإنك إذا نظرت إلى قريةٍ من قرى العرب وقصورها، أي: أبياتها الصغيرة المحمرّة أو المصفرة بلون طينها أو ترابها أو حجارتها، يتخللها ويسرح في جنباتها نياق وجمال مصفرة اللون أو مسودته، إذا وقع نظرك على ذلك لمحت أجساماً صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء، هذه البيوت هنا، وتلك الجِمال هناك في مشهدٍ واحدٍ، وإذ ذاك لا تعود تستغرب قرنهما معاً في الذكر.

وإنما منشأ استغراب هذه الأمثلة من قبل بعض الناس الجهلُ بأحوال العرب، وأطوار معيشتهم، وأساليب حياتهم،الأمر الذي روعي من قبل القرآن الكريم في آياته وأساليب خطابه)[1].

---

(١) تفسير جزء تبارك، عبدالقادر المغربي، ص٢٩٢-٢٩٣.

٧- أما شجرة الزقوم، فهي ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٤-٤٦]، أما ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥].

تلك بعض تشبيهات القرآن الكريم، وتلحظ مما سبق:

أولاً: أن القرآن الكريم يعمد إلى أسلوب التشبيه في القضايا الخطيرة ذات الشأن، فهو لا يأتي بهذا الأسلوب إلا حينما يكون هناك أمر يراد تقريره وتثبيته في النفوس، وهذا ما يجعله يختلف عن كثير من التشبيهات عند الناس.

ثانياً: أن تشبيهات القرآن كلها لا تخلو عن كونها تشبيه محسوس بمحسوس أو معقول بمحسوس اللهم إلا تشبيهين اثنين:

أحدهما قوله سبحانه: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]، فإن المشبه به مما لا يدرك بالحواس، ولكن لما كان ذلك مما لا تنكر النفوس صورته، بل لا تجد نفساً إلا وتشمئز من هذه الصورة شبه به القرآن.

والتشبيه الثاني: قوله سبحانه في شأن عصا موسى ﷺ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١]، إذا فسّرنا الجآنّ بذلك المخلوق من النار، ووجه الشبه الخفة وسرعة الحركة، وهو ما نختاره، ولكن أكثر المفسرين على أن الجآنّ هي الحية الصغيرة، فيكون من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس.

ثالثاً: أن تشبيهات القرآن الكريم منها ما هو مفرد ومنها ما هو مركب، وهو تشبيه التمثيل كما عرفت من قبل.

(كذلك) في كتاب الله:

وللأستاذ أحمد أحمد بدوي - رحمه الله - في كتابه من بلاغة القرآن بحث قيم عن تشبيهات القرآن، تحدث في آخره عن صيغة (كذلك) في كتاب الله، وهو يرى أنها تجيء أكثر ما تجيء لمعانٍ ثلاثة:

١- التشبيه في مثل الآيات التي تحدثت عن البعث - التي ذكرناها لك من قبل - وفي مثل قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣]، في آخر قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين.

٢- أن تكون بمعنى (مثل) في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

٣- أن تأتي لتحقيق الأمر وتثبيته، في مثل قوله سبحانه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [آل عمران:٤٧]، فهو يرى أنها في هذين المعنيين لا تصلح للتشبيه وأن حملها على التشبيه فيه تمحل، وكثير من المفسرين ذهب إلى غير هذا، ولكل وجهة.

(الكاف) في كتاب الله:

أما الكاف فتأتي في القرآن أحياناً لا لهذا التشبيه الفني الخالص، بل لإيقاع التساوي بين أمرين، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٨-٦٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥]، فهي موازنة بينهم وبين من سبقهم، فيها بيان لما يتفقون فيه معهم، وتذكير لما أصاب أولئك السابقين ليتبصروا بها ينتظرهم من العواقب، وإنها لطريقة مؤثرة في النفس حقاً، أن تضع لها شبيهاً، وتتركها لتصل إلى النتيجة في سكينة وهدوء، لا أن تقذف بها في وجهها، فربما تتمرد وتثور.

ومن كاف التساوي، أيضاً قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [النساء:١٦٣]، وقد يُلمح في ذلك الرغبة في إزالة الغرابة عن نفوس

السامعين، واستبعادهم نزول الوحي على الرسول، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكّون في رسالته ليأنسوا بدعوة النبي، وقد يكون هذا التساوي مثاراً للتهكم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤] أو مثاراً للاستنكار كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، فسر الاستنكار - كما ترى - هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله.

وقد تأتي الكاف وسيلة للإيضاح، وتقوم هي وما بعدها مقام المثال للقاعدة، وغير خافٍ ما للمثل يُضرب من التأثير والإقناع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران:١٠-١١]، فجاء بآل فرعون مثالاً لأولئك الذين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. ومن كاف الإيضاح قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

ونكتفي بما ذكرناه من التشبيه في كتاب الله تعالى ولا ننسى أن نذكرك بأن هذا الموضوع له عناية خاصة من العلماء ومنهم ابن ناقيا البغدادي في كتابه (الجمان في تشبيهات القرآن)[1].

هل في القرآن تشبيه مقلوب؟ :

ذهب بعض الكاتبين إلى أن بعض التشبيهات القرآنية هي من التشبيه المقلوب الذي مرّ بك من قبل، ومنه قول محمد بن وهيب[2]:

وبَدَا الصَّباحُ كأنَّ غُرَّتَهُ ... وَجْهُ الخَليفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

(١) من بلاغة القرآن، ص٢١٢ بتصرف.

(٢) سبق ذكر هذا البيت ص٤٤.

إذ الأصل أن يشبِّه وجه الخليفة بغرّة الصباح، وجعلوا من هذا بعض الآيات القرآنية:

١ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٢ - ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧].

٣ - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب:٣٢].

٤ - ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥].

والذي يبدو لي أن الأمر ليس كما ذُكر، بل إن كل تشبيه من هذه التشبيهات جاء على صورته من غير ما قلب ولا عكس، وإنّ كل آيةٍ من هذه الآيات الكريمات جاء التشبيه فيها متسقاً مع السياق الذي ذُكرت فيه.

أما الآية الأولى: فقد بالغوا في حلّ الربا حيث جعلوه الأصل وشبهوا به البيع، ولقد فطن الزمخشري، - رحمه الله - وهو من هو في كشف اللثام عن ثغر البلاغة فقال: «فإن قلت: هلاّ قيل: «إنما الربا مثلُ البيع» لأن الكلام في الربا لا في البيع، فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه»(١).

وأما الآية الثانية: فأنقل لك ما قال القاضي البيضاوي: «وكان حقُّ الكلام «أفمن لا يخلق كمن يخلق»، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها»(٢).

أما الآية الثالثة: فالهدف منها الإلهاب؛ أي: حثّ أمهات المؤمنين أن لا يكنّ كغيرهن من النساء، لذلك جاء النظم الكريم على ما هو عليه ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ليس الغرض إذاً تشبيه النساء بهن، فلم يكن النظم «ليس أحدٌ من النساء مثلكن».

---

(١) الكشاف، ج١، البقرة آية ٢٧٥.

(٢) تفسير البيضاوي، ٢/ ٢٢٣.

أما الآية الرابعة: فينبغي أن نلحظ فيها أنها مكية بل كانت مما نزل مبكراً في مكة المكرمة، وكان كفار مكة لا يرضون أن يكونوا مثل المسلمين فكانوا يرون أن لهم العزة في الدنيا، ولو كانت هناك آخرة لكانوا كذلك، فقال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لن يكون المسلمون مثلكم، وستكون لهم العزة في الدنيا والآخرة.

الفصل الرابع

التشبيهات في السنّة المطهرة

والرسول ﷺ الذي فُضّل بجوامع الكلم، كان لأسلوب التشبيه والتمثيل في حديثه الأثر الطيب، حثاً على فضيلة، وترغيباً في خير، أو تحذيراً من رذيلة، وتنفيراً من شر، والحق أن الموضوعات التي عرض لها أسلوب التشبيه في السنّة المطهرة موضوعات خطيرة من جهة، وكثيرة من جهة أخرى، وفي كثير من الأحيان كان عليه وآله الصلاة والسلام يعمد إلى التصوير العملي ليكون وسيلة إيضاح لما يريد.

فها هو ﷺ وهو بين أصحابه يعمد إلى الأرض ليخط خطوطاً كثيرة معوجة ومتعرجة ويخط خطاً واحداً مستقيماً[1]، والصحابة رضوان الله عليهم ينظرون ويقول لهم: هذه كلها طرق الشيطان وسبله، وهذا صراط الله وسبيله، ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فانظر إلى أي مدى يمكن أن يؤثر هذا الأسلوب في النفس، لا ريب في أن له عظيم الأثر وكبير الفائدة ونحن نتأثر لمجرد سماعه فما بالك بالذين شاهدوه.

---

(١) رواه ابن ماجة - المقدمة - باب اتباع سنّة رسول الله ﷺ ، والحديث عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبي ﷺ فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الوسط فقال: (هذه سبيل الله) ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد يرى النبي ﷺ شيئاً ما فيعمد إلى أن يقرر حقيقة لأصحابه ولمن بعده، فها هو وقد رأى سقطاً من المعز فيسأل: أهانت هذه على أصحابها؟ فيقول: «لَلدُّنيا أهون على الله من هذا عليكم»(١)، فانظر إلى هذا التشبيه في ذلك القالب البديع.

وها هو ﷺ يشبه المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به بالأُتْرجَّة، وهي فاكهة ذات طعم طيب، وريح طيب، ويشبه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ويشبه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ويشبه المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة طعمها مر وليس لها ريح.

قف بربك مع هذا التشبيه وفكر فيه ملياً، وانظر إلى وجه الشبه في هذه التشبيهات الأربعة، ومطابقته للمشبه والمشبه به، وخذ تشبيه المؤمن بالأترجة في الطعم والريح لأنه يقرأ ويعمل، ولكن الذي يزيد الأمر روعة أنك لو وقفت مع الحديث جيداً وجدت أن الطعم جاء وجه شبه للعمل، والرائحة جاءت وجه شبه للقراءة، فالمؤمن الذي يقرأ يشبه بالأترجة في ريحها، والذي يعمل يشبه بها في طعمها، فهو من التشبيه المتعدد كما عرفت من قبل. أما المؤمن الذي يعمل ولا يقرأ فقد شبه بالتمر من حيث الطعم، وهكذا يمكن أن تفهم الحديث هذا الفهم في بقية أجزائه «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(٢).

وانظر إلى هذا التشبيه المركب حيث يشبه النبي ﷺ من يصلي الصلوات الخمس بالذي يغتسل في اليوم خمس مرات، لا يبقى من درنه شيء «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فما يبقى من درنه شيء»(٣).

---

(١) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٢.

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب فضائل القرآن على سائر الكلام، ٤/ ١٩١٧.

(٣) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع الدرجات، ١/ ٤٦٣.

واستمع إلى تشبيه المؤمن للمؤمن بالبنيان يشد بعضه بعضاً، وقف أمام هذا الحديث طويلاً، واستعرض أمراض المسلمين وعللهم، وستجد أن لا علاج لها إلا بهذا القول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»[١].

واستمع إليه ﷺ يشبه المؤمنين في «توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢].

وسأذكر لك طائفة من هذه الأمثال والتشبيهات الرائعة لتكون مادةً لك في المعرفة والهداية:

يقول ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تُفيِّئُها الريح مرة وتعدلها مرة، ومثل المنافق كمثل الأرْزَة لا تزال حتى يكون انْجِعافها مرة واحدة»[٣].

وقال ﷺ: «مثل البخيل والمُنْفِق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد من ثُدِيِّهما إلى تراقِيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سَبَغَتْ أو (وَفَرَت) على جلده حتى تخفيَ بَنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لَزِقَت كل حلقةٍ مكانها فهو يوسِّعها فلا تتسع»[٤]، تراقيهما: جمع ترقوة، وهي العظم البارز أعلى الصدر من رأس الكتف إلى ثغرة العنق، سبغت: امتدت وغطت، وفرت: كملت ونمت، تعفو أثره: تمحوه، لزقت كل حلقة: التصقت وضاقت عليه.

ويقول ﷺ: «تعرضُ الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأيّ قلب أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين؛ على

---

(١) رواه البخاري، كتاب (الأدب) باب (تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً) ٥/ ٢٢٤٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب (الأدب)، باب (رحمة الناس والبهائم) ٥/ ٢٢٣٨.

(٣) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب (في المشيئة والإرادة ٦/ ٢٧١٦، ورواه مسلم كتاب (صفات المنافقين وأحكامهم)، باب (مثل المؤمن كالزرع، ومثل الكافر كشجر الأرز).
الخامة: الطاقة الغضّة اللينة من الزرع، تفيئها، أي: تميلها، الأزر شجر حرجي من الصنوبريات، انجعافها: الانجعاف الانقلاب.

(٤) رواه البخاري، كتاب (الزكاة)، باب (مثل المتصدق والبخيل)، ٢/ ٥٢٣ ورواه مسلم في الزكاة، باب (المنفق والبخيل)، رقم ١٠٢١.

أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه»[1]. أشربها، أي: دخلت فيه دخولاً تاماً وحلت منه محل الشراب، نكت فيه نكتة، أي: نقط نقطة، الصفا: هو الحجر الأملس الذي لا يلصق به شيء، مرباداً، أي: مختلطاً سوادُه بكدره، مجخياً: مائلاً.

ويقول ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نَقِيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفةً منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[2].

أجادب: جمع جَدْب وهي الأرض لا تشرب الماء ولا تنبت، قيعان، جمع قاع: الأرض المستوية الملساء.

ويقول ﷺ: «مَثَلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان، ويعجبون منه ويقولون: لو تمّ موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[3].

ويقول ﷺ: «مَثَلي كمَثَل رجلٍ استوقَد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يَقَعْنَ فيها، وجعل يحْجُزُهُنَّ ويَغْلِبْنَه فيَتَقَحَّمْنَ فيها، فذلك

(١) رواه مسلم، كتاب (الأيمان)، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً)، ١/ ٢٣١.
(٢) رواه البخاري، كتاب (العلم)، باب (فضل من عَلِمَ وعلّم)، ١/ ٤٢. ورواه مسلم، كتاب (الفضائل)، باب (مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم).
(٣) رواه البخاري، كتاب (المناقب)، باب (خاتم النبيين ﷺ)، ٣/ ١٣٠٠.

مَثَلِي ومَثَلكم، أنا آخِذٌ بِحُجَزِكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتَقَحَّمُونَ فيها»[1].

فَيَتَقَحَّمْنَ: يهجمن ويرمين بأنفهسن، آخذ: أمسك بشدة، بحجزكم: جمع حجزة وهي معقد الإزار، وهو كناية عن وصيته ﷺ على منع أمته من الإتيان للمعاصي التي تؤدي إلى النار.

ويقول ﷺ «اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[2]. زبيبة: هي حبة العنب اليابسة والتشبيه من حيث السواد وقصر الشعر وشدة تجعده.

---

(١) رواه البخاري، كتاب (الرقائق)، باب (الانتهاء عن المعاصي)، ٥/ ٢٣٧٩. ورواه مسلم، كتاب (الفضائل)، باب (ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين)، ٤/ ١٧٩٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب (الأحكام)، باب (السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية)، ٦/ ٢٦١٢.

الفصل الخامس

أغراض التشبيه وبلاغته

أغراضه:

الغرض الأساسي من التشبيه التأثير في النفس، فكلما كان التشبيه أكثر تأثيراً في النفس كان تشبيهاً فنياً بليغاً مقبولاً، وقد حاول العلماء أن يستقصوا أغراض التشبيه وهم يستقرئون كثيراً من الأقوال البليغة، فوجدوا أن الغرض من التشبيه إنما يرجع إلى المشبه وهذا هو الأكثر، وقد يرجع إلى المشبه به، وإليك خلاصة ما قالوه:

أولاً: فمما يرجع فيه الغرض إلى المشبَّه:

١ - بيان إمكان المشبه، ومعنى هذا أن المتكلم يأتي بالمشبه فيظن المستمع أنه غير ممكن التحقق، فيأتي بالمشبه به ليثبت هذا الإمكان ويبرهن عليه. انظر إلى قوله: (قد يشيب الفتى) ولا شك أن المستمع قد يقف من هذا القول موقف الإنكار، فأراد الشاعر أن يصور له هذا الأمر بصورة الممكن فقال:

قَـدْ يَـشيبُ الفَتَـى وَلَـيسَ عَجيبـاً   أنْ يُـرَى النَّـوْرُ في القَـضِيبِ الرَّطِيـبِ

انظر إلى قوله: (وما أنا منهمُ بالعيش فيهم) وهذه قضية حرية أن يرتاب فيها المرتابون، فأراد الشاعرُ أن يبين أن هذا الأمر ممكن لا ينبغي أن يرتاب فيه فقال:

وَمَـا أنـا مِـنْهُمْ بِـالْعَيشِ فِـيهِمْ   وَلكِـنْ مَعْـدِنُ الـذَّهَبِ الرُّغَـامُ

ألا ترى أنه جاء بالمشبه به هنا ليثبت إمكان المشبه؟ كأنما ينكر على الذين يرتابون في إمكان هذا التشبيه وتحققه، ومثل هذا قول المتنبي:

فـــإنْ تَفُــقِ الأنــــامَ وَأنْــتَ مِـــنْهُمْ فَـــإنَّ المِــسْكَ بَعْــضُ دَمِ الغَـــزَالِ

٢- تقرير حال المشبه حتى تتضح صورته في النفس، ويثبت في القلب ثبوتاً يصل بك إلى اليقين، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد:١٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١]، وأكثر التشبيهات في كتاب الله تعالى يظهر فيها هذا الغرض واضحاً جلياً، فهي لتقرير حال المشبه وتثبيته في النفس، لتُقدِمَ أو تُحجِم، ومنه قولهم: «الساعي في غير طائل كالراقم على الماء»، «الطامع في النصر من أعدائه كمن يرجو من السم علاجاً لدائه».

٣- بيان مقدار المشبه، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧]، ومنه قوله ﷺ وهو يشبه الإنسان في هذه الدنيا بمستظل تحت شجرة: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[1].

ومنه قول الشاعر:

مَــــا العُمْــــــرُ إلاَّ لَيْلَــــــةٌ كَــــأَنَّ الــــصَّبَاحَ لَهَـــا جَبِـــينُ

ويمثلون له بقول عنترة[2]:

مِنْهَـــا اثْنَتَـــانِ وأرْبَعُـــونَ حَلُوبَـــةً سُـــوداً كَخافِيَـــةِ الغُـــرابِ الأســـحَمِ

٤- بيان حال المشبه، ومنه قول البوصيري:

والـــنَّفْسُ كَالْطِّفْـــلِ إنْ تُهْمِلْـــهُ شَـــبَّ عَـلى حُـبِّ الرَّضَـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ يَـنْفَطِمِ

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الزهد - باب (ما أنا في الدنيا إلا كراكب) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) شرح ديوان عنترة، ص٢٠٥. والخافية: إحدى ريشات أربع إذا ضم الطائر جناحه خفيت.

ومنه قوله ﷺ: «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تجد فيها راحلة»[1] ويمثلون له بقول بشار[2]:

إذا قَامَتْ لِمِشْيَتِها تَثَنَّتْ ... كَأَنَّ عِظامَهَا مِنْ خَيْزُرانِ

٥- تزيين المشبه، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨]، وقول ذي الرمة[3]:

كَحْلاءُ في بَرَجٍ صَفْراءُ في نَعَجٍ ... كأنّها فِضّةٌ قَدْ مَسَّها ذَهَبُ

ومنه قول أبي حسن الأنباري[4]:

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفالاً ... كَمَدِّهِمَا إلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

٦- تقبيح المشبه، ويمثلون له بقول القائل:

وإذا أشارَ مُحَدِّثاً فكَأنَّهُ ... قِردٌ يُقَهْقِهُ أوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

ومنه قول أعرابي في وصف امرأته:

وتَفْتَحُ - لا كانت - فَماً لَوْ رَأيْتَهُ ... تَوَهَّمْتَهُ باباً مِنَ النَّارِ يُفتَحُ

٧- وقد ذكروا من أغراض التشبيه: استطراف المشبه، وذلك إما لتصويره في صورة ما يمتنع في العادة، وإما لغرابة الصلة بين المشبه به والمشبه، ومثلوا للأول بتشبيه الجمر الموقد ببحر من المسك، ويقول الشاعر:

وكَأنَّ مُحْمَرَّ الشَقِيقِ ... إذا تَصَوَّبَ أوْ تَصَعَّدْ

أعْلامُ ياقُوتٍ نُشِرْنَ ... عَلى رِماحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

ومثلوا للثاني - وهو غرابة الصلة بين المشبه والمشبه به - بقول الشاعر:

أُنْظُرْ إلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... قَدْ أثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

---

(١) سبق تخريجه ص٣٤.

(٢) ديوانه، ٤/ ١٩٨.

(٣) العمدة ٢/ ٢٤، ديوانه ١/ ٢٠. الكحلاء: الشديدة السواد، التي كأنها مكحولة، والبرج: إحداق بياض العين بالسواد كله، والنعج: الابيضاض الخالص.

(٤) ديوان المعاني، ٢/ ١٧٩. اليتيمة ٢/ ٣٤٤-٣٤٥.

ثانياً: ما يرجع الغرض فيه إلى المشبَّه به:

وذلك في التشبيه المقلوب أو المعكوس، وهو أن تجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً، كما تقول: «كأن رقة النسيم خلُقُهُ» ومن قول محمد بن وهيب[1]:

وبَـــدا الـــصَّبَاحُ كَـــأنَّ غُرَّتَـــهُ   وَجْـــهُ الخَليفَـــةِ حـــينَ يُمْتَـــدَحُ

ولا بد أن ننبه هنا إلى أن أغراض التشبيه كثيرة لا تنحصر فيما ذكرناه لك، ويمكنك أن تدركها بذوقك وفكرك، ولا تنس أن الغرض الرئيس هو ما يحدثه التشبيه في نفسك لتتفاعل معه فيروقك ويؤنسك.

بلاغة التشبيه:

أما بلاغة التشبيه فقد حدثناك عن طرف منها غير يسير فيما مضى عندما حدثناك عن أسباب تأثيره، وأسباب غرابته. ونزيدك هنا بأن أسلوب التشبيه مع ما فيه من إثراء أدبي، وجمال فني، وإبداع في التصوير، وصورة حية وضاءة، وإيقاظ للهمة، وتفتيق لأكمام الأفكار، فإنه مع ذلك كله ميدان يتسابق فيه فحول البلغاء، فيجود هذا تارة وذاك أخرى، كما يتسابق الرماة في إصابة الهدف، لذلك نجد الشيء الواحد يظهر في صور مختلفة متعددة يبرزه كلٌّ بالصورة التي يرتئيها، وإن شئت فقل: التي تبدعها قريحته. يقول الشيخ عبدالقاهر: «وإنه ليأتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة، ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمرٌ على حدة» مثاله:

١ – الزند: فقد ضربوا الزند الواري مثلاً للجواد الكريم. كقول الحريري[2]:

لا، ولا رَامَ قـــــــابِسٌ   قَـــدْحَ زِنْـــدِي فأصْـــلَدا

---

(١) الصناعتين ٤٦، ٣٦٤، سر الفصاحة ٢٥٣.

(٢) مقامات الحريري، ص٤٢٩. المقامة الثامنة والأربعون (الحرامية)، رام: طلب، قابسٌ: طالبُ النار، قدح زندي: استخراج ناره، فأصلدا، أي: لم يُورِ.

أي: لم يطلب مني أحد شيئاً فبخلت به، ويضرب للذكي الفطن، وللناجح في أموره الظافر بمراده، قال ابن الرومي في إسماعيل بن بلبل[1]:

مُبارَكُ الوَجْهِ مَيْمُونٌ نَقيبَتُهُ ... يُوْري الزِّنادَ بكَفَّيْهِ إذا قَدَحا

يريد: أنه موفق كلما طلب أمراً حصل عليه كما يحصل القادح للزناد على مراده.

كما ضربوا الزند المصلد مثلاً للبخيل الذي لا يعطي، وللبليد الذي لا يفهم، وللخائب في سعيه.

٢- **القمر**: وله أحوال كثيرة يمكن أن يشبه به:

أ- يشبه من ناحية الشهرة والنباهة كقولك: «كيف أعرفك بفلان؟ وهل يخفى القمر؟».

ب- يشبه من جهة الكمال بعد النقصان، قال أبو تمام في رثاء طفلين[2]:

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ مِنْهُما ... لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَصيرَ شَمَائِلا

لَغَدا سُكُونُهُما حِجىً وصِبَاهُما ... حِلْماً وَتِلْكَ الأرْيَحِيَّةُ نَائِلا

إنَّ الهِلالَ إذا رأيْتَ نُمُوَّهُ ... أيْقَنْتَ أنْ سَيَصيرُ بَدْراً كامِلا

ومنه قول البحتري يمدح ابن كنداح القائد[3]:

شَرَفٌ تَزَيَّدَ بالعِراقِ إلى الذي ... عَهِدُوه بِالبَيْضاءِ أوْ بِبَلَنْجَرا

مِثْلُ الهِلالِ بَدَا فَلَمْ يَبرَحْ بِهِ ... صَوْغُ اللَّيالِي فِيهِ حَتَّى أقْمَرا

---

(١) ديوانه ٣/ ٥٦١، قصيدة (ميمون نقيبته). ميمون النقيب: محمود ومشكور المختبر، يوري الزناد: يخرج ناره.

(٢) ديوانه ٣٨٠، ديوان المعاني ٢/ ١٧٨. الشواهد: المخايل، حجىً: عقلاً وتعقلاً، الحلم: كبر النفس والعقل، الأريحية: الميل إلى العطاء، النائل: العطاء، ومعنى البيت الأول: (أنه باتت فيهما شواهد المكرمات إلا أن الموت حال دون أن تكتمل حتى تصير صفات حقيقية).

(٣) ديوانه ١/ ٢٤٤، الموازنة ١٣٦، البيضاء وبلنجرا: مدينتان في بلاد الخزر، وصوغ الليالي، المقصود تشكيل الليالي للقمر من شكل إلى شكل.

ج- ويشبه بالقمر: في كماله بعد النقص، ثم نقصه بعد الكمال، كقول أبي الحسن أحمد بن أبي بغل[1]:

المـــرءُ مِثْـــلُ هِـــلالٍ حِـــينَ تُبْـــصِرُهُ   يَبْـــدُو ضَـــئيلاً ضَـــعيفاً ثُـــمَّ يتَّـــسِقُ
يَـــزْدادُ حَتَّـــى إذا مَـــا تَـــمَّ أعْقَبَـــهُ   كَـــرُّ الجَديـــدَيْنِ نَقْـــصاً ثُـــمَّ يَنْمَحِـــقُ

د- ويشبه كذلك بكمال النصف، كقول ابن بابك[2]:

وأعَـــرْتَ شـــطْرَ المُلْـــكِ ثَـــوْبَ كمالِـــهِ   والبَـــدْرُ في شَـــطْرِ المـــسافةِ يكمُـــلُ

هـ- وترى البدر إذا كان قليل النور قل ظهوره ليلاً أول الشهر وآخره، فإذا امتلأ طال مكثه. ومنه قول أبي بكر الخوارزمي[3]:

أراكَ إذا أَيْـــسَرْتَ خَيَّمْـــتَ عنـــدَنا   مُقـــيماً وإنْ أعْـــسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَـــا
فـــما أنـــت إلا البـــدرُ إنْ قَـــلَّ ضَـــوْؤُهُ   أغَـــبَّ وإنْ زادَ الـــضياءُ أقامـــا

وجه الشبه إطالة المكث عند كثرة النفع، وإقلاله عند قلته.

و- ظهوره في كل مكان، كقول المتنبي يمدح علي بن منصور الحاجب[4]:

كَالبَـــدْرِ مِـــنْ حَيْـــثُ التَفَـــتَّ رَأَيْتَـــهُ   يُهْـــدِي إلى عَيْنَيْـــكَ نُـــوراً ثاقِبَـــا

ز- ومن أحوال البدر ما ترى من بُعْدِهِ، وارتفاعه، وقرب ضوئه وشعاعه، ومنه قول البحتري[5]:

دَانٍ إلى أيْـــدِي العُفَـــاةِ وَشَاسِـــعٌ   عَـــنْ كُـــلِّ نِـــدٍّ في النَّـــدَى وضَرِيـــبِ
كَالْبَـــدْرِ أفْـــرَطَ في العُلُـــوِّ وَضَـــوْؤُهُ   للعُـــصْبَةِ الـــسّارِينَ جِـــدُّ قَرِيـــبِ

٣- **البحر**: وهذا له أحوال كثيرة:

---

(١) نهاية الأرب ١/ ٥٢، كرّ الجديدين، أي: تعاقب الليل والنهار.
(٢) اليتيمة ٣/ ٣٤٣.
(٣) اليتيمة ٤/ ٢٢٤. اللِّمام: اللقاء اليسير وهو جمع لمّه.
(٤) ديوانه ١/ ٢٥٧.
(٥) سبق ذكر هذين البيتين ص٢٤.

أ- فقد يشبه به في غزارته وسعته وأنه لا ينضب، كقول المتنبي[1]:

كَـالبَحْرِ يَقْـذِفُ لِلْقَرِيـبِ جَـواهِراً جُـوْداً وَيَبْعَـثُ لِلْبَعِيـدِ سَـحَائِبَا

ب- يشبه به الرجل العظيم لا تنال منه سفاهة السفهاء، كقول أبي أمامة مولى عبدالقيس:

وإنّـا وَمَـا تُلْقِـي لَنَـا إنْ هَجَوْتَنَـا فَكَـالبَحْرِ مَهْـما يُلْـقَ في البَحْـرِ يَغْـرَقُ

ج- وتراه يرسب فيه اللؤلؤ وتطفو فوقه الجيف، وفي ذلك شبه ابن الرومي الزمان[2]:

دَهْـرٌ عَـلاَ قَـدْرُ الوَضِـيعِ بِـهِ وَهَـوَى الـشَّرِيفُ يَحُطُّـهُ شَرَفُـهْ
كَـالْبَحْرِ يَرْسُـبُ فيـه لُؤْلُـؤُهُ سَـفْلاً وتَطْفُـو فَوْقَـهُ جِيفُـهْ

د- وقد يشبه به في أنه يستخرج منه الدر، ولكنه لا يؤمَن إن هاج واضطرب، قال الغزيّ[3]:

هُـوَ البَحْـرُ لا يـأْسَ مِـنْ دُرِّه ولا أمْـنَ مِـنْ مَوْجِـهِ إنْ طَـما

٤ - السيف: وقد شبهوا به من جهات شتى:

أ- شبهت به العزيمة في المضاء كقول ابن الرومي يمدح عبيد الله بن عبدالله[4]:

فَتـىً عَزْمُـه سَـيْفٌ حُـسامٌ وسَـيْفُهُ قَـضاءٌ إذا لاقـى الـضَّرِيبَةَ مُـبرَمُ

ب- وقال ابن الرومي في معنى ثانٍ[5]:

فَبِـذاتِ نَفْـسِكَ مـا يَكُـونُ بَهاؤُهـا وبِهائِـهِ كـانَ الحُـسَامُ صَـقِيلا

---

(١) ديوانه ٢/ ٢٥٧.
(٢) ديوانه ٢/ ٦٠٩، قصيدة (وهوى الشريف).
(٣) مختارات البارودي، ٣/ ٤٨.
(٤) ديوانه ٣/ ٢٦١، قصيدة (خصيم الليالي).
(٥) ديوانه ٣/ ١٢٥، قصيدة (لا يعدموك) في مدح إبراهيم بن المدبّر.

يقول: إن النفس لا يمكن إفادتها البهاء إلا إذا كانت فيها قابلية واستعداد كما أن السيف لا يمكن جلاؤه وصقله إلا إذا كان فيه بقية ماء، أما إذا أفسد معدن السيف فلن يعود صقيلاً.

ج- ويضرب مثلاً لمن يكون عنده استعداد لأمر فلا تجدي محاولة إفادته إياه. يقول أبو تمام(١):

والسَّيْفُ مَا لَمْ يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ ... مِنْ طَبْعِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقالِ

وتستطيع أن تعثر على غير ذلك مما شبهوا به من جهات عدة لا من حيث ما يدرك بالحس، بل من حيث ما يدرك بالعقل والرؤية(٢).

أمثلة مما كان يدور في مجالس الأمراء والخلفاء:

ولما في أسلوب التشبيه من روعة، ولما له من أثر في النفس، ولما فيه من تفاوت الصور التي يبرزها المتكلم، لذلك كله وغيره كان يتصدر مجالس الأمراء والخلفاء والأدباء، فيملأ عليهم مجالسهم، وهم يتذاكرون ويتدارسون أقوال الشعراء، هذا يفضّل قولاً وذاك يفضل آخر، وهم يعقدون الموازنات بين هذه الأقوال، ونذكر لك مثالين من ذلك:

أما أحدهما فما رواه الشعبي: «أن الوليد بن عبدالملك وأخاه مسلمة تنازعا ذكر الليل وطوله، ففضل الوليد أبيات النابغة في وصف الليل، وفضل مسلمة أبيات امرئ القيس، فحكّما الشعبيَ بينهما، فقال الشعبي تُنشَد الأبيات وأسمع، فأُنشد للنابغة(٣):

كِلِيْنِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبِ ... ولَيْلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَوَاكِبِ

تَطاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعى النُّجُومَ بآيِبِ

---

(١) ديوانه ص٤٨٣، يقول: إذا لم يكن في السيف جودة حديد تحتمل الصقال لم يُنتفع بصقاله، وكذلك هذه الغزوة؛ لو لم يكن فيها تدبير من الممدوح - وهو المعتصم - لم يُنتفع بتدبير الوزراء.

(٢) راجع أسرار البلاغة، ودراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر، ص١٠٩-١١٨.

(٣) ديوانه ص٤٣، كليني: اتركيني، ناصب: ذي نصب، وليس الذي يرعى النجوم بآيب: شبه النجوم في الجو بأنعام ترعى وتخيَّلَ لها راعياً لم يرجع بها إلى مراحها، وصدرٍ: معطوف على (لِهَمٍّ)، أراحَ: أرْجَعَ إليه، عازب: بعيد، تضاعف: تكاثر.

وصَدْرٍ أراحَ الليْلُ عازِبَ هَمِّهِ ... تَضاعَفَ فيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جانِبِ

ثم أُنشد لامرئ القيس[1]:

وليْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أرخى سُدُوْلَهُ ... عَلَيَّ بأنْواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي[2]

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تمَطّى بِصُلْبِهِ ... وأرْدَفَ أعْجازاً ونَاءَ بكَلْكَلِ[3]

ألا أيُّها الليْلُ الطَّويلُ ألاَ انْجَلِيْ ... بِصُبْحٍ وَمَا الإصبَاحُ مِنْكَ بأمْثَلِ[4]

فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذبُلِ[5]

قال: فركض الوليد برجله، فقال الشعبي: بانت القضية.

قلت: افتتاح النابغة قصيدته بقوله:

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبِ

متناه في الحسن، بليغ في وصف ما شكاه، من همه وطول ليله. ويقال: إنه لم يبتدئ شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام، وقوله:

وصدرٍ أراحَ الليلُ عَازِبَ هَمِّهِ

مستعار من إراحة الراعي الإبل إلى مباتها، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة، إلا أن في أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة، وحسن التشبيه، وإبداع المعاني، ما ليس في أبيات النابغة، إذ جعل لليل صلباً، وأعجازاً، وكلكلاً، وشبه تراكم ظلمة الليل

---

(١) ديوانه، ص١٠٧.

(٢) السدول: الستائر، يقول - وقد شبه الليل بموج البحر في تراكمه وشدة ظلمته -: إن الليل قد اشتمل عليه بأنواع الهموم ليختبر ما عنده من صبرٍ أو جزع.

(٣) تمطى: امتد، بصلبه: بوسطه، ناء بكلكل: نهض بصدره، أردف أعجازاً: اتبع مؤخِرةً - وأعجاز الأمور: أواخرها - وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، حيث المعنى (ناء بكلكل، ثم أردف أعجازاً).

(٤) وما الإصباح منك بأمثل، أي: أنني مهمومٌ دائماً؛ في الليل وفي الصباح، فليس حالي صباحاً بأفضل منه ليلاً.

(٥) المغار: الشديد الفتل، يذبل: اسم جبل، يقول: كأنَّ هذه النجوم شُدَّت بشيءٍ مفتولٍ قوي إلى جانب هذا الجبل (يذبل).

بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً حالاً على حال، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهي راكدة لا تزول ولا تبرح، ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى، ونبه فيها على المعنى ، وجعل يتمنى تصرم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الروح، ثم ارتجع ما أعطى واستدرك ما كان قدَّمه وأمضاه، فزعم أن البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وانجلاء، والمحنة فيها أغلظ من أن يوجد لدائها في حال من الأحوال دواء وشفاء، وهذه الأمور لا يتفق مجموعها في اليسير من الكلام إلا لمثله من المبرزين في الشعر، الحائزين فيه قَصَبَ السبق، ولأجل ذلك كان يركض الوليد برجله إذ لم يتمالك أن يعترف له بفضله»[1].

وأما الثاني فما رواه الأصمعي:

قال الأصمعي: «استدعاني الرشيد في بعض الليالي فراعني رسله، فلما مثلت بين يديه إذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل، فلما لحظني الرشيد استدناني فدنوت، وتبين ما لبسني من الوجل، فقال: لِيُفرِخْ رَوْعُك[2]، فما أردناك إلا لما يُراد له أمثالك. فمكثتُ هنيهةً ثم ثابت نفسي، فقال: إني نازعت هؤلاء في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، ولم يقع إجماعنا على بيت يكون الإيماء إليه دون غيره، فأردناك لفصل هذه القضية واجتناء ثمرة الخِطار فيها - المراهنة - . فقلت: يا أمير المؤمنين إنّ التعيين على بيت واحد في نوع قد توسعت فيه الشعراء، ونَصَبَتْهُ مَعْلَماً لأفكارها، ومسرحاً لخواطرها، لَبعيدٌ أن يقع النص عليه، ولكن أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس[3]. قال: في ماذا؟ قلت: قوله:

كَأنَّ عُيونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبائِنا ... وأرْحُلِنا الجَزْعُ الذي لَمْ يُثَقَّبِ

وقوله أيضاً[4]:

كَأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويَابِساً ... لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٦٢.

(٢) يقال: أفرخَ روعه: خلا قلبُه من الهمّ.

(٣) سبق ذكر البيت ص٩٢.

(٤) سبق ذكر البيت ص٦٠.

وقوله أيضاً[1]:

سَـمَوْتُ إِلَيْهـا بَعْـدَ مـا نـامَ أَهْلُهـا　　　سُـمُوَّ حَبابِ المـاءِ حـالاً عـلى حَـالِ

قال: فالتفَتَ إليّ يحيى وقال: هذه واحدة، قد نصّ على أن امرأ القيس أبرعُ تشبيهاً، فقال يحيى: هي لك يا أمير المؤمنين.

ثم قال لي الرشيد: فما أبرعُ تشبيهاته؟ قلت: قوله في صفة الفرس[2]:

كـأنَّ تـشَوُّفَهُ بالـضُحَى　　　تَـشَوُّفُ أَزْرَقَ ذي مِخْلَـبِ

إذا بُـزَّ عَنـهُ جِـلالٌ لـه　　　تقـول: سَـليبٌ، ولَمْ يُـسلَبِ

فقال الرشيد: هذا حسن، وأحسن منه قولُه[3]:

ورحنـا بكـابْنِ المـاء يُجنَـبُ وَسْـطَنا　　　تُـصعَّدُ فيـه العـينُ طـوْراً وترتقـي

فقال جعفر: ما هو هذا التحكيم؟!

قال الرشيد: وكيف؟ قال: يذكر أمير المؤمنين ما كان اختياره وقع عليه، ونذكر ما اخترناه، ويكون الحكم واقعاً مِن بعدُ. فقال الرشيد: أَمْرَضْتَ.

قال الأصمعي: فاستحسنتها منه، يقال: أمْرَضَ الرجل إذا قارب الصواب، ثم قال الرشيد: تبدأ يا يحيى، فقال يحيى: أشعر الناس تشبيهاً النابغة في قوله[4]:

نَظَـرَتْ إِلَيْـكَ بحاجَـةٍ لَمْ تَقْـضِهَا　　　نَظَـرَ المَـريضِ إلى وجُـوهِ العُـوَّدِ

---

(١) ديوانه، ص١٢٤، سموت إليها، أي: المرأة التي أرادها، والمراد: نهضتُ إليها شيئاً فشيئاً لئلا يُشعر بمكاني فكنت بذلك كحباب الماء وهو يعلو بعضه بعضاً في رفق ومهل، وحباب الماء: فقاقيع الماء، حالاً على حال، أي: شيئاً فشيئاً حتى صرتُ إلى الذي أردتُ.

(٢) لم يرد في ديوانه ونسبها إليه صاحب (نضرة الإغريض)، والتشوف: الارتفاع للإشراف، السليب: المسلوب، والمسلوب يسرع به صاحبه فمن سُرعته - إذا نُزع عنه الجلال - تحسبه مسلوباً وليس بذلك.

(٣) يقول: رحنا بفرسٍ كأنه (ابن الماء) في خفته وسرعته، وابن الماء: طائر، تُصَعَّد: تنظر إلى أسفله وأعلاه إعجاباً به، يُجْنَب وَسْطَنا، أي: يسرع بنا.

(٤) ديوانه، ص٩٧، العُوَّد: الزائرين.

وفي قوله أيضاً[1]:

فإنــكَ كالليــلِ الــذي هــو مُــدرِكي وإن خِلــتُ أنَّ المنتــأى عنــكَ واســعُ

وفي قوله أيضاً[2]:

مِــنْ وَحْــشِ وَجْــرَةَ مَــوْشِيٍّ أكارِعُــهُ طَـاوِي المَـصيرِ كَـسَيْفِ الـصَّيْقَلِ الفَـرَدِ

قال الأصمعي: فقلت: أما تشبيه مرض الطرف فحسنٌ إلا أنه قد هَجَّنَه بذكرِ العلة، وتشبيه المرأة بالعليل. وأحسن منه قول عدي بن الرقاع[3]:

وكَأنَّهَــا بَــيْنَ النِّــسَاءِ، أعَارَهــا عَيْنَيْــهِ أحْــوَرُ مِــنْ جَــآذِرِ جاسِــم

وَسْــنانُ أقْــصَدَهُ النُّعَــاسُ فَرَنَّقَــتْ في عَيْنِــهِ سِــنَةٌ وَلَــيْسَ بنــائِم

وأما تشبيه الإدراك بالليل فقد يتساوى الليل والنهار فيما يدركانه[4]، وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم حتى يأتي بمعنىً ينفرد به لو شاء قائل أن يقول: قولُ النَّمَري أحسن، لوجد مساغاً وهو قوله:

لــو كُنْــتُ بالعَنْقَــاءِ أوْ بأُسُــومِهَا لَخِلْتُــكَ إلاّ أنْ تَــصُدَّ تــراني[5]

---

(١) ديوانه ص١٦٨، المنتأى: البُعد، والقصيدة في مدح النعمان يقول: إنك تدركني حيثما كنت فإنما أنت الليل، فأينما حللت لاحقني الليل فلا أستطيع الهروب منه.

(٢) ديوانه، ص١٦٨، وَجْرَة: فيفاء واسعة بين مكة والبصرة - أربعون ميلاً - ما فيها منزل، فوحشها شديد النفور، كما أنها قليلة الماء فوحشها يجتزئ بالنبات الأخضر عن شرب الماء، فتضمر بطونها ويشتد عدوها. موشي أكارعه، أي: قوائمه بيضاء منقوشة بنقط سود، طاوي المصير: يعني ضامر البطن، والمصير جمع مصران، كسيف الصيقل: يعني أنه أبيض يلمع كأنه سيف مصقول، الفَرَد، أي: المفرد الذي لا نظير له.

(٣) ديوان المعاني، ١/ ٢٣٥. جآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية، الوسنان: الناعس، أقصده، أي: بلغ منه وأجهده، رنقت: دارت وماجت، يريد: (أن جؤذراً - وهو ولد البقرة الوحشية - قد أعارها عينيه وهي بين النساء، ولكنه لم يعرهما في حالة عادية وإنما حين نعاسه ودوران عينيه حيث تكونان غايةً في الجمال والروعة والسحر).

(٤) لا نرى أن التشبيه بالنهار هنا يعين عليه السياق، فالتشبيه بالنهار يكون في سياق الأنعام أو الظهور، وبيت النابغة ليس من هذا القبيل.

(٥) العنقاء: اسمٌ للجبل العالي، قوله: «بأسومها» وفي رواية «بيسومها» ويسوم جبل قرب مكة. وقيل في بلاد هذيل. انظر «الكامل» للمبرد ٢/ ٦٢٩، ط٤، ١٤٢٥هـ، مؤسسة الرسالة.

وأما قوله: «كَسَيْفِ الصَيْقَلِ الفَرَدِ» فالطِّرِمَّاح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوَّدَه، وزاد عليه، وإن كان النابغة افترعه. وقول الطرماح[1]:

يَبْــدُو وتُــضْمِرُهُ الــبِلَادُ كأنَّــه ... سَــيْفٌ، عــلى شَرَفٍ يُــسَلُّ ويُغْمَــدُ

فقد جمع في هذا البيت استعارةً لطيفة بقوله: «وتضمره البلاد» وتشبيه اثنين باثنين في قوله: «يبدو ويختفي» و«يُسَلُّ ويغمد» وجمع حسنَ التقسيم، وصحة المقابلة. قال فاستبشر الرشيد وبرقت أسارير وجهه حتى خلتُ برقاً يومض منها، وقال ليحيى: نَضَلْتُكَ[2] وربِّ الكعبة وامتُقِع يحيى وكأنّ المَلَّ[3] قد ذُرَّ على وجهه، فقال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين حتى يمر ما قلته أيضاً بسمعه فقال: قل، قال: قول طَرَفَة[4]:

يَــشُقُّ حَبَــابَ المَــاءِ حَيْزُومُهــا بِهَــا ... كَــمَا قَــسَمَ الــتُّرْبَ المُفايِــلُ بِاليَــدِ

وقوله أيضاً[5]:

لَعَمْــرُكَ إنَّ المَــوتَ مــا أخطــأَ الفتــى ... لَكــالطِّوَلِ المُرخَــى وثِنْيــاهُ باليــدِ

وقوله أيضاً[6]:

وَوَجْــهٍ كــأنَّ الــشَّمْسَ حَلَّــتْ قِناعَهَــا ... عَلَيْــهِ، نَقِــيِّ اللَّــوْنِ لَمْ يَتَخَــدَّدِ

---

(١) ديوانه، ص١٤٦. يبدو أي الثور الوحشي، تضمره البلاد، أي: تخفيه وتغيبه، الشرف: المكان المرتفع ووجه الشبه بينه وبين السيف: البياض، يقول: مثله وهو يراوح بين الاختفاء والظهور كمثل السيف يراوح بين أن يغمد أو أن يسل.

(٢) نَضَلْتُكَ: يقال: نَضَله، أي: غلبه في الرماء.

(٣) المَلّ: التراب الحار والرماد والجمر.

(٤) ديوانه، ص٨ (المعلقة)، حباب الماء: أمواجه، حيزومها: صدرها، المفايلة: ضربٌ من اللعب حيث يُخبأ شيء في التراب ثم يأتي أحد اللاعبين (المفايل) ويشق التراب بيده فيقسمه قسمين ويسأل عن موضع المخبوء، فإذا أخطأ قيل له: فالَ رأيك، (فقد شبه الشاعر شقّ السفينة للماء بشق المفايل لكومة التراب).

(٥) ديوانه، ص٣٧، (المعلقة)، الطِّوَل: الحبل الذي يَطوَّل للدابة فترعى، الثني: الطرف، يقول: إن الموت في إخطائه الفتى وتأخّره عنه إنما هو بمنزلة الحبل المرخى للدابة، لكن طرفه بيد إنسان أنّى شاء شدّه وجذبه.

(٦) ديوانه، ص١١ (المعلقة)، حلت قناعها، أي: ألقت عليه حسنها وبهجتها، التخدد: اضطراب الجلد واسترخاء اللحم، ويعني أنها في شبابها وفتاء سنها.

قال: فقلت: هذا حسن كله وغيره أحسن منه، وقد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء. وبعد: فطَرَفَةُ صاحب واحدة[1] لا يُقطع بقوله على البحور وإنما يُعدُّ مع أصحاب الواحدات، قال: ومن هم؟ قلت: الحارث بن حِلِّزة في قوله:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ   رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والأسعر الجعفي في قصيدته التي أولها:

هَلْ بَانَ قَلْبُكَ مِنْ سُلَيْمَى فَاشْتَفَى   وَلَقَدْ عُنِيتَ بِحُبِّهَا فِيما مَضَى

والأفوه الأودي في قوله[2]:

إنْ تَرَيْ رَأْسِيَ فِيهِ قَزَعٌ   وَشَوَاتي خَلَّةٌ فِيهَا دُوَارُ

وعلقمةُ بن عبدة الفحلُ في قوله[3]:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ   بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

وسويد بن أبي كاهل في قوله[4]:

بَسَطَتْ رابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا   فَمَدَدْنا الحَبْلَ مِنْهَا ما اتَّسَعْ

وعمرو بن كلثوم في قوله[5]:

ألا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا   ولا تُبقِي خُمُورَ الأنْدَرِينا

وعمرو بن معدي كرب في قوله[6]:

---

(١) صاحب واحدة، أي: تميز في فنٍّ معين وبرز فيه.

(٢) القزع: ذهاب بعض الشعر وبقاء البعض، الشواة: قحف الرأس أو جلدته، الخَلّة: قليلة الشعر أو المهزولة قليلة اللحم، الدوار: الصداع.

(٣) المفضليات ص٣٩١، قصيدة رقم (١١٩)، طحا بك، أي: اتسع بك وذهب كل مذهب.

(٤) المفضليات ص١٩١، قصيدة رقم (٤٠)، رابعة: صاحبته يتغزل فيها، الحبل: الوصل، ما اتسع، أي: ما امتد، يقول: لم تبخل علينا بالوصل فبذلنا لها وصلنا ووصلناها بوصلها.

(٥) ديوانه ص٧٧ مطلع معلقته الأندرينا: قرى بالشام.

(٦) ديوانه، ص١٤٠، ريحانة: امرأته المطلقة، وقيل: أخته، السميعُ: المُسمِع، يؤرقني: من الأرق وهو ضد النوم (السهد).

أَمِـــنْ رَيْحَانَـــةَ الـــدَّاعِي الـــسَّمِيعُ   يُـــؤَرِّقُني وَأَصْـــحَابِي هُجُـــوعُ

قال: فاستخفت الرشيدَ الأرْيَحِيَّةُ[1]. فقال: ادْنُهُ فإنك جُحَيْشُ وحدِك[2] قال: فزاد في عيني نُبلاً فقال جعفر متمثلاً:

الْبَـثْ قلـيلاً يلْحَـقِ الهَيْجَـا جَمَـل[3]

يعرّض بأنه يجوز أن يدرك هو ما يحاوله، فقال الرشيد:

فأَتَتْـــكَ والله الـــسَّوَابِقُ بَعْـــدَهَا   وَجِئْـــتَ سُـــكَيتاً ذا زَوَائِـــدَ أَرْبَـــعِ

ورأيت الحميّة في وجهه فقال جعفر: على شريطة حلمك يا أمير المؤمنين فقال: أتراه يسع غيرك ويضيق عنك؟! فقال جعفر: لست أنصّ على شاعر واحد أنه أحسن بيت واحد تشبيهاً ولكن قول امرئ القيس[4]:

كـأنَّ غُلامِـي إذْ عَـلاَ حَـالَ مَتْنِـهِ   عَـلَى ظَهْـرِ بـازٍ فِي الـسَّمَاءِ مُحَلِّـقِ

وقول عدي بن الرّقاع[5]:

يَتَعـــاوَرَانِ مِـــنَ الغُبَـــارِ مُـــلاءَةً   غَـــبْرَاءَ مُحْكَمَـــةً هُمَـــا نَـــسَجَاها
تُطْـــوَى إذا وَرَدَا مَكَانـــاً جاسِـــياً   وَإذا الـــسَّنابِكُ أَسْـــهَلَتْ نَـــشَرَاها

وقول النابغة الذبياني[6]:

فإنَّـــكَ شَـــمْسٌ والمُلُـــوكُ كَوَاكِـــبٌ   إذا طَلَعَـــتْ لَمْ يَبْـــدُ مِـــنْهُنَّ كَوْكَـــبُ

---

(١) الأريحية: الميل إلى العطاء.
(٢) جحيشُ وحدِك، أي: منقطع النظير: والجحيش: المنفرد.
(٣) الهيجا: الحرب، كذا في الأصل والصواب: (لَبِّثْ قليلاً يلحق الهيجا حمل) بالحاء المهملة، وتتمةُ هذا الشطر (لا بأسَ بالموتِ إذا حان الأجل) وحمل: اسم رجل، انظر سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٢٦.
(٤) ديوانه، ص٨٨، حال متنه، أي: ظهر الفرس، وحال الفرس: موضع الراكب، والباز: طائر، يشير إلى علوِّ صهوة الحصان وضخامة هيكله.
(٥) أمالي المرتضى ١/ ١٠٣، البيتان في وصف ثورين، يتعاوران: يتناوبُ كلٌّ منهما على إعارة الآخر هذه الملاءة: وهي الملحفة أو ما يفرش على السرير، مكاناً جاسياً: غليظاً لا يثير غباراً، السنابك جمع سنبك وهو طرف الحافر، ويطلق على الأرض الغليظة القليلة الخير.
(٦) ديوانه ص٥٧، والبيت في مدح النعمان.

فقلت: هذا كله حسن بارع وغيره أبرع منه، وإنما يحتاج أن يقع التعيين على ما افترعه قائله فلم يُتعرّض له، أو تعرّض له شاعر فوقع دونه، فأما قول امرئ القيس «على ظهر بازٍ في السماء محلّق». فمن قول أبي دواد:

إذا شَاءَ رَاكِبُهُ ضَمَّهُ ... كَمَا ضَمَّ بازٍ إليهِ الجَنَاحا

وأما قول ابن الرقاع: يتعاوران من الغبار مُلاءةً فمن قول الخنساء[1]:

جَارَى أباهُ فأقْبَلا وَهُمَا ... يَتَعَاوَرَانِ مُلاءَةَ الحُضْرِ

وأول من نطق بهذا المعنى شاعر قديم من عقيل[2]:

ألا يَا دِيَارَ الحَيِّ بِالبَرْدانِ ... عَفَتْ حِجَجٌ بَعْدِي لَهُنَّ ثَمانِ
فَلَمْ يَبْقَ مِنهَا غَيْرُ نُؤيٍ مُهَدَّم ... وَغَيْرُ أثَافٍ كَالرَّكِيِّ دِفَانِ
وآثارُ هابٍ أوْرَقِ اللوْنِ سَافَرَتْ ... بِهِ الرِّيحُ والأمْطارُ كُلَّ مكانِ
قِفارٌ مَرُوراتٌ يَحَارُ بِهَا القَطا ... ويُضْحِي بِهَا الجَأْبانُ يَعْتَرِكانِ
يُثِيران مِنْ نَسْجِ العَجَاجِ عَلَيْهِما ... قميصَيْنِ أسْمالاً ويَرْتَدِيانِ

وأما قول النابغة: «فإنك شمس والملوك كواكب» فقد تقدمه شاعر من شعراء كندة يمدح فيه عمرو بن هند وهو أحقُّ به من النابغة إذ كان أبا عُذْره، فقال:

تكادُ تَمِيدُ الأرْضُ بِالنَّاسِ أنْ رَأوْا ... لَعْمْرِو بنِ هِنْدٍ غِضْبَةً وهْوَ عاتِبُ
هُوَ الشَّمْسُ رَاقَتْ يَومَ سَعْدٍ فَأفْضَلَتْ ... عَلى كُلِّ ضَوْءٍ، والمُلوكُ كَوَاكِبُ

قال: فكأني ألقمتُ جعفراً حجراً، واهتز الرشيد من فوق سريره أشَراً[3]، وكاد يطير منه عجباً وطرباً، وقال: يا أصمعي اسمع الآن ما وقع عليه اختياري، قلت: ليقل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه، فقال: قد عيّنتُ على ثلاثة أشعار أقسم بالله أنني أملك قصب

(١) ديوانها ص٤٣، استعارة الملاءة للفخر يلبسها أبوها مرةً ثم أخوها مرة أخرى، يتعاوران يتبادلان الإعارة.
(٢) وهو عميرة بن جعيل بن عمرو بن تغلب، البردان: مواضع كثيرة، الجأب: الحمار الغليظ من حمر الوحش.
(٣) أشِرَ أشراً، أي: فرح ونشط.

السبق بأحدها، فقال يحيى: خفِّض على همتك يا أمير المؤمنين، فيأبى الله إلا أن يكون الفضل لك. ثم قال الرشيد: أتعرف تشبيهاً أفخم وأعظم في أحقرِ مشبَّهٍ وأصغره وأقذره في أحسن معرض من قول عنترة الذي لم يسبقه إليه سابق، ولا طمع في مجاراته طامع، حين شبّه ذباب الروض العازب في قوله[1]:

وَخَلا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارح غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّم
هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنادِ الأَجْذَم

ثم قال: هذا من التشبيهات العُقم: قلت: هو كذاك يا أمير المؤمنين وبمجدك آليت ما سمعت أحداً وصف شعراً أحسن من هذه الصفة؟ فقال: مهلاً لا تعجل، أتعرف أحسن من قول الحطيئة يصف لُغام ناقته؟ أو تعلم أن أحداً قبله أو بعده شبه تشبيهه فيه حيث يقول[2]:

تَرَى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إذا مَا تَزَغَّمَتْ لُغاماً كَبَيْتِ العَنْكَبُوتِ المُمَدَّدِ

فقلت: يا أمير المؤمنين، لا والله ما علمت أن أحداً تقدّمه أو أشار إلى هذا التشبيه قبله، فقال: أتعرف أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقي أثره، حيث يقول[3]:

كَأَنَّما مُنْثَنى أقْماع مَا مَرَطَتْ مِنَ العِفاءِ بِلِيتَيْهَا الثآلِيلُ

---

(١) شرح المعلقات، ص١٥٩، البراح: الزوال، التغريد: التصويت، الترنم: ترديد الصوت، هزجاً: مصوتاً، المكب: المقبل على الشيء، الأجذم: الناقص اليد. يقول: إن الذباب خلا في هذه الروضة، لم يزاولها، يصوت تصويت شارب الخمر حين رَجَّع صوته بالغناء، ثم يشبه - في البيت الثاني - حك الذباب إحدى يديه بالأخرى بقدح رجلٍ ناقصِ اليد النار من الزندين.

(٢) ديوانه ص١٥٥، لحييها: فكَّيْها، تزغمت: يقال: تزغم الجمل إذا ردّد رغاءه، أي: صوته في لهازمه، أي: العظام التي تحت حنكه، واللغام: زبدةُ أفواه الإبل.

(٣) ديوانه ص٨٠، الأقماع: جمع قمعة وهي بثرة تخرج في أصول الأشعار، وأصله الذي على رأس الثمرة، مرطت: نتفت، العفاء: الريش الذي يكون على الصغار، بليتَيْها: مثنى لِيْت: وهو صفحة العنق، الثآليل: جمع ثؤلول: وهو الحبة تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها.

فقلت: لا والله، فالتفت إليّ يحيى بن خالد فقال: أوَجَب؟ قال: وجب، قال: فأزيدك؟ قال: وأيُّ خير لم يزدني منه أمير المؤمنين؟ قال: قول النابغة الجعدي[1].

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فَاسْتَقَلَّ بِطَعْنَةٍ كَحاشِيَةِ البُرْدِ اليَمانِيِّ المُسَهَّمِ

ثم التفت إلى الفضل فقال: أوَجَب؟ قال: وجب، قال: أزيدك. قال: ذاك إلى أمير المؤمنين. قال: قول الأعرابي:

بِها ضَرْبُ أذْنابِ العَظَاءِ كَأنَّهُ مَلاعِبُ وِلْدَانٍ تَخُطُّ وتَمْصَعُ[2]

ثم التفت إلى جعفر قال: أوَجبَ؟ ، قال: وجب، قال: أزيدك؟ قال: لأمير المؤمنين علو الرأي. قال: قول عدي بن الرِّقاع[3]:

تُزْجِي أغَنَّ كَأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين هذا بيت حَسَدَ عديًّا عليه جريرٌ؟ قال: وكيف ذاك؟ قلت: زعم أبو عمرو أن جريراً قال لما ابتدأ عديٌّ ينشد:

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوَهُّماً فَاعْتَادَهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَمِلَ البِلَى أبْلادَهَا[4]

قلت في نفسي: قد ركب مركباً صعباً سيبدع به، فما زال يتخلص من حُسن إلى حُسن حتى قال:

تُزجي أغنَّ كأنَّ إبرة رَوْقه

قال: فرحمته وظننت أن مادته ستقصُرُ به فلما قال:

---

(١) الأغاني ٤/ ١٢٦، الناب: الناقة المسنّة، البرد المسهم: المخطط بصور على شكل السهام.

(٢) العَظاء: جمع عظاءة وهي دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحلية، تمصع: مصعت الدابةُ بذنبها، أي: حركته من غير عَدْو.

(٣) ديوان المعاني ٢/ ١٣٢، تزجي: تدفع، أغن: صغير ضعيف الصوت، إبرة روقه: حدة قرنه، والدواة العلبة التي يوضع فيها الحبر، والمداد: الحبر.

(٤) اعتادها: أتاها مرةً بعد أخرى، وقيل: أعاد النظر إليها مرةً بعد أخرى لدروسها وزوالها حتى عرفها، الأبلاد: الآثار.

قَلَمٌ أصابَ من الدَّواة مِدادها، حالت الرحمة حسداً. قال: لله درك يا أصمعي ثم أطرق ورفع طرفَهُ إليّ وقال: أتُراك تغبنني عقلي بانحطاطك في هواي؟ فقلت: كلا والله يا أمير المؤمنين: وإنك لتجلُّ عن الحَرْش[1]. قال: انظر حَسَناً، قلت: قد نظرت. قال: فالسبق لمن؟ قلت: لأمير المؤمنين، قال: قد أسهمتُ لك فيه العُشرَ، والعشرُ كثير، ثم رمى بطرفه إلى يحيى وقال: «المالَ» - تهدداً ووعيداً - «الساعةَ وأولى لك» قال: فما كان إلا كـ (لا) و(ما)[2] حتى نُضِدَت البِدَرُ[3] بين يديه إلى أن كادت تحول بيني وبينه ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع، فأشار إلى خادم على رأسه أنْ مَكِّنْه وقال: «هي ثلاثة ألف ألف درهم، فدونك فاحمل ثلاثين بَدْرةً وانصرف إلى منزلك»، ونهض عن مجلسه وأمر الخدم بمعاونتي على تعجيل حمله فاحتمل كل خادمٍ بدرة ولا يكاد يستقل بها، فكانت أسعدَ ليلة ابتسم فيها الصباح عن ناجذ الغنى»[4].

هذا ما يسّره الله في باب التشبيه ولنحدثك الآن عن أسلوب آخر هو أسلوب المجاز، ومن الله العون وعليه التكلان.

---

(١) الحرش: الخديعة.
(٢) أي كالمدة التي يستغرقها التلفظ بحرف (لا) أو حرف (ما) وهو استعمالٌ معروف.
(٣) البِدَر: جمع بِدْرة: وهي صرةٌ فيها عشرة آلاف درهم.
(٤) الجُمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغدادي، ص٢٢٣-٢٣٩.

الباب الثاني

المجاز

تمهيد:

نتحدث فيه عن المجاز: تعريفه، الفرق بينه وبين الحقيقة، أنواعه، المجاز بين مثبتيه ونفاته.

أولاً: تعريفه:

مما ينبغي أن نبادرك به القول هنا، أن الحديث في هذا الباب عن المجاز، وأنواعه، وأقسامه. والقوم يذكرون مع المجاز الحقيقة، بل إن بعض الكاتبين يجعلها في عنوان الباب وصلبه، فيقول: الحقيقة والمجاز، وذِكْرُ الحقيقة؛ لا لأنها من مباحث هذا الباب، بل لأنها مقابلة للمجاز، فلكي نعرف المجاز ونتصوره لا بد أن نعرف الحقيقة، إذ بضدها تتمايز الأشياء.

معناهما اللغوي:

وقبل أن نحدثك عن الحقيقة والمجاز بمعناهما الاصطلاحي يجدر أن نحدثك عن المعنى اللغوي لكل من هذين اللفظين، فإن معرفة المعنى اللغوي تعين وتقرب من فهم المعنى الاصطلاحي.

أما الحقيقة، فأنت تجد مادة لهذين الحرفين، - الحاء والقاف - أعني كلمة حق، والحق هو الشيء الثابت. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [غافر:٦]، وقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس:٧]، أي: ثبت، فالحقيقة إذن: هي الشيء الثابت إذا جعلناها اسم فاعل، أو الشيء المُثْبَت إذا جعلناها اسم مفعول، وكلاهما صحيح؛ لأن

صيغة فعيل في اللغة تصلح أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول كما فُصِّلَ في موضعه، والتاء فيها ليست تاء التأنيث كالتاء في (جميلة)، و(نظيفة) و(كريمة)، إنما التاء في كلمة (حقيقة) جاءت للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في (نطيحة)؛ وبيان هذا أنك إذا قلت: (نظيفة) و(جميلة) فأنت تعني وصفاً لمؤنث (كغرفة نظيفة) و(زهرة جميلة). أما إذا قلت: (حقيقة) فلا تعني بهذه الكلمة وصفاً لمؤنث، ألا تراك تقول: «هذا اللفظ حقيقة»، لو كان وصفاً كان ينبغي أن تقول: «هذا اللفظ حقيق».

فنحن نقلناها إذن من كونها وصفاً إلى كونها اسماً غير وصف، التاء تاء النقل كما في (ذبيحة) و(نطيحة) فإنهما يطلقان على المذكر والمؤنث، وإن أردت مزيداً وكنت ممن يتوقون إلى معرفة هذه القضايا اللغوية فنرشدك إلى علم الصرف فستجد فيه ضالتك المنشودة إن شاء الله.

أما المجاز فهو مصدر ميمي من جاز الشيء جوازاً إذا تعدّاه، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المكان من قولهم: «جاز الطريق مجازاً» أي: سلكه. الحقيقة في اللغة إذن الشيء الثابت، والمجاز في اللغة (تعدّي الشيء)، ولعلك تشتمُّ رائحة التضاد بين هاتين الكلمتين، لأن الذي يجوز المكان يتعداه ولا يثبت فيه.

معناهما الاصطلاحي:

ومن المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي لكل منهما، **فالحقيقة**: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له، **والمجاز**: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي، ولا بد أن نقف مع هذا التعريف لنشرحه ونوضحه:

من نافلة القول أن اللغة ضرورة ملحة تدعو إليها الحاجة ليتفاهم الناس فيما بينهم، فالكلمات والألفاظ قوالب للمعاني التي يعبّر عنها الناس، فهم يعبّرون عما في نفوسهم بالكلمات، فالمعنى مُعبَّر عنه، واللفظ معبّر به، ومن هنا كان لا بد لكل معنىً من لفظ يدل عليه حتى لا يختلط الأمر، ومن أجل أن يكون لكل لفظ مدلوله الذي يدل عليه.

ولقد كانت هذه الألفاظ بادئ بدء تساير حاجات الناس؛ معنى ذلك أنهم يحتاجون الألفاظ للأمور التي تدور بينهم، وتُلح عليهم، ولا ريب أن أي قوم من الأقوام يتصفون

بالبدائية في أول نشأتهم، ثم تبدأ مراحل التطور والنمو، وإذا كان هذا شأن الأقوام والأمم فهو شأن اللغات التي يتحدث بها الأقوام كذلك. وبرهان هذا أنك لو أخذت كثيراً من كلمات اللغة العربية التي تدل اليوم على أشياء معنوية لوجدت أنها وضعت أول ما وضعت لأشياء محسوسة، ولكن مع تطور القوم أصبح لهذه الألفاظ مدلولات غير تلك التي وضعت لها أولاً.

كلمة (كتاب) مثلاً: التي تعني اليوم وسيلة المعرفة والثقافة والعلم، حينما ننظر في المعنى الذي وضعت له أولاً نجد أنها وضعت لما كانت تدعو إليه حاجة القوم في نشأتهم الأولى، فكلمة (كَتْب) معناها ضمُّ الخيوط بعضها إلى بعض للنسج والخياطة، وهذا الذي يحتاج إليه القوم في نشأتهم الأولى، ثم وضعت بعد ذلك (للكتيبة من الجيش)، ثم وضعت بعد ذلك (لضم الحروف بعضها إلى بعض)[1].

وهكذا أكثر الكلمات العربية كما قلت لك من قبل، وهذه الكلمة مع تطور مدلولاتها، إلا أن العرب هم الذين وضعوها لكل معنى من هذه المعاني المختلفة.

فمعنى الوضع - إذن - أن يصطلح القوم على أن يضعوا لكل معنىً كلمة تدلّ عليه، وهذا الوضع هو الذي يسمى حقيقة؛ فأنت تدرك الآن ما قلناه في تعريفها، بأنها اللفظ الذي استعمل فيما وضع له، فاستعمال الكتاب في جمع الحروف بعضها إلى بعض حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لتدل على هذا المعنى، واستعمال الأسد للحيوان المفترس حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لهذا النوع الخاص من الحيوانات، ودلالة كلمة البحر على القسم المائي من الأرض حقيقة لغوية، كذلك دلالة الشمس على هذا الجرم المضيء، ودلالة السحاب على هذا النوع من الغمام، ودلالة القمر على ذلك الكوكب المنير، كل أولئك حقائق لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمات لتدل على هذه الأشياء كلها.

---

(١) راجع هذا الموضوع مفصلاً في الجزء الأول من هذا الكتاب، وفي كتابنا «أساليب البيان» عند الحديث عن الفصاحة والبلاغة، ص١١ وما بعدها.

استعمال اللفظ فيما وضع له حقيقة - إذن - ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن هذه الكلمات: وهي كلمة (شمس)، و(بحر)، و(أسد)، و(قمر)، تستعمل في غير هذه المعاني التي وضعت لها، فقد تستعمل كلمة الشمس للحسناء، وتستعمل كلمة أسد في الرجل الشجاع، وتستعمل كلمة السحاب والبحر في الرجل الكريم، كذلك كلمة قمر لذي الطلعة البهيّة، هذه الكلمات - إذن - نجد أنها استعملت في معنيين مختلفين: فتارة استعملت في معناها الذي وضعت له، وتارة استعملت في معاني أخرى، هناك - إذن - كلمة واحدة ومعنيان:

المعنى الأول: الذي وضعت له الكلمة أساساً.

المعنى الثاني: الذي استعملت فيه.

ولكن ترى كيف تتمُّ عملية النقل؟ أيمكننا أن ننقل كل كلمة من المعنى الذي وضعت له لنستعملها في أيِّ معنىً آخر؟ أظنك تأبى ذلك بفكرتك وفطرتك لأن هذا ستكون نتيجته الخلل، والاضطراب، وستعم الفوضى، فتُنقلُ كلمة الكذب لمعنى الصدق، وكلمة الخير لمعنى الشر، وكلمة المدح لمعنى الذم، وسيعود الناس إلى مجتمع السفسطائية الذين لم تكن الكلمة فيه عندهم تعني مدلولاً معيناً، ومن هنا كان لا بد من صلةٍ وقرب بين المعنيين، أعني المعنى الذي وضعت له الكلمة أولاً، والمعنى الذي ستستعمل فيه ثانياً.

خذ كلمة (الشمس) مثلاً، المعنى الذي وضعت له أولاً هذا الجرم المضيء، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الوجه المتلألئ، وخذ كلمة (سحاب)، المعنى الذي وضعت له أولاً هو هذا الغمام الممطر، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الرجل الجواد، وكلمة (أسد) المعنى الذي وضعت له أولاً هذا الحيوان المفترس المعروف بشجاعته، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الرجل الشجاع، ألا ترى إلى هذه الصلة بين المعنيين؟ أعني (الجرم المضيء والوجه المتلألئ)، و(الغمامة الحاملة للماء والرجل الجواد)، و(الحيوان المفترس والرجل الشجاع)، تدرك بعد هذا أننا لن نستطيع أن ننقل أي كلمة من معناها الأساسي إلى أي معنى نشاء فلا بد من صلة وثيقة بين المعنيين، وهذا ما يعبّرون عنه

بالعلاقة، وهو ما ذكرناه في تعريف المجاز، بأنه الكلمة التي استعملت في غير ما وضعت له لعلاقة.

بقي عنصر مهم ضروري في تعريف المجاز، هذا العنصر لا بد منه حتى لا يختلط الأمر على المتكلم والسامع على السواء. إذا قلت: «رأيت بحراً» فإن المتبادر من هذه العبارة أنه البحر الحقيقي، ولا أستطيع أن أدّعي أنني أعني به الرجل الجواد، ولكنني إذا قلت: «رأيت بحراً يسير في القافلة» فإن هذه العبارة «يسير في القافلة» تمنع من إرادة البحر الحقيقي، وكذلك إذا قلت: «رأيت شمساً بيدها كتاب» و«رأيت أسداً يكرّ بسيفه» فإن قولنا: «بيده كتاب» و«يكر بسيفه» يمنع إرادة المعنى الحقيقي للشمس والأسد، وهذا الذي يعبر عنه بالقرينة.

أرجو أن تكون بعد هذا قد استوعبت تعريف المجاز استيعاباً تاماً من أنه اللفظ الذي استعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. ومما تقدم لك تدرك أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور:

١ - الكلمة.

٢ و٣- معنيان: المعنى الحقيقي الذي وضعت له الكلمة، والمعنى المجازي الذي استعملت فيه الكلمة ثانياً.

٤- العلاقة: وهي الصلة بين المعنيين ولولاها ما استطعنا أن ننقل الكلمة من معناها الأول الذي وضعت له إلى معناها الثاني الذي استعملت فيه.

٥- القرينة التي تبين لنا أن المعنى الحقيقي غير مراد وأن المعنى المجازي هو المقصود.

أمر لا بد منه:

القضية التي ينبغي أن توجه لها عنايتك بعد هذا كله هي كيف تستطيع أن تفرق بين المعنى الذي وضعت له الكلمة وبين المعنى الذي استعملت فيه؟؟ لئن استطعت أن تعرف هذا في بعض الكلمات التي يكثر دورانها على الألسنة فكيف يمكنك أن تعرف هذا

في الكلمات الكثيرة؟ ، والعربية - كما تعلم - غنية بثروتها وألفاظها لذا فإنني أنصح لك إذا أردت أن تتذوق الكلام البليغ وتبدع في قولك أن تعدّ نفسك إعداداً لغوياً، فتستطيع عند ذلك أن تفرق بين الحقيقة والمجاز، فإذا تلوت قول الله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] وقوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١]، وقوله: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ [الكهف:٩٩]، وقوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس:٣٧]، فكيف تدرك أن في كل آية كريمة مجازاً لطيفاً واستعارة بديعة؟ إن ذلك يتطلب منك ويحتم عليك معرفة المعاني التي وضعت لها هذه الكلمات، فإذا عرفت أن كلمة (الصراط) مثلاً وضعها العرب للطريق، واستعملها القرآن لتدل على الدين، وكلمة (الصدع) وضعها العرب لشق الأشياء الصُّلبة، واستعملها القرآن في التبليغ والجهر، وكلمة (الطغيان) وضعها العرب لتجاوز الإنسان الحدّ فيما ينبغي له، واستعملها القرآن في ارتفاع الماء، وكلمة (الموج) وضعها العرب، لحركة الماء، واستعملها القرآن في حركة يأجوج ومأجوج، وكلمة (السلخ) وضعها العرب في كشط الجلد، واستعملها القرآن في شأن الليل والنهار. إذا عرفت هذا تذوقت وأدركت مواقع المجاز في الكلام.

ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين:

كانت قضية المجاز قديماً وحديثاً مثار نزاع مع أن المثبتين له أكثر من النافين، ولا يعنينا الآن أن نفصّل القول في هذه القضية ونكتفي بأن نذكر لك طرفاً منها:

لم ينازع أحد من علماء البيان في إثبات المجاز، ولكن ذهب بعض اللغويين إلى أنه لا ينبغي التغالي في هذا المجاز، ولقد ردّ على هؤلاء ابن قتيبة، أما الذين أنكروا المجاز فهم بعض الفقهاء والمتكلمين، وتتخلص الأدلة التي استندوا إليها فيما يلي:

١ - إن المجاز نوع من الكذب.

٢ - إنه يدل على عجز المتكلم فهو إنما لجأ إلى المجاز لعدم استطاعته أن يعبر بالحقيقة عن مراده، وهذا مستحيل أن يكون في كتاب الله لأن الكذب والعجز محالان.

ولكننا لا نسلم لهم هذا القول، فأولاً: إن هناك فرقاً بين المجاز والكذب من جهتين اثنتين:

فالمجاز مبني على التأويل - كما عرفت - والكذب ليس كذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المجاز له قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي والكذب ليس كذلك.

وثانياً: لا نسلم أن المجاز دليل على العجز، وإنما يؤتى به لمقتضيات بلاغية كما يؤتى به في التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل.

٣- أما الدليل الثالث الذي استندوا إليه في إنكار المجاز ولعله أقوى أدلتهم فهو: من أين عرفتم أن هذه الكلمة وضعت أول ما وضعت لهذا المعنى ثم استعملت بعد ذلك في معنى آخر؟ فلم لا تكون كلمة أسد، مثلاً قد وضعت للرجل الشجاع قبل أن توضع للحيوان المفترس؟ أو أنها وضعت للمَعْنَيَيْن في وقت واحد. وأنت تعلم أن تلك قضية بحاجة إلى دراسة واستقصاء ولكننا مع ذلك يمكن أن نردها بما يلي:

أولاً: إن هناك كلمات يمكننا أن نحدد الزمن الذي استعملت فيه استعمالاً مجازياً، فهناك أقوال مأثورة للرسول ﷺ أجمعوا على أنه لم ينطق بها أحد قبله عليه وآله الصلاة والسلام، كما أن هناك كلمات استعملت استعمالاً مجازياً وكان الذين استعملوها أول مرة من شعراء الجاهلية، وهذا يدلنا على أن بعض الألفاظ كان استعمالها المجازي متأخراً عن استعمالها الحقيقي، وما يصدق على بعضه، يصدق على بعضه الآخر.

ثانياً: يمكن أن نرد هذا القول كذلك بأن هناك فرقاً كبيراً بين استعمال الكلمة فيما وضعت له وبين استعمالها في غير ما وضعت له، فأنت إذا استعملت كلمة (الشمس) وكلمة (البحر) وكلمة (الأسد) وكلمة (السيف) فيما وضعت له كل من هذه الكلمات فإنها لا تزيدنا شيئاً جديداً، ولا تحتاج إلى قرينة، ولكنك حينما تستعملها في غير ما وضعت له فإنك تضفي عليها شيئاً جديداً مع احتياجها للقرينة، إن استعمال كلمة (الشمس) في الجِرم المعلوم ليس فيها أي جديد، ولكن استعمالها في (المرأة) تدل على حسنها ووضاءتها، وعلى كل حال فنحن نعذر أولئك الذين أنكروا المجاز، فإنما كان قصدهم أن يردوا كثيراً من التأويلات المنحرفة عن كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وتلك غاية نبيلة وقصد مأجور إن شاء الله[1].

(١) راجع في هذا الموضوع: عبدالعظيم المطعني، المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه.

ثالثاً: تعدد الوضع:

وما دمنا قد تحدثنا عن الوضع، فحريّ بنا قبل أن نغادر هذا الموضوع أن نلمّ ببعض القضايا لصلتها بما نحن بصدده، عرفت أن الوضع المعتبر في المجاز هو الوضع اللغوي، فالكلمات التي استعملت فيما وضعت له سميناها (حقيقة)، والتي استعملت في غير ما وضعت له سميناها (مجازاً)، وكان حديثنا عن الوضع اللغوي، ولذا سمي هذا النوع من المجاز لغوياً، ولكن هناك جهات أخرى غير اللغة يمكن أن تتدخل في قضية الوضع، على معنى أن اللغة وحدها ليست هي التي تملك شأن الوضع وتتخصص فيه، صحيح هي الأساس في ذلك ولكن هناك جهات أخرى يمكن أن يكون لها الحق في الوضع كذلك:

أولاً: وأول هذه الجهات الشرع، فهناك أشياء وضع الشرع لها أسماءً خاصةً بها، خذ كلمة (الصلاة) مثلاً وضعتها اللغة للدعاء، وفي اصطلاح الشرع: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وهكذا كثيرٌ من الكلمات التي وضعها الشرع لمعانٍ خاصة بها.

ثانياً: العُرف الخاص: بعد تعدد العلوم والمعارف أصبح لكل علم مصطلحاته الخاصة به، في علوم الحديث مثلاً نجد هذه الكلمات: الصحيح، الضعيف، الحسن، التدليس، وفي علوم البلاغة نجد هذه المصطلحات: الفصل والوصل، القصر، الاستعارة، وفي علم النحو نجد: الإعراب، البناء، الاشتغال، التمييز، وفي علم الصرف نجد: الإعلال، الإبدال، التصغير، النسب. وفي علم النفس نجد: الدافع، الشعور، الربط، الانتباه، وهكذا كل نوع من أنواع المعارف نجد له مصطلحاته الخاصة.

ثالثاً: العُرف العام، ونعني ما لم يكن لفئة خاصة، فالدابة مثلاً وضعها العُرف العام لذات القوائم الأربع، والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا تعارضت هذه الجهات مع اللغة - وهي متعارضة يقيناً - فهل نعدّ هذه المصطلحات جميعاً من أبواب المجاز؟ هل نعد استعمال الشرع للصلاة في الأقوال والأفعال مجازاً؟ وهل نعدّ تعريف الصحيح عند علماء الحديث مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعدّ تعريف الفصل عند علماء البلاغة مجازاً لأن تعريفه يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعد تعريف العُرف العام للدابة بأنها ذات القوائم الأربع مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة، فإن اللغة وضعت

الدابة لكل ما يدب على الأرض؟ وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا من شأنه أن يعْسُر على كثير من الناس، وللإجابة عن هذا السؤال نقول:

إن كل جهة وضعت لمصطلحاتها الخاصة كلمات تدل عليها، فإن هذه الكلمات الموضوعة تصبح حقائق لا ينازع فيها أحد، فالصلاة التي وضعت للأقوال والأفعال هي حقيقة شرعية، وكذلك الصيام الذي وضع للإمساك المخصوص حقيقة شرعية، كذلك المصطلحات في أنواع العلوم والمعارف، فتعريف الفصل في علوم البلاغة أنه (ترك العطف بين الجملتين) حقيقة اصطلاحية لا نزاع فيها، كذلك تعريف الدابة بأنها التي لها أربع قوائم حقيقة عرفية. خلاصة القول: إن بعض المجازات اللغوية قد تصبح حقائق شرعية أو عرفية كاستعمال كلمة (الصلاة) في الأقوال والأفعال، والعرب لم تضعها لهذا بل وضعتها للدعاء، لكن استعمال الشرع لها جعلها حقيقةً شرعية، مع أنها في أصلها مجازٌ لغوي، وحتى لا نكثّر المجاز في الكلام لا نقول: إن الصلاة التي بينتها الشريعة مجازٌ لغوي؛ بل نقول: إنها حقيقة شرعية، كذلك الفاعل في تعريف النحويين والحال والتمييز، والفصل والوصل عند البلاغيين، والقياس عند الأصوليين، وكذا الغريزة والدافع عند علماء النفس، والمربع والمثلث عند علماء الرياضيات، كل أولئك وغيرها لا نطلق عليها أنها مجاز لغوي بل صارت حقائق خاصة؛ فهي حقائق شرعية عند الشرعيين وحقائق عرفية في مصطلحات العلوم المتعددة.

بقي أمرٌ لا بُدّ أن ننبهك عليه، وقد تأتي له زيادةُ إيضاح فيما بعد - إن شاء الله تعالى - فتنبه له، لأنني وضعت هذا الكتاب - كما قلت في مقدمته - نتيجة معاناتي طالباً ومدرساً، فقد ظن بعض الناس أن أمر المجاز والحقيقة يرجع إلى كثرة الاستعمال وقلّته، فإذا كَثُر استعمال كلمة في معنى من المعاني في عصرٍ ما، كان هذا الاستعمال حقيقة، وإذا قلّ هذا الاستعمال في عصر آخر، صار هذا الاستعمال مجازياً، وهذا لم يقله أحد من العلماء، ورحم الله الشيخ عبدالقاهر، حيث نبّه على أن المجاز أو الكناية لا يزيد القضية من حيث الكم، فقولك: «رأيت أسداً أو بحراً»، ليس معنى هذا أن هذه العبارة تدلُّ على كثرة الشجاعة والجود أكثر من قولك: «فلانٌ شجاعٌ جواد» إنما تزيد الأسلوب حسناً كما ستعرفه، وأزيدك على ما قاله الشيخ - رحمه الله - أن كثرة الاستعمال وقلته لا تحوّل

الحقيقة إلى مجاز، فالصلاة التي كانت تستعمل كثيراً في الدعاء ولكنها الآن قل استعمالها في هذا المعنى، لم تتحول من الحقيقة إلى المجاز، فالصلاة وضعتها اللغة للدعاء، وستبقى كذلك حقيقة لغوية كثر استعمالها أم قلّ. قلة الاستعمال إذن لا تحول استعمال الصلاة في الدعاء إلى مجاز، نبهتك على هذا لأنني عرفتُ أن بعض المدرسين قد ذكر هذا لطلابه.

رابعاً: أنواع المجاز:

آخر ما نحدثك عنه في هذا التمهيد أنواع المجاز، عرفت أن المجاز الذي حدثناك عنه هو المجاز اللغوي، ذلك لأن الفيصل فيه اللغة، وهناك مجاز آخر لا يرجع في مفهومه إلى اللغة. خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤] قف مع قوله سبحانه: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ وتأمل هذه الجملة الكريمة جيداً فإنك تجد أن الكلمات استعملت فيما وضعتها لها اللغة؛ فكلمتا التذبيح والاستحياء استعملتا استعمالاً حقيقياً، ولكنك إذا أنعمت النظر فإنك تجد أن إسناد التذبيح والاستحياء لفرعون ليس إسناداً حقيقياً، لأن فرعون ليس هو الذي ذبّح الأبناء واستحيا النساء، إنما الذين فعلوا ذلك جندُهُ، كل ما في الأمر أنه كان السبب والآمر بذلك العمل.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا ﴾ [غافر:٣٦] إن كلمة البناء هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً، ولكن هامان ليس هو الذي سيبني الصرح وإنما سيأمر العملة بذلك. وتجد الغيث ينزل من السماء فتقول: «سال الوادي» فكلمة السيل هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً فيما وضعت له؛ ولكن إسناد السيل إلى الوادي ليس حقيقياً، لأن الماء في الوادي هو الذي يسيل، وتقول: (فاض الكأس) والحقيقة أن الماء هو الذي فاض من الكأس.

هذه الكلمات كلها كما ترى ليس فيها مجاز لغوي، ولكن المجاز جاء في الإسناد، إسناد التذبيح إلى فرعون، والبناء إلى هامان، والسيل إلى الوادي والفيضان إلى الكأس، المجاز هنا إذن ليس لغوياً وإنما هو مجاز في الإسناد ويسمى مجازاً (عقلياً)؛ لأن العقل هو الذي حكم بمثل هذه القضايا وليست اللغة.

المجاز - إذن - نوعان: لغوي، وعقلي؛ فاللغوي ما كان مرجعه إلى اللغة لأن الكلمة استعملت في غير ما وضعت له؛ أي في غير ما وضعت له من حيث اللغة، والمجاز العقلي ويسمى مجازاً (حُكْمِيّاً) ذلك لأن التغيير فيه ليس لغوياً إنما هو إسناد الشيء لغير ما هو له.

بقيت قضية ذات شأن في المجاز اللغوي، ولقد عرفت من قبل أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور: كلمة ومعنيان وعلاقة وقرينة، ونودّ الآن أن نقف مع العلاقة لنفكر فيها جيداً.

العلاقة:

ارجع إلى الأمثلة التي ذكرناها لك هناك، فلقد عرفت هناك أن الصلة بين المعنى الذي وضعت له (الشمس) والمعنى الذي استعملت فيه وهو (الحسناء) هي (الوضاءة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وضعت له كلمة (أسد) وبين المعنى الذي استعملت فيه وهو (الرجل) هي (الشجاعة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وضعت له كلمة (سحاب) والمعنى الذي استعملت فيه هو (العطاء والخير)، إذا نظرت إلى هذه العلاقات تجد أنها تصلح أن تكون وجه شبه كما مرّ معك في التشبيه، ولهذا سميت هذه العلاقة (المشابهة) فإننا نستطيع أن نشبه الرجل الشجاع بالأسد، والحسناء بالشمس، والجواد بالسحاب، ووجه الشبه: (الشجاعة)، و(الوضاءةُ) و(العطاء).

ولكنّ هناك مجازاً لغوياً ليست العلاقة فيه من هذا النوع، أي: لا تصلح أن تكون العلاقة فيه وجه شبه؛ خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [نوح:٧] فإنهم في الحقيقة يجعلون أناملهم في آذانهم، ولكن القرآن أطلق الإصبع وأراد الأنملة، واللغة لم تضع الإصبع للأنملة، كلمة الإصبع إذن استعملت في غير ما وضعت له.

وخذ مثلاً قول الله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:٢] فإن المقصود بالقيام الصلاة، واللغة لم تضع القيام لتدل على الصلاة، فاستعمال القيام في الصلاة استعمال للكلمة في غير ما وضعت له، ولكنك إذا بحثت عن العلاقة بين الأنامل والأصابع، وبين القيام والصلاة، فستجدها بديهة تختلف عما مرت معك من علاقات.

لا يستطيع أحد أن يدعي أن العلاقة بين الأُنْمُلَةِ والإصبع المشابهة، ولا بين القيام والصلاة كذلك؛ إنما العلاقة أن إحدى الكلمتين جزء من الأخرى، ففي الآية الأولى

الأنامل جزء من الإصبع فقد استعمل الكل وأريد الجزء، وفي الآية الثانية؛ القيام جزء من الصلاة، فلقد استعمل الجزء وأريد الكل، ولذلك سمّوا هذه العلاقة (غير المشابهة).

نخلص من كل ما تقدم إلى أن المجاز اللغوي إما أن تكون علاقته (المشابهة) أي تصلح أن تكون وجه شبه بين المعنى الأصلي الذي وضعت له الكلمة وبين المعنى الثاني الذي استعملت فيه بحيث يمكن أن يكون تشبيهاً.

وقد تكون العلاقة غير المشابهة فلا يمكننا أن نكوّن تشبيهاً بين المعنيين، والأول يسمى استعارة، والثاني يسمى مجازاً مرسلاً، فالاستعارة - إذن - مجاز لغوي علاقته المشابهة، والمجاز المرسل مجاز لغوي علاقته غير المشابهة، وهذا ما استقرت عليه كلمة البيانيين.

ومما تقدم تدرك أن المجاز ينقسم إلى قسمين:

١- المجاز العقلي.

٢- المجاز اللغوي وينقسم إلى:

أ- مجاز مرسل.

ب- استعارة.

وسنحدثك بعد هذا التمهيد إن شاء الله عن كل قسم على حدة.

الفصل الأول

المجاز العقلي

اعتاد كثيرٌ من الكاتبين أن يذكروا المجاز العقلي في علم المعاني، كما فعل الشيخ عبدالقاهر في (دلائل الإعجاز) وصاحب (التلخيص) القزويني؛ لأنه قسمٌ من الإسناد، والإسناد وما يتصلُ به من مباحث علم المعاني، وبعض الكاتبين يذكره في علم البيان؛ لأن المجاز من مباحث علم البيان، وهذا ما اخترته لك أيها القارئ الكريم.

عرفت أن المجاز العقلي لا يكون في الكلمة نفسها، فالكلمة لم تخرج فيه عن وضعها اللغوي، إنما يكون في الإسناد فهو (إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له)، ولا بد قبل أن نسترسل معك في الحديث عن المجاز العقلي أن نقف عند العبارة المتقدمة، ووقوفنا عندها في موضعين اثنين:

الموضع الأول: عند قولنا: «إسناد الفعل أو ما في معناه» ونقصد بـ (ما في معنى الفعل)؛ اسم الفاعل، اسم المفعول، وما يشبههما، ألا ترى أن هذه تعمل عمل الفعل؟ فترفع الفاعل وتنصب المفعول، فإذا قلت: «أضاربٌ زيد عَمْراً؟»، «أحاضرٌ أخوك؟» «أمفهومٌ الدرس؟»، «حُبُّك الأعداءَ خيانةٌ» فإن (ضارب) في المثال الأول رفعت الفاعل ونصبت المفعول، وكذلك (حاضر) في المثال الثاني، أما كلمة (مفهوم) في المثال الثالث، فهي اسم مفعول ورفعت بها كلمة الدرس، لأنها نائب فاعل، وفي المثال الرابع نصبت كلمة (الأعداء) لأنها مفعول به للمصدر (حُبّ).

الموضع الثاني: قولنا: (لغير ما هو له)، وتوضيحاً لهذه الجملة نقول: إذا قلت: «سال الماء في الوادي»، «فاض الماء من الكأس»، «فاطمة صائمة هذا اليوم»، «محمد قائم ليلته»، «نحمي أرضنا بإيماننا وشجاعتنا»، «نَبَتَ البقل في فصل الربيع».

قف أمام هذه الجمل واحدة واحدة، تجد أن الإسناد في كل منها إسناد حقيقي؛ فهو إسناد الفعل أو ما يشبهه لما هو له، ألا ترى أن إسناد (سال وفاض) إلى الماء إسناد حقيقي؟ وإسناد الصوم والقيام إلى فاطمة ومحمد إسناد حقيقي، وإسناد الفعل (نحمي) إلى ضمير المتكلم إسناد حقيقي كذلك؟ وإسناد النبت إلى البقل في فصل الربيع كذلك. نستطيع أن نقول إذن: إننا في هذه الجمل جميعاً أسندنا الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له.

ولكن سعة اللغة وفن التعبير يكسبان الكلام زهواً وبهاءً حيث يمكننا أن نغير العبارات السابقة فنقول: «فاض الكأس»، «سال الوادي»، «نهارها صائم» و«ليلُهُ قائم»، «يحمي بلادَنا وعِرضَنا ضربُ السيوف»، «أنبت الربيعُ البقل»، «أشابَتْنا الهمومُ»، في هذه العبارات جميعاً نجد أننا أسندنا الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، فإن الكأس والوادي لم يسيلا، ولكن سال الماء الذي فيهما، ومن هنا كان المجاز والعلاقة التي جعلتنا نقدم على مثل هذا هو ما بين الماء وكل من النهر والكأس من صلة وقرب؛ إذ هما مكان هذا الماء، كذلك الجملتان «نهارها صائم»، و«ليله قائم»، الإسناد فيهما مجازي لأن النهار لم يصم، ولأن الليل لم يقم، ومن هنا كان المجاز.

والذي حسّن هذا التجوز هو ما بين الصيام والقيام والنهار والليل من صلة، فكل منهما زمان للآخر، الليل زمان القيام والنهار زمان الصوم، كذلك إسناد الحماية للضرب إسناد غير حقيقي لأن الذي يحمي هم أصحاب السيوف، أي: الناس، والذي سوّغ هذا التجوز هو أن هذا الضرب سبب لهذه الحماية.

لعلك الآن أدركت أن المجاز العقلي وإن اختلف عن المجاز اللغوي - لأن ذاك في الكلمة وهذا في الإسناد - إلا أنه يشبهه من حيث حاجتُه إلى العلاقة والقرينة، فإذا قلت: «سال النهر» فالقرينة هنا معنوية، لأن النهر لا يمكن أن يسيل، أما العلاقة فهي المكانية لأن النهر مكان الماء، وكذلك قولك: «فاض الكأس»، أما العلاقة في قولنا: «نهارُهُ صائم»، و«ليلُهُ قائم» فهي الزمانية؛ لأن النهار والليل زمان الصيام والقيام، وأما العلاقة

في قولنا: «أشابَتْنا الهموم» فهي السببية؛ لأن الهموم سبب للشيب، وهناك علاقات أُخر للمجاز العقلي: وهي المصدرية كقولك: «جَدَّ الجدُّ» قال أبو فراس[1]:

سَـيَذْكُرُني قَــوْمِي إذا جَــدَّ جِــدُّهُمْ وَفي اللَّيْلَــةِ الظَّلْـمَاءِ يُفْتَقَــدُ البَـدْرُ

ومنه قول أبي سفيان: «لقد أمِر أمرُ ابن أبي كَبْشَةَ».

ومن علاقاته المفعولية: وذلك حينما نأتي باسم الفاعل ونريد المفعول كقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٥-٦]، أي: مدفوق، و«بَيْتٌ عَامِر» أي: معمور و«سُمٌّ ناقِع» أي: منقوع، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص:٥٧] أي: مأموناً، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود:٤٣] أي: معصوم، فأنت ترى هنا أنه قد ذكر اسم الفاعل ولكن المراد اسم المفعول، فالعلاقة المفعولية كما عرفت. ومن هذا قول الحطيئة[2]:

دَعِ المَكَــارِمَ لاَ تَرْحَــلْ لِبُغْيَتِهَــا وَاقْعُـدْ فَإنَّـكَ أنْـتَ الطَّـاعِمُ الكَـاسِي

فقد عبر باسم الفاعل هنا ولكنه يريد أنت (المطعوم المكسو) بدليل قوله: «دع المكارم لا ترحل لبغيتها»، إذ لا يعقل أن يجرده من المكارم ثم يصفه بأنه يطعم الناس ويكسوهم، والبيت قاله الحطيئة في الزبرقان بن بدر ﷺ فرفع الزبرقان أمر الحطيئة لسيدنا عمر ﷺ فعزره وأدبه، ومنه قولنا: «نهاره صائم» و«ليله قائم» أي: مصومٌ فيه ومقومٌ فيه، وقد تقدم لك أن علاقة هذا الزمانية، لكن قد تختلف العلاقات باختلاف المعنى كما تختلف الأعاريب باختلاف المعاني، وسيأتي لهذا مزيدُ تفصيل إن شاء الله.

وقد تكون العلاقة الفاعلية وذلك إذا ذكر اسم المفعول وأريد اسم الفاعل، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١] فـ (مأتي) اسم مفعول، ولكن المراد اسم الفاعل، أي: إن وعده آت، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:١٣٤]، ومن هذا قولهم: «سيلٌ مُفْعَم» بصيغة اسم المفعول، والمراد اسم الفاعل،

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ص١٢١، قصيدة (أراك عصي الدمع).

(٢) ديوان الحطيئة، ص٢٨٤.

وذلك من قولهم: «أفعَم السيلُ الوادي» إذا ملأه، فالسيل مفعِم وليس مُفعَم، ولكي تتضح لك صورة هذا المجاز نذكر لك مزيداً من الأمثلة:

١ - قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦].

٢ - قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص:٤].

وإسناد البناء إلى هامان، والتذبيح والاستحياء إلى فرعون، إسناد مجازي علاقته السببية، لأن هامان سبب في البناء وهو المشرف عليه، ولأن فرعون هو السبب في التذبيح والاستحياء، والباني في الحقيقة العملةُ والمذبِّح والمستحيي هم الجنود.

٣ - قال المتنبي يصف ملك الروم بعد أن هزمه سيف الدولة(١):

وَيَمْشِي بِهِ العُكَّازُ في الدَّيْرِ تائِباً ... وَمَا كانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْقَرَ أَجْرَدَا

٤ - وقال الفرزدق(٢):

يَحْمي إذا اخْتُرِطَ السُّيُوفُ نِساءَنا ... ضَرْبٌ تَطيرُ لَهُ السَّواعِدُ أرْعَلُ

وإسناد المشي إلى العكاز مجاز عقلي علاقته السببية، وإسناد الحماية إلى الضرب مجاز عقلي علاقته السببية كذلك.

٥ - وهذا مثل قولك: «بنى الإسلام لنا دولة لا تغيبُ عنها الشمس» فإن إسناد البناء للإسلام مجاز عقلي علاقته السببية.

٦ - وقال آخر:

---

(١) ديوانه ٢/٦، يقول: وصار يمشي في دير الرهبان على العكاز تائباً من الحرب بعد أن كان لا يرضى مشي الخيل السراع - لأن الجواد الأشقر عند العرب أسرع الخيل - بعد أن يئس ونال منه الهم، والأجرد: القصير الشعر.

(٢) ديوانه ص٤٩٠، اختُرِط السيوف، أي: استُلت، الأرعل: الذي يقطع اللحم فيدليه، المعنى: يشير إلى منعة قومه وقوتهم من خلال تصوير ضرباتهم العنيفة التي تقطع سواعد المعتدين، مما يعني حصانة نساء قومه المطلقة، فيا ليت لأمتنا مثل هذه الحمية.

إنّـا لِمَـنْ مَعْـشَرٍ أفْنَـى أوائِلَهُـمْ   قيـلُ الكُـماةِ ألاَ أيْـنَ المُحامُونـا[1]

٧- وقال المتنبي[2]:

والهَـمُّ يَخْـتَرِمُ الجَـسيمَ نَحافَـةً   وَيُـشيبُ ناصِـيَةَ الـصَّبِيِّ ويُهْـرِمُ

وإسناد الإفناء إلى القول إسناد مجازي علاقته السببية كذلك؛ لأن القول سبب في الإفناء، وإسناد الاخترام والشيب والإهرام إلى الهم من المجاز العقلي وعلاقته السببية لأن الهمّ سبب في هذه الأمور.

٨- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام:٦]، إسناد الجري إلى الأنهار إسناد مجازي، لأن الأنهار لا تجري إنما يجري الماء الذي في الأنهار، إسناد الجري إلى الأنهار - إذن - مجاز عقلي علاقته المكانية.

٩- قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣] إسناد المكر إلى الليل والنهار مجاز عقلي علاقته الزمانية لأنهما زمان المكر.

١٠- قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، العيشة لا ترضى - كما تعلم - وإنما يرضاها الناس، فوصْفُ العيشة بأنها راضية مجاز عقلي علاقته المفعولية لأنها عيشة مرضية.

١١- تقول: «ذهبنا إلى حديقة غنّاء وروضة فيحاء» الحقيقة أن الحديقة مكان للصوت الجميل، والرائحة الطيبة فهو مجاز عقلي علاقته المكانية.

١٢- قال الشاعر:

قَـدْ عَـزَّ عِـزُّ الأُلى لاَ يَبْخَلُـونَ عَـلى   أوْطـانِهِمْ بِالـدَّم الغـالِي إذا طُلِبَـا

---

(١) الكماة: جمع كمي: وهو الشجاع المتكمي بسلاحه، أي: المستور به، أي: أنهم ما إن يسمعوا صيحة مستغيث حتى يجيبوه وقد فني أجدادهم في هذا الأمر.

(٢) ديوانه ٤/ ٢٥١، يخترم: يقطع ويستأصل، الجسيم: العظيم الجسم، النحافة، الهزال، الناصية: مقدم الرأس، يقول: إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه الهزال، ويشيب الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز.

وأنت ترى هنا أنه قد أسند الفعل إلى المصدر، وهذا مجاز عقلي علاقته المصدرية، وإنما كان مجازاً؛ لأن العِزّ لا يَعِزُّ وإنما يُعَزُّ به كما تقول: «يخاف الخوفُ».

١٣ - قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]، ومن شأن الحجاب أن يكون ساتراً فهو مجاز عقلي علاقته الفاعلية.

تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر[1]:

تَرْتَـعُ مـا رَتَعَـتْ حَتّـى إذا ادَّكَـرَتْ ... فـإنَّما هِـيَ إقْبـالٌ وإدْبـارُ

أسندت (العَجُول) التي في البيت الذي قبل هذا:

فَـما عَجُـولٌ عَـلَى بَـوٍّ تُطيـفُ بِـهِ ... لَهـا حَنينـانِ إصْـغارٌ وإكْبـارُ[2]

أسندتها إلى المصدر (إقبال وإدبار) وإنما أرادت أنها مقبلة مدبرة فهو مجاز عقليّ علاقته الفاعلية.

إن للمجاز العقلي في الكلام لشأناً عظيماً؛ ولذا فأنت تراه مرتكزاً في طبائع الناس يعبرون به وإن لم يعرفوا اسمه، ألا تسمعهم يقولون: «فلان أصلحه الزواج وغيّره المال»، و«أنت نَجَّتْك أمانتُكْ» و«فلان نفعَتْه تقوى والديه»، و«هذا رفعه العِلْم»، و«ذاك قتله طمعُه»، و«هذه أشقاها جمالُها»، و«تلك سما بها خلقُها»، و«علَّمَنا الاستعمار دروساً لا ننساها» و«هذا بيت مضيء»، ويقول بعضهم لبعض: «منزلك عامر»، و«سفرة دائمة»، إلى غير ذلك من العبارات الكثيرة وكلها من المجاز العقلي كما ترى.

ولقد أشار الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - إلى هذا اللون من المجاز مبيناً ما له من فضيلة في القول، وقد سماه (المجاز الحكمي)، ومن الخير أن ننقل لك شيئاً مما كتبه في كتابه

(١) ديوانها ص٤٨، تصف الناقة حيث تمثل حزنها على أخيها بحزن هذه الناقة التي فقدت وليدها، فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ: لا تنفك تقبل وتُدبر فهما - أي الإقبال والإدبار - سجيةٌ لها وديدن.

(٢) العَجول: بفتح العين: الثكلى من النساء والإبل التي فقدت ولدها سميت بذلك لعجلتها في ذهابها وإيابها جزعاً، البوّ: أن يُنحر ولد الناقة ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه، وفي الديوان: (فإنما هي إعلانٌ وأسرارُ).

الدلائل لنختم به الحديث، ولا يفوتنا قبل ذلك أن ننبهك على أن المجاز العقلي قد جرت عادة المؤلفين القدامى أن يذكروه في علم المعاني لا في علم البيان، كما يفعل المحدَثون اليوم، وذلك عندما يتحدثون عن الإسناد الخبري، وهو الباب الأول من أبواب علم المعاني، يقسمونه إلى إسناد حقيقي، وإسناد مجازي، وهو إسناد الفعل أو ما في معناه لغير ما هو له، وهو المجاز العقلي. ثم يقسمونه بعد ذلك إلى أربعة أقسام لأن كل مجاز عقلي - كما رأيت من قبل - لا بد له من طرفين: مسند، ومسند إليه، وهذان الطرفان يمكنك أن تجدهما في كل مثال مما سبق، كإسناد البناء إلى الإسلام في قولنا: «بنى الإسلام لنا دولة»، وإسناد الصوم إلى النار، فالطرفان إما أن يكونا:

١ - حقيقيَّيْن نحو «أنبت الربيعُ البقل».

٢ - أو مجازيَّيْن نحو «أحيا الأرضَ شبابُ الزمان».

٣- أو مختلفين نحو «أحيا الأرضَ الربيعُ»، و«أنبت البقلَ شبابُ الزمان»، ولا نرى في ذلك كثير فائدة في هذا الموضوع.

وحتى لا تتشعب بك السبُل نذكر لك ما وعدناك به من كلام الشيخ - رحمه الله تعالى - . يقول: «اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبل، أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو رِدْفٌ له أو شبيه، فتجوّزت بذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه، وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يُجرَى على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: «نهارك صائم»، و«ليلك قائم» و«نام ليلي» و«تجلّى همّي»: وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة:١٦] وقول الفرزدق:

سَقَتْها خُروقٌ في المَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ ... عِلاَطاً ولا مَخْبوطَةً في المَلاَغِمِ

أنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الألفاظ، ولكن في أحكامٍ أُجريت عليها، أفلا ترى أنك لم تتجوز في قولك: «نهارك صائم»، و«ليلك قائم» في نفس «صائم» و«قائم»، ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار والليل. وكذلك ليس

المجاز في الآية في لفظة (ربحت) نفسها ولكن في إسنادها إلى التجارة، وهكذا الحكم في قوله: (سَقَتْها خروق): ليس التجوز في نفس (سقتها) ولكن في أن أسندها إلى الخروق.

أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته؟ فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام ولا بربحت غير الربح، ولا بسقت غير السقي، كما لم يرد بسالت في قوله: (وسالت بأعناق المطيّ الأباطح) غير السَّيل.

واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يَفْخُمَ عليه المعنى، وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله ههنا، فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله: (فنام ليلي وتجلَّى همي) كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: «فَنِمْتُ في ليلي وتجلَّى همي». كما لم يكن الحال في قولك: «رأيت أسداً» كالحال في: «رأيت رجلاً كالأسد» ومن الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المِزْيَة، وصورة الفرقان بين قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ وبين أن يقال: «فما ربحوا في تجارتهم»، وإن أردت أن تزداد للأمر تبيناً فانظر إلى بيت الفرزدق:

يَحْمِي إذا اخْتُرِطَ السُّيُوفُ نِساءَنَا ... ضَرْبٌ تَطيرُ لَهُ السَّواعِدُ أَرْعَلُ

وإلى رونقه ومائه وإلى ما عليه من الطلاوة، ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة وقل: «نحمي إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل»، ثم اسبر حالك هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟ وهذا الضرب من المجاز على حِدَته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفلِق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الأفهام، ولا يغرنّك من أمره أنك ترى الرجل يقول: «أتى بي الشوقُ إلى لقائك»، و«سار بي الحنين إلى رؤيتك»، و«أقدمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان»، وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يُشكِل أمرها، فليس هو كذلك أبداً بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تَأْنَقُ لها».

ثم ينبه الشيخ إلى قضية دقيقة لا بد أن نشير إليها يقول:

«واعلم أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة مثل أنك تقول في «ربحت تجارتهم»: «ربحوا في تجارتهم» وفي «يحمى نساءنا ضربٌ»: «نحمي نساءنا بضرب»، فإن ذلك لا يتأتى في كل شي، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك: «أقدمني بلَدَك حقٌّ لي على إنسان»: فاعلاً سوى الحق؟؟ وكذلك لا تستطيع في قول محمد اليزيدي[(١)]:

وَصَـــــيَّرنِي هَـــــوَاكَ وَبِي ... لِحِينـــــي يُـــــضْرَبُ المَثَـــــلُ

وقول أبي نواس[(٢)]:

يَزِيـــــدُكَ وَجْهُـــــهُ حُـــــسْناً ... إذا مَـــــا زِدْتَـــــهُ نَظَـــــرا

أن تزعم أن لـ (صيّرني) فاعلاً قد نُقل عنه الفعل فجُعِل للهوى كما فُعِل ذلك في «ربحت تجارتهم»، و«يحمي نساءنا ضرب»، ولا تستطيع كذلك أن تقدر للفعل (يزيد) في قوله: «يزيدك وجهه»: فاعلاً غير الوجه، فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته.

معنى ذلك أن القدوم في قولك: «أقدمني بلَدَك حقٌّ لي على إنسان»، موجود على الحقيقة، وكذلك الصيرورة في قوله: «وصيّرني هواك»، والزيادة في قوله: «يزيدك وجهه» موجودتان على الحقيقة، وإذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه، وإذا لم يكن المجاز في نفس اللفظ كان لا محالة في الحكم، فاعرف هذه الجملة وأحسن ضبطها حتى تكون على بصيرة من الأمر»[(٣)].

نقلت لك هذا النص من كلام الشيخ لكي تدرك ما أُعطِيَه من دقة فهم، وقوة إدراك ينفذ منها إلى المعاني بصفاء قريحة، ولتدرك موقف الذين كانوا عالةً عليه من عبارته هذه فلقد كان موقف الناقد المعترض، ولا بد أن نشرح لك كلمة الشيخ أولاً:

---

(١) معاهد التنصيص، ١/ ٨٢، المعنى: أي صيرني الله بهواك وحالي هذه - وهي أن يضرب بي المثل - أي: أهلكني الله ابتلاءً بسبب هواك.

(٢) معاهد التنصيص، ١/ ٧٨.

(٣) دلائل الإعجاز، ص٢٢٧-٢٣٠.

يقول: إن المجاز العقلي نوعان، نوعٌ يسهل فيه تقدير الفاعل، وجاء لذلك بمثالين اثنين قول سبحانه: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة:١٦] فإسناد الربح إلى التجارة مجاز عقلي لأن التجارة لا تربح، إنما تكون سبباً في الربح، فالتقدير إذن (ما ربحوا في تجارتهم) فهو مجاز عقلي علاقته السببية. المثال الثاني قول الفرزدق: «يحمي نساءنا ضربٌ» فإن الضرب سبب في الحماية وقد تقدم لك هذا من قبل.

النوع الثاني من المجاز العقلي: ما لا يسهل فيه تقدير الفاعل، بل يحتاج إلى تأمل وروية وفكر، ومثّل لذلك بقوله: «أقدمني بَلَدَك حقٌّ لي على إنسان»، و«صيرني هواك»، وقوله: «يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً»، فإن في هذه الأمثلة جميعاً مجازاً عقلياً، ففي المثال الأول: الذي أقدمه البلد حقٌّ له على فلان، إذن قدومه للبلد بسبب الحق الذي له، وكذلك صيّرني هواك فإن الهوى كان سبباً في تصييره ليُضرب به المثل، وكذلك المثال الثالث كان الوجه سبباً في زيادته حسناً.

يقول الشيخ: إن أي فعل من هذه الأفعال يصعب أن تجد له فاعلاً غير الذي ذكر له، ويخلص الشيخ من هذا إلى أنه لا يشترط في كل فعل في المجاز العقلي أن يكون قد استعمل أولاً للفاعل الحقيقي، وأن يستعمل بعد ذلك للفاعل المجازي - كما رأينا في الآية السابقة - ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ وفي بيت الفرزدق: «يحمي إذا اخترط السيوف» البيت، ففاعل (ربح) على الحقيقة التجار، وفاعل (يحمي) على الحقيقة المقاتلون، وهناك نوعٌ آخر من المجاز العقلي يُسند فيه الفعل إلى فاعله المجازي ابتداءً من غير أن يكون له فاعل حقيقي، لكن العقل يدرك بعد تأمل أن هذا الإسناد مجازي، فقوله: «يزيدك وجهه حسناً» إسناد الزيادة إلى الوجه مجازٌ قطعاً، لأن الوجه لا يزيد في الحقيقة، لكن هذا الفعل (يزيد) ليس له فاعل حقيقي يمكن أن تقدره له كما قدرنا للفعل (ربح) فاعلاً هم (التجار).

فهم العلماء لكلام الشيخ:

أرجو أن تكون قد أدركت ما يريد الشيخ. ولكن الذين جاؤوا بعده ردّوا قوله زاعمين أن الشيخ غاب عن فكره الفاعل الحقيقي في الأفعال السابقة (صيرني، أقدمني، يزيدك): وهو الله سبحانه، أي (أقدمني الله)، و(صيرني الله)، و(يزيدك الله)، وأظنك

يزداد عجبك إذا عرفت أن الذين ردوا كلام الشيخ هم الذين اختصروا كتبه، وأذهبوا كثيراً من رونقها، وكان أولهم الإمام الرازي - رحمه الله - ومن بعده السكاكي صاحب المفتاح، ثم الخطيب صاحب التلخيص، هؤلاء الأعلام الثلاثة هم الذين ردّوا كلام الشيخ زاعمين أنه لم يدرك الفاعل الحقيقي، ولولا أن العلاّمة الفاضل السعد - رحمه الله - سعد الدين التفتازاني ويا ليتنا نرزق مثله في فهمه وإدراكه، أقول: لولا أنه ردّ كلام أولئك وأجاب عن الشيخ لبقي كلام الشيخ غير مقبول عند الكثير من الناس.

قال السعد - رحمه الله - في شرحه المختصر على التلخيص بعد أن ذكر اعتراض الرازي والسكاكي والقزويني: «وفي ظني أن هذا تكلف، والحقُّ ما ذكره الشيخ»[1] يعني الشيخ عبدالقاهر، وقد علق الدسوقي في حاشيته على كلام السعد بقوله: «قوله: (وفي ظني أن هذا ...) أي الذي قاله المصنف (صاحب التلخيص) تبعاً للرازي والسكاكي تكلفٌ، وذلك لأن تقدير الفاعل الموجود وهو الله تعالى في مثل هذه الأفعال السابقة تقدير لما لا يُقصد في الاستعمال ولا يتعلق به الغرض في التراكيب؛ وعبارة بعض الشيوخ إنما كان تكلفاً لأن الفاعل من قام به الفعل، ولا يُقال: إنه تعالى قام به السرور وغيره مما ذكر»[2].

إن ما ذهب إليه الشيخ رجع فيه بحسه المرهف إلى آيات من الكتاب الحكيم وإلى كثير من النصوص البليغة، ولا يغيب عن الشيخ أن الله فعال لما يريد، كل الذي أراد أن يقرره أن إسناد الفعل للفاعل ليس من الضرورة أن يمر بمرحلتين، أن يسند إلى فاعله الحقيقي أولاً، ثم يسند إلى فاعله المجازي بعد ذلك؛ بل قد يسند من أول وهلة إلى الفاعل المجازي، وهذا كلام دقيق كما قلت لك من قبل.

واعلم أن السكاكي صاحب المفتاح قد أنكر المجاز العقلي وعدّ ذلك من باب الاستعارة المكنية وهو قول لا يستقيم وبخاصة إذا أردت تطبيقه تطبيقاً عملياً.

---

(١) شروح التلخيص للسعد التفتازاني وعليه حاشية الدسوقي، ١/ ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق.

الفصل الثاني
المجاز اللغوي

المبحث الأول
المجاز المرسل

المجاز المرسل مجاز لغوي - كما عرف من قبل - علاقته غير المشابهة، وسمي مرسلاً، لأن الإرسال هو الإطلاق، فهو مطلق في علاقاته، أي ليس له علاقة معينة كما هو الشأن في الاستعارة، فالاستعارة علاقتها المشابهة كما عرفت، وللمجاز المرسل علاقات كثيرة، ولكن بعضها لا يخلو من تكلف، وسنذكر لك أكثر هذه العلاقات دوراناً في الكلام البليغ.

١ - السببية: وذلك إذا كانت الكلمة المذكورة التي استعملت في غير ما وضعت له سبباً في المعنى المراد من القول، خذ مثلاً قولهم: «رعينا الغيث» فإن المراد من هذا القول أنهم رعوا النبات، فكلمة (الغيث) استعملت في غير ما وضعت له، ولكن هذا الغيث سبب في النبات، وهذا ما سوَّغَ المجاز في هذه الكلمة.

ومن المجاز المرسل: إطلاق اليد على النعمة لأنها سببها، تقول: «لفلان يد عندي»، ومنه إطلاق اليد على القدرة، ومن المجاز المرسل قولهم لراعي الإبل: «إن له عليها لأُصبعاً»، ذلك لما لحركة الإصبع من حسن التدبير والتسيير، ولعل من المفيد أن ننبهك هنا على أمرٍ قد يلتبس عليك.

عندما حدثناك عن المجاز العقلي ذكرنا أن من علاقاته السببية، وقد تتساءل: ما الفرق بين السببية في المجاز العقلي والسببية في المجاز المرسل؟ والحقيقة أن الفرق بينهما كبير وإن كانت التسمية واحدة، فالسببية في المجاز العقلي لم تخرج بالكلمات عما وضعت له في اللغة، فقوله سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة:١٦] استعملت فيه كلتا الكلمتين أعني (الربح) و(التجارة) في المعنى الذي وضعته اللغة لكل منهما، أما في قولنا: «رعينا الغيث» و«حلّت يد فلان عندي» فإن كلمتي (الغيث) و(اليد) استعملت كل منهما في غير ما وضعت له، فقد استعمل الغيث في النبات، واليد في النعمة.

٢- المُسَبَّبِية بفتح الباء الأولى: وذلك حينما يكون اللفظ المذكور مسبَّباً عن المعنى المراد، ويكون المعنى المراد سبباً في اللفظ المذكور، استمع إلى قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ [غافر:١٣] وأنت خبير بأن الله يكرم عباده بإنزال الماء من السماء، وهذا الماء يكون سبباً في الرزق، فالرزق مُسَبَّبٌ عن الماء.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف:٢٦] فإن اللباس إنما هو من بعض النباتات المسببة عن الماء. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر:٦] ولعلك تدرك أنه قد يكون في هذا النوع أكثر من سبب واحد وأكثر من وساطة واحدة كما في الآيتين السابقتين(١).

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦] فإن المعنى: (إذا أردتم القيام إلى الصلاة)، لأنه لا يعقل أن يقوموا إلى الصلاة غير متوضئين، فالغسل مسبب عن الإرادة،

---

(١) فاللباس المذكور في الآية الكريمة منسوج من القطن أو الصوف أو الكتان، والصوف أخذ من الماشية أو من بعض الأنعام، والنبات سبب فيه، والماء سبب للنبات، فكلمة اللباس التي امتنّ الله علينا بإنزالها من السماء مرت في أكثر من مرحلة، وكان لها أكثر من سبب، لأن الله نزل لنا الماء، واللباس مسبب عنه، ولكن بينهما وسائط متعددة، وكذلك تقول في ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨] أي: (إذا أردت قراءة القرآن)، لأن الاستعاذة قبل القراءة وليست بعدها فالإرادة سبب والاستعاذة مسبب، وقوله سبحانه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤] فإن مجيء البأس لا يترتب على الإهلاك لأنه هو الإهلاك نفسه، بل يترتب على الإرادة، والمعنى - والله أعلم - (أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا) فإرادة الإهلاك سبب، ومجيء البأس مسبب عنه.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء:١٠]، فالنار مسببة عما أكلوه ظلماً وعدواناً.

٣- الجزئية: تكون علاقة المجاز المرسل الجزئية إذا كان اللفظ المستعمل جزءاً من المعنى المراد وذلك كقوله سبحانه: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة:١٠٨] والحديث عن مسجد الضرار، والمراد من القيام الصلاة، ولما كان القيام جزءاً من الصلاة، حَسُنَ أن يستعمل فيها ويدل عليها، ومثله قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١-٢] ومنه قوله ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»[1].

ومن المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية قوله سبحانه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢] ولا شك أن المقصود تحرير الإنسان المؤمن، والرقبة جزء منه، ومن هذا إطلاق العين على الجاسوس، تقول: «ما أجدر أمتنا أن تبث العيون لتتَّقِيَ مكر عدوِّها».

وإذا رجعت إلى الأمثلة السابقة تدرك أن العلاقة الجزئية في المجاز لكي تؤدي غرضاً بيانياً لا بد لها من شروط، فليس كل جزء يمكن أن يعبَّر به عن الكل، ألا ترى أن الرقبة التي عبّر بها عن الإنسان، هي من الأمور التي لا حياة بدونها؟؟ إذ لا يمكن أن نتصور إنساناً يعيش وقد انتزعت رقبته، ثم انظر إلى العين التي استعملت وأريد بها

---

(١) رواه مسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح)، ١/ ٥٢٣.

الجاسوس، ألا ترى أنها أكثر الأجزاء وأخطرها شأناً لمن أراد مراقبة الأعداء؟؟ ثم انظر إلى القيام الذي استعمل وأريد منه الصلاة، ألا ترى أنه من أشرف أركانها وأعظمها؟؟

الجزء الذي عبر به عن الكل في المجاز المرسل، لا بد له من أحد هذه الشروط التي ذكرناها لك في الأمثلة السابقة وهي:

أ- أن يكون انتفاء الجزء يستدعي انتفاء الكل كما في الرقبة.

ب- أن يكون الجزء هو المُعَوَّل عليه أكثر من غيره من الأجزاء، كالعين التي أريد بها الجاسوس.

ج- أن يكون الجزء ذا أهمية كالقيام بالنسبة للصلاة.

فإذا أردت أن تعبر عن فصاحة فلان من الناس تعبيراً مجازياً - تقول: «إنه لساننا الناطق»، لأن اللسان هو السبب المباشر في الكلام، وهكذا لا يجوز أن تعبر باللسان عن الجاسوس، ولا بالعين عن الخطابة، ولا باليد عن التفكير. فاليدُ في الأصل هي الجارحة، وقد منّ الله بها على بعض مخلوقاته، فللإنسان يدان وجمعها أيدي، وقد تطلق اليد ويُعبّر بها عن القوة أو العطاء أو النعمة، فإن أريد بها هذا المعنى الأخير جمعت على (أيادي) وهذا من دقة العربية وإحكامها ولا عجب، ألم يجعلها الله تعالى قوالب لكلامه سبحانه: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر:٢٨].

وأنبهك هنا على شيء آخر وهو أن العبارة تستعمل فيها الكلمة فتكون من أسلوب المجاز المرسل حيناً والاستعارة حيناً والكناية حيناً آخر، كما أن هذا الاستعمال قد يكون استعمالاً حقيقياً، وإليك البيان:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة:٦] وهذا لا شك استعمالٌ حقيقيٌّ لليد.

ويقول الرسول ﷺ لأمهات المؤمنين - عليهن رضوان الله - : «أَسْرَعُكُنَّ بي لحوقاً أطْوَلُكُنَّ يداً»[1]. فهذا مجازٌ مرسل لأنه عبّر بطول اليد عن العطاء، وهي سبب فيه، فهو مجازٌ مرسل علاقته السببية.

(١) أخرجه مسلم، كتاب (فضائل الصحابة) باب (١٧) من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها حديث رقم (٢٤٥٢).

وقد يكون إطلاق اليد من باب الاستعارة، استمع في ذلك إلى قول سيدنا رسول الله ﷺ - ويا ليت المسلمين والعالم يفقهون هذا القول العظيم -: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم»(١).

وقد يكون إطلاق اليد من باب الكناية، ومنه قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٢) - كما سيمر معك في باب الكناية، فانظر إلى فخامة اللغة ولغة الفخامة واعلم أن هذا مما لا تختص به هذه اللفظة وحدها (اليد) فهو في اللغة كثير.

٤- **الكُلِّية**: وذلك حينما نستعمل الكل ونريد الجزء، قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة:١٩] وأنت تعلم أن الإصبع لا يمكن أن يُجعل كلُّه في الأذن، ولكن لما كان الغرض التمثيل لحال المنافقين بحال ذوي الصيِّب الذين تزعجهم أصوات الرعد، فلو استطاعوا أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم لفعلوا ذلك، عبّر بالإصبع وأراد الأنملة، فالعلاقة بين الإصبع، والأنملة، علاقة الجزء بالكل، وهذا ما سوّغ المجاز وحسّنه، ومن هذا القبيل قولك: (شربت ماء الفرات). وأنت إنما شربت جزءاً منه.

٥- **اعتبار ما كان**: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما كان عليه من قبل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٢]: حيث سمّى البالغين الذين آنسنا منهم رشداً (يتامى). وأنت تعلم أن اليتيم لا يجوز أن يعطى مالاً، ولكن الذي سوّغ المجاز هنا، أنهم كانوا كذلك في الماضي، ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤] وأنت تعلم أنه إنما كان مجرماً في الدنيا، ومن هذا القبيل قولك: «أكلت قمحاً»، و«شربت بُنّاً» وأنت قد أكلت الخبز، وشربت قهوة البنّ.

٦- **اعتبار ما يكون**: وهو أن يُسمّى الشيء المستعمل باسم ما يؤول إليه في المستقبل قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] وفي آية أخرى: ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب (الجهاد) باب (في السرية تُرد على أهل العسكر) حديث رقم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري، كتاب (الإيمان) باب (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ١/ ١٣ ومسلم، كتاب الإيمان باب (تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل) (١/ ٦٥).

[الحجر:٥٣]، ولا شك أن العلم، والحلم سيؤول إليهما الأمر في المستقبل، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧]، وأنت تعلم أن المولود عند ولادته لا يكون كذلك وإنما يؤول إليهما فيما بعد. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] ومن مات لا يخاطب. وقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرًاۖ﴾ [يوسف:٣٦] والمعصور إنما هو العنب الذي سيؤول إلى الخمر.

٧- الحالّية: وهي أن يكون اللفظ المستعمل حالاً في المعنى المراد، فنطلق اسم الحالّ ونريد المحلّ، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧] فالمراد من الآية الكريمة أنهم خالدون في الجنة، ولكن لما كانت الجنة محلاً للرحمة، والرحمة حالّة في الجنة، حَسُن أن يحلّ أحد المعنيين محل الآخر، أو إحدى الكلمتين محل الأخرى، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣]، وأنت تعلم أن الجنة محل للنعيم، وهو حالٌّ فيها.

ومنه قوله سبحانه: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١] والمراد اللباس، ولما كان اللباس محلاً للزينة، والزينة حالّة فيه، استعمل أحد المعنيين وأريد الآخر، ومثله قولك: «نزلتُ ببني فلان» وأنت تريد أرضهم ودارهم، ولما كانت الديار محلاً لهم، وهم حالون فيها أطلقنا إحدى الكلمتين على الأخرى.

٨- المحلية: وهو أن يكون اللفظ المستعمل محلاً والمعنى المراد حالاً فيه، قال تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق:١٧] والمراد أهل النادي الذي يحلون فيه، وقوله سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] والمراد أهلها. وتقول: «قرر المجلس كذا» والمراد المجتمعون، و«ذهبت الجامعة في رحلة علمية» والمراد من فيها، و«ملأت الكأسَ من الإبريق» وأنت تريد من الماء الذي فيه.

٩- الآلية: وهو أن تكون الكلمة المستعملة آلة لما هو مراد. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤] والمراد (بلغتهم)، واللسان - كما نعلم - آلة للغة، وقال تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، وذلك إذا كان معنى

الآية (اجعل لي ذكراً حسناً) لأن اللسان آلة له، ويمكن أن يكون سبباً فيه فتكون العلاقة سببية، وقد تفسر الآية تفسيراً آخر: وهو أن يراد بلسان الصدق الرسول ﷺ لأن الآية الكريمة وردت على لسان أبينا إبراهيم ﷺ، ومن دعائه كما جاء في كتاب الله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩] وعلى هذا التفسير يكون في الآية مجاز مرسل وعلاقته الجزئية لأن اللسان جزء من الإنسان، وصح استعمل الجزء هنا لأن عليه المعوّل فيما ذكر من أجله وهو تبليغ الدعوة[١].

١٠- المجاورة: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما يجاوره كإطلاق اسم الراوية على المزادة، والراوية هي الدابة التي تحمل المزادة، والمزادة: القِرَبُ التي يوضع فيها الماء، فيقولون: «خلت الراوية من الماء» ويريدون المزادة.

وقد ذكروا علاقات كثيرة للمجاز المرسل، وأمثلة كثيرة لكل علاقة، يظهر منها التصنع والتكلف[٢]، ومما سبق تدرك أنك إن أردت أن تعرف علاقة المجاز المرسل فانظر إلى الكلمة المستعملة، فإن كانت سبباً والمعنى المراد مسبباً فالعلاقة سببية، وإن كانت مسبباً والمعنى المراد سبباً فالعلاقة المسببية، وإن كانت كلاً والمعنى المراد جزءاً فالعلاقة كلية، وإن كانت جزءاً والمعنى المراد كلاً فالعلاقة الجزئية، ولنذكر لك الآن بعض الأمثلة على المجاز المرسل من الشعر.

أمثلة على المجاز المرسل من الشعر:

١ - قال المتنبي[٣]:

لَـــهُ أيـــادٍ عَـــلَيَّ ســـابِقَةٌ   أَعُـــدُّ مِنهَـــا ولا أُعَـــدِّدُهَا

فاليد هي التي تمنح النعم فهي سبب فيه، فالعلاقة هنا السببية.

---

(١) وتدرك من هذه الآية الكريمة أن علاقة المجاز تختلف باختلاف المعنى المراد من الكلام وسيأتيك مزيد تفصيل لهذا الكلام إن شاء الله.

(٢) راجع الإتقان للسيوطي رحمه الله، والفوائد المشوقة لابن النقيب الحنفي والذي كان يُنسب لابن القيم.

(٣) ديوانه ٤/ ٢٨.

٢- ومنه قول جرير بن عطية[١]:

إذا سَقَطَ السَّماءُ بأرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْناهُ وإنْ كانُوا غِضابا

ومن البدهي أن السماء لا تُرعى، وتلك قرينة المجاز، فالذي يُرعى هو النبات، ولما كانت السماء سبباً فيه حسنت هذه الكلمة في موضعها.

٣- وقال عنترة[٢]:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ ... لَيسَ الكَريمُ عَلَى القَنا بِمُحَرَّمِ

أي: شككت بالرمح جسمه، وإنما عبّر بالثياب لمجاورتها للقلب، فالمجاز مرسل علاقته المجاورة.

٤- قال ابن الزيّات:

ألا مَنْ رأى الطِّفْلَ المُفارِقَ أُمَّهُ ... بُعَيْدَ الكَرَى عَيْناهُ تَنْسَكِبانِ

يريد بالعينين دمعهما، لأن الدمع هو الذي يسيل فالعين محل للدموع، أطلق المحل وأراد الحالّ، فالمجاز مرسل علاقته المحلية[٣].

٥- وقال الشاعر:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولا لِقَبْرِهِ ... سَقَتْكَ الغَوادِي مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعا[٤]

أي: أَلِمَّا على قبر معن، فأطلق الحالّ في القبر وهو معن وأراد المحل، فالمجاز مُرسل علاقته الحالية.

٦- وقال معن بن أوس المزني في ابن أخته[٥]:

---

(١) العمدة ٢/٢٦٦.

(٢) ديوانه ص٢١٠ والبيت من معلقته.

(٣) ذكر صاحبا البلاغة الواضحة - رحمهما الله - أن هذا مجازٌ مرسل، والذي يبدو لنا أنه مجازٌ عقلي، إذ يقال فيه ما قيل في (سال الوادي) و(فاض الكأس)، ص١٦٦، ولكلٍّ وجهه.

(٤) الغوادي: جمع غادية: وهي السحابة تمطر غدوةً، المربع: الموضع يقام فيه زمن الربيع.

(٥) ديوانه ص٧٢.

أُعَلِّمُـــهُ الرِّمايَـــةَ كُـــلَّ يَـــوْم   فَلَـــمّا اشْـــتَدَّ ســـاعِدُهُ رَمـــانِي
وَكَـــمْ عَلَّمْتُـــهُ نَظْـــمَ القَـــوافِي   فَلَـــمَّا قـــالَ قافِيَـــةً هَجَـــانِي

عبر الشاعر في البيت الثاني عن القصيدة بالقافية، والقافية جزء من القصيدة، فأطلق هنا الجزء وهو القافية وأراد الكل وهو القصيدة، فالمجاز مرسل علاقته الجزئية[1].

٧- وقال الشاعر يصف غيثاً:

أقْبَـــلَ في المُـــسْتَنِّ مِـــنْ رَبَابِـــهِ   أسْـــنِمَةُ الآبَـــالِ في سَـــحابِهِ[2]

أسنمة: جمع سنام وهو ما علا من ظهر البعير، وأراد به الشاعر الغيث لأن الأسنمة لا تنزل من السماء إنما هي مسببة عن الغيث، فعبر عنه - الغيث - بأسنمة الآبال لأنها مسببة عن النبات، وهذا النبات مسبب عن الغيث، فالمجاز مرسل علاقته السببية.

٨- وقال السموأل[3]:

تَـــسيلُ عـــلى حَـــدِّ الظُّبـــاتِ نُفوسُـــنا   وَلَـــيْسَ عَـــلَى غَـــيرِ الظُّبـــاتِ تَـــسيلُ

يريد بالنفوس الدماء لأنها التي تسيل، ووجود النفس في الجسم سبب في وجود الدم فيه فالعلاقة السببية[4].

٩- ويقول المتنبي في ذم كافور[5]:

إنّي نَزَلْـــتُ بِكَـــذّابِينَ ضَـــيْفُهُمُ   عَـــنِ القِـــرَى وَعَـــنِ التَّرْحَـــالِ مَحْـــدُودُ

يريد أنه نزل ببلد كذابين لأن الكذابين لا يُنزل بهم وإنما بمكانهم، فالمجاز مرسل علاقته الحالية.

---

(١) وإنما صح استعمال الجزء هنا لأن القافية هي من أخطر أجزاء القصيدة.
(٢) الرباب: السحاب الأبيض، المستن: يقال: استنت العين، أي: سال دمعها، والمقصود هنا نزول الغيث من السحاب.
(٣) ديوانه، ص٥٥، الظبات: جمع ظُبَة وهي حد السيف.
(٤) وإن أردنا بالنفس الإنسان والدم جزء منه، كان مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية.
(٥) ديوان المتنبي ٢/ ١٤٢، يقول: هم كذابون، فلا هم يقرون ولا هم يتركونه يرحل عنهم، محدود: ممنوع.

١٠ - وقال الشاعر:

لا أرْكَبُ البَحْرَ إنّي أخافُ مِنْهُ المَعاطِبْ[1]
طِينٌ أنا وَهْوَ مَاءٌ والطِينُ في الماءِ ذائِبْ

يريد بالبحر السفن التي تسيرُ فيه، فأطلق المحل وأراد الحال، فالمجاز مُرسل وعلاقته المحلية، وفي البيت الثاني: قوله: «طينٌ أنا» فهو مجازٌ مُرسل علاقته اعتبارُ ما كان.

١١ - وقال ابن المعتز[2]:

قَدِ انْقَضَتْ دَولَةُ الصِّيام وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الهِلالِ بالعِيدِ

والسقم إنما يكون للأحياء، والذي أراده الشاعر ضعف الهلال، ولكن لما كان الضعف غالباً سبباً عن السقم وكان السقم سبباً في الضعف صح هذا المجاز، فهو مجاز مرسل علاقته السببية[3].

(١) المعاطب: جمع معطب وهو مكان العطب، أي: الهلاك.
(٢) ديوانه ٣/ ٨٧، الصناعتين، ١٩٤، ديوان المعاني، ١/ ٣٣٤.
(٣) وقد يكون البيت من باب الاستعارة - كما ستعرفه إن شاء الله -.

المبحث الثاني

الاستعارة

الاستعارة في اللغة من العاريَّة، وهي نقل الشيء من شخص إلى شخص، وفيها معنى الرفع والتحويل، يقال: استعار فلان من كنانته سهماً، إذا رفعه وحوله منها إلى يده، وهذا ما يرشد إليه الرسول ﷺ في الحديث النبوي الشريف: «مثلُ المنافِقِ كالشاةِ العائرة بين غَنَمَيْن»(١)، بمعنى أنها تنتقل وتتحول لا تستقر على أمر، وهذا المعنى أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]، ولقد عرفنا من قبل أن هناك صلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، ومن هنا كانت الاستعارة في الاصطلاح ناتجة عن هذا المعنى اللغوي ومنبثقة عنه. ومع كثرة التعريفات التي قيلت في الاستعارة إلا أنها تلتقي جميعاً حول معنى واحد: وهو أن الاستعارة نقل اللفظ من معناه الذي عرف به ووضع له إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل.

وإذا كانت الاستعارة بين الناس لا تكون إلا بين فئة يعرف بعضها بعضاً فليس للمستعير أن يستعير إلا ممن يعرفه وله به صلة، وإذا كانت هذه العارية تصبح من اختصاص المستعار له ولكنها لا تخرج عن ملك صاحبها، وإذا كان الشيء المستعار لا بد من أن يكون مناسباً للمستعار له، إذا كان كل ذلك صحيحاً مقبولاً فإننا نجد ذلك كله في الاستعارة الاصطلاحية. إن الذي يستعير ثوباً من غيره، لا بد أن يكون هذا الثوب مناسباً للمستعار له، فإن كان ضيقاً أو متسعاً فالاستعارة لا تفيد ولا تجدي، والاستعارة في الاصطلاح كذلك لا بد فيها من صلة بين المستعار منه والمستعار له، إذ لا يصح أن نستعير لفظاً من معنى لمعنى آخر لا صلة له به.

قيمة الاستعارة:

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاستعارة هي من أدقّ أساليب البيان تعبيراً، وأرقّها تأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى، ولا غَرْو فهي منبثقة عن التشبيه الذي

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ١٧.

حدثناك عنه من قبل، وهل هي في الأصل إلا تشبيه؟! ولكنه تشبيه مضمر في النفس، ومعنى هذا أننا لم نأت بتشبيه ما لنجعل منه استعارة، ولكننا نضمر تشبيهاً ما في أنفسنا، ونحذف أحد طرفيه فندّعي أن أحد الطرفين هو عين الآخر، فالاستعارة تشبيه حُذف أحد طرفيه، فبيئة الاستعارة الأولى التي ولدت فيها ومقوماتها الأساسية هي النفس، وهذه قضية لا بد أن تتنبه لها.

أركان الاستعارة:

لا بد لكل استعارة من أن تشتمل على أركان ثلاثة:

١- المستعار.

٢- المستعار له.

٣- المستعار منه.

ونود أن تكون على ذكر مما قررناه لك عند تعريف المجاز وعناصره الخمسة لأن ذلك يعينك على معرفة ما نريده هنا، ولكن كيف نفهم هذه الأركان الثلاثة في الاستعارة، المستعار والمستعار له والمستعار منه، لنُنعم النظر في الآية الكريمة: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، في هذه الآية الكريمة استعارات ثلاث: الظلمات، النور، الصراط، ولكل من هذه أركانها الثلاثة، وإليك البيان:

في الاستعارة الأولى؛ المستعار: كلمة (الظلمات)، والمستعار له: (الكفر) ولا بد أن تتساءل هنا فأين المستعار منه؟ وأذكرك بما قلته لك عند تعريف المجاز، بأنه لا بد فيه من كلمة ومعنيين؛ المعنى الذي وضعت له الكلمة أولاً، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً، والمستعار هنا كلمة (الظلمات)، وهل يستعار الشيء إلا من صاحبه ومالكه؟ إذن لفظة (الظلمات) لا بد أن نستعيرها من معناها الذي وضعت له، فمعنى الظلمة إذن هو المستعار منه.

وقل هذا في الاستعارة الثانية، فالمستعار: (النور)، والمستعار له: (الإيمان)، أما المستعار منه فهو المعنى الذي وضعت له كلمة (النور)، أما الاستعارة الثالثة فهي كلمة

(صراط) فالمستعار كلمة (الصراط)، والمستعار له (الإسلام)، والمستعار منه المعنى الذي وضعته العرب لكلمة (الصراط).

وعلى ضوء ما سبق يمكنك أن تستنتج أركان الاستعارة في قولنا: «عجبت من شمس تحمل بيمينها قمراً» و«رأيت أسداً يضيء المصحف قلبه»، و«عرفت بحراً يعطي بكلتا يديه»، فالمستعار في هذه الاستعارات الثلاث كلمات: (الشمس)، (الأسد)، (البحر)، أما المستعار له (فالحسناء)، و(الرجل الشجاع)، و(الجواد)، والمستعار منه هو: المعنى الذي وضعته العرب لكلمة (الشمس) وهو ذلك الجرم المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (أسد) وهو ذلك السبع المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (بحر) وهي تلك البقعة المائية من الأرض.

ويمكنك بعد هذا أن تدرك هذه القاعدة وهي أن المستعار له دائماً هو المشبه، وأن المستعار منه هو معنى المشبه به، وأن المستعار - وهو الكلمة - لفظ المشبه به، ويمكنك أن تستنتج قاعدة أخرى وهي أهمية المشبه به في الاستعارة، إذ إنه الأساس لركنين من أركانها المستعار والمستعار منه، أما المشبه فليس إلا ركناً واحداً فقط، وهو المستعار له، واحرص على هذه القاعدة لاحتياجنا لها فيما بعد.

الاستعارة مجاز لغوي أم عقلي:

حدثناك من قبل أن الاستعارة مجاز لغوي، وهذا ما يرتئيه جمهور البيانيين، ذلك لأن الاستعارة نُقل فيها المستعار من المعنى اللغوي الذي وضعته اللغة إلى معنى آخر، ويدعي بعضهم أن الاستعارة مجاز عقلي، لأننا حينما أطلقنا كلمة الأسد على الإنسان فإن العقل كان له شأن وتَدَخُّل في هذا الإطلاق، ويحتجون لقولهم هذا بأن الاستعارة لو لم تكن مجازاً عقلياً لما كان فيها ما يدعو إلى العجب، ومعنى هذا: لو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعرف أننا نقلنا كلمة من معناها اللغوي لمعنى آخر، فحينما نقول: «كلَّمت شمساً»، ونريد حسناء فليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعلم أن كلمة (الشمس) استعملت استعمالاً غير حقيقي، وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب - كما قلنا من قبل - لكننا وجدناهم يعجبون من مثل هذه الاستعارة، وليس هذا العجب إلا لأنها مجاز عقلي كان للعقل الأثر كل الأثر فيه.

واستمع إلى قول الشاعر:

قامَـــتْ تُظَلِّلُنــــي مِـــنَ الــــشَّمْسِ   نَفْـــسٌ أحَـــبُّ إليَّ مِـــن نَفْـــسي
قامَـــتْ تُظَلِّلُنــــي وَمِـــنْ عَجَـــبٍ   شَـــمْسٌ تُظَلِّلُنـــي مِـــنَ الــــشَّمْسِ

وقول الآخر:

لا تَعْجَبُـــوا مِـــن بِـــلَى غِلالَتِـــهِ   قَـــد زَرَّ أزْرارَهُ عَـــلى القَمَـــرِ

فالشاعر الأول يعجب من أن شمساً تظلله من الشمس، ولو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لعرف أن الذي يظلله إنسان بهي الطلعة، ولا داعي حين ذلك للعجب لأن من الأمور الطبيعية أن يظلل إنسانٌ إنساناً آخر من الشمس. أما الشاعر الثاني فإنه يبين لمن يخاطبهم أن لا يعجبوا من بلى غلالته، والغلالة ثوب ضيق يلي جسم الإنسان، يقول: لا تعجبوا من بلى ثوبه فإن هذا الممدوح قد زرّ أزراره على القمر، ولو كان القمر استعارة لغوية، أي: إنسان بهي الطلعة ما كان ليبلى الثوب الذي يلبسه لأول مرة، إنما يبلى الكتان - كما يقولون - إذا لامس القمر الحقيقي. أما عند ملامسة جسم الإنسان فلا، وأنت خبير بأن قضية التعجب التي استدل بها هؤلاء لا يتم لهم بها دليل، ذلك لأن المقصود المبالغة، وتزيين الصورة بما يجلب الانتباه ويثير المشاعر، وهذا لا يتنافى مع كون الاستعارة مجازاً لغوياً.

وكلام الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - في دلائل الإعجاز يفهم منه هذا الرأي، إلا أنه استقر في كتاب أسرار البلاغة على أنها مجاز لغوي. وهو ما نرجحه ونميل إليه.

قرينة الاستعارة:

والاستعارة كأي نوع من أنواع المجاز لا بد لها من قرينة، وهذه القرينة قد تكون أمراً لفظياً، وذلك كالقول السابق:

شـــمس تظللنـــي مـــن الـــشمس

وقد تكون أمراً معنوياً يُفهم من السياق، وسيمر بك كثير من الأمثلة لكلا النوعين.

الجامع في الاستعارة:

لا ريب أنك تذكر وجه الشبه أحد أركان التشبيه، ولما كان الشأن في الاستعارة تشبيهاً مضمراً في النفس حذف أحد طرفيه كما عرفت، فلا بد أن يكون بينها وبين التشبيه نوع مماثلة، ووجه الشبه في التشبيه هو المعنى الذي أُلحق من أجله المشبه بالمشبه به، ولكننا في الاستعارة نسميه اسماً آخر، نسميه (جامعاً) وهو ما أطلقنا عليه اسم (علاقة) حينما تحدثنا عن المجاز وأقسامه:

بعد هذا تتبين أن الاستعارة لا بد فيها من الأمور التالية:

١- المستعار والمستعار له والمستعار منه وهذه أركان الاستعارة.

٢- القرينة: لفظية كانت أم معنوية ملفوظاً بها أم مدركة من السياق.

٣- الجامع: وهو الجهة التي يشترك فيها المستعار منه والمستعار له.

أقسام الاستعارة:

وإذا كنا قد قسمنا التشبيه من قبل باعتبارات مختلفة فإن للاستعارة تقسيمات كذلك باعتبارات متعددة، وسنحاول إن شاء الله أن نُلِمَّ لك بأخطرها شأناً، وأكثرها فائدة.

فمن حيث الطرفان تنقسم الاستعارة أقساماً متعددة:

أ- لأن الطرفين إما أن يكونا حسيين، أو عقلين، أو أحدهما حسياً والآخر عقلياً، وتبعاً لذلك قد يكون الجامع حسياً أو عقلياً كذلك.

ب- ومن حيث لفظهما قد يكونان: مشتقين، أو غير مشتقين.

ج- ومن حيث ذكرهما وعدمه فقد يذكر المستعار تارة، وقد يذكر المستعار له تارة أخرى.

د- وقد يكونان مفردين، أو مركبين.

هـ- وقد يمكن اجتماعهما في شيء واحد أو لا يجتمعان.

و- وقد يذكر معهما ما يلائم المستعار له، أو المستعار منه، أو لا يذكر ما يلائم هذا ولا ذاك.

ومن حيث الجامع قد يكون الجامع أمراً قريباً مبتذلاً وقد يكون أمراً خاصاً يحتاج إدراكه إلى تأمل. تلك هي حيثيات التقسيم وإليك بيانها شرحاً وتفصيلاً.

التقسيم الأول للاستعارة:

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين من حيث إدراكهما بالحس أو بالعقل إلى الأقسام الآتية:

أولاً: استعارة محسوس لمحسوس: إذا كان طرفاها محسوسين والجامع قد يكون حسياً أو عقلياً.

ثانياً: استعارة معقول لمعقول: إذا كان الطرفان عقلين ولا يكون الجامع إلا عقلياً.

ثالثاً: استعارة محسوس لمعقول: وهذا إذا كان المستعار حسياً والمستعار له عقلياً.

رابعاً: استعارة معقول لمحسوس: وذلك إذا كان المستعار عقلياً والمستعار له حسياً. وإليك بيان ذلك:

أولاً: استعارة المحسوس للمحسوس:

ونمثل لها:

١- بقوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩] فالمستعار الموج، والمستعار له اضطراب يأجوج ومأجوج، وهما حسيان لأن كلاً من موج الماء واضطراب القوم يدرك بالحس والجامع بينهما وهو الحركة أمر حسي كذلك.

٢- ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤] فالمستعار الاشتعال، والمستعار منه النار، والمستعار له انتشار الشيب في الرأس، وكل من المستعار له والمستعار منه أمر محسوس والجامع كذلك وهو الظهور.

٣- قوله سبحانه: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨] فالمستعار التنفس، والمستعار له الإشراق، وكلاهما محسوس، وكذلك الجامع.

٤- ومن استعارة المحسوس للمحسوس قوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:٣٧]، فالمستعار السلخ، وهو كشط الجلد، والمستعار له هو ذهاب النهار عن الليل بدليل قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، والجامع عقلي لأنه تَرَتُّبُ شيء على شيء.

٥- ومنه قوله سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١] فالمستعار العقم: وهو صفة المرأة التي لا تلد، والمستعار منه المرأة، والمستعار له الريح التي ليس فيها غيث، والجامع عقلي وهو عدم النفع.

٦- ومن هذا قوله سبحانه: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٥]، فالمستعار قوله حصيداً، والمستعار منه الزرع لأنه هو الذي يحصد، والمستعار له المعذَّبون وكلها أمور محسوسة، والجامع: (الهلاك) وهو أمر عقلي.

٧- ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول المرار بن منقذ(١):

تَهْلِكُ المِدْراةُ في أفْنانِهِ ... فإذا ما أرْسَلَتْهُ يَنْعَفِرُ

والمدراة هو المشط. والمستعار الأفنان، وهي الأغصان - كما تعلم - ، والمستعار له الشعر، وهما أمران محسوسان، وكذلك الجامع: وهو الطول والنعومة.

٨- ومنه قول المسيب بن علس(٢):

وإنَّهُمُ قَدْ دُعُوا دَعْوَةً ... سَيَتْبَعُها ذَنَبٌ أهْلَبُ

والذنَبُ الأهلب: كثير الشعر، وقد استعير للجيش الجرار وكلاهما محسوس.

٩- ومنه قول بشامة بن عمرو(٣):

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةً ... تَرى لِلْقَواضِبِ فيها صَليلاً

(١) المفضليات، ص٩٠ قصيدة رقم ١٦.
(٢) الصناعتين، ص٢١٨.
(٣) المفضليات، ص٥٩، قصيدة رقم ١٠، نسج داود: يريد الدروع، موضونةً، أي: نُسجت حلقتين حلقتين (مضاعفة)، القواضب: السيوف القاطعة، الصليل: الصوت على الشيء اليابس.

حيث استعار نسج الخيوط لسرد الدروع وكلاهما محسوس.

١٠- ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول المتنبي[١]:

فِي الخَدِّ أنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلاً ... مَطَرٌ تزيدُ بِهِ الخُدودُ مُحُولا

فالمستعار المطر، والمستعار له الدمع وكلاهما محسوس.

١١- ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول الحجاج: «وإن أمير المؤمنين نثر كنانته وعَجَمَ عيدانَها فوجدني أصلبَها عوداً فرماكم بي»، فالمستعار السهام، والمستعار له الرجال، وكلاهما محسوس.

١٢- ومن استعارة المحسوس للمحسوس: قول مسكين الدرامي[٢]:

لِحَافِي لِحَافُ الضَّيْفِ وَالبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

أُحَدِّثُهُ إنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَى ... وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

فالمستعار الغزال، والمستعار له المرأة الجميلة، وكلاهما محسوس، وأمثلة هذا النوع كثيرة. ونرجو أن يكون فيما ذكرناه غُنْيَةٌ لك.

ثانياً: استعارة المعقول للمعقول:

ونمثل لها بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف:١٥٤]، فالمستعار السكوت، والمستعار له الزوال والذهاب، وكلاهما معقول لا يدرك بالحس. ومنه قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس:٥٢]، فالمستعار الرقاد، والمستعار له الموت، وكل من الرقاد والموت لا يدرك بالحس. وفي الآية وجه آخر نحدثك عنه فيما بعد إن شاء الله، ومنه قوله سبحانه في وصف جهنم: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ﴾ [الملك:٨]، فالمستعار الغيظ، والمستعار له حالة النار، في انتقامها من العصاة وكلاهما أمر

---

(١) ديوانه، ج٣، ص٣٤٩، أنْ عزم، أي: لأجل أن عزم، والخليط الذي يخالطك ويعاشرك والمراد به الحبيب، والخليط أيضاً القوم الذين أمرهم واحد، ومحول الخد: شحوبها وتحدر لحمها وذهاب نضرتها، والمطر من شأنه أن تخصب به البلاد ويخضر العشب.

(٢) ديوانه، ص٥١.

معقول، ومنه قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [البقرة:١٦]، فالمستعار الاشتراء والمستعار له الاستبدال وكلاهما معقول. ومنه قول عمرو بن كلثوم(١):

ألاَ أبْلِـــغ الـــنُّعْمانَ عَنِّـــي رِسَـــالَةً فَمَجْــدُكَ حَــوْلِيٌّ وَلُؤْمُـــكَ قـــارِحُ

يريد أن يقول: إن مجده حادث وإن لؤمه قديم، أي: أن مجده عارض ولكنه أصيل في اللؤم، والحوليُّ ما مر عليه حول، فالمستعار الحول، والمستعار له حدوث المجد وكلاهما معقول، ومنه قول الخنساء(٢):

وَقَــدْ جَعَلَــتْ في نَفْــسِهَا أنْ تَخافَــهُ وَلَـيْسَ لَهَـا مِنْـهُ سَـلامٌ ولا حَـرْبُ

فالسلام والحرب مستعاران لحالتي الصفاء والغضب وكلها من الأمور المعقولة.

ثالثاً: استعارة المحسوس للمعقول:

وأما استعارة المحسوس للمعقول، فمثل قوله سبحانه: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة:٢١٤]، فالمستعار (الزلزلة)، وهي أمر محسوس، والمستعار له (الضيق والحرج) الذي يلقاه الأنبياء والمؤمنون وهو أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٢]، فإن المستعار وهو (الحبل) محسوس، والمستعار له وهو (المعونة) معقول، والآية الكريمة نزلت في اليهود، وهي تصوير دقيق لواقعهم مع المسلمين هذه الأيام، فاليهود ضربت عليهم الذلة دائماً؛ أي: أحاطت بهم، وهذا واقعهم على مدى التاريخ كله، ولكنهم قد يجدون متنفساً لهم بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس، ونلحظ هنا أنه قدم حبل الله على حبل الناس - وهناك ملحوظةٌ أخرى وهي أن العطف كان بالواو، أي: حبل من الله (و) حبل من الناس، ولم يكن (أو) فلم يقل: «أو حبل من الناس» - وقد يتساءل القراء: قد يجد اليهود الحبل من الناس كما هو شأنهم مع أمريكا وغيرها، فكيف يجدون حبل

---

(١) البديع، ابن المعتز، ص٣١، الصناعتين، الطبعة الأولى، ص٢١٩. حولي: ما أتى عليه حول، والقارح من الإبل: ما أتى عليه خمس سنين، أي: أن لؤمه قديم ومتأصل.

(٢) ديوان الخنساء، طبعة بيروت، ١٩٦٣، ص٩.

الله؟! والجواب كما يظهر لي - والله أعلم -: أن حبل الله لا يكون لهم من أجلهم؛ ولكن إنما يكون تأديباً للمسلمين، فما دام المسلمون غير ملتزمين بشرع الله فإن الله يعاقبهم بمد الحبل لليهود، وحينما يرجع المسلمون إلى تحكيم شرع الله ويتحقق قول الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهوديٌّ خلفي فتعالَ فاقتله. إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»[1]، فهناك يفقدُ اليهودُ حبل الله وبفقدهم حبل الله يفقدون حبل الناس كذلك، ويتحقق قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧].

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧]، فالنبذ وهو طرح الشيء أمر محسوس، وهو المستعار، والمستعار له: الترك والإعراض وهو شيء معقول ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨]، فإن الخوض: وهو الحركة في الماء أمرٌ محسوس - وهو المستعار - والمستعار له وهو الهزء بالآيات أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦]، والعوج: هو في الأمور المادية أمر محسوس - وهو المستعار - ، والمستعار له وهو الانحراف عن الحق والتبديل والتغيير أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:١٠٩]، فالمستعار البنيان وهو أمر محسوس، والمستعار له الاعتقاد وهو أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] فالصدع وهو شق الأشياء الصلبة أمر محسوس وهو المستعار، والمستعار له: التبليغ وهو شيء معقول.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء).

ومنه قوله سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨]، فالقذف وهو: الإلقاء بشدة، والدمغ وأصله: كسر الدماغ أمران محسوسان، وكل منهما مستعار، والمستعار له علوُّ الحق، وذهاب الباطل وهما معقولان. ومنه قوله سبحانه: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١]، فالظلمات والنور كلاهما مستعار وهما محسوسان، والمستعار له الإيمان والكفر معقولان. كذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، فالصراط مستعار وهو محسوس لأنه الطريق، والمستعار له الإسلام وهو معقول، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ...﴾ [طه:١٣١]، فالمستعار وهو مد العين محسوس، والمستعار له وهو الانشغال في الدنيا والرغبة فيها معقول. وكذلك قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٥]، فالمستعار وهو الوادي محسوس، والمستعار له وهي المعاني التي يسلكها الشاعر والأغراض التي يعالجها الشعراء عادة أمر معقول.

ومنه قوله ﷺ : «الإيمان بِضعٌ وستون شعبة»[١] فالمستعار وهو الشعبة محسوس، والمستعار له خصال الإيمان وهي معقولة، كذلك قوله ﷺ : «بُنِيَ الإسلامُ على خمس»[٢] فالمستعار البيت ذو الدعائم وهو محسوس، والمستعار له أركان الإسلام وهو أمر معقول. وهذا غيض من فيض، وأظنك تتساءل عن سبب كثرة هذا النوع؟ وإذا رجعت إلى ما قررناه لك من قبل حينما حدثناك عن التشبيه ومقدمات الاستعارة تدرك السر لكثرة هذا النوع من الاستعارة.

فقد عرفت عند الحديث عن التشبيه أنه يكثر فيه تشبيه المعقول بالمحسوس لأن المحسوس أقرب للنفس وأسبق للحس، وقد عرفت حينما حدثناك عن الاستعارة، أن المستعار له هو المشبه دائماً، وهذا ما تجده هنا في هذا النوع، أعني استعارة المحسوس

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب (أمور الإيمان)، ١/ ٢١، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب (بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان)، ١/ ٦٣.

(٢) رواه البخاري كتاب (الإيمان)، باب (الإيمان وقول النبي ﷺ : بني الإسلام على خمس) ١/ ١٢، ورواه مسلم كتاب (الإيمان) باب (بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام) ١/ ٤٥.

للمعقول، فالمستعار - كما رأيت - محسوس، والمستعار له معقول، وقد عرفت أن المستعار له هو المشبه، والمستعار هو المشبه به، ففي قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١] الذي مر من قبل رأيت أن كلاً من الظلمات والنور مستعار والكفر والإيمان مستعار له. ولو أردنا أن ننشئ تشبيهاً لشبهنا الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، وهو تشبيه معقول بمحسوس - كما ترى - .

وهو في الشعر كثير - كذلك - ومنه بيت الحماسة[١].

قَـوْمٌ إذا الـشَّرُّ أبْـدَى ناجِذَيْـهِ لَهُـمْ ... طَـارُوا إلَيْـهِ زُرَافـاتٍ وَوُحْـدانا

فالمستعار السبع ذو المخالب وهو محسوس، والمستعار له العدوان وهو معقول. ومنه قول الآخر:

صَرَمَـتْ حِبالَـكَ بَعْـدَ وَصْـلِكَ زَيْنَـبُ ... وَالـدَّهْرُ فيـهِ تَـصَرُّمٌ وَتَقَلُّـبُ

فالمستعار الحبل وهو محسوس، والمستعار له العهد وهو معقول، ومنه قول عمرو بن كلثوم[٢]:

وَقَـدْ هَـرَّتْ كِـلابُ الجِـنِّ مِنّـا ... وَشَـذَّبْنا قَتَـادَةَ مَـنْ يَلينـا

والقتادة شجر القتاد، والتشذيب قطع أغصانها وشوكها، فالمستعار القتادة وهي شجرة محسوسة، والمستعار له القوة والشوكة، أي: أضعفنا قوة وشوكة من يقرب منا وينازعنا. ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخراً[٣]:

فَقَـدْ خَـلَّى أبـو أوْفَى خِـلالاً ... عَـليَّ فكُلُّهـا دَخَلَـتْ شِـعابي

فالمستعار هو شعاب الشجرة وهي محسوسة، والمستعار له جوانب النفس وهي معقولة.

---

(١) ديوان الحماسة، ١/ ٢٣٠.

(٢) المعلقات ص١٢٣. هرَّت: كرهت، كأنه يقول: رهبتنا كلابُ الجن لما نفعل بالإنس، وفي رواية: (كلاب الحي) أي شعراؤه.

(٣) المفضليات، قصيدة ١٥٣، ص٤٨.

رابعاً: استعارة معقول لمحسوس:

وهو لا شك أقل من سابقه لأن تشبيه المحسوس بالمعقول لا يكون إلا نادراً، وذلك إذا كان المعقول من الظهور بحيث جعله أصلاً نشبه به المحسوس، ومثاله من كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، فالطغيان أمر معقول لأنه صفة للإنسان يعني تكبره وخروجه عن حد الاعتدال، وهو المستعار، والمستعار له ارتفاع الماء وعلوه وهو محسوس[1] ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، فالعتو مستعار، وهو أمر معقول، والمستعار له شدة الريح، وهو أمر محسوس، وكذلك قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤]، فالمستعار الأوزار وهو معقول والمستعار له آلات الحرب وهي محسوسة، وكذلك قول ميمون بن قيس:

وأعْـــدَدْتُ لِلْحَـــرْبِ أوْزارَهـــا ... رِمَاحـــاً طِـــوَالاً وَخَـــيْلاً ذُكُـــوراً

التقسيم الثاني للاستعارة:

تنقسم الاستعارة من حيث الطرفان - كذلك - إلى عنادية ووفاقية، ذلك لأن الطرفين أعني المستعار والمستعار له إن أمكن التقاؤهما فالاستعارة وفاقية، خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، والمقصود أومن كان كافراً ضالاً فهديناه، المستعار الإحياء والمستعار له الهداية والإيمان، تُرى أيمكن أن تجتمع الحياة مع الإيمان أم لا؟ أليس من الممكن أن يجتمع هذان الوصفان في شخص واحد؟ إن ذلك ما لا ينكره أحد، إذن هذه الاستعارة وفاقية.

وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]، وقد عرفت أن المستعار الاشتراء والمستعار له الاستبدال، ألا يمكن أن يجتمع المستعار والمستعار له معاً؟ بلى، إن ذلك ممكن، فقد يكون الشخص مشترياً ومستبدلاً.

أما الاستعارة العنادية فهي التي لا يمكن أن يجتمع فيها طرفاها معاً، ونمثل له بقوله سبحانه في الآية السابقة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقد عرفت أن

---

(١) سيأتي لهذا مزيد تفصيل عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن إن شاء الله.

في قوله: (أحييناه) استعارة وفاقية، بقيت في الآية استعارة أخرى لم نتحدث عنها، وهي في قوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ وهو مستعار والمستعار له (الضلال) والموت والضلال لا يجتمعان لأن الضلالة وصفٌ للشخص في حال حياته، أما إذا وصفناه بالضلال بعد موته فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

ومن الاستعارة العنادية حديثك عن الشيء بضد ما تذكر، أي أن تذكر شيئاً ولكنك تريد ضدّه، وهذا قد يكون على سبيل التَّمَلُّح، أي: التفكُّه والتندُّر، كأن تقول: «رأيت شمساً» وتريد زنجية سوداء، و«رأيت حاتماً» وتريد بخيلاً، و «رأيت أسداً» وتريد جباناً، وقد يكون على سبيل التهكم كما في قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٧]، وأنت تعلم أن البشارة إنما تكون في الخير، وكقوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]، والمراد ما هو ضد هذين الوصفين، وما ذكره سبحانه عن قوم شعيب وقولهم له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، وقوله سبحانه: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]، فقوله تعالى: ﴿إِيمَانُكُمْ﴾ تهكم بهم، وقد كثرت هذه الاستعارة في الشعر العربي. يقول الدكتور أحمد الصاوي.

«وفي إطار التهكم ذهب الشعراء الجاهليون كل مذهب في تصوير ما نزل بساحة الأعداء من قتل صاروا بعده جزراً للضباع والسباع وجوارح الطير، وما ألقي في قلوبهم من رعب ففروا هاربين، ولكي يصور الشعراء الجاهليون ما كان قومهم يفعلونه بأعدائهم وهم يُصْلُونهم نيران هذه الحروب الحامية الضارية راحوا يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام يذيقونه إياها مرة في أكثر الأحيان، ومشفوعة بما يخصصها بلون من ألوان النكال كأن تكون كالنار أو مملوءةً بالسم الناقع أو مكروهة الجرعات.

هم وإن لم يذكروا الكأس مستعارةً يذكرون التصبيح، أي: تشبيه غارة الصباح بخمرة الصباح على سبيل الاستعارة التصريحية الساخرة، وإذا تركوا هذا أو ذاك فكثيراً ما شبهوا العدوَّ المغير بالضيف، وعبروا عن التنكيل به بالقِرى تهكماً، وفي بعض الأحيان يقرنون بين الصورتين، صورة التصبيح والقرى في أبيات متعاقبة.

وهذا ولم يقتصر أمر التهكم على هذه الصورة بعينها، وإنما تراهم يستخدمون بجانب ذلك استعارة التشذيب والمعانقة تهكماً بعدوهم في أوقات الالتحام به في ساحات المعارك، وجدير بالذكر أن هذه الصور التهكمية جميعها وردت في شعر الحرب، وكأن هذا النوع من الشعر أمدُّ ميداناً، وأحسن جرياناً لهذا النوع من الصور لدقة المناسبة، وضرورة الفخر، ثم إنني رأيت مجال التهكم يكاد يكون منحصراً في هذه الصورة التي ذكرت»[١].

«... يستعير عمرو بن كلثوم القِرى في أبيات يفخر بها على بكر فيقول متهكماً[٢]:

نَـــزَلْتُمْ مَنْـــزِلَ الأضْـــيافِ مِنَّـــا فأعْجَلْنـــا القِـــرَى أنْ تَـــشْتِمُونا

قَرَيْنـــاكُمْ فَعَجَّلْنـــا قِـــراكُمْ قُبَيْـــلَ الـــصُّبْحِ مِـــرْداةً طَحُونـــا

فقد جعل تعرضهم لمعاداتهم أو لعداوتهم مثلما يتعرض الضيف للقرى، فيجعل تقتيلهم بمثابة التعجيل بتقديم القرى للضيف كراهة شتمهم إن تأخر القرى عنهم. ويقول المعقر البارقي حليف بني عامر في يوم (شعب جبلة) لعامر وعبس على ذبيان وتميم[٣]:

وَقَــدْ زَحَفَــتْ دُودانُ تَبْغِــي لِثَأْرِهــا وجاشَــتْ تَمِــيمٌ كــالفُحولِ تُخــاطِرُ

فَبــاتُوا لَنَــا ضَــيْفاً وبِتْنــا بِنِعْمَــةٍ لَنَــا مُــسْمِعاتٌ بِالــدُّفُوفِ وزامِــرُ

فَلَــمْ نُقِــرْهِمْ شــيئاً ولكــنْ قِــراهُمُ صَــبُوحٌ لَــدَينا مَطْلَــعَ الــشَّمْسِ حــازِرُ

وَصَــبَّحَهُمْ عِنْــدَ الــشُّرُوقِ كتائِــبٌ كأرْكــانِ سَــلْمى سَــيْرُها مُتَــواتِرُ

والاستعارة التهكمية في الأبيات غاية في الطرافة والجمال، ذلك لأن الشاعر جمع بين الضيافة والصَّبوح فقد بات العدو في ضيافة القوم من بني عامر وعبس وكان لا بد من تقديم القِرى له، وما كان قراه عند مطلع الشمس سوى صبوح كتائب الحرب والفتك، التي ذاقوا منها الوبال والتنكيل، في الوقت الذي فيه بنو عامر ينعمون بسماع الغناء،

---

(١) فن الاستعارة، ص٥٩.

(٢) شرح المعلقات للزوزني، ص١٢٤-١٢٥، والمرداة: الصخرة التي تُكسر بها الصخور.

(٣) العقد الفريد ٥/ ١٤٤، الصبوح: ما يشربُ في الصباح، حازر: الحامض من اللبن أو النبيذ، أركان جمع ركن وهو الجانب القوي، وسلمى جبل لطيئ شرقي المدينة.

ويطربون لضرب الدفوف، وهذه الصورة تنضم إلى الصورة الاستعارية لتبلغ بالمعنى أقصى حد من التهكم والسخرية الصادرة في الأساس عن انفعال قوي عميق»[1].

التقسيم الثالث: الاستعارة التصريحية والمكنية:

١ - الاستعارة التصريحية:

عرفت من قبل أن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه، وقد عرفت أن طرفي التشبيه هما المشبه والمشبه به، فالطرف المحذوف إذن تارة يكون المشبه وتارة يكون المشبه به. خذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] والصراط هو الطريق - كما عرفت من قبل - فقد شبه الدين بالصراط بجامع التوصيل إلى الهدف في كل منهما، وحذف المشبه وهو الإسلام وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١] فقد شبه الكفر بالظلمات. والإيمان بالنور وحذف المشبه، وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قول المتنبي[2]:

تَعَرَّضَ لِي السَّحابُ وَقَدْ قَفَلْنا   فَقُلْتُ إليْكَ إنَّ مَعِيْ السَّحابا

فقد ذكرت كلمة السحاب مرتين: المرة الأولى في الشطر الأول ويعني به السحاب الحقيقي، والمرة الثانية في الشطر الثاني ويعني به الممدوح الكريم، والقرينة التي تدل على ذلك كلمة (معي)، لأنه لا يعقل أن يكون معه السحاب الحقيقي، واستمع إلى قول المتنبي[3]:

ولَمْ أرَ مِثْلي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ   ولا رَجُلاً قامَتْ تُعانِقُهُ الأُسْدُ

---

(١) فن الاستعارة، ص٦٣-٦٤.

(٢) ديوان المتنبي ج١، ص٢٧٣، قفلنا: رجعنا، وإليك: بمعنى اكفف، يأمر السحاب بأن ينظر إلى الأمير يرجو مطره، كما ترجو الناس من السحاب مبالغة في جود الأمير حتى صار السحاب مفتقراً إلى سقياه.

(٣) ديوانه، ج٢، ص٩٧.

فكل من كلمتي (البدر) و(الأسد) مشبه به في الأصل وقد حذف المشبه، وقرينة ذلك كلمة (مشى) في الشطر الأول، و(تعانقه) في الشطر الثاني لأن البدر لا يمشي، ولأن الأُسْد لا تعانق.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ [النساء:٢٥] وأصل العنت: كسرُ العظم، وأريد به في الآية الكريمة المشقة التي يجدها الإنسان في مكابدة شهوته، كما يدلَ عليه سياق الآية بجامع الإيلام في كل منهما، فقد شبهت المشقة بكسر العظم، وحذف المشبه، واستمع إلى قول الشاعر[١]:

فـأمْطَرَت لُؤْلُـؤاً مِـنْ نَـرْجِسٍ وَسَـقَتْ وَرْداً وَعَـضّتْ عـلى العُنـابِ بـالبَرَدِ

ففي البيت خمس استعارات، فقد شبه الدمع باللؤلؤ، والعيون بالنرجس، والخدود بالورد، والأصابع بالعناب، والأسنان بالبرد.

ومن بديع الاستعارة قول امرئ القيس[٢]:

وَقَـدْ أغْتَـدِي والطَّـيْرُ في وُكُناتِهـا بمُنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوَابِـدِ هَيْكَـلِ

لما كان فرسه سريعاً يمنع الصيد من الفرار وصفه بأنه قيد، والقيد هو ما يوضع في الرِّجْل من الحديد؛ فيمنع المقيد من الحركة، ومن هنا كان لطف الاستعارة، فالفرس في الحقيقة مانع للصيد من الفرار، ولكن امرأ القيس تناسى كلمة مانع وعبّر بالقيد لأن القيد أقوى من المنع لأنه يحول بين المقيّد وبين الحركة.

في الأمثلة المتقدمة جميعها استعارات حذف منها أحد طرفي التشبيه، وقد رأيت أن الطرف المحذوف هو المشبه والمذكور هو المشبه به. كل استعارة من هذا القبيل حذف منها المشبه، وذكر المشبه به تسمى تصريحية؛ لأنه صرح فيها بلفظ المشبه به.

---

(١) وهو الوأواء الدمشقي.

(٢) ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٩، ٤٦. الوكنات: أعشاش الطير، المنجرد: الفرس القصير الشعر، ويقال: إنه المنسلخ الماضي عند السباق، الأوابد: الوحش، الهيكل: الفرس الضخم، والمعنى أنه يخرج مبكراً - قبل خروج الطير من أعشاشها - بفرسه السريع الضخم الذي يمنع الصيد من الفرار.

٢- الاستعارة المكنية:

ولعلك تتوق نفسك إلى معرفة الاستعارة المكنية وهي التي حذف منها المشبه به وذكر المشبه، ونبدؤك بقول الله تبارك وتعالى يوصي الإنسان خيراً بوالديه: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] وبقوله سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل:٩١-٩٢]، ولنقف مع هاتين الآيتين.

كلمة (النقض) استعملت مرتين؛ مرة بجانب الغزل وهو ما يغزل من الصوف أو ما يشبهه، ومرة بجانب الأيمان، وأنت تعلم أن النقض يستعمل حقيقة للأشياء المادية فهو في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ استعمل فيما وضع له، لأنه وضع في تفريق الأشياء المادية، ولكن استعمالها في الآية الأولى ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ استعمال مجازي لأن الأيمان ليست شيئاً مادياً - كما تعلم - ولكن: أين الاستعارة في الآية الكريمة؟

إننا ونحن ننعم النظر في الآية الكريمة نجد أن الأيمان قد شبهت بالحبال بجامع (الربط) في كل منهما، ثم حذف المشبه به وهو (الحبال) وبقي المشبه وهو (الأيمان)، وقد رمزنا له بشيء من لوازمه، أي: أبقينا له صفة تدل عليه، وهي النقض لأن النقض في الحقيقة من لوازم الحبال فهي التي تنقض.

أما الآية الأولى فقد أمر الله الأبناء أن يذِلوا للآباء، وقد شبه الذل بالطائر وحذف المشبه به ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الجناح، وهناك وجه آخر في الآية الكريمة وهو أن يشبه الجانب بالجناح فتكون الاستعارة تصريحية، وسنزيدك حديثاً عنها فيما بعد إن شاء الله.

واستمع إلى قول النبي ﷺ : «بُني الإسلام على خمس»[1] ولعلك تدرك بلا عناء ولا صعوبة أن هذه استعارة، فقد شبه الإسلام بالبيت، فكما أن للبيت أركاناً ودعائم يقوم

---

(١) تقدم تخريجه ص١٩٧.

عليها، فكذلك الإسلام، ولكن حُذف المشبه به وهو البيت، وأبقينا له شيئاً من صفاته الجوهرية، أي: رمزنا له بشيء من لوازمه وهو البناء؛ لأن البناء من لوازم البيت. واستمع كذلك إلى قول النبي ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[1] والشعبة شيء مادي كشعاب الجبال وشعاب الشجر، ففي الحديث الشريف تشبيه الإيمان وقد تعددت أصوله وقضاياه بالشجرة ذات الشعاب والفروع الكثيرة وحُذف المشبه به وهو الشجرة، ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الشعبة.

واستمع إلى قول الشاعر[2]:

وإذا المَنِيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفارَها ... ألْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

وأظنك تدرك الآن على ضوء ما تقدم لك من الآيات والأحاديث السابقة أن الشاعر أراد تشبيه المنية بالسّبع الذي لا يفرق عند افتراسه بين الناس، وكذلك المنية، وقد حذف المشبه به وهو السبع ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأظفار. واستمع إلى قول ابن المعتز[3]:

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ ... وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الهِلالِ بالعيدِ[4]

يَتْلُو الثُّرَيَّا كفاغِرٍ شَرِهٍ ... يَفْتَحُ فاهُ لأكْلِ عُنْقُودِ

فقد أضاف الدولة للصيام، والدولة في الحقيقة تكون لذوي السلطان من الناس، فقد شَبّه الصيام بصاحب الدولة بجامع النفوذ في كل وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الدولة.

ويقيني - بعد ذلك - أنك تتساءل عن سرّ الفرق بين النوعين، فالاستعارة التصريحية ذكر فيها المشبه به ولم يشر إلى المشبه بشيء. أما المكنية فقد حذف منها المشبه به

(١) رواه مسلم كتاب (الإيمان) باب (بيان عدد شعب الإيمان...)، ١/ ٦٣.

(٢) وهو أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ١/ ٨٠.

(٣) ديوانه، ٣/ ٨٧، الصناعتين، ١٩٤.

(٤) وفي البيت مجاز آخر في قوله: (سقم الهلال) وقد حدثناك من قبل أنه مجاز مرسل علاقته السببية ولا مانع من أن تجعله استعارة مكنية كذلك فتشبه الهلال بالإنسان وتحذف المشبه به وترمز له بشيء من لوازمه وهو السقم.

ولكنه رمز له بشيء من لوازمه، ولكي يسهل الجواب عليك وييسر لك أمره، فإني أذكرك بما قررته لك من قبل عندما حدثتك عن أركان الاستعارة، فلقد بينت لك أن للاستعارة أركاناً ثلاثة: المستعار له وهو المشبه، والمستعار والمستعار منه وهما لفظ المشبه به ومعناه.

المشبه به يشتمل على ركنين من أركان الاستعارة، إذن هو العنصر الرئيس، لذلك لا بد من فرق بينهما؛ لأن طبيعة كل منهما تختلف عن الآخر في الاستعارة، حذف المشبه يذهب بركن واحدٍ من أركانها فقط، وحذف المشبه به يذهب بركنين اثنين، كان لا بد إذن من أن نرمز بشيء من لوازمه وإلا فُقدت الاستعارة من الكلام، فلو حذفنا كلمة (جناح) وكلمة (نقض) من الآيتين الكريمتين، وكلمتي (بُنِيَ) و(شُعْبة) من الحديثين الشريفين وكلمة (دولة) وكلمة (أظفار) من البيتين السابقين، لزالت الاستعارة ولأصبح الكلام من أسلوب آخر غير أسلوب الاستعارة، فلو قيل: «كن ذليلاً لوالديك»، و«الإيمان بضع وستون قولاً وعملاً»، و«لا تحنثوا في أيْمانكم»، و«ذهب أثر الصيام»، و«الموت لا يفرق بين الناس». لم يكن ذلك من الاستعارة في شيء، ولكن هذا الأثر الذي أبقيناه للمشبه به هو الذي دلّنا عليه.

بقيت في الاستعارة المكنية قضية خطيرة ذات شأن وأثر، وهي أن هذا الرمز للمشبه به، قد أضفناه أو أسندناه إلى المشبه، فالنقض الذي هو من لوازم الحبال أسندناه للأيْمان مع أن الأيمان لا توصف على الحقيقة بالنقض، والأظفار التي هي من لوازم السباع أسندناها للمنية، والمنية لا أظفار لها - كما تعلم - والجناح الذي هو من جوهريات الطير أضفناه للذل ومن البدهي أن الذل لا أجنحة له، والدولة التي هي من لوازم ذي السلطان أضفناها للصيام وهو معنىً من المعاني، والشعبة التي أسندناها للإيمان هي شيء مادي والإيمان ليس كذلك، والبناء الذي أسندناه للإسلام من لوازم البيت، لأنه شيء مادي وليس الإسلام كذلك.

هذه العملية الفنية الرائعة، وهي إضافة أو إسناد أحد لوازم المشبه به إلى المشبه تسمى استعارة تخييلية، فلقد تخيلنا أن للمنية أظفاراً، وأن للإيمان شعباً، وأن للأيْمان نقضاً، وهكذا الأمثلة جميعها.

نستطيع أن ندرك بعد هذا أن كل استعارة مكنية لا بد أن تشتمل على استعارة تخييلية مكنية، هي مكنية لأنها حذف منها المشبه به، وهي تخييلية لأننا أضفنا أو أسندنا ما هو من لوازم المشبه به إلى المشبه - ففي قول النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»[1] استعارتان:

١ - مكنية وهي تشبيه الإسلام بالبيت، وحذف المشبه به والرمز له بشيء من لوازمه وهو البناء.

٢ - وفي إسناد البناء للإسلام استعارة تخييلية، وهكذا الأمثلة السابقة جميعاً.

ومن هنا كانت الاستعارة المكنية أبلغ، وأكثر تأثيراً في النفس، وأجمل تصويراً، ذلك لأن العمل الإبداعي فيها أدق منه في الاستعارة التصريحية، ألا ترى أنها تبعث الحياة فيما ليس بحي؟ وتثير الحركة، وتنمي الخيال، فتضفي جمالاً، وهي تضيف إلى الأشياء صفات تزينها وتجملها.

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧]. «النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين. ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: «يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها، فنخشى إنِ اللهُ عز وجل أعزّك وأظهرك أن ترجع إلى قومك» وهذا من أسرار البلاغة، ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانته. ونحو قولك: «شجاع يفترس أقرانه»، و«عالم يغترف منه الناس»، و«إذا تزوجت امرأة فاسْتَوْثِرْها»، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش»[2].

وخذ مثلاً قول أبي تمام[3]:

دِيْمَـــةٌ سَـــمْحَةُ القِيَـــادِ سَـــكُوبُ   مُـــسْتَغِيثٌ بِهَـــا الثَّـــرَى المَكْـــرُوبُ

---

(١) تقدم تخريجه ص١٩٧.

(٢) الكشاف ١/ ١١٩، روادفه، أي: لوازمه، فاستوثرها: الوثيرة: الكثيرة اللحم.

(٣) ديوانه ١/ ٢٩١، قصيدة ٢٣، والبيت مطلع قصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة.

فانظر كيف صور الديمة بأنها سمحة القياد، ثم انظر إلى التصوير الرائع كيف صور لك هذا الجماد وهو هذا التراب هذه الصورة الحية المتحركة؟ كيف صوّره بصورة من يستغيث ويستجدي؟ وإذا سألت عن سر ذلك وجماله لم تجد سبباً لذلك إلا هذا الأسلوب الاستعاري، الاستعارة المكنية، فلقد شبه الثرى برجل مسّه الكرب، وأحاطت به اللأواء، وتملكته البأساء والضراء، ولقد أضمر الشاعر كل ذلك ورمز له بكلمة واحدة هي كلمة (مستغيث)، ثم أسند هذه الاستغاثة إلى الثرى، فكأنك وأنت تراها تحس بهذه الاستغاثة، وانظر إلى البيت الحماسيّ:

قَـوْمٌ إذا الـشَّرُّ أَبْـدَى ناجِذَيْـهِ لَهُـمْ　　　طَـارُوا إلَيْـهِ زُرافـاتٍ وَوُحْـدانا

ألا تراه كيف صور الشر بمفترس كَشَّرَ عن أنيابه؟ وهل تظن أن جمال ذلك يعود لغير الاستعارة المكنية التخييلية؟! المكنية لأنه شبه الشر بمفترس، والتخييلية لأنه جعل للشر ناجذين يبديهما. واستمع إلى قول الفرزدق[1]:

والـشَّيْبُ يَـنْهَضُ في الـشَّبَابِ كأنّـهُ　　　لَيْـلٌ يَـصيحُ بجانِبَيْـهِ نَهـارُ

فهو يشبه الشيب وهو يلاحق الشباب ليزيله ويمحو آثاره، يشبه هذه الصورة بصورة الليل الذي يلاحقه النهار ليذهب أثره وليحل محلّه، هذا تشبيه تمثيل - كما رأيت - فهو تشبيه صورة بصورة، صورة سواد الشعر ليحل الشيب محله، بصورة سواد الليل الذي يطارده النهار، صورة شيء أسود يطارده شيء أبيض، ولكن الذي يعنينا الآن ما نحن بصدده، وهو ما في البيت من تصوير بالاستعارة المكنية التخييلية، ففي البيت استعارتان ألا ترى كيف أثار الحركة والحياة في الشيب وهو ينهض بالشباب؟ والنهوض من صفات الأحياء - كما تعلم - فقد شبه الشيب بذي حياةٍ وقدرةٍ على النهوض وهذه المكنية وقد أسند النهوض إلى الشيب وتلك تخييلية.

أما الاستعارة الثانية فهي في الشطر الثاني فقد شبه النهار بذي الحاجة الذي يصيح لبلوغ حاجته، وحذف المشبه به ورمز له بكلمة (يصيح) ثم أسندها إلى النهار وهذه التخييلية - كما عرفت - .

---

(١) ديوان الفرزدق، ص٩٠.

وانظر إلى قول ابن المعتز[1]:

وتَـــــــرُومُ الثُّرَيَّـــــــا في الغُـــــــروبِ مَرامَـــــــا
كانكبـــــــاب طِمِـــــــرٍّ كـــــــادَ يُلْقِـــــــي اللِّجَامَـــــــا

فقد شبه الثريا وهي تسير في غروبها برأس الطمرِّ الهاوي إلى الأرض وقد كاد يلقي لجامه، ويعنينا ما في البيت من استعارة مكنية، فقد شبهت الثريا وهي تسرع نحو الغرب بذي حاجة يروم تحقيقها، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (تروم) لأن الروم إنما يكون عن قصد، وهذه الاستعارة المكنية، وإسناد (تروم) إلى (الثريا) استعارة تخييلية، ألا ترى أن هذه الاستعارة بعثت الحياة في الثريا؟ ونشرت في جوانبها الإحساس؟ وأظنك تدرك الآن جمال هذه الاستعارة وتستطيع أن تتبين مواقعها، وتميّز مواضعها.

فإذا سمعتهم يقولون: «هو يصفو ويكدر»، و«يمر ويحلو». أدركت أن هذه استعارات مكنية لأنهم قصدوا تشبيهه بالماء وبالعسل وبالصاب[2]، ثم حذفوا المشبه به ورمزوا له بشيء من لوازمه وهو يصفو ويكدر ويمر... إلخ، فإن الصفاء والكدر من صفات الماء، والحلاوة من صفات العسل، والمرارة من صفات الصاب، وإسنادها إلى الرجل استعارة تخييلية.

وإذا سمعت قول الحجاج: «إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها»، فأنت تدرك أن هنا استعارتين مكنية وتخييلية حيث شبه الرؤوس بالثمار، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (أينعت) و(حان قطافها)، وهذه الاستعارة مكنية، وإسناد الإيناع للرؤوس هو التخييل.

وهذا هو سعد بن ناشب يقول:

إذا هَـــمَّ أَلْقَـــى بَـــيْنَ عَيْنَيْـــهِ عَزْمَـــهُ وَنَكَّـــبَ عَـــنْ ذِكْـــرِ العَوَاقِـــبِ جانِبـــا

---

(١) ديوان ابن المعتز، ص٦٣١، انكباب من انكب على الشيء إذا هوى عليه، الطِّمِرّ: الفرس الكريم الرشيق.

(٢) الصاب: شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن.

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إلاّ قائِمَ السَّيْفِ صاحِبا

فأنت ترى أنه قد شبه العزم بشيء يعني الإنسان، لأنه لا يلقى بين العينين إلا ما يعني الإنسان ويشغله ويروم تحقيقه بجامع العناية في كلٍّ وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (ألقى بين عينيه) على سبيل الاستعارة المكنية، وإسناد الإلقاء على العزم استعارة تخييلية. وما أبدع قول المتنبي(١):

وَتُحْيِي لَهُ المالَ الصَّوارِمُ وَالقَنا ... ويَقْتُلُ ما تُحْيِي التَّبَسُّمُ وَالجَدَا

ففيه استعارتان مكنيتان، الأولى: وهي في الشطر الأول، حيث شبه المال وقد جمع بعد تفرق، وكثُر بعد قلة، بالميت أعيدت له الحياة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحياة. كما شبه تفريق المال بعد جمعه بالحي، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (القتل)، وإسناد الحياة والقتل إلى المال تخييل.

واستمع إلى قول البحتري، من قصيدة له يحدثك فيها عن الربيع(٢):

أتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتالُ ضاحِكاً ... مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كادَ أنْ يَتَكَلَّما
وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ في غَلَسِ الدُّجَى ... أوائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمْسِ نُوَّما
يُفَتِّقُها بَرْدُ النَّدَى فَكَأنَّهُ ... يَبُثُّ حَديثاً كانَ أمْسِ مُكَتَّما

فانظر إلى هذه الصورة الجميلة التي تمتلئ حيويةً ورقةً، وانظر إلى صور الاستعارة البديعة، فهذا الربيع قد جاءك طلقاً متبختراً، كأنما هو فخورٌ بحلته القشيبة، وها هو يفترّ عن ابتسامات مختالاً ضاحكاً، فهي استعارة مكنية كما عرفت، حيث شبه الربيع بإنسانٍ ذي بزةٍ وهيئة جميلة، وها هو يختال ضاحكاً من حسنه، فانظر إلى هذه الاستعارة المكنية التخييلية المرشحة - إذ ذُكر فيها ما يلائم المشبه به - .

---

(١) ديوان المتنبي، ٢/ ٤.

(٢) ديوانه ٤/ ٢٠٩٠، الطلق: المشرق، النوروز = النيروز: وهو أكبر أعياد الفرس، ومعناه بالفارسية: اليوم الجديد، الغلس: ظلمة آخر الليل، يبث: ينشر.
يرسم الشاعر هنا لنا صورة الربيع، ويقدم لنا أجزاء الصورة متتابعة المعاني، إذ يمهد في البيت الأول لهذه اليقظة الحلوة التي تنبه بها الطبيعة من غفوة كادت أن تكون مواتاً، ثم يصور لنا في البيتين التاليين هذا التشبيه الحالم الوادع. ديوان البحتري - تحقيق حسن كامل الصيرفي، ١/ ١٥.

ثم انظر إلى البيت الثاني، وها هو النيروز (شمُّ النسيم) - كما يعرف في بعض البلدان - ينبه ويوقظ في غلس الليل وظلمته هذا الورد الذي كان يبدو عليه كسلُ النوم، وها هو بردُ الندى - وما أجملَ بردَ الندى - يفتق أكمام هذه الأزهار وتلك الورود، وها هي بعد أن تصحو كأنما يتحدث بعضها مع بعض أو لكأنما تحدث الناظر إليها - بعد أن تفتقت - حديثاً لم يكن من قبل، لأنها كانت نوّماً ذابلةً ذاوية.

وقبل أن أنتقل بك إلى تقسيم آخر، لا بد أن تعلم أن فضل الاستعارة المكنية يكمن في أنها تبعث الحياة والحركة في الأشياء كلها، فهي يَقِظَةٌ تخاطبك وتكلمك، ألا رأيت إلى التراب كيف يستغيث، وإلى الربيع كيف جاءك مختالاً ضاحكاً، ولكن حذار أن تظنّ أن في هذا القول انتقاصاً من الاستعارة التصريحية، فكلّ لها صورتها الجميلة. وإذا كانت الاستعارة المكنية تبعث الحياة في الأشياء؛ فإن في الاستعارة التصريحية صوراً للمعاني الذهنية الفكرية المجردة، تجسدت فكانت توجيهات حيّةً في مجالات الحياة جميعها، كما بينته لك من قبل، وكما سأبينه لك فيما بعد - إن شاء الله - في قوله سبحانه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤] وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨]، كلٌّ من الأسلوبين إذن - أسلوب التصريحية وأسلوب المكنية - له مسوغاته وسياقه وعناصره المؤثرة الجميلة.

التقسيم الرابع: الاستعارة التحقيقية والتخييلية:

وعلى ضوء ما عرفت، هناك تقسيم رابع للاستعارة وهي أنها تقسم إلى تحقيقية وتخييلية، فالتحقيقية: ما يكون فيها المستعار له أمراً محققاً إما حسياً كما تقول: «رأيت أسداً» وتعني الرجل الشجاع، وهو أمر محقق الوجود في الخارج، وإما عقلاً كقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، فالمستعار له وهو الإسلام أمرٌ محقق ومتصور في العقل وإن لم يكن له وجود محسوس. أما التخييلية فهي التي يكون المستعار له فيها أمراً متخيلاً غير متحقق، وذلك كإثبات الجناح للذل، والدولة للصيام، والإلقاء للعزم، والإحياء أو القتل للمال.

ونظن أن الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - هو أول من فصّل الأمر وبيّن الفرق بين هذين النوعين موضحاً قيمة الاستعارة المكنية التخييلية، وما تقوم عليه من أسس جمالية، وتصوير بديع خلاب، يقول:

«والثاني: أن يؤخذ الاسم على حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه، فيقال: هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له، وجُعل خليفةً لاسمه الأصلي ونائباً مَنابه. ومثاله قوله لبيد:[1]

وغَداةَ ريحٍ قد كَشفتُ وَقِرّةٍ ... إذْ أصْبَحَتْ بِيَدِ الشّمالِ زِمامُها

وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تُجرى اليد عليه، كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك: «انبرى لي أسدٌ يزأر»، و«سللت سيفاً على العدو لا يُفَلُّ»، والظباء على النساء في قوله: «الظباء الغيد» والنور على الهدى والبيان في قولك: «أبديت نوراً ساطعاً»، وكإجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك: «أتنازعني في يدٍ بها أبطش، وعين بها أبصر»، يريد إنساناً له حكم اليد وفعلها، وغناؤها ودفعها، وخاصة العين، وفائدتها وعزة موقعها، ولطف موقعها، لأن معك في هذا كله ذاتاً يُنَصُّ عليها، وترى مكانها في النفس إذا لم تجد ذكرها في اللفظ. وليس لك شيء من ذلك في بيت لبيد، ليس أكثر من أن تُخيّل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها، كالمدبر المصرِّف لما زمامُه بيده، ومَقادتُه في كفّه، وذلك كله لا يتعدّى التخيُّل والوَهْم، والتقدير في النفس، من غير أن يكون هناك شيء يُحسّ، وذات تتحصَّل، ولا سبيل لك إلى أن تقول: كَنَى باليد عن كذا، وأراد باليد هذا الشيء، أو جعل الشيء الفلاني يداً، كما تقول: كنى بالأسد عن زيد، وعَنَى به زيداً، وجعل زيداً أسداً، وإنما غايتُك التي لا مُطَّلَع وراءها أن تقول: أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلِّبه، فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه.

وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه، ولكنه وفَّى المبالغةَ شرطَها من الطرفين، فجعل على

---

(١) ديوانه، ص٣١٥، البيت رقم ٦٢ من معلقته، وغداة ريح، أي: رب غداة ريح، أي: شديدة الريح، كَشَفْتُ، وفي رواية (وَزَعْتُ): أي: كَفَفْتُ، قرّة: برد، يقال قِرّة وقُرّ كما يقال ذِلّة وذُل، إذ أصبحت بيد الشمال زمامها، أي: إذا أصبحت الغدوة الغالب عليها ريح الشمال وهي أبرد الرياح، والمعنى: أنه إذا اشتد البرد كففته بإطعام الطعام وإشعال النيران.

الغداة زماماً ليكون أتمَّ في إثباتها مصرّفةً، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصييرها مُصرِّفة.

ويفْصِل بين القسمين: أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجَدْتَه يأتيك عفواً، كقولك في «رأيت أسداً»: «رأيت رجلاً كالأسد» أو رأيت مثل الأسد أو شبيهاً بالأسد، وإن رُمْتَهُ في القسم الثاني وجَدْتَه لا يؤاتيك تلك المؤاتاة، إذ لا وجه لأن تقول: «إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال» أو «حصل شبيه باليد للشمال» أو إنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تَخرِق إليه ستراً، وتُعمل تأملاً وفكراً، وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الأول»[1].

وخلاصة ما يريده الشيخ - رحمه الله - أن الاستعارة التحقيقية هي التي لها تحقق في الواقع، كالأسد الذي استعير للشجاع، والشمس التي استعيرت للحسناء، والبحر الذي استعير للجواد، فتلك أمور محققة في الواقع ولها وجود خارجي، أما التخييلية فليست كذلك، فليس لها وجود خارجي ولا تحقق واقعي، ألا ترى أنه ليس للشمال يد ولا يمكن أن يكون، وليس للريح زمام، إنما هي سعة خيال الشعراء.

إجراء الاستعارة:

وقبل أن نواصل حديثنا عن أقسام الاستعارة، نرى لزاماً علينا أن نقف وقفة ميدانية، نحدثك فيها عن إجراء الاستعارة، ونبادرك القول بأن إجراء الاستعارة لا نعني به إلا أن تروز نفسك، وتختبر إدراكك اختباراً عملياً، بعد أن عرفت نظرياً بعض الجوانب في أسلوب الاستعارة. ونمثل لك هذا الإجراء بقضية الإعراب في النحو، وتقطيع الشعر في العروض، والميزان في الصرف، فمن أحاط بقواعد النحو وعرف مسائله، واستجمع أصوله وفصوله، فإنك لا تطمئن لمعرفته إلا عندما تجده بارعاً في إعراب الجمل، مبيناً مواقع أجزائها من الإعراب، فإن لم يستطع ذلك فإن معرفته للقواعد وإلمامه بالفصول لا تجديه شيئاً، كذلك الذي يدرس فن العروض، فإنك لا تعدّه حاذقاً إلا إذا كان يستطيع تقطيع البيت من الشعر، وبيان ما فيه من علل، وما يجوز وما لا يجوز، كذلك الذي يدرس

---

(١) أسرار البلاغة، تعليق محمد النجار، ص٤٩.

علم الصرف، لا بد لكي يكون ذا مهارة وخبرة أن يزن الكلمات التي تمر به، ويدرك مواطن الإعلال والإبدال، والقلب ومواطن التصغير وكيفيته، وأحوال النسب.

إجراء الاستعارة - إذن - هو الثمرة العملية التي يختبر بها دارس البيان. ولنذكر لك بعض الأمثلة لتقيس عليها غيرها، فإجراء الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، تقول فيه: شبّه التبليغ بالصدع بجامع المشقة في كل، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من الصدع فعل الأمر (اصْدَعْ) بمعنى (بَلِّغْ) على سبيل الاستعارة التبعية، التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله. وتقول في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [آل عمران:١٠٣] شبه العهد بالحبل بجامع النجاة في كلٍّ، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

وتقول في قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ ﴾ [الحديد:١٧] شُبِّهت الأرض الهامدة، وقد أنبتت واهتزت وربت، بالميت نُفخت فيه الروح، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإحياء على سبيل الاستعارة المكنية، وإسناد الإحياء إلى الأرض استعارة تخييلية. ولك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول: شبه التزيين بالإحياء بجامع الفائدة في كلٍّ، واشتق من الإحياء (يحيي) بمعنى (يُزيِّن) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وسيأتي لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله.

وتقول في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ ﴾ [آل عمران:١١٨] شبهت الولاية والمودة بين المؤمنين وغيرهم بباطن الثوب الذي يلي الجسم، بجامع القرب في كلٍّ، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.
وتقول في قول ابن المعتز[١]:

جُمِــعَ الحَـــقُّ لنـــا في إمـــامٍ   قَتَـــلَ البُخْـــلَ وأحْيـــا الـــسَّماحا

(١) ديوانه، ص١٣٣.

شبه البخل برجل مقتول، وشبه السماحة برجل بُعثت فيه الحياة بعد القتل، وحذف المشبه به في الموضعين ورمز له بشيء من لوازمه وهو (قَتَلَ) و(أحْيا)، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية.

وإذا أردت أن تجري الاستعارة في قولك: «يفتك بنا عدونا بسلاحه، ونحن نقتله بالتصريحات» شبه ما نتوهمه مما يؤذي العدو بالقتل، على سبيل الاستعارة التصريحية التهكمية. وتقول في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥] شبهت الأرض وقد سخرها الله لنا، بالحيوان المذلل، وحذف المشبه به - وهو الحيوان - ورمز له بشيء من لوازمه وهي المناكب على سبيل الاستعارة المكنية، وإضافة المناكب إلى الأرض استعارة تخييلية. وتجري الاستعارة في قول ابن المعتز[1]:

سَالَتْ عَلَيْهِ وُجُوهُ الحَيِّ حِينَ دَعَا ... أنْصارَهُ بِوُجُوهٍ كالدّنانيرِ

فالسيل - كما تعلم - للماء وأسندها لوجوه الحي، شبه سرعة الناس في إجابة دعوته - الممدوح - بالماء في سرعة سيله وتدفقه، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية. وأسند السيل الذي هو من لوازم المشبه به - الماء - إلى المشبه على سبيل الاستعارة التخييلية.

أما قوله سبحانه: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فلك أن تقول في الآية الأولى: شبه جهنم بصاحب الصوت البشع، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الشهيق، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، ولك أن تجري الاستعارة هكذا: شبه ما يُسمع من غليان جهنم بالشهيق. بجامع الاستبشاع في كلٍّ، وحذف المشبه، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وتقول في الآية الثانية: شبهت جهنم بمن يرقب عدوه ويتحفز للإيقاع به، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (رأى) على سبيل الاستعارة المكنية، وأسندت الرؤية لجهنم على سبيل الاستعارة التخييلية.

---

(١) دلائل الإعجاز، ص١١٨، بوجوه كالدنانير، أي: مشرقة متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم والزهو بزعيمهم.

وكما أجريت الاستعارة في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ نجريها في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وستعلم أن إجراء الاستعارة يمكن أن تتّبع فيه أكثر من طريقة واحدة، وتسلك فيه أكثر من سبيل، وسنزيدك إلماماً بهذا الموضوع - بإذن الله - بعد أن نكمل لك بقية أقسام الاستعارة لتكون الفائدة أتم، وليكون الموضوع أكثر شمولاً.

التقسيم الخامس: الأصلية والتبعية:

كانت التقسيمات السابقة للاستعارة - كما رأيت - باعتبارات مختلفة، فتارة من حيث المحسوس والمعقول، أي: من حيث ما يدرك بالحواس أَوْ لا، ومن حيث اجتماع ركنيها أو عدم اجتماعهما، ومن حيث وجود المشبه أو المشبه به، ومن حيث تحقق المستعار له أو عدم تحققه، ونقسمها الآن من حيثية أخرى وهي لفظ المستعار، ففي هذا التقسيم ننظر إلى لفظ المستعار، من أي فئة هو، من فئات الكلمة المعروفة: الاسم، والفعل والحرف؟ ولنرى كذلك أي الفصائل التي ينتسب إليها؛ أينسب إلى فصيلة المشتقات أم إلى فصيلة الجوامد؟ وأنت تعلم أنهم قد قسموا الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، وقسموا الاسم إلى جامد ومشتق، ويعنون بالمشتق ما أخذ عن غيره. أما الجامد فقد يكون اسم جنس: كالأسد، والإنسان، وقد يكون اسم معنى: كالقتل، والطغيان، والصدع، أظن الفرق بينهما واضحاً لا يحتاج إلى شرح، فاسم الجنس له وجوده في الخارج، أما اسم المعنى فليس من هذا القبيل إنما يقوم بغيره، ألا ترى أنه ليس هناك شيء اسمه القتل له وجوده في الخارج إنما هو معنىً يقوم بغيره كالقاتل الذي حدث منه القتل، والمقتول الذي وقع عليه، وكذلك الطغيان، والصدع، والعدل، والإيمان.

إذا عرفت هذه المقدمات فاعلم أنهم قد نظروا في هذا التقسيم للفظ المستعار فوجدوه تارةً جامداً، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وكقول المتنبي السابق:

وَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ ... وَلا رَجُلاً قامَتْ تُعانِقُهُ الأُسْدُ

وتارة وجوده مشتقاً، ومن المشتقات: الفعل واسم الفاعل، واسم المفعول، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، فإذا كان المستعار اسماً جامداً سميت الاستعارة أصلية، وإذا

كان المستعار مشتقاً سميت الاستعارة تبعية، ومن الاستعارة التبعية - كذلك - أن تكون الاستعارة في الحرف أو اسم الإشارة، وتدرك من هذا أن الأعلام الشخصية لا تجري فيها الاستعارات، إلا إذا اشتُهر العَلَم بصفة من الصفات فأصبح صالحاً لأن يكون مشبهاً به، فقد اشتُهر حاتم بالكرم، وسحبان بالخطابة، وباقل بالفهاهة[1]، فأصبحت هذه الأعلام صالحة لأن يشبه بها لا من حيث هي أعلام شخصية، ولكن من حيث ما اشتُهرت به من صفات، وعلى هذا فإن أبا بكر ﷺ اشتُهر بحروب الردة لما كان له من فضل قمعها، فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن يقف مثل هذا الموقف، وكذلك اشتُهر عمر ﷺ بالعدل فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن عُرف بالعدل في سيرته وحكمه، ومثل هذا (المتنبي) في الشعر، و(أبو رِغال) [2] في الخيانة، و(صلاح الدين) في التحرير، و(بطرس الناسك) [3] في الحقد على الإسلام، والاستعارة في هذه جميعاً استعارة أصلية.

يمكنك أن تمثل للاستعارة الأصلية إذن بقولك: «لا بد لهذا الليل من آخر»، و« ولا بد أن يحمل المشعل صلاح الدين»، و«سيلاقي أبو رغال مصيره»، و«ما أحوج الردة التي نحياها اليوم إلى أبي بكر».

أما الاستعارة التبعية فيمكن أن نمثل لها بقوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة:١٦]، وبقوله: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وبقوله سبحانه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، وبقوله: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ [الكهف:٩٩]، وبقوله: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١]، هذه الاستعارات جميعها - كما ترى - أفعال بعضها ماضٍ، وبعضها مضارع، وبعضها أمر، ففي الآية الأولى الاستعارة في قوله سبحانه: (اشتروا) وفي الآية الثانية في قوله: (سكت)، وفي الآية الثالثة في قوله سبحانه: (اصدع). وهكذا فِعْلا (يموج) و(طغى) في الآيتين الرابعة والخامسة، وقبل أن نبين لك الاستعارات في هذه الآيات لا بد من الإشارة إلى علة

---

(١) أي: التلعثم بالنطق وعدم القدرة على الإفصاح.

(٢) هو قسيّ بن منبه من بني إياد، صاحب القبر الذي يرجم إلى اليوم بين مكة والطائف، يضرب مثلاً للخيانة لأنه كان دليل الحبشة لما غزوا الكعبة وهلك معهم.

(٣) أحد قاد الحروب الصليبية كان فصيحاً شديد التأثير في تحريض الأوروبيين على الحروب الصليبية.

التسمية. فتسميه الاستعارة بالأصلية لأنها لم تُبْنَ على غيرها. أما التبعية فلأنها مبنية على استعارة أخرى فهي تابعة لها في إجرائها، بيان ذلك:

إن قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ المقصود به (استبدلوا الضلالة بالهدى)، لأن الضلالة لا تشترى كما نعلم، ولكنها يمكن أن تُستبدل بغيرها، ولكننا عند إجراء الاستعارة، لا نقول: شبه (استبدلوا) بـ (اشتروا)، إنما نقول: شبه الاستبدال بالشراء وحذف الاستبدال، أو نقول: إذا أردنا أن نتناسى التشبيه ألبتة: استعير الشراء للاستبدال ثم اشتق منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وفي الآية الثانية يقال: استعير السكوت للزوال؛ لأن الغضب لا يسكن وإنما يزول، واشتق من السكوت (سكت) بمعنى (زال)، ويقال في الآية الثالثة: استعير الصدع للتبليغ واشتق منه (اصْدَعْ) بمعنى (بلِّغ)، أما الآية الرابعة فيقال فيها: استعير الموج للحركة أو الاضطراب واشتق منه (يموج) بمعنى (يضطرب)، وهكذا في الآية الخامسة تقول: شُبِّه ارتفاع الماء الخارج عن حدّ الاعتدال بالطغيان، واشتق من الطغيان (طغى) بمعنى (ارتفع).

وهكذا تقول في ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران:١١٢] شبه الدوام واللزوم بالضرب بجامع الإحاطة والبقاء في كل، واشتق منه (ضُربت) بمعنى (لزمت)، وفي قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ ﴾ [الحديد:١٧]، استعير الإحياء للتزيين. واشتق منه (يُحْيِي) بمعنى (يُزَيِّن) وفي قول ابن المعتز السابق:

جُمِعَ الحَقُّ لَنَا في إمامٍ قَتَلَ البُخْلَ وأحْيا السَّماحا

استعير القتل لانتفاء البخل واشتق منه (قَتَلَ) بمعنى (أَذْهَبَ)، واستعير الإحياء للوجود واشتق منه (أحيا) بمعنى (أَوْجَدَ وأبقى).

ومن الاستعارة التبعية قولهم: «نطقت الحال بكذا»، «كلمتني عيناه»، «قالت أسارير وجهه»، ومنه قوله:

أشَـارَت بِطَـرْفِ العَـيْنِ خِيفَـةَ أَهْلِهـا إشـــارَةَ مَحْـــزُونٍ وَلَمْ تَـــتَكَلَّم
فأيْقَنْـتُ أنَّ الطَّـرْفَ قَـدْ قـالَ مَرْحَبـاً وأهْـــلاً وَسَـــهْلاً بالحَبيـــبِ المُتَـــيَّم

فإثبات النطق للحال، والتكلم للعينين، والقول للطرف استعارات تبعية، فقد شبه وضوح الدلالة بالنطق والتكليم، واستعير المشبه به للمشبه، واشتق من النطق والتكليم والقول (نَطَقَ) و(تَكَلَّمَ) و(قَالَ) بمعنى (ظَهَرَ).

الاستعارة التبعية في الفعل:

والاستعارة في الفعل يمكن أن ندركها من الفاعل، كالأمثلة السابقة في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف:١٥٤]، و«نطقت الحال بكذا»، وقد ندركها من المفعول كما في قوله سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، وقول ابن المعتز: (قتل البخل وأحيا السماحا)، ألا ترى أنه لولا المفعول به هنا لم يكن في الكلام استعارة؟ لأن إسناد الإحياء إلى الله حقيقة، وإسناد القتل كذلك إلى الإمام حقيقة، وقد تكون هناك استعارة في الفعل ولكننا لا ندركها من الفاعل ولا من المفعول به الأول وإنما ندركها من المفعول الثاني، خذ مثلاً قولنا: «نقري عدونا» ألا ترى أن هذه الجملة لا تحتمل استعارة، لأن (نقري) معناه نكرم، ويمكن أن يكون ذلك على سبيل الحقيقة، لكنك إذا قلت: «نقري عدونا سهاماً مسمومة» فإنك لا تشك أن الكلام استعارة، ولكنك أدركتها من المفعول الثاني وهو قولك: (سهاماً) لأن السهام لا تصلح للقِرى، وعلى هذا جاء قول القطامي(١):

لَمْ تَلْـقَ قومـاً هُـمُ شَرٌّ لإخْـوَتِهِمْ مِنّـا عَـشِيَّةَ يَجْـرِي بالـدَّم الـوَادِي
نُقْـرِيهِمُ لَهْـذَمِيَّاتٍ نَقُـدُّ بِهَـا مَـا كـانَ خَـاطَ عَلَـيْهِمْ كُـلُّ زَرَّادِ(٢)

وكل الذي عرفته عن الاستعارة في الفعل إنما هي باعتبار مدلوله ومعناه. وقد ذكروا أن هناك استعارة أخرى في الفعل لا من حيث معناه ومادته وإنما من حيث هيئته

(١) ديوان القطامي عمير بن شييم التغلبي، ٢/ ٦٣، أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، ص٥١.
(٢) نقريهم من قريت الضيف، واللهذم من الأسنة: القاطعة، واللهذميات منسوبة إليها، والقدُّ: القطع، وضَمَّنَ (خاط) معنى (قَدَّ) فعدّاه بـ (على)، وزَرَدَ الدُّروعَ وسَرَدَها: نَسَجَها.

وصيغته، وأنت تعرف أن الفعل قد يكون ماضياً، أو مضارعاً، فإذا استعملت صيغةً مكان صيغة كأن تستعمل صيغة الماضي مكان صيغة المضارع، فإنهم عدّوا ذلك من الاستعارة، ذلك لأن صيغة الماضي استعملت في غير موضعها. مثّلوا لذلك بقوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١]، ومعنى هذا أن أمر الله سيأتي بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ وقالوا في إجراء الاستعارة: إنه شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان في الماضي بجامع التحقق في كل، لأن وعد الله لا يتخلّف، واستعار لفظ المشبه به للمشبه ثم اشتق من الإتيان (أتى) بمعنى (يأتي) على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية والقرينة لفظية وهي قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ ومنه قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ [الأعراف:٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ [الأعراف:٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:٥٠]، فهذه الأفعال الماضية أريد منها المستقبل؛ لأنها حديث عن يوم القيامة، ولكننا شبهنا المستقبل بالماضي بجامع التحقق والوجود في كلّ، ثم اشتق من النداء (نادى) بمعنى (ينادي)، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة معنوية، لأن الحديث عن يوم القيامة، وقال الشاعر:

وأعْلَمُ أنَّنِي سأُكُونُ رَمْساً ... إذا سارَ النَّواعِجُ لا يَسيرُ
فقالَ السّائِلُونَ لِمَنْ حَفَرْتُم ... فقالَ المُخْبِرُونَ لَهُمْ وَزيرُ(١)

فقد عبّر بالماضي في قوله: «فقال المخبرون» وأراد المضارع.

واعلم أنني ذكرت هذا مجاراةً للقوم فقد أوردوا هذا في كتبهم فكرهت مخالفتهم، فالقرآن الكريم كثيراً ما يستعمل الماضي في مكان المضارع، أو المضارع في مكان الماضي، وذلك لاستحضار الصورة لتكون أكثر تأثيراً في النفس، فهو حينما يذكر يوم القيامة

(١) تفسير الطبري، ١/ ٧٠، الرمس: القبر، النواعج: جمع ناعجة وهي الناقة السريعة.

- مثلاً - يذكر لنا مشاهده التي تحدث فيه بصيغة الماضي، لأنه جسد لنا هذا اليوم كأننا نعيشه، وكثيراً ما يذكر لنا أشياء مضت بصيغة المضارع لتكون مستحضرةً أمامنا.

إجراء آخر للاستعارة:

إذا تأملت الاستعارات السابقة جميعاً وجدت أن كل استعارة تبعية تجيء قرينتها استعارة مكنية، ولكي نبين لك الأمر جلياً نذكرك بما عرفته من قبل، بأن كل استعارة وكل مجاز لا بد له من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي.

خذ مثلاً الآية السابقة ﴿أَشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وهي استعارة تبعية كما عرفت وابحث عن قرينتها ستجد أن هذه القرينة هي الضلالة. وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ وقد عرفت أن الاستعارة في قوله: (سكت). وإذا بحثت عن قرينتها وجدتها في كلمة الغضب، وهكذا الاستعارات الباقية.

وعلى هذا يمكنك إجراء الاستعارة إجراءً آخر غير الذي عرفته من قبل، عرفت من قبل أننا شبهنا الاستبدال بالاشتراء واشتققنا منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والوجه الآخر الذي يمكننا أن نجري عليه الاستعارة أن نقول: شبهت الضلالة بالسلعة، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (اشتروا) على سبيل الاستعارة المكنية، ونقول في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ شُبه الغضب بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت على سبيل الاستعارة المكنية. ونقول في قول ابن المعتز: (قتل البخل وأحيا السَّماحا): شبه كُلاً من البخل والسماحة بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو القتل والإحياء.

كل استعارة تصريحية تبعية - كما رأيت إذن - يمكن أن نجريها استعارة مكنية، ولكن حذار أن تجري الاستعارتين معاً فتعدّها تصريحية مكنية في وقت واحد، فلا بد أن تلزم الاستعارة حالة واحدة، وأنت مخيّر في أيهما شئت، ولكن تبقى قضية الذوق الفيصل فيما ينبغي أن ترجحه من هذين الوجهين، خذ مثلاً قول المتنبي في وصف أسد[1]:

---

(١) ديوانه ٣/ ٣٥٤.

وَرْدٌ إذ وَرَدَ البُحَيْرَةَ شَارِباً وَرَدَ الفُرَاتَ زَئِيرُهُ والنِّيلا

والزئير كما تعلم هو صوت الأسد وليس من شأنه أن يرد وإنما من شأنه أن يصل، فيقال: (وصل صوته إلى كذا) ولا يقال: (ورد)، إذن لا بد من استعارة في قوله: (ورد) فقد شبه وصول صوت الأسد إلى الفرات بورود الماء بجامع انتهاء كل إلى غايته، ثم استعير لفظ الورود وهو المشبه به إلى الوصول وهو المشبه، واشتق من (الورود)، بمعنى (الوصول) (ورد) بمعنى (وصل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، أما أنها تصريحية فلأنها ذكر فيها لفظ المشبه به وهو الورود الذي اشتقت منه (ورد)، وأما أنها تبعية فلأنها جرت في المشتق وهو (ورد)، ويمكنك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول: شبه الزئير بحيوان ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازنه وهو (ورد). ويقيننا أنه وإن جاز ذلك من الناحية الصناعية إلا أننا لا نرجحه من حيث فنّ الذوق. هذا ما حرصت أن أنبهك عليه، إلا أنك في إجراء الاستعارة لا ينبغي أن تطغى عليك الناحية الصناعية بل عليك أن تحكّم الذوق فيما تختاره وترتئيه، وإليك مثلاً آخر:

قدمت لك قول أبي تمام عند الاستعارة المكنية:

دِيْمَةٌ سَمْحَةُ القِيَادِ سَكُوبُ مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى المَكْرُوبُ

وقد عرفت أن المشبه به محذوف وأن هنا استعارتين مكنية وتخييلية، ولكن يمكنك أن تجري الاستعارة إجراءً آخر فتقول: شبهت حاجة التراب إلى الماء بالاستغاثة، فاستعير المشبه به للمشبه واشتق من الاستغاثة (مستغيث) بمعنى محتاج على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لأن (مستغيث) اسم فاعل، والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي (الثري) لأنه ليس من شأنه أن يستغيث.

قل لي بربك وأنت توازن بين هذا الطريق في إجراء الاستعارة وبين ما قبله، أترتابُ في أن الذوق والفن والجمال الذي يحرك جوانب النفس ويثير مكامن الشعور، إنما هو في الطريق الأول الذي أجريت فيه الاستعارة على أنها مكنية. وخذ مثلاً قول ابن المعتز الذي قدمته لك من قبل (تروم الثريا) حيث أجرينا الاستعارة فذكرنا أنها مكنية تخييلية، وعلى القاعدة التي عرفت يمكنك أن تجري الاستعارة بطريق آخر تجعلها تصريحية تبعية بأن

تشبه سير الثريا بالروم وتستعير المشبه به للمشبه، تشتق من الروم (يروم) بمعنى (يسيرُ)، ولكن هل تجد الحركة والحياة والشباب الذي وجدته هناك؟ اللهم لا!

وتلك قضية آثرت أن أنبهك عليها لأني لم أجد أحداً من الفضلاء والكاتبين أشار إليها، مع أنها تستحق الإشارة - كما رأيت -.

الاستعارة التبعية في غير الفعل:

وكما تكون الاستعارة التبعية في الفعل تأتي كذلك في غيره من المشتقات، فمن مجيئها في اسم الفاعل، قولك لأحد التلاميذ: «هذا قاتِلُك عاقَبْتُهُ عقاباً شديداً»، والقتل إزالة الحياة، ولكنك تقصد الضرب المؤلم، فقد شبهت الضرب الشديد بالقتل بجامع الإيلام في كل، وبعد أن استعرت القتل للضرب اشتققت منه (قاتل) بمعنى ضارب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة الخطاب لأن المقتول لا يخاطب. ومن مجيئها اسم مفعول قولك: «هذا مقتول فلان» أي: مضروبه، وتقول - وقد سُئلت عن كتاب لأحد المستغربين المنتسبين لهذه الأمة بأسمائهم - : «إنه مخزون الشر» وتُسأل عن تصريحات لأحد الساسة فتقول: «إنها مجتمع الهزائم»، أو تصف إذاعة الأعداء فتقول: «إنها مرتكز الكذب» فكل من (مرتكز) و(مجتمع)[1] و(مخزون) اسم مفعول.

ومن مجيئها اسم تفضيل قولك: «هذا أَقْتَلُ من فلان» أي: أشد ضرباً. ومن مجيئها في اسم ا لآلة قولك لمن أراد أمراً من إنسانٍ ما: «مفتاحهُ فلان» تعني صديقاً له أو موظفاً معه، فقد شبهت الصداقة بالفتح بجامع الوصول للغاية في كل، ثم استعير من الفتح (مفتاح) وهو اسم آلة. وقول الرجل لزوجه: «أنت منشار جيبي ومطرقة رأسي» فلقد استعار النشر لفراغ الجيب، والطرق لتعب الرأس واشتق منهما اسمي آلة وهما (منشار) و(مطرقة)، وأن تتحدث عن رجل بأنه (مقراض الأعداء) أو عن أحد اللاهين بأنه (مزمار الحيّ).

ومن مجيئها اسم مكان قوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، فلقد حدثناك من قبل عن الاستعارة في الآية

---

(١) وقد تكون كل من (مجتمع) و(مرتكز) اسم مكان.

الكريمة من أنها استعارة معقول لمعقول، حيث شبه الموت بالرقاد وكلاهما معقول، وإنما جاز هذا التشبيه لأن الرقاد أمر طبعي فيهم، فهم ينامون ويستيقظون، ثم حذف المشبه، فالاستعارة تصريحية، وهي أصلية - كذلك - لأن مرقد مصدر ميمي بمعنى الرقاد. ولكننا الآن نجري لك الاستعارة في الآية الكريمة على وجه آخر وإياك أن تجد حرجاً في هذا فمن الممكن أن يكون للمثال الواحد أكثر من جهة: فتارة نجعله استعارة، وتارة مجازاً مرسلاً، كما رأينا في مثل قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٧].

والذي يعنينا هنا أن كلمة (مرقد) في الآية الكريمة يمكن أن تفسر بمكان الرقود وهو القبر، ويقال في إجراء الاستعارة: شبه الموت بالرقاد واستعير لفظ المشبه به للمشبه واشتق منه مرقد بمعنى القبر على سبيل الاستعارة التبعية.

ويمكن أن تمثل للاستعارة في اسم الزمان بقولك: «يا للأسف ما بال أمتنا تعيش في مغرب صباها، حبذا لو نشهد مطلع شمسها» فإن المغرب والمطلع اسما زمان - كما تعلم - وأنت تقصد زمان الضعف والقوة، فاستعرت المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ومثل هذا قولك: «متى نرى مغرب شمس العدو ومرقدَه» فهنا استعارتان تبعيتان إحداهما في اسم الزمان والأخرى في اسم المكان.

الاستعارة في الحرف:

بقي أن نحدثك عن الاستعارة التبعية في الحرف، ولعلك تتساءل: أليس الحرف جامداً والاستعارة التبعية إنما تكون في المشتقات؟ ثم كيف تكون الاستعارة في الحرف والحرف لا يدل على معنى في نفسه؟ إنما يدل على معنى في غيره؟ فكيف تكون الاستعارة في الحرف أولاً؟ ولماذا سميت تبعية مع أن الحرف ليس من المشتقات ثانياً؟ وهي قضية جديرة بالتجلية والبيان.

قسّم النحويون الكلمة إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنىً، فالاسم ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمان، والفعل ما دل على معنى في نفسه مقترناً بزمان، والحرف ما دل على معنى في غيره، ألا ترى أن (هل) لا يفهم معناها إلا إذا اقترنت بغيرها، كذلك (مِنْ)

و(على) و(في)، وبحسب وجود الحرف في الجملة يكون معناه، فإذا قلت: «جئت من البيت إلى المسجد»، «الطلاب في الحجرة»، «صعد على المنصة»، فإننا ندرك أن (مِنْ) للابتداء، و(إلى) للانتهاء و(في) للظرفية، و(على) للاستعلاء.

إذا عرفت هذا كله، فاعلم أنهم حينما جعلوا الاستعارة في الحرف فإنهم لم ينظروا إلى الحرف نفسه، وإنما نظروا إلى متعلق معنى الحرف، ومتعلق معنى الحرف من المشتقات ولكي نتصور ذلك لا بد من أن نمر بمراحل ثلاث:

أولاً: الحرف.
ثانياً: معنى الحرف.
ثالثاً: متعلق هذا المعنى.

وسنمثل لك بما يسهل لك هذه القضية إن شاء الله، مثلاً قوله سبحانه يحدثنا عن حقد فرعون وغيظه وهو يقول للسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١]، وأنت تعلم أن (في) للظرفية، وتعلم كذلك أن التصليب يكون على جذوع النخل - ولا يغرنك ما يقال من أن (في) بمعنى (على) فحروف الجر لا تتناوب كما يرى المحققون - لا بد من معرفة السبب الذي اختيرت من أجله كلمة (في)، وهذا ما سنعرفه عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن. إن ما يعنينا الآن إجراء هذه الاستعارة، ولا بأس أن نذكرك قبل هذا الإجراء بالأمور الثلاثة التي حدثناك عنها: الحرف، ومعناه، ومتعلق المعنى. فالحرف (على)، ومعناه الاستعلاء ومتعلق هذا المعنى هؤلاء المستعلون المصلوبون على جذوع النخل. والحرف الثاني (في)، ومعناه الظرفية، ومتعلق الظرفية، هؤلاء المظروفون في جذوع النخل.

ففي الآية الكريمة: شبه متعلق معنى (على) بمتعلق معنى (في)، ومعنى (على) الاستعلاء ومعنى (في) الظرفية، فشبه متعلق الاستعلاء بمتعلق الظرفية، أي: شبه المستعلي على الشيء بمن هو حالٌّ فيه بجامع الثبوت، فشبه المصلوبين وهم على جذوع النخل بمن هو في هذه الجذوع نفسها، هذه الاستعارة التبعية في الحرف. وإليك مثالاً آخر:

يقول الأب عن ابنه العاق: «علَّمْتُهُ ليُؤْذِيَني» ألا ترى أن الأب لم يعلم الابن ليؤذيه؟ وإنما علَّمه ليكرمه، وهذه اللام تسمى لام التعليل، فمن أسباب تعليم الأب لابنه

أن يبرّه ويوقره، ولكن العاقبة كانت شيئاً آخر، فاستعيرت اللام التي هي للعلة للدلالة على العاقبة، بجامع ترتب كل منهما على ما قبله.

ومثل هذا قولنا: «ضَحَّيْنا فخُضْنا أكثر من حرب مع عدونا لنُهزَم ولنتنازل عن الأرض والمقدسات» ونحن لم ندخل الحرب من أجل هذا إنما دخلناها لنرضي الله ونرفع راية الدين، ونحرر الأرض، ونحمي العرض، لكن عاقبة الحروب كانت - كما نراه الآن - واللام للتعليل - كما عرفت - فشبه متعلق معنى التعليل بما آل إليه الأمر من العاقبة التي رأيت لتَرَتُّب كلٍّ منهما على ما قبله، فإن كلاً من الانتصار، وتحرير الأرض، والتفريط فيها، مترتب على ما قبله وهو دخول الحرب، فالانتصار لا بد له من حرب والنتيجة المخزية تترتب على الحرب كذلك.

وأظنك تدرك الآن الاستعارة التبعية في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وهم لم يلتقطوه لهذا، إنما علة الالتقاط أن يكون لهم قرة عين، ولكن لأن كلاً من هذين الأمرين: أعني كونه عدواً وحزناً، وكونه قُرَّة عين مترتبات على الالتقاط، شبهت العلة بالعاقبة، واستعير معنى اللام الدالة على التعليل للدلالة على العاقبة على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية.

وهكذا يمكنك أن تمثل للاستعارة التبعية في الحرف: «المسلم في قمة الجبال مسكنه، بل في الشهب منزلته» والمراد (على).

أما الاستعارة في اسم الإشارة فكقولك: «هذا حق» وأنت تعلم أن الإشارة للمحسوس، ولكننا استعرنا اسم الإشارة من المحسوس للمعقول بجامع تحقق الوجود في كل منهما على سبيل الاستعارة التبعية.

أرجو أن يكون قد استبان لك أمر هذه الاستعارة ولنواصل الحديث عن أقسامها، ولنصل الحديث عن أقسام الاستعارة بعضه ببعض.

التقسيم السادس: الاستعارة التمثيلية:

ما أظنك إلا أنك تذكر تشبيه التمثيل ولا زالت صَورُهُ الخلاّبة البديعة تحتل من نفسك محلّها، وتبعث فيك الإعجاب، والحق أن بين الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي

نسباً وصلة، فالتشبيه التمثيلي - كما رأيت - هو تشبيه مركب، وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، ليس إذن تشبيهاً مفرداً، كذلك الاستعارة التمثيلية، فأنواع الاستعارات التي مرت بك من قبل هي استعارات مفردة، ولذا فهي تسمى مجازاً مفرداً، ولذا يطلق بعضهم على الاستعارة التمثيلية اسم المجاز المركب.

الاستعارة التمثيلية إذن أن تشبه صورة بصورة لما بينهما من صلة من حيث المعنى ثم تحذف الصورة الأولى - المشبه - ويبقى المشبه به، خذ مثلاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، هدف الآية الكريمة - والله أعلم بمراده - توجيه للمسلمين أن لا ينشغلوا بغير ما يعود عليهم بالخير والفائدة، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم سيدنا رسول الله ﷺ عن الهلال ما باله يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ؟ فأرشدهم الله تبارك وتعالى إلى أنه من الأحرى بهم أن يسألوا عما يجديهم، وأن يعيشوا مع واقعهم، وأن تكون للأمور أولوياتها، فقال سبحانه: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ فقد شبهت حالة الذي يعنى بغير ما يجديه، وينشغل بغير واقعه، ويعطي الأولوية في البحث لما من شأنه التأخير، ويترك ما من شأنه أن يُبحث، - كما هو شأن أمتنا اليوم - شُبِّه حال هذا بحال الذي يأتي البيت من ظهره، فهو مضطر أن ينقب ويخرّب ليستطيع دخول البيت، وكان من حقه أن يلج البيت من بابه فهو أيسر من جهة، وليس فيه الضرر والخراب من جهة أخرى. فأنت ترى أنه قد ذكر المشبه به وهو من يأتي البيت من ظهره ولا يأتيه من بابه وهو صورة مركبة، ألا ما أحوج أمتنا إلى أن تعمل بهذا التوجيه الرباني؛ حتى تستطيع أن تدرك غايتها وتلحق بالركب قبل أن يفوت الأوان، وتصلح من شأنها قبل أن يتسع الخرق على الراقع، ليتها تنبذ هذه الخلافات الجانبية التي لا أقول: إنها لا تجديها شيئاً؛ بل إنها - ويعلم الله - تمزق ذاتها، وتُطمع فيها عدوّها فتهون عليه بعد أن تهون على الله تعالى.

ومن الاستعارة التمثيلية قول النبي ﷺ : «لا يُلدغُ المؤمن من جُحْرٍ مرتين»[1]. وقد قاله ﷺ لأبي عزَّة الشاعر، وقد كان يهجو الرسول ﷺ والمسلمين، فلما أُسِر أظهر الندم، فمنّ عليه النبي ﷺ ، ولكنه عاد بعد ذلك إلى سيرته الأولى، فلما أسر المرة الثانية، رغب أن يُمنّ عليه، فقال له الرسول ﷺ هذا القول العظيم، الذي صار مثلاً يضرب.

تلك هي الاستعارة التمثيلية وهي مما اشتُهر على ألسنة الناس حتى أولئك الذين لم يدرسوا البلاغة أو الاستعارة أو المجاز، ألا تسمعهم يقولون لمن يزاول أمراً يمكن أن يكون فيه خطر عليه وإضرار به: «فلان يلعب بالنار»، ويقولون فيمن لا يسير على سنن أبيه في الصفات الطيبة: «النار تخلف رماداً»، ويقولون في عكس هذا: «من الشوك يُجنى الورد»، وفيمن يعمل عملاً لا طائل تحته: «هو يحرث في البحر»، ويقولون في الخطأ يكون سببه كبير القوم: «إن التِّلْم الأعوج من الثور الكبير» يعنون الاعوجاج في حرث الأرض جاء من الثور الكبير لأنهم يحرثون على ثورين، ويقولون لمن باشر العمل بعد انتهائه: «يحج والناس راجعون»، ويقولون لمن لا يسد غيرُه مَسدّه: «إذا حضر الماء بطل التيمم».

والاستعارة التمثيلية يعدّونها من أكثر الاستعارات بلاغة وتأثيراً، وإذا اشتهرت صارت مثلاً، وحينئذ لا ينبغي أن يغيّر فيه شيء، والمثل هو ما شُبّه مضرِبُه بمورده، أي: تشبه الحالة التي ضرب لها بالحالة التي قيل فيها أول مرة، فإذا لم يحسن إنسان عمله ولقي من جراء ذلك ضرراً، قيل له: «يداك أوْكَتا وَفُوكَ نفخ» والوكاء الربط، وهذه الجملة قيلت أول مرة لرجل ملأ قربته من الماء، وبعد أن نفخها وربطها لم يحسن ربطها فلما رفعها حُلّ رباطُها، وسقطت من يده، فابتغى المساعدة من بعض الناس فقيل له: «يداك أوكتا وفوك نفخ» أي: يداك رطبتا القربة وفمك نفخها، فأصبح مثلاً يضرب لكل من تشبه حالته حالة ذلك الشخص.

وهذا مثل آخر يضرب لمن فوَّت فرصة وضيّع شيئاً كان ضمن إمكاناته: «الصيف ضيَعت اللبن» وقد قيل أول مرة لامرأة تركت زوجها وأبت أن ترجع إليه، ولكنها فيما بعد أدركت ندمها وطلبت الرجوع، فقال لها: «الصيف ضيَّعْتِ اللبن» فأصبح يضرب

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، ٥/ ٢٢٧١. ومسلم، كتاب (الزهد)، باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، ٤/ ٢٩.

مثلاً لكل من تشبه حالته حالة هذه المرأة، فإذا قيل لرجل أو رجال فإنه يقال كما ورد (بكسر التاء). ويقال لمن يظلم ظلماً مزدوجاً، ويحيف على الناس في أكثر من جهة: «أَحَشَفاً وسوءَ كَيْلَة» وسببه أن بعضهم اشترى تمراً فأعطاه البائع تمراً رديئاً من جهة، وبخسه الكيل من جهة ثانية، فقال له: «أحشفاً وسوء كيله» والحشف: التمر الرديء، فيضرب لكل من أشبهت حالته حالة ذلك الشخص.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم لمن يحاول شيئاً لا يستطيعه لعدم قدرته عليه: «تبتغي الصيد في عِرِّيسَة الأسد» وعريسة الأسد مكانه، ومن الاستعارة التمثيلية لمن عاد بعد سفر: «عاد السيف إلى قِرابه» ولمن وُسِّد إليه الأمر الذي يستحقه: «أخذ القوسَ باريها».

ومن الاستعارات التمثيلية قولهم: «فلان يرقم على الماء»، و«ينفخ في غير فحم»، و«يضرب في حديد بارد»، لمن يعمل العمل لا طائل تحته. ولا يُرجى منه خير.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم: «إنك لا تجني من الشوك العنب»، و«إنما تحصد ما تزرع»، شبهت حال من يريد الخير دون أن يعمل بأسبابه، ومن يرجو الشيء ممن ليس أهلاً له بحال من يريد عنباً من الشوك. ومنه قول الشاعر صالح بن عبدالقدوس:

إذا وَتَـرْتَ امْـرأً فَاحْـذَرْ عَدَاوَتَـهُ ... مَـنْ يَـزْرَعِ الـشَّوْكَ لا يَحْـصُدْ بِـهِ عِنَبـا

ومن الاستعارة التمثيلية قول الإمام الشافعي رضي الله عنه(١):

أأنْثُـرُ دُرّاً بَـيْنَ سَـارِحَةِ الغَـنَمْ ... وأُنْـشِدُ مَنْظُومـاً لِراعِيَـةِ الـنَّعَمْ

فقد شبه حال الذي يلقي الحِكم في غير أهلها، والعلم لمن لا يعرف قدره بمن ينثر الدر أمام الماشية، ومن الاستعارة التمثيلية ما يقال للحكيم يضع الأمور في نصابها: «أصاب المِحَزّ، وطَبَّق المفصل»، و«وضع الهَنَاءَ مواضع النَّقَب»، فقولهم: «أصاب المحز وطبق المفصل» يقال للجزار الذي يضرب بالسكين فيصيب بها المفصل الذي يسهل فيه الحزّ، وقولهم: «وضع الهناء موضع النقب» والهناء: القطران والنقب: جمع نقبة وهي محل الجرب في الإبل وهو داء يصيب الأنعام.

---

(١) ديوان الشافعي، ص١١١.

من الاستعارة التمثيلية قولهم: «قَبل الرِّماء تُملأ الكنائن» والكنانة هي ما توضع فيه السهام، فقد شبهوا حال الذي يريد أن يعمل عملاً قبل أن يعدّ له عدته بحال الذي يريد الرمي قبل أن يملأ كنانته بالسهام. ومن الاستعارة التمثيلية قولهم لمن قال قولاً حاسماً: «قطعتْ جَهيزَةُ قولَ كلِّ خطيب» وقولهم:

إذا قالَــــت حَــــذامِ فَـــصَدِّقُوها فَـــإنَّ القَـــوْلَ مَـــا قَالَـــتْ حَـــذَام

وقولهم: «عندَ جهينةَ الخبرُ اليقين»، ومن الاستعارة التمثيلية قول المتنبي[1]:

وَمَـــنْ يَـــكُ ذا فـــم مُـــرٍّ مَـــريضٍ يَجِـــدْ مُـــراً بِـــهِ المـــاءَ الـــزُّلالاَ

يقال لمن لا يفرق بين الجيّد والرديء، لأن المتنبي قاله لمن يعيبون عليه شعره.

وأظنك لا يعسر عليك بعد ما عرفت إجراء هذه الاستعارة، وأنت تجد أن المشبه فيها قد حذف، وذكر المشبه به حيث استعير لفظه للمشبه، ويمكنك أن تجعل من هذه الاستعارة قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد:٤]، فالمشبه إطفاء نار الكفر.

هل هناك مجاز مركب غير الاستعارة ؟

ونتساءل الآن، وقد عرفنا من قبل أن المجاز اللغوي إما أن يكون الاستعارة أو مجازاً مرسلاً، نتساءل: هل المجاز المركب في الاستعارة وحدها فحسب؟

أكثر الكاتبين من الأقدمين يرون أن المجاز المركب كما يكون في الاستعارة يكون في المجاز المرسل كذلك، وإن كان كثير من المحدَثين لا يشير إلى هذا الموضوع، فالمجاز المرسل عندهم قسمان: (مفرد): وهو الذي حدثناك عنه من قبل، و(مركب): ويعنون به كل جملة خرجت في معناها عن غرضها الأساسي، ولنرجع بك ولترجع أنت بذاكرتك كذلك إلى علم المعاني.

عرفت هناك أن الغرض الأساسي من إلقاء الخبر أمران اثنان: الفائدة، ولازم الفائدة[2]، ولكنك عرفت أن هذا الخبر قد يخرج عن هذين الغرضين الأساسيين إلى

---

(١) ديوان المتنبي، ج٣، ص٢٤٤، الزلال: العذب الصافي الذي يزل في الحلق.

(٢) راجع كتاب (البلاغة فنونها وأفنانها)، ج١، ص١٠٨، أو كتاب (أساليب البيان)، ص٣٨ للمؤلف.

أغراض كثيرة تُعرف من السياق، وقد ذكرنا لك هناك جملة من هذه الأغراض كالتحسر، والاستعطاف، وإظهار الضعف إلى غير ذلك من الأغراض الكثيرة، فقوله سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤]، وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران:١٨٥]، هذه الجمل وأمثالها خرج الخبر فيها عن حقيقته، وكل جملة من هذا النوع استعملت في غير ما وضعت له لأن الخبر وضع للفائدة أو لازمها، فإذا دلّ على شي آخر، فإن هذه الدلالة لا تكون حقيقية، ألم نعرّف المجاز بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له؟ وهذه الجملة الخبرية استعملت في غير ما وضعت له، ومثل هذا الاستعمال يعدّونه مجازاً مرسلاً مركباً. ولما كان المجاز المرسل متعدد العلاقات - كما عرفت من قبل -فإن مثل هذه الجمل تكون العلاقة فيها اللزومية، لأن كلاًّ من التحسر، والضعف، والاستعطاف وما أشبهها لازم للخبر.

خلاصة القول: إن كل جملة خبرية لم يكن الغرض منها الفائدة أو لازمها هي مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، ولا تظنن هذا في الجمل الخبرية وحدها فهو في الجمل الإنشائية كذلك، وقد عرفت من قبل أن الجمل الإنشائية قد تخرج عن موضوعها الأساسي وغرضها الأصلي(١). عرفت مثلاً: أن أدوات الاستفهام وهو من الإنشاء قد تخرج إلى معانٍ كثيرة غير الاستفهام، وكذلك الأمر والنهي، والتمني والنداء، فأيُّ قسم خرج عن معناه الذي وضع له، وغرضه الذي سيق من أجله فهو مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، فإذا قصد من الاستفهام النفي أو التقرير أو التعجب أو أي غرضٍ آخر فهو مجاز مرسل مركب، وكذلك الأمر إذ قصد به التهديد، أو الإرشاد أو التعجيز، فهو مجاز مرسل مركب. وقل هذا في أقسام الإنشاء جميعها.

وعلى هذا تدرك أن قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية لأن صيغة الاستفهام خرجت عن حقيقتها التي وضعت لها إلى معنى آخر هو الأمر، لأن المعنى (انْتَهُوا). وأن قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾ [التوبة:١٣]، مجاز

---

(١) راجع كتاب (البلاغة فنونها وأفنانها)، ج١، للمؤلف، ص١٥٤، ١٥٨، ١٦٢، ١٧١، ١٩٧، أو كتاب (أساليب البيان)، ص٥٨، ٦١، ٦٦، ٨٢ للمؤلف أيضاً.

مرسل مركب لأن الاستفهام خرج عن حقيقته إلى شيء آخر وهو النهي، وأن قول أبي ريشة:

أُمَّتِـــي هَـــلْ لـــكِ بَـــينَ الأُمَـــم مِنْـــبرٌ لِلـــسيْفِ أو لِلْقَلَـــم

مجاز مرسل مركب لأن أداة الاستفهام خرجت عن حقيقتها إلى معنىً آخر وهو التقريع. وأن قوله سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت:٤٠]، مجاز مرسل مركب، لأن صيغة الأمر فيه خرجت عن مدلولها الذي وضعت له إلى معنىً آخر وهو التهديد، والعلاقة في هذا كله اللزومية، هذه المعاني الفرعية لازمة للمعاني الأصلية الرئيسة التي وضعت لها هذه الصيغ أعني الاستفهام والأمر وغيرهما.

ومن هنا تدرك أن المجاز قسمان: مفرد ومركب، وكما قُسِّم المفرد إلى استعارة ومجاز مرسل، يقسم المركب أيضاً إلى استعارة ومجاز مرسل، إلا أن الاستعارة تسمى تمثيلية فهي فرع عن تشبيه التمثيل، والمجاز المرسل المركب لا يسمى كذلك، وأن هذا المجاز يكون في جملة خبرية أو إنشائية خرجت عن معناها الأصلي. ولنعد الآن لنحدثك عما بقي من أقسام الاستعارة.

التقسيم السابع: تقسيمها من حيث الجامع:

الجامع في الاستعارة هو ذلك الذي سميناه وجه الشبه في التشبيه، وإنما كان جامعاً لأننا بوساطته استطعنا أن نجمع بين حقيقتين بعيدة كل منهما عن صاحبتها، وإلا فكيف استعرنا الصدع للتبليغ، والموج للحركة، والطغيان لارتفاع الماء، والشمس للحسناء، والسحاب للجواد، في كل من هذه الأمثلة حقيقتان أو شيئان متباعدان كالشق والتبليغ مثلاً، أو الشمس والحسناء، وهذا الجامع ينبغي أن يكون في المستعار منه وهو المشبه به أقوى منه في المستعار له وهو المشبه.

١ - وقد عرفت أن هذا الجامع قد يكون محسوساً إذا كان طرفا الاستعارة حسيين مثل قوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:٣٧]، وقد يكون معقولاً كقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٨] كما مر معك من قبل فارجع إليها إن شئت.

٢- كما أن هذا الجامع قد يكون داخلاً في مفهوم الطرفين أعني المستعار له والمستعار منه، وتسمى الاستعارة الداخلية، وقد لا يكون كذلك، بل يكون صفة مشتركة بينهما، ومثال هذا - أعني كونه صفة مشتركة - قولك: «رأيت أسداً يحمي شمساً من الذئاب» - فهذه استعارات ثلاث - فالجامع وهو الشجاعة في الاستعارة الأولى، والحسن في الاستعارة الثانية، والغدر في الثالثة. كل هذه صفات مشتركة بين طرفي الاستعارة، المستعار منه والمستعار له، فالشجاعة صفة مشتركة بين الأسد والرجل، كذلك الحسن بين الشمس والفتاة، والغدر بين الإنسان وبين الذئب.

الجامع هنا ليس داخلاً في مفهوم أحد الطرفين، ولعلك تتساءل: ما معنى كونه ليس داخلاً في مفهوم أحد الطرفين؟ وإليك الجواب:

مفهوم أي شيء هو تعريفه وحقيقته، فمفهوم الإنسان الحيوان المفكر الناطق، أو الجسم الحسّاس المتحرك بالإرادة، ومفهوم الأسد الحيوان المفترس، ومفهوم المسجد البناء المعدّ للعبادة، والجامع الذي ذكرناه في الأمثلة السابقة ليس داخلاً في مفهوم أي من الطرفين، فالشجاعة ليست داخلة في مفهوم الإنسان ولا الأسد، وكذلك الحُسن ليس داخلاً في مفهوم الشمس ولا المرأة، لأننا حينما نعرفهما لا نجد كلمة الحسن جزءاً من التعريف. وإذا عرفت هذا فلنرجع إلى القسم الأول وهو ما كان الجامع فيه داخلاً في طرفي الاستعارة.

استمع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٨]، وإلى قوله ﷺ يبين لنا أن خير الناس: «رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعنانِ فَرَسِهِ كُلّما سَمِعَ هَيْعَةً طارَ إلَيْها»[(١)]، وإلى قول الحماسي:

قَـوْمٌ إذا الـشَّرُّ أَبْـدَى ناجِذَيْـهِ لَهُـمْ ... طَـارُوا إِلَيْـهِ زُرَافـاتٍ وَوُحْـدانا

ففي الآية الكريمة استعير التقطيع للتفريق، لأن المراد: (وفرقناهم في الأرض)، والجامع بين التقطيع والتفريق هو انفكاك الأجزاء بعضها عن بعض، وهو في التقطيع أشد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب (فضل الجهاد والرباط) ٣/ ١٥٠٣. ممسك بعنان الفرس، أي: متأهب ومنتظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله. هيعة: الصوت عند حضور العدو.

وأقوى، وهذا الجامع تجده أمراً لا بد منه في مفهوم كل من التقطيع والتفريق، وإذا أردت أن تعرّف التقطيع، عرفته بأنه زوال الأجزاء بعضها عن بعض وكذلك التفريق.

وكذلك في قول النبي ﷺ، استعير الطيران للعَدْوِ، والجامع وهو الإسراع في الحركة للوصول إلى الهدف داخل في مفهوم كل من الطيران والعَدْوِ، ويمكننا أن نجري هذا في قوله سبحانه: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:١٩]، إذا فسرنا التمزيق بالتفريق.

٣- وتنقسم الاستعارة باعتبار الجامع تقسيماً ثالثاً وهو الذي يعنينا أكثر من غيره لما له من أثر في الاستعارة وحسنها وجمالها، وهو تقسيمها من حيث الجامع إلى قريبة وبعيدة أو عامية وخاصية، وبعضهم يطلق على القريبة: (المُبْتَذَلَة) وما نظن أن كل قريبة كذلك. ونرجع بك لتستذكر الحديث عن التشبيه حينما قسمناه إلى قريب وغريب وذكرنا أسباب الغرابة، وعلى ضوء ما قررناه هناك يمكنك أن تدرك أن كل استعارة لا يكون الجامع فيها أمراً يحتاج إلى تأمل، فهي استعارة قريبة كقولك: «رأيت شمساً»، و«وردت بحراً» وأن كل استعارة كان الجامع فيها أمراً يحتاج إلى تأمل واستنتاج، فهي استعارة خاصية، يقول الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله -:

«اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى أنك تجدُ في الاستعارة العاميّ المبتذل كقولنا: «رأيت أسداً»، و«وردت بحراً»، و«لقيت بدراً» والخاصّيّ النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه أفراد الرجال كقوله:

وَسَالَتْ بِأعْنَاقِ المَطِيِّ الأبَاطِحُ[1]

---

(١) هذا عجز بيت مختلف في نسبته وهو:

أخَذْنا بأطْرافِ الأحاديثِ بَيْنَنَا ... وسالَت بأعْناقِ المَطي الأباطحُ

والمطي: جمع مطية وهي الدواب والأنعام، والأباطح: جمع بطحاء: وهي الأودية. فهو يقول: إن تلك الأودية لم يجر فيها الماء وإنما جرت فيها أعناق تلك المطي، وعبّر بالأعناق كنايةً عن كثرتها وازدحامها وسرعتها في المشي.

أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة. وكانت سرعةً في لين وسلاسة، حتى كأنها كانت سيولاً وقعت في تلك الأباطح فجرت بها، ومثل هذه الاستعارة في الحُسْنِ واللطف وعلوِّ الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعابُ الحَيِّ حِينَ دَعا ... أَنْصارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنانِيرِ[1]

أراد أنه مطاع في الحي، وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحربٍ أو نازل خَطْبٍ، إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ها هنا وها هنا، وتنصبُّ من هذا المسيل وذلك حتى يَغَصّ بها الوادي ويطفح منها.

ومن بديع الاستعارة ونادرها، إلا أن جهة الغرابة فيه غير جهتها في هذا، قول يزيد ابن مسلمة بن عبدالملك[2] يصف فرساً له، بأنه مؤدَّب، وأنه إذا نزل عنه وألقى عِنانه في قَربوس[3] سرجه، وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

عَوَّدْتُهُ فِيما أَزُورُ حَبَائِبي ... إِهْمالَهُ وكَذاكَ كُلُّ مُخاطِرِ
وإذا احْتَبَى قَرَبُوسُهُ بِعَنانِهِ ... عَلَكَ الشَّكِيمَ إلى انْصِرافِ الزَّائِرِ[4]

---

(١) بوجوه كالدنانير، أي: مشرقةً متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم وزهواً بزعيمهم، ولو كانوا خائفين لجاؤوا متثاقلين بوجوهٍ باسرة عليها غبرة الخوف وظلمة الكآبة.

(٢) لا يوجد ذكر لشاعر بهذا الاسم ولعل الصواب أنه لمحمد بن يزيد بن مسلمة بن عبدالملك بن مروان، انظر دلائل الإعجاز، تحقيق ياسين الأيوبي، هامش ص١٢١.

(٣) القربوس: هو حِنْو السرج، أي: الأعواد المعوجة من عيدانه.

(٤) الاحتباء: هو أن يُشدَّ الرجل ركبتيه إلى بطنه بنحو ثوبٍ يمتد من جانبيه إلى ظهره. ويحتمل أن يكون فاعل احتبى هو (القربوس) بتنزيله منزلة الرجل المحتبي، فكأن القربوس ضمَّ الفرس ورأسه إليه بالعنان كما يضم المحتبي ركبتيه إليه، ويحتمل أن يكون (قربوسه) مفعول (احتبى) مضمناً معنى (جمع) ويكون الفاعل ضميراً عائداً على الفرس، والمعنى: جمع هذا الفرس قربوسه إليه بعنانه كما يضم المحتبي ركبتيه إليه بثوب ونحوه، والاحتمال الثاني أتمُّ وأدخل في تحقيق التشابه؛ لأن القربوس في الهيئة أعلى من فم الفرس، وهذه الحالة هي التي تنطبق على حالة الاحتباء، إذ إن ركبتي المحتبي تكونان في الهيئة أعلى من ظهره، والعنان: اللجام، والشكيم والشكيمة: في لجام الفرس هي الحديدة المعترضة في فم الفرس، وقد أراد بالزائر نفسه، وإنما عبر عن نفسه بالزائر لدلالته على كمال تأدب فرسه. انظر: المنهاج الواضح، حامد عوني، ٣/ ٢٤٢.

فالغرابة ها هنا في الشبه نفسه وفي أن استدرك أن هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج، كالهيئة في موضع الثوب من ركبة المُحْتَبي، وليست الغرابة في قوله:

وســالت بأعنــاق المطــي الأبــاطحُ

على هذه الجملة[1] وذلك أنه لم يُغرب لأنْ جَعَلَ المطيَّ في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطُح فإن هذا شَبَهٌ معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل (سال) فعلاً للأباطح، ثم عداه بالباء، بأن أدخل الأعناق في البين فقال: «بأعناق المطي» ولم يقل: بالمطي، ولو قال: سالت المطيّ في الأباطح، لم يكن شيئاً. وكذلك الغرابة في البيت الآخر ليس في مطلق معنى سال، ولكن في تعديته بعلى والباء، وبأن جعله فعلاً لقوله: «شِعاب الحيِّ» ولولا هذه الأمور كلُّها لم يكن هذا الحُسْن، وهذا موضع يَدِق الكلام فيه. وهذه أشياء من هذا الفن.

اليـومُ يَوْمـانِ مُـذْ غُيِّبْـتَ عَـنْ بَـصَري ... نَفْـسِي فِـداؤُكَ مـا ذَنْبِـي فَأعْتَـذِرُ
أُمْـسِي وَأُصْـبِحُ لا أَلْقـاكَ واحزَنـا ... لَقَـدْ تَـأنَّقَ في مَكْرُوهِـيَ القَـدَرُ[2]

سوّارُ بن المضرَّب وهو لطيف جداً:

بِعَــرْضِ تَنُوفَــةٍ للــرِّيح فيهــا ... نَـسيمٌ لا يَـرُوعُ الـتُّرْبَ وَانِ[3]

بعض الأعراب[4]:

وَلَـرُبَّ خَـصْمٍ جاهِـدِينَ ذَوِي شَـذًا ... تَقْـذِي عُيُـونُهُمُ بِهِـتْرٍ هـاتِرِ

---

(١) أي: على هذا النمط.

(٢) اليوم يومان: يريد أن طول اليوم تضاعف عليه لألم البُعد، تأنق في مكروهي القدرُ، أي: تفنن في تعذيبي القدرُ، تأنق في الشيء، أي: أتقنه وجودّه وتفنن فيه.

(٣) تنوفة: الأرض الواسعة البعيدة الأطراف التي لا ما ء بها ولا أنيس، وانٍ: من الونَى وهو الضعف أو التعب، فانظر كيف وصف النسيم بالضعف والتعب لأنه لا يثير التراب، وانظر إلى تعبيره عن إثارة التراب بـ (يروع).

(٤) وهو ثعلبة بن صُعَير ويقال: ابن أبي صعير، المفضليات رقم (٤).

لُــدٍّ ظَــأَرْتَهُمُ عــلى مـا سـاءَهُم ... وَخَـسَأْتَ بـاطِلَهُم بحـقٍّ ظـاهِرِ[1]

ابن المعتز[2]:

حتـى إذا مـا عَـرَفَ الـصَّيْدَ انْـصارْ ... وأَذِنَ الـصبحُ لنـا في الإبـصارْ[3]

المعنى: حتى إذا تهيأ لنا أن نبصر شيئاً، لما كان تعذُّرُ الإبصار منعاً من الليل، جعل إمكانه عند ظهور الصبح إذناً من الصبح. وله[4]:

بَخِيْـلٌ قَـدْ بُلِيـتُ بِـهِ ... يَكُـدُّ الوَعْـدَ بـالحُجَج[5]

وله[6]:

يُنـاجِينيَ الإخْـلافُ مِـنْ تَحْتِ مَطْلِـهِ ... فَتَخْتَصِمُ الآمـالُ واليَـأْسُ في صَـدْرِي[7]

ومما هو في غاية الحُسْنِ - وهو من هذا الفن - قول الشاعر وأنشده الجاحظ[8]:

لَقَـدْ كُنْـتَ في قَـوْمٍ عَلَيْـكَ أَشِـحَّةٍ ... بِنَفْـسِكَ إلاّ أَنَّ مَـا طَـاحَ طَـائِحُ

يَـوَدُّونَ لَـوْ خـاطُوا عَلَيْـكَ جُلُـودَهُمْ ... وَلا تَـدْفَعُ المَـوْتَ النُّفُـوسُ الـشَّحَائِحُ[9]

---

(١) الشذا: حدة الأذى والشر، تَقذِي عيونهم، أي: تقذف القذى وهو الوسخ الأبيض في مجرى الدمع. وهناك رواية (تقذي صدورهم) الهتر: سقط القول وباطله. اللُّدّ: جمع ألد وهو الشديد الخصومة، والظأر: أن تجعل أربع نياق فأكثر على حوارٍ واحد ترضعه، يريد أنه جمع عليهم حججاً كثيرة، وفي كتب اللغة ظأره على ما يسوءه: أكرهه على الشيء وأصله: حَمْلُ الناقة على إرضاع حوارٍ غيرها.

(٢) ديوانه (من الطرديات)، ص٢٧.

(٣) في الديوان: (حتى إذا ما عرف الصيد الضّار) وهو الصواب، أي: الضاري: وهو الكلب، ومعنى (انصار)، أي: انضم وانجمع أو مال، يصف بازي الصيد.

(٤) ديوانه، ١/ ٣٣١.

(٥) يكد الوعد بالحجج، أي: يدفع الوعد بإيراد الحجج، وهناك رواية أخرى وهي:

بخيـلٌ قـد (شـقيتُ) بـه ... يكـد الوعـد (بـاللجج)

واللجج هو التمادي في العناد

(٦) ديوانه ٢/ ٢٥٩.

(٧) الإخلاف: إخلاف الوعد، المطل: المماطلة بالوعد وعدم الوفاء به.

(٨) البيان والتبيين ١/ ٥٠.

(٩) طاح: هلك، أي: ما هلك، وقُدِّر له الهلاك فهو طائح؛ أي: هالك لا محالة، لا يردُّ عنه الهلاك رادٌّ.

قال: وإليه ذهب بشار في قوله[1]:

وَصَاحِبٍ كَالدُّمَّلِ المُمِدِّ حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي

ومن سرِّ هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك مَلاحةً لا تجدها في الباقي، ومثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة (الجسر) في قول أبي تمام[2]:

لاَ يَطْمَعُ المَرْءُ أَنْ يَجْتَابَ لُجَّتَهُ بِالقَوْلِ مَا لَمْ يَكُنْ جِسْراً لَهُ العَمَلُ

وقوله[3]:

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ العُظْمَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إلاّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

فترى له في الثاني حسناً لا تراه في الأول، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرَّقّيّ[4]:

قُولِي نَعَمْ، ونَعَمْ إنْ قُلْتِ واجِبَةٌ قالَتْ عَسَى، وَعَسَى جِسْرٌ إلى نَعَمِ

فترى لها لطفاً وخِلابةً وحسناً ليس الفضل فيه بقليل.

ومما هو أصل في شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصداً إلى أن يُلحِق الشكلَ بالشكل، وأن يُتِمَّ المعنى والشبه فيما يريد. مثاله قول امرئ القيس[5]:

فَقُلْتُ لَهُ لَمّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

لما جعل لليل صلباً قد تمطَّى به، ثَنَّى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصُّلْب، وثلَّث فجعل له كلكلاً قد ناء به، فاستوفى له جُمْلَةَ أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قُدّامه، وإذا نظر إلى خلفه وإذا رفع البصر ومدَّه في عرض الجو»[6].

---

(١) ديوانه ١/ ٢٢٧، المُمِدّ: من أمد الجرح، أي: حصلت فيه المِدة، وهي ما يجتمع في الجرح أو الدمل من قيح.

(٢) ديوانه ١/ ٢٠٠، والقصيدة في مدح المعتصم بالله، يجتاب: يقطع المسافة، واللجة: معظم الماء.

(٣) ديوانه، ١/ ١٧، والقصيدة في مدح المعتصم أيضاً.

(٤) ديوانه ص٩١.

(٥) سبق شرح البيت، ص١٤١.

(٦) دلائل الإعجاز، ص١١٧.

ومن كلام الشيخ ندرك أن الاستعارة قد تكون قريبة من حيث الجامع، ولكن مجيئها على نظم مخصوص يكسبها جمالاً وروعة، ويزيدها حسناً وإبداعاً، وقد مثل الشيخ بما سمعت من قبل (وسالت بأعناق المطيّ الأباطح) وبقول الآخر:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا ... أنْصارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنانيرِ

وأنت تعلم أن استعارة السيل لسرعة السير أمر مألوف ومعروف، ولكن القالب الذي وضعت فيه الاستعارة أكسبها هذه القشابة[1] والطلاوة، فلم يقل: سالت المطيُّ بالأباطح، ولم يقل: (سال عليها أنصاره) لو قيل هذا لكانت الاستعارة قريبة ليس فيها رَوْح حسن ولا ريح عطر، لكنه أسند السيل للأباطح مع أنه حريّ به أن يسند للمطي، ثم ذكر كلمة الأعناق وهي لفتة من الشيخ أفاد منها كل من جاء بعده.

وقد تكون الاستعارة قريبةً كذلك، إلا أنها تتضمن معنىً لتصبح ذات غرابة فتدخل في سلك الاستعارات البعيدة الخاصة. انظر إلى قول المتنبي[2]:

لم تَلْقَ هذا الوَجْهَ شَمْسُ نَهارِنا ... إلاّ بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَياءُ

ألا ترى أن قوله: «ليس فيه حياء» هو الذي خلع على هذا البيت الحياة.

والخلاصة: أن الاستعارة الخاصة هي التي يبدع فيه المتكلم، فيجمع بين الأشياء التي تكون أكثر غرابة، انظر إلى قول كُثيّر يمدح عبدالعزيز بن مروان[3]:

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تَبَسَّمَ ضاحِكاً ... غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقابُ المالِ

ألا ترى أن استعارة الرداء للعطاء لا يفطن لها كل واحد، فكما أن الرداء يستر صاحبه ويقيه كل شر؛ فإن العطاء كذلك يردّ عنه كثيراً من المثالب.

---

(١) القشيب: الشيء الجديد النظيف الحسن.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ١٥٥، يقول: لا حاجة للشمس مع ضيائك ونورك، ومن ثم كان طلوعها وقاحةً منها وقلة حياء، واستعار للشمس وجهاً للمشاكلة.

(٣) شروح التلخيص ٤/ ٣٥٥، الإيضاح ٢/ ١٧١، غمرُ الرداء: كناية عن الكرم وسعة الفضل، غلقت، أي: استحقت لسواه كما يقال: (غلق الرهن) أي: أصبح المرهون حقاً للراهن، رقاب المال: أي: أزمّتها، فقد شبهها بالماشية، والمعنى (أن من كرمه أن مجرد ابتسامة في وجه من يسأله تكفي لأن يصبح المال حقاً للسائل).

ومن الاستعارات البديعة الغريبة ما ذكره صاحب العمدة لطُفَيْل الغَنْوي، وهو ممن أعجب به أئمة اللغة كثعلب وغيره[1]:

فَوَضَعْتُ رَحْلِي فَوْقَ ناجِيَةٍ   يَقْتاتُ شَحْمَ سَنامِها الرَّحْلُ

وفي رواية (جَعَلْتُ كُورِي فَوْقَ ناجِيةٍ)، والناجية الناقة السريعة، وهو كناية عن أنه كثير الأسفار لا يريح ناقته أبداً، والاستعارة التي تعنينا في قوله: «يقتات شحم سنامها الرحلُ»، أن وجود الرحل على الناقة دائماً ينتقص من شحم سنامها، ذلك لما في كثرة السفر وطوله من المشقة على الناقة، فعبر عن انتقاص الرحل من الشحم بالاقتيات، فشبه الانتقاص بالاقتيات لأن في كليهما إزالة، فالاقتيات فيه إزالة للقوت وكذلك الانتقاص، ثم اشتق من الاقتيات (يقتات) بمعنى (ينتقص)، وهي استعارة تصريحية تبعية كما عرفت، ولك أن تجري الاستعارة بوجه آخر، وهو أن يشبه الرحل بذي حياة، ويحذف المشبه به ويرمز له بشيء من لوازمه وهو (يقتات) على سبيل الاستعارة الأصلية المكنية، وإسناد الاقتيات إلى الرحل استعارة تخييلية، فانظر أي الطريقين تبتهج بها نفسك ولا تنسَ القاعدة التي أرشدتك إليها من قبل.

وفي هذا المعنى يقول كلثوم بن عمرو العتابي:

وَمِنْ فَوْقِ أكْوارِ المَهارَى لُبانَةٌ   أَحَلَّ لَهَا أكْلَ الذُّرى وَالغَوارِبِ[2]

والذرى والغوارب: جمع ذروة، وغارب: ومنه المثل: «لا زال يفتل له في الذروة والغارب» وهو مثل يضرب لمن يتصنع ويتلطف لإنسانٍ ما حتى يبلغ حاجته منه، شبهت حاله بحال من يتلطف للبعير حتى يذلله، فهي استعارة تمثيلية.

وشبيه به قول أبي تمام[3]:

---

(١) العمدة لابن رشيق، ١/ ٢٧٤.

(٢) المرجع السابق، أكوار: جمع كُوْر: وهو القطيع من الإبل أو البقر المهارى: وفي رواية المطايا، لبانةٌ: الحاجة من غير فاقة، الذرى: جمع ذروة: وهي أعلى السنام، الغوارب: جمع غارب: وهو السنام.

(٣) ديوان أبي تمام ١/ ٢٠٩، والبيت من قصيدة في مدح أبي دلف القاسم العجلي، الغوارب: مرّ في البيت السابق. يقول: إنهم أرهقوا المطايا وأنهكوها في السير حتى ذابت أسنمتها وبدوا وهم على متونها كأنهم أسنمةٌ لها.

فَقَـدْ أَكَلُـوا مِنْهَـا الغَـوَارِبَ بِالـسُّرى   فَـصَارَتْ لَهَـا أشْـبَاحُهُمْ كَـالغَوَارِبِ

وزاد أبو تمام على صاحبيه تشبيهاً بديعاً كما رأيت.

ومن الاستعارة الخاصية قول الشاعر:

عَزَماتُـــهُ مِثْـــلُ النُّجُـــوم ثَواقِبـــاً   لَـــوْ لَمْ يَكُـــنْ للثاقِبـــاتِ أُفُـــولُ[1]

«فإن تشبيه العزم بالنجوم في الثقوب - وهو النفوذ - مبتذلٌ قريب، ولكن وصف الأفول وعروضه للثاقبات دون العزمات، وما في ذلك من الدلالة على أن المشبه أتم من المشبه به في وجه الشبه. أبرز التشبيه في صورة ممتعة وكساه خيالاً بديعاً رائعاً»[2].

ويُعدّ من هذا الضرب قولُ أبي دلامة يصف بغلته[3]:

أرى الـــشَّهْباءَ تَعْجِـــنُ إذْ غَـــدَوْنا   بِرِجْلَيْهـــــا وَتَخْبُـــــزُ باليَـــــدَيْنِ

«شبه حركة رجليها حين لم تثبتا على موضع تعتمدُ بها عليه، وهوتا ذاهبتين نحو يديها بحركة يدي العاجن فإنها لا تثبتان في موضع بل تزلاّن إلى قُدّام لرخاوة العجين، وشبه حركة يديها بحركة يدي الخابز، فإنه يثني يده نحو بطنه، ويحدث فيها ضرباً من التقويس»[4].

وبالجملة فإن في أثناء تراثنا الأدبي كثيراً من هذه الاستعارات البديعة ونرجو أن يكون ما ذكرناه نافعاً لك، ودافعاً يدفعك للتنقيب ويدفع عنك التثريب.

لا تَقُـــلْ قَـــدْ ذَهَبَـــتْ أرْبابُـــهُ   كُـلُّ مَـنْ سـارَ عَـلَى الـدَّرْبِ وَصَـلْ

---

(١) عزماته: جمع عزمة وهي التصحيح والعزم، الثواقب: النافذ في الظلمات، الأفول: الغروب، وجواب الشرط محذوف تقديره: (لتم التشبيه).

(٢) المنهاج الواضح، حامد عوني، ٣/ ١٥٩.

(٣) شروح الإيضاح ٥/ ٣٩.

(٤) أسرار البلاغة، ص٢٣٠.

التقسيم الثامن: تقسيم الاستعارة باعتبار الملائم إلى مرشّحة ومجرّدة ومطلقة:

هذا التقسيم للاستعارة ليس باعتبار أحد أجزائها، وليس باعتبار الطرفين، وليس باعتبار الجامع كذلك، وإنما هو باعتبار ما يناسب ويلائم أحد طرفي الاستعارة - أعني المستعار له أو المستعار منه - ، ولذا آثرت تأخير هذا التقسيم، لأنه يتعلق بشيء خارج أركان الاستعارة وعناصرها، وهو مما يدق مسلكه، لذا أرجو أن تتنبه له فتُجِدَّ له سيرك، وتُكِدَّ له فكرك وهو حري بذلك كله.

عرفت أن أركان الاستعارة: المستعار والمستعار منه والمستعار له، فالمستعار هو لفظ المشبه به، والمستعار منه معناه، والمستعار له هو المشبه، وإذا نظرت إلى أي استعارة ما، سواء كان مما ذكرناه لك، أم مما لم يذكر فإنك ستجد أنها قد يذكر معها ما يناسب المشبه به - أعني المستعار والمستعار منه - ، أو ما يناسب المشبه وهو المستعار له، بيان ذلك:

إن الاستعارة جمعت بين حقيقتين مختلفتين، وكل منهما لها أوصاف خاصة بها، فالمستعار له، له أوصاف تختص به لا يتصف بها المستعار منه، كذلك المستعارُ منه يتصف بأوصاف لا يمكن أن يتصف بها المستعار له، إذا قلت: «رأيت بحراً» فالمستعار وهو البحر له أوصاف خاصة به كتلاطم الأمواج، واللجة، والساحل، والعمق، وكثرة الدرّ، والمستعار له وهو الإنسان له أوصاف خاصة به كذلك كالمشي، والعطاء باليدين، والابتسام. وإذا قلت: «رأيت أسداً» فإن المستعار منه وهو الأسد له أوصافه الخاصة به كالزئير، وتلبد الشعر، وطول الأظفار. وللمستعار له، له أوصاف خاصة به كذلك، كالضرب بالسيف، والرمي بالنبال، وحمل السلاح، وإذا قلت: «رأيت شمساً» فإن المستعار وهو الشمس له أوصافه الخاصة به كالتوهج والرفعة، والمستعار له، له أوصافه كذلك كالتبسم والمشي والحياء.

ومما ييسر لك هذا الأمر أن نذكرك بقرينة الاستعارة وبخاصة في قسميها التصريحية والمكنية، إن أي استعارة تصريحية إذا بحثت عن قرينتها فإن هذه القرينة هي مما يلائم المشبه ويناسبه، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف:٩٩]، هذه استعارة تصريحية، لأنه شبه اضطراب يأجوج ومأجوج بالموج، وإذا

بحثت عن قرينة هذه الاستعارة فلن تجدها إلا كلمة (بعضهم) و(في بعض) وأظنك لا ترتاب بأن هذا يلائم المشبه ولا يلائم المشبه به.

وإذا نظرت إلى قوله:

شـــمس تظللنـــي مـــن الـــشمس

فإن القرينة هنا (تظللني) وهي مما يلائم المشبه، وإذا قرأت قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [البقرة:١٦]، فهذه استعارة تصريحية لأنه شبه الاستبدال بالاشتراء، والقرينة (الضلالة) وهي مما يلائم المشبه، وأخيراً:

فقلـــت إليـــكَ إن مَعـــي الـــسَّحابا

استعارة تصريحية والقرينة (معي) وهي تلائم المشبه.

أما الاستعارة المكنية فلقد عرفت أنها هي التي يحذف منها المشبه به، ويرمز له بشيء من لوازمه، فالقرينة في الاستعارة المكنية تلائم المشبه به. ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤]، وقوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧]، وقول الشاعر:

وإذا المنيّـــــة أنـــــشبت أظفارهـــــا

وقد ذكرنا لك هذا من قبل.

قرينة الاستعارة التصريحية تلائم المشبه إذن، وقرينة الاستعارة المكنية تلائم المشبه به، إلا أننا في تقسيمنا هذا نبحث عن شيء غير القرينة زائد عليها، فهم يقسمون الاستعارة بعد استيفاء قرينتها إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، ذلك أن الاستعارة إذا ذكر معها ما يلائم ويناسب المشبه به فهي المرشحة أو الموشحة، والترشيح هو التقوية، يقال: رشّحت الصبي باللبن إذا قويته، وإنما كانت كذلك، لأن الاستعارة قائمة على تناسي التشبيه، وأنت تستعير لفظ المشبه به للمشبه، فإذا ذكرت معها ما يلائم المشبه به فقد زدتها قوة لأنك تناسيت المشبه تناسياً تاماً. أما إذا ذكر مع الاستعارة ما يلائم المشبه فهي استعارة مجردة لأنك جردتها مما يناسب المشبه به، ونزلت بها عن رتبتها السابقة بذكرك

معها ما يلائم المشبه، فكأنك تشير إليه وتذكّر به من نسيهُ. أما إذا لم يذكر معها شيء من هذين - أي: ما يلائم المشبه به أو المشبه - فهي الاستعارة المطلقة، وإنما كانت مطلقة لخلوها عن الترشيح والتجريد، وهناك حالة ثانية للمطلقة كذلك، وهي أن يُذكر معها الأمران، أي: ما يلائم المشبه به وما يلائم المشبه، ومن هنا تدرك أن قرينة الاستعارة التصريحية، وإن كانت تلائم المشبه إلا أن الاستعارة لا تسمى مجردة، وأن قرينة الاستعارة المكنية وإن كانت تلائم المشبه به إلا أن الاستعارة لا تسمى مرشحة، لأن الترشيح والتجريد لا يكون لهما دور إلا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها. وأعلى هذه المراتب الترشيح ثم الإطلاق، وأضعفها التجريد لما عرفت من قبل.

خلاصة القول: إن الاستعارة تنقسم إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، فالمرشحة ما ذكر معها ما يلائم المشبه به، والمجردة ما ذكر معها ما يلائم المشبه، والمطلقة ما لم يذكر معها شيء، أو ذكر الملائمان معاً، والترشيح والتجريد لا يكونان إلا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها. وأظنك قد استوعبت هذا كله من الناحية النظرية ولتُعِدّ نفسك الآن لتقطف ثمرة هذا الغرس بما ستتذوقه من الناحية التطبيقية العملية.

أولاً: الاستعارة المرشحة:

١ - قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] هذه استعارة تصريحية - كما عرفت من قبل - ، فقد استعير الصراط للإسلام، والقرينة طلب الهداية من الله، أما كلمة مستقيم فإنها تناسب الطريق وتلائمه، إذن ذِكْر الاستقامة ترشيح للاستعارة.

٢- قال تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦] استعير الشراء للاستبدال - كما عرفت من قبل - على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة الضلالة، لأنها تستبدل ولا تُشترى. بقي قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ وهذا الوصف يناسب المستعار وهو الاشتراء، الاستعارة مرشحة إذن.

٣- قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨]، والقذف والدمغ مستعاران - كما عرفت من قبل- لغلبة الحق وذهاب الباطل، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يلائم المشبه به فالاستعارة مرشحة.

٤- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا...﴾ [الملك:١٥]، حيث شُبهت الأرض بالحيوان، ثم ذكرت المناكب وهي للحيوان، وليس الترشيح إلا هذا.

٥- قال أحد الصعاليك وهو أبو خراش وله قصة معروفة[(١)]:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أحاطَتْ بِالرِّقابِ السَّلاسِلُ

وقد كان بينه وبين هذه المرأة صلة في الجاهلية فلما أسلم بيّن لها أن الأمر قد تغير، وأن الإسلام قد حال بينه وبين الفحش والرذيلة، فشبه الإسلام بالسلاسل، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة معنوية بالطبع، وذكر الإحاطة بالرقاب مما يلائم المشبه به وهي السلاسل، وهكذا ندرك أن الاستعارة مرشحة.

٦- قال البحتري:

وأرَى المَنَايَا إنْ رَأَتْ بِكَ شَيْبَةً ... جَعَلَتْكَ مَرْمَى نَبْلِهَا المُتَواتِرِ

فقد شبه المنايا بالإنسان، القرينة (أرى) لأن المنايا لا تُرى كما تعلم، وقوله: «مرمى نبلها» شيء يلائم المشبه به، لأن الإنسان هو الذي يُرمى بالنبل فهي استعارة مرشحة.

٧- وقال السريّ الرّفّاء[(٢)]:

وَقَدْ كَتَبَتْ أيْدِي الرَّبِيعِ صَحَائِفاً ... كَأنَّ سُطُورَ البَرْقِ حُسْناً سُطُورُها

فهذه استعارة مكنية حيث شبه الربيع بالإنسان، ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأيدي، وإضافتها للربيع على سبيل الاستعارة التخييلية، والتخييلية قرينة المكنية - كما عرفت من قبل - وقوله: صحائف ترشيح لأنه يلائم المشبه به وهو الإنسان.

٨- وأظنك لو تأملت قول المتنبي[(٣)]:

أتَى الزَّمانَ بَنُوهُ فِي شَبيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ وَأتَيْنَاهُ عَلَى هَرَمِ

---

(١) ديوان الهذليين، القسم الثاني، ص١٥٠.

(٢) ديوان السري الرفاء، ص٢٣٣.

(٣) ديوان المتنبي، ٤/ ٢٩٦.

أدركت أن فيه استعارة مرشحة حيث شبه الزمان بإنسان، وقد استوفت الاستعارة قرينتها وهي في قوله: «أتى الزمان بنوه» ثم ذكر الشبيبة والهرم، وهي تلائم المشبه به.

٩- كذلك قول أبي تمام[1]:

نامَـتْ هُمُـومِيَ عَنّـي حِـينَ قُلْـتُ لَهَـا ... هــذا أَبُـو دُلَـفٍ حَـسْبِي بِـهِ وَكَفَـى

تجد فيه استعارة مرشحة كذلك، حيث شبه الهموم بإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (نامت) وهذا الفعل هو قرينة الاستعارة المكنية، فقد استوفت الاستعارة قرينتها كما رأيت. أما قوله: «فقلت لها» فهو يلائم المشبه به، لأن الهموم لا تخاطب فالاستعارة مرشحة.

ثانياً: الاستعارة المجردة:

١- قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤١]، شبه الريح الذي ليس فيه مطر بالمرأة التي لا تلد، فلفظ العقم خاص بالمرأة وقد استعير للريح، والاستعارة تصريحية وقد استوفت قرينتها، ثم قال سبحانه: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤٢]، وهذا وصف يناسب الريح ويلائمها، فقد ذكر في هذه الاستعارة ما يلائم المشبه فهي مجردة.

٢- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٦-٧]، فقد شبهت الشدة بالعتو، فالاستعارة تصريحية، ثم قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾ وهذا يناسب الشدة ويلائمها، فالاستعارة مجردة.

٣- قال سبحانه: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢]، فقد شبّه الجوع وما يتركه من أثر في النفس باللباس الذي يحيط بالجسم كله، والإذاقة تلائم المشبه وهو الجوع، فالاستعارة مجردة، ولو قال: كساها الله لكانت مرشحة، لأن الكسوة مما يناسب اللباس، وسيأتيك عن هذه الاستعارة البديعة مزيد تفصيل.

---

(١) ديوان أبي تمام، ٢/ ٣٧٥، والقصيدة في مدح أبي دلف.

٤- قال أحد شعراء الجاهلية[1]:

دَعَـــوْتُ بَنِـــي قَـــيْسٍ إليَّ فَـــشَمَّرَتْ   خَناذيــذُ مِــنْ سَـعْدٍ طِــوالُ الــسَّواعِدِ

فقد استعار الخناذيذ، وهي كرام الخيل لكرام الرجال، وذكر التشمير وهو مما يلائم المشبه وهم الرجال.

٥- قال المتنبي[2]:

فِي الخَــدِّ أنْ عَــزَمَ الخَلــيطُ رَحــيلا   مَطَــرٌ تَزِيــدُ بِــهِ الخُــدُودُ مُحُــولا

المستعار المطر، والمستعار له الدمع، والقرينة قوله: «في الخدّ»، ثم قال: «تزيد به الخدود محولاً» وهذا مما لا شك يناسب الدمع ويلائمه، ولما كان الدمع هو المشبه كانت الاستعارة مجردة.

٦- وقال المتنبي[3]:

وَحَجَّبَــتِ النَّــوى الظَّبْيــاتِ عَنِّــي   فَــسَاعَدَتِ البَراقِــعَ والحِجَــالا[4]

المستعار الظبيات، والمستعار له الحسناوات، وقد استوفت الاستعارة قرينتها في قوله: (وحجّبت النوى)، وذكر البراقع والحجال يناسب المشبه ويلائمه، لأن البراقع والحجال ليست من صفات الظباء، الاستعارة إذن مجردة.

٧- وقال سعيد بن حُميد[5]:

وَعَــدَ البَــدْرُ بِالزِّيَــارَةِ لَــيْلاً   فَــإذا مَــا وَفَى قَــضَيْتُ نُــذُورِي

المستعار البدر والمستعار له المرأة الواعدة، وقد استوفت الاستعارة قرينتها، وهي قوله: «في الزيارة» ثم قال: «إذا وفى» هذا وصف يلائم المشبه فالاستعارة مجردة.

---

(١) شرح ديوان الحماسة.

(٢) ديوان المتنبي ٣/ ٣٤٩، أن عزم، أي: لأجل أن عزم.

(٣) ديوان المتنبي، ٣/ ٣٣٨.

(٤) النوى: البعد والفراق، الحجال: الخدور، يقول: لما ارتحلوا أحجبتهم عن عيني، فساعدت النوى ما كان يحجبهن عني من قبل من البراقع والخدور.

(٥) طبقات ابن المعتز، ٢٠٠-٢٠١، أسرار البلاغة، ص٢٩١.

ثالثاً: الاستعارة المطلقة:

وقد عرفت أن المطلقة قسمان: ما لا يذكر معه شيء مما يلائم المشبه أو المشبه به، أو ما يذكران فيهما معاً، وسنمثل لك لكل واحد من هذين على حدة، فمن القسم الأول الذي لم يذكر فيه شيء مما يلائم المشبه والمشبه به:

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، وقوله سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف:١٥٤].

قال قُرَيْط بن أُنَيْف:

قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى ناجِذَيْهِ لَهُمْ … طَارُوا إِلَيْهِ زُرافاتٍ ووُحْدانا

وهذه استعارة مطلقة فقد شبه الشر بالسبع، والقرينة أبدى ناجذيه ولم يذكر في البيت شيء يلائم المستعار أو المستعار له.

القسم الثاني: ولنمثل لك للاستعارة المطلقة التي ذكر فيها ما يلائم الطرفين:

تقول: «تعالَ إلى بحرٍ يُغرق من يعانده ويرفق بمن يسانده» فقولنا: يغرق يناسب المستعار وقولنا: يرفق يناسب المستعار له، وقال بدر بن يوسف الذهبي:

هَلُمَّ يا صاحِ إلى رَوْضَةٍ … يَجْلُو بِهَا العَانِي صَدَا هَمِّهِ

نَسيمُها يَعْثُرُ في ذَيْلِهِ … وَزَهْرُهَا يَضْحَكُ فِي كُمِّهِ

في قوله: «همه» استعارة مكنية شبه فيها الهم بمعدن يصدأ، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو صدأ، والقرينة إثبات الصدأ لِلْهمّ، و(العاني) يناسب المشبه، و(يجلو) يناسب المشبه به، فالاستعارة مطلقة.

وقال زهير بن أبي سلمى(١):

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٨. فشدّ: الشدّة - الحملة، أم قشعم: كنية المنية، يقول واصفاً حصين: (فحمل حصين على الرجل الذي أراد قتله بأخيه، ولم يخف بيوتاً كثيرةً؛ أي: لم يتعرض لغيره عند ملقى رجل المنية. =

فَشدَّ وَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتاً كثيرةً ... لَدَى حَيْثُ أَلقَتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ

لَدَى أَسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أظْفارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

ففي البيت الثاني استعارة مطلقة، فإن قوله: شاكي السلاح ملائم للمستعار له، لأن الأسد ليست له هذه الصفة، وقوله: «له لِبَدٌ أظْفارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ»، يلائم المستعار لأن هذه من خصائص الأسد، ومثله قول الآخر[1]:

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لَمْ يَضُرْ ... ظَوَاهِرَ جِلْدِي وَهْوَ لِلْقَلْبِ جَارِحُ

الاستعارة في كتاب الله:

ليس غرضنا في هذا البحث أن نحدثك عن أقسام الاستعارة في الآيات الكريمة، فلقد مر معنا الكثير من ذلك، وإنما غرضنا أن نلقي الضوء ما استطعنا على خصائص الاستعارة القرآنية ومميزاتها، وما فيها من مقومات الحسن وعناصر الجمال، ولقد حاول بعض الكاتبين قدامى ومحدَثين - مشكورين - أن يبرزوا بعض هذه الخصائص، فمن القدامى الرماني في رسالته (النُكَت في إعجاز القرآن)، ومن المحدَثين الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) وسنطلعك على طرف من كل منهما فيما بعد إن شاء الله.

وأول ما نبادرك به القول: إن من أول خصائص الاستعارة القرآنية: حسن التصوير، فليست الاستعارة مجرد كلمة استعملت في غير ما وضعت له، ولكنها مع هذا تبرز لك المعنى المتحدث عنه بصورة خلابة جذابة، تجسم لك المعنى وتشخصه، فتنتشر ظلاله في النفس فيحدث في جوانبها حركة حيةً، ترهف الحسّ، ولكي تستكمل هذه الصورة عناصرها، لا بد من عنصر آخر في الاستعارة القرآنية، ونعني بهذا العنصر اختيار الكلمات لتكون قوالب لهذه الاستعارات، فهذه الألفاظ، ألفاظ منتقاة مختارة، لا يمكن أن يسدّ غيرها مسدَّها مهما بذل في سبيل ذلك من محاولات.

= شاكي السلاح، أي: كامل السلاح (من الشوكة وهي العدة)، مُقذَّفٍ، أي: يُقذَفُ به كثيراً إلى الوقائع، اللِّبَد: جمع لبدة الأسد وهي ما تلبد من شعره، أظفاره لم تقلّمِ: يريد أنه لا يعتريه عيبٌ ولا ضعف.

(1) الطِراز، ١/ ٢٣٧.

واختيار اللفظة اختياراً موضوعياً، نتج عنه عنصر ثالث من جمال العناصر في هذه الاستعارة، ونعني به الإيجاز، ذلك لأن اللفظة المختارة يستقل بها المعنى فلا يكون فضفاضاً، كما أنها تكون مستقرةً في مكانها ليست قلقة ولا مضطربة، ومن هنا جاء الإيجاز، إذ المعنى المراد المعبر عنه بهذه اللفظة لا يمكن أن يستوفى بمثلها من الألفاظ، فإذا أردت أن تغيرها فأنت بحاجة إلى ألفاظ كثيرة، وقد لا تسد هذه الألفاظ مسدها كذلك. وهناك عنصر جمالي آخر للاستعارة القرآنية يتصل بالنظم، فإذا كانت العناصر السابقة تخص اللفظة المفردة، فإن هذا العنصر يتصل بالجملة التي ركبت فيها الاستعارة.

هذا كله مما يتصل بجمال الصورة ودقة اللفظ، وإحكامه، وهناك أمر آخر تختص به الاستعارة القرآنية جدير بالإعجاب؛ ذلكم هو المعنى والمضمون الذي يتصل بموضوع الآية الكريمة، وهذه الخصائص التي حدثتك عنها حديثاً موجزاً، مما يتصل باللفظ والمعنى والشكل والمضمون، سيأتيك خبرها مفصلاً، فأعدّ لها نفسك وعقلك وحسك، ومن الله العصمة، وعليه التكلان.

بَصائِرُ يَجْتَليها كُلُّ ذي بَصَرٍ وَحِكْمَةٌ يَجْتَليها كُلُّ ذِي أَدَبِ

١- قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]، والاستعارة - كما مرّ معك - في كلمتي القذف والدمغ، واختيار هاتين الكلمتين منتهى الإعجاز لما فيه من قيم فذة، فالقذف هو الإلقاء بقوة، ولكنه إلقاء ما هو ضخم وكبير، والدمغ هو كسر الدماغ الذي تزول به الحياة، القذف إذن لا بد فيه من عنصرين، أحدهما: يتصل بالقاذف؛ وهو أن يكون ذا حزم وعزيمة، والآخر يتصل بالمقذوف؛ وهو أن يكون ضخماً عظيماً.

اختيار الكلمتين إذن فيه إيجاز واختصار - كما رأيت - ولكن ليس هذا فحسب، ألا ترى أن في اختيار الكلمتين كذلك بعثاً للقوة في نفوس المؤمنين لكي يكونوا ذوي بأس، هذا من جهة، وإرشادهم من جهة ثانية كيف يصوّبون سهامهم حتى يصيبوا من عدوهم مقتلاً، لذا أوثرت كلمة (الدمغ)، فقد تكسر رِجْل عدوك أو يده، وقد تصيب أي موضع من جسمه، لكن ذلك كله لا يحول بينه وبين أن يرد عليك سهامك في نحرك، لا يحول بينه وبين أن يوقعك في مصائده، لأن إصاباتك التي أصبته بها لم تَحُل بينه وبين أن يستغرق في

تفكيره ومكره ليرد لك الكيلَ كيلين، أظن أنك أدركت الآن، بل أقول: تذوقت هذا الأثر الذي تركتْه كلمة (الدمغ) في نفسك، هكذا تعلمنا هذه الاستعارة القرآنية كيف نحكم الخناق على عدونا، حتى لا تمكنه فرصته ولا تذهب غصته. ثم قف أمام هذه الصورة الموحية المُحسَّة مرة أخرى، وانظر إلى النظم الذي رتبت فيه، (نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) فانظر إلى موقع (الباء) وموقع (على)، وإلى هذه الفاءات المتعاقبة، وانظر إلى ما تفيده من الاستعلاء والسرعة، سرعة إزهاق الباطل كأنه لا يجد الفرصة التي يستطيع فيها أن يملك أنفاسه أو يستجمع قواه، ليست القضية - إذن- قضية استعارة فحسب.

٢- قال سبحانه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، عرفت نوع الاستعارة من قبل، ولكننا نود هنا أن نقف عند اختيار هذه الكلمة، لندرك ما تحمله حروفها من معنىً، ولا تنس أن الآية مكية التنزل، وأنت تعلم ما في الصدع - وهو الشق للأشياء الصلبة - ، ما فيه من مشقة وكسر، ألا ترى أن اللفظة الكريمة تشعر المسلمين بعظم الرسالة والمسؤولية الملقاة على عواتقهم، وما ينبغي أن يقوموا به من عمليات ليكسروا الحواجز وينقبوا الأسوار التي تحول بين الإسلام وبين قلوب أولئك المعرضين؛ ثم انظر إلى ما فيها من إيجاز، ولو أنه قال: (اجهر بما تؤمر) أو (بلغ) لفاتت معانٍ كثيرة، أفادتها هذه الكلمة.

وقد يخطر ببالك فتتسائل: «ألَمْ تذكر كلمة التبليغ في القرآن الكريم؟!»، أقول لك: بلى، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٦٧]، وهذا وايم الله لهو شاهدُ صدقٍ وحقٍّ على أن القرآن الكريم كتابُ الله، تربع على قمة البيان وتسنم ذروة الأستاذية، إن القرآن الكريم يعبر بالاستعارة حيناً، كما في قوله: (فاصدع) وبالحقيقة حيناً، كما في قوله: (بلِّغ)، حسب ما يتطلبه السياق وتقتضيه المناسبة، وتدعو إليه الحاجة.

إن الآية الأولى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ مكية كما علمت؛ فهي من سورة الحجر، وليس بخافٍ عليك ما كان يلقاه الرسول ﷺ وأصحابه من شدة المشقة وهم يبلغون دعوة الله، أما الآية الأخرى ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فهي مدنية التنزل - من سورة المائدة - وأنت خبيرٌ بالفرق العظيم بين ما كان يلقاه النبي ﷺ وأصحابه في مكة المكرمة،

وبين ما كان في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - . تلكم هي عظمة فن القول وجماله، وصحة المعنى وتمامه.

٣- قال تعالى حاكياً عن فرعون ما قاله للسحرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وكل الذي عرفناه عن هذه الاستعارة أنها استعارة في الحرف، حيث استعير متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على) كما حدثناك من قبلك، ولكن يبقى بعد ذلك العنصر الإبداعي في هذه الاستعارة، ألا ترى أن كلمة (في) تصور لنا نفسية فرعون ومن على شاكلته وهم كُثر تصويراً تاماً، هذه النفسية التي تمتلئ غيظاً وحقداً على أولئك المؤمنين الذين كان يرجو بهم الغلبة، كل هذا تصوره كلمة (في) بهذا الإيجاز، وكلمة (على) بالطبع لا تفيد الكثير من هذا، وإياك أن تستمع لمن يقول: إن حروف الجر تتناوب، وإن (في) بمعنى (على)، إن هذه الكلمة تقول لنا: إن فرعون لا يريد أن يصلبهم على الجذوع فحسب، بل يودّ أن تتلاشى أجسامهم في جذوع النخل، فانظر إلى هذا المعنى الذي جاءت من أجله الاستعارة، وهل يكفي أن تقول: إنها استعارة حرف لحرف؟

٤- قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٧]. والجموح صفة الفرس، وهي التي إذا حمل عليها لا يردّها اللجام، ما أظنه كافياً أن يقال: إنه شبه إسراعهم في السير بالجموح على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، إن اختيار الكلمة يبين لنا هذا الهلع الذي يسيطر على المنافقين، وكيف أنهم يتمنون لو استطاعوا أن يحثوا السير مع كل الموانع والأسباب، ثم انظر إلى الصيغة التي جاءت فيها الاستعارة وهي صيغة الفعل المضارع الدال على التجدد، ثم انظر إلى الضمير الذي جاء للتخصيص ولتقوية الحكم وهو قوله تعالى: (وهم).

٥- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٧-٨٨]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، وقل لي بربك، هل تجد استعارة بديعة اشتملت على روائع الحسن كهذه - مع

كثرة الاستعارات البديعة في أقوال الناس - لا تمدنّ عينيك، وأين هذا من قولنا: (لا تطمح)، (لا تتمنّ)، (لا ترغب)، وفكر في كلمة (ولا تمدنّ) وكيف جاءت عقب التفضل بإيتاء السبع المثاني والقرآن العظيم مؤكدة، وذكر العينين معاً، وما تشير إليه هذه الجملة من الرغبة، ذلك أن الذي يمدّ عينيه إلى شيء ما لا يكون إلا بعد أن تهيمن على النفس الرغبة في هذه الحاجة.

مد العينين إذن لشيء ما، ناشئ عن الرغبة الملحة في النفس، ثم انظر إلى قوله: (واخفض جناحك)، وما فيها من لين الجانب والحنو كما يحنو الطائر على صغاره لمنعهم من كل عاد وليرد عنهم كل أذىً. وكذلك كان سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

٦- قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢]، فكّر ملياً في هذه الاستعارة، أنت تعلم أن المناسب للإذاقة الطّعم، والمناسب للباس الكسوة، ولكن القرآن لم يقل: أذاقها الله طعم الجوع كما لم يقل: كساها الله لباس الجوع ولو قيل هذا لبقي الكلام من قبيل الاستعارة، ولكن اختيار الكلمة في القرآن - كما قلنا من قبل - اختيار له أسسه ومسوغاته، فلماذا جاء النظم الكريم على ما هو عليه؟ لماذا أُوثرت كلمة الإذاقة على كلمة الكسوة فقال: (أذاقها) ولم يقل: (كساها)؟

أظنك لا تماري في أن ما تحدثه الإذاقة من أثر في النفس لا تحدثه كلمة (كسوة)، فالإذاقة هي التي تترك في النفس أثراً لا نجده لكلمة (كسوة) إن كان لها أثر، أما لِـمَ أوثرت كلمة لباس على كلمة طَعْم، فأنت تعلم أن الإحاطة التي في اللباس لا نجدها في الطعم، فالطعم إنما يكون في جزء من أجزاء الجسم. أما اللباس فمن شأنه الإحاطة التامة بالجسم، ولهذا جاء التعبير القرآني على هذا المنوال دون قولنا: «أذاقها طعم الجوع» أو «كساها لباس الجوع».

والخلاصة: أنه عبر بالإذاقة لأن أثرها في النفس أعظم من أثر الكسوة، وعبر باللباس لأن إحاطته أعظم من إحاطة الطعم، فنظر في كل من الكلمتين إلى ناحية، نظر في كلمة الإذاقة إلى الأثر وفي كلمة اللباس إلى الإحاطة وصدق الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ

فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وصدق الله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان:٦].

٧- قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، وقد عرفت نوع الاستعارة من قبل، والسؤال: لِـمَ أوثرت كلمة (طغى)؟ فإذا عرفنا أن هذا اللفظ جاء مناسباً للسياق الذي جاء فيه، استطعنا أن نتذوق الاستعارة، ألا ترى أن القوم ما أصابهم هذا العذاب إلا بسبب طغيانهم، هذا الطغيان الذي ليس له مثيل. واقرأ قول الله تبارك وتعالى يحدثنا عن قوم نوح بعد أن حدثنا عن غيرهم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم:٥٠-٥٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤]، فانظر إلى كلمة الاشتعال ولم أوثرت على كلمة الانتشار؟ وانظر إلى الشيب كيف يدب شيئاً فشيئاً ثم يهجم ليزيل كل أثر للشباب، كما تشتعل النار بعد أن تأخذ ببعض أجزاء الحطب، وليس هذا فحسب، انظر كيف أسند الاشتعال إلى الرأس ولم يقل: اشتعل شيب الرأس ولو قيل هذا لبقيت الاستعارة على ما هي عليه. وقارن بين هذا وبين قولك: «اشتعلت النار في البيت» و«اشتعل البيت ناراً»، وسل الله الرحمة للشيخ عبدالقاهر الذي نبّه على هذه الدقيقة.

٩- ومن بدائع الاستعارات في القرآن أنه يأتيك بالكلمة في موضع ثم يختار غيرها في موضع آخر، مع أن المتعلق للكلمتين واحد، خذ كلمة (القلوب) مثلاً؛ تجد أن القرآن الكريم تارة استعمل لها كلمة (الربط)، وتارة كلمة (الختم)، والربط والختم كلاهما فيه إحكام إلا أن الختم جاء في معرض الذم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧]، وجاء الربط في معرض الامتنان ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:١١]، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠]، فما سرّ هذه الدقيقة القرآنية.

من المعلوم أن الختم على الشيء يكون لشيء في داخله، ولا زلنا نسمع أنه إذا كان هناك مكانٌ فيه ريبة ومحذور، فإنهم يقولون: «خُتم بالشمع الأحمر» أما الربط فإنما يكون

بشيء أو على شيء أودَعْته ما هو ثمينٌ ونفيس، فهم يربطون على ما فيه نفائسهم، لذلك جاءت الآيات القرآنية تشير إلى هذين المعنيين في مواضع كثيرة، ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ في سورة البقرة [٧]، و﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ في سورة الجاثية [٤٥]، أي صارت تلك القلوب غير قابلة لخروج شيء من الكفر منها، أو دخول شيء من الإيمان إليها، أما الربط فإنه يعني احتفاظها بما فيها من إيمان كما يحتفظ الشيء المربوط بما فيه من نفائس.

١٠- وقريب من هذا (السمع)، كما في الآية السابقة ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ ، وحينما كان الحديث عن الفتية الذين آمنوا بربهم قال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ [الكهف:١١]، فالختم على السمع يقال فيه ما قيل في الختم على القلوب، أما الضرب على الآذان فليس فيه تعطيل لها، ولا إزالة لقدرتها، ولا ذهاب لعنصر الحياة فيها، بل كان أمراً أراده الله تعالى خارجاً عن إصابة هذه الحاسة، لِحِكَم تتّصل بهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى.

١١- وقريبٌ من هذا (الصَبُّ والإفراغ) حيث نقرأ قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة:٢٥٠]، وقوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر:١٣]، ما أعظم هذه الاستعارة، فمع ما فيها من روعة التعبير وجمال التصوير، نجد فيها ما يهزّ النفس ويرعب القلب ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ، أما الصبُّ فهو الإراقة الكثيرة، وأما السوطُ فهو الخلط، والأمم التي استحقت هذا كانت كثيرة الذنوب معقدة الفواحش، والجزاء من جنس العمل، فالكثرة يلائمها الصبّ، وتعدد السيئات يلائمها السوط، وهكذا نفهم من الآية الكريمة أن عاقبة المفسدين أن يصب عليهم العذاب، أي يُراقُ عليهم كأنما هو أبواب القرب المفتحة، وأن يكون هذا العذاب أنواعاً متعددة، فكثرة العذاب وشدته تبينها كلمة (فصبّ)، وتنوع العذاب تشير إليه كلمة (سوط)، ولقد تحقق هذا قديماً وتحقق حديثاً، فما أكثر ما يعانيه العالم اليوم - وقد خرج عن جادة الحق - من أنواع البأساء والضراء، فالأمراض الجسمية والنفسية والعقلية، والضيق والقحط والخواء الروحي، كلها وغيرها مما تشير إليه الآية الكريمة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ . أما الإفراغ في قوله: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ فإنما يكون من وعاء يُفرغ منه، وهكذا

إفراغ الصبر إنما هو فيضٌ من رحمة الله، فتأمل وقل لي بربك، هل تذوقت ما في الآيتين من روعةٍ، وفنٍّ وجمال؟!

١٢- قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وكل الذي أريد أن أقفك عليه في هذه الاستعارة، أن كلمة (مَيْت) التي وردت في الآية الكريمة تختلف عن كلمة (مَيِّت) فالميّت هو الذي من شأنه أن يموت سواء مات أم لم يمت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، أما (مَيْت) فلا تقال إلا لمن تحقق موته، وأظنك أدركت الآن سبب استعمالها في كتاب الله تعالى.

ما نظن أننا نستطيع أن نقف أمام كل استعارة من كتاب الله، وأكتفي بما ذكرته لك وسأنقل لك كما وعدتك بعض ما قاله العلماء، فمن ذلك ما ذكره الرماني فقد قسم البلاغة إلى عشرة أقسام أحدها الاستعارة وقد ذكر لها أمثلة كثيرة من كتاب الله نختار لك بعضها:

«قال الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، حقيقة (قَدِمْنا) هنا (عمدنا)، و(قدمنا) أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من السفر، لأنه من أجل إمهاله لهم عاملهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال، والمعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل والقدوم أبلغ لما بيّنا».

«... وقال عز وجل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، حقيقته (شديدة) والعُتُّ أبلغ منه لأن العتوَّ شدة فيها تمرد، وقال تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٧-٨]، شهيقاً: حقيقته صوتٌ فظيع كشهيق الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز، والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت، ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ حقيقته: من شدة الغليان بالاتقاد، والاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس مدرَك ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ، وأدل على سعة القدرة وموقع الحكمة».

«.. وقال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر:١١]، (ذرني) ها هنا مستعار، وحقيقه: ذر عقابي ومن خلقت وحيداً بترك مسألتي فيه، إلا أنه أُخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرني وإياه لأنه أبلغ، وإن كان الله تعالى لا يجوز عليه المنع، وإنما صار أبلغ لأنه لا منزلة من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها أعظم. وهذا أعظم ما يكون من الزجر.. وقال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧]، اللفظ ها هنا بالشوكة مستعار، وهو أبلغ، وحقيقته السلاح، فذكر الحد الذي به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة، وإذا كان السلاح يشتمل على ماله حدّ وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى».

«وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف:١٤٩]، هذا مستعار، وحقيقته: ندموا لما رأوا من أسباب الندم، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد، فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوبال»[١].

وننقل لك الآن شيئاً من كتاب (من بلاغة القرآن) للدكتور أحمد أحمد بدوي: «قال سبحانه: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف:٩٩]، فكلمة (يموج) لا تقف عند حد استعارتها لمعنى (الاضطراب) بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتي كلمة (يموج) إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه، وقال سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم:٤]، وهنا لا تقف كلمة اشتعل عند معنى (انتشر) فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه وأتى عليه

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، ص٨٥-٩٤.

وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس...».

«وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧]، فكلمة (نسلخ) تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل، وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢]، ففي العقم ما يحمل إلى النفس معنى الإجداب الذي تحمله الريح معها».

«... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧]، فإنك تشعر في كلمة العقدة بهذا الربط القلبي الذي يربط بين قلبي الزوجين...».

«... وتأمل كذلك قوة كلمة (زلزلوا) في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، ولو أنك جهدت في أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدي معنى هذا الاضطراب النفسي العنيف».

«... وقوله سبحانه: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف:٧٧]، وكأنما الجدار لشدة وهنه وضعفه يؤْثِر الراحة لطول ما مر به من زمن»[1].

ويمكنك أن تقف أمام أي استعارة من كتاب الله لتجد روعة الإبداع وجمال الإيقاع وبهاء الصورة.

---

(١) من بلاغة القرآن، ص٢١٧-٢٢١.

ولعلك تدرك الفرق بين هذين الأسلوبين، أسلوب الرماني العالم المتكلم، وأسلوب الدكتور بدوي، الأديب والناقد. وكيف أن كلاً منهما تناول الاستعارة، فأسلوب الرماني أسلوب الدقة الكلامية والتحديد المنطقي، ولكن صاحب كتاب (من بلاغة القرآن)، بعيد عن هذا الوادي، فهو يطلعك على براعة التصوير، وما في ذلك للخيال من خصوبة، ولاختيار الكلمة من روعة، وليس هدفنا أن نفاضل بين الرجلين - رحمهما الله - أو بين القديم والحديث، ولكل وجهة هو موليها.

المجاز المرسل في كتاب الله:

ولا تظنن أن الاستعارات القرآنية وحدها هي التي حازت السبق، بل إن أنواع المجاز جميعاً كانت لها هذه المنزلة، صحيح أن الاستعارة هي أكثر أنواع المجاز تجسيداً للصور وسأذكر لك بعض الأمثلة من المجاز المرسل.

١ - خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [نوح:٧]، أتظن أن اختيار كلمة الأصابع بدل الأنامل جاءت من أجل المجاز فحسب؟ ليس الأمر كذلك، إن هذا المجاز جاء في سياق الحديث عن المنافقين وما أصابهم من الحيرة، فهم من الصواعق والرعد القاصف يود أحدهم لو استطاع أن يجعل إصبعه كله في أذنه، فالتعبير بالإصبع إذن جاء تصويراً لهذا الهلع الذي ملأ قلوبهم، وهيمن على نفوسهم.

٢ - قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١-٢]، إن التعبير بالقيام بدل الصلاة جاء لهدف عظيم، ذلك أن القيام هو من أكثر أركان الصلاة التي يكابد الإنسان فيها نفسه، كيف لا وهو محل تلاوة الكتاب الكريم.

٣- قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢]، ولم يقل: (وسل أهلها)، ألا ترى أن هذه العبارة تدل على ما يعتمل في نفوس إخوة يوسف عليه السلام، ليبرهنوا على صدقهم؟ بأنهم يتمنون أن لا يسأل الناس فحسب، بل كل شيء في القرية من أرض وبيوت وغير ذلك، لأن ذلك كله سينطق بصدقهم.

٤- قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء:٢]، ألا ترى أن التعبير باليتامى له هدفه، فهو يريد أن يشعر الأوصياء بأن هؤلاء وإن بلغوا مبلغ الرجال و﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ

رُشْدًا﴾، فلا تظنوا أن ذلك يهوّن شأن المحافظة على أموال هؤلاء، فكما حافظتم على أموالهم في صغرهم، فلا بد أن تؤدوها لهم كاملة غير منقوصة.

٥- قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق:١٧]، واختير المجاز هنا كأنه يقول: «لِيَدْعُ كلّ من يُستنصر به من بشر وحجر وآلهة في زعمه».

٦- قال تعالى: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧]، واختيار المجاز هنا ما أظنه خافياً عليك، إذ كل هذه ليست إلا مظهراً من مظاهر رحمته تعالى. وهكذا لو استعرضت كل مجاز مرسل في كتاب الله تعالى لوجدت هناك سراً استعمل من أجله المجاز، هذا إضافة إلى ما فيه من إيجاز.

المجاز العقلي في كتاب الله:

١- قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [القصص:٤]، وإسناد التذبيح إلى فرعون إشارة إلى بطشه وقسوته من جهة، وإلى أن جنده إمَّعاتٌ من جهة أخرى.

٢- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ [النمل:١٣]، وهو إشارة إلى ما في الآية من وضوح الدلالة، فهي كافية في كل حين.

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١]، ولم يقل آتياً، ليبين أن لله التصرف في كل شيء (فمأتي) اسم المفعول، كالمضروب لا بد له من ضارب، كذلك (المأتي) بحاجة إلى من يأتي به.

٤- قال تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]، ويقال فيه ما قيل فيما قبله. فالحجاب لا يستر بنفسه وإنما الله الذي يجعله كذلك.

وصدق الله تلك آيات الكتاب الحكيم.

الاستعارات في كلامه ﷺ:

ولنذكر لك طرفاً من جوامع الكلم التي أعطيها النبي الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.

١- فمن ذلك قوله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»[1]، ألا ترى أن تشبيه الإسلام بالبيت له إيحاءاته الكثيرة ونفحاته المتعددة؟، أليس البيت هو الذي يؤوي من فيه ويستره؟ أليس البيت هو الذي تجتمع فيه الأسرة؟، أليس البيت هو الذي يقي أصحابه عواديَ الأذى وغوائل السوء؟ والحق أن هذا شأن الإسلام لكل من دخل فيه حتى أولئك المنافقين لأنه يحقن دمائهم.

٢- ومن ذلك قوله ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة»[2] ألا تجد أن تشبيه الإيمان بالشجرة، ذات الفروع الكثيرة والأفنان المتعددة، يشير أولاً إلى قوة هذه الشجرة وكثرة ثمارها وعدم سهولة تسلقها؟، ثم ألا تجد أن الإيمان كذلك؟

فانظر إلى جوامع كلمه - ﷺ - وكيف استعار البيت للإسلام والشجرة للإيمان، ويعلمُ الله أن في ذلك قمة البيان، لا من حيث التصوير فحسب بل من حيث الدقة والموضوعية. استعير البيتُ للإسلام لأن البيت كما قلنا يؤوي من فيه ليشعروا بالطمأنينة؛ ذلكم لأن البيت سكن لأصحابه، وصدق الله ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠]، لذا قد نجد الذين أسلموا بألسنتهم دون قلوبهم نفعهم هذا الإسلام في دنياهم، فكان لهم سكناً، لكنهم لم تهنأ نفوسهم بما وراء هذا مما فرح به المؤمنون، لذا استعيرت الشجرة للإيمان؛ لأنها هي التي يُتفيأ ظلها أولاً، ثم هي بعد ذلك وقبله صاحبة الثمار التي يذوق حلاوتها المؤمنون. البيت استعير للإسلام إذن لأنه سكنٌ فحسب، أما الشجرة ففيها ما وراء هذا من ظل وحلاوة وطيب ثمر وزكي رائحة، قف أمام هاتين الاستعارتين النبويتين العظيمتين وأنعم النظر ثم أنعم وأنعم، وقل لي بربك، أي بيان وأي موضوعية ودقة في التعبير، وسمو في المعنى يمكن أن تجده في هاتين وغيرهما من كلامه ﷺ، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول:

فَـمَا عَـرَفَ البَلاَغَـةَ ذُو بَيَـانٍ ... إذا لَمْ يَتَّخِـذْكَ لَـهُ كِتابـا

---

(١) سبق تخريجه ص١٩٧.
(٢) سبق تخريجه ص١٩٧.

٣- ومنه قوله ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين»[1] والمقصود به - والله أعلم - (لا تعتمدوا على آرائهم ولا تركنوا إليهم) ثم انظر إلى استعمال كلمة النار بدل النور وما تحمله من دقة وموضوعية وجمال صورة، وهل النار إلا محرقة أكثر من كونها صالحة للإضاءة؟ وهل يجني المسلمون من استعانتهم بالمشركين وولائهم لهم غير هذه النار التي تحرق كلّ شيء، وما تذرُ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وماذا جنينا من ولائنا وخضوعنا لأمريكا وغيرها إلا البوار والوبال.

٤- يقول النبي ﷺ: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ»[2]، إن غزوة أُحد كانت من أعظم الغزوات التي ركز عليها القرآن الكريم وذلك لما فيها من عبر ودروس، لا عجب إذن أن يقول النبي ﷺ هذا القول. ويرى بعض الكاتبين أن هذا من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالمحل الوارد وأراد الحالّ، ولكن الذي تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب: أن الحديث من باب التصوير بالاستعارة، فقد شُبِّه أُحُدٌ بصاحب المناقب الطيبة الذي من شأنه أن يُحِبَّ ويُحَبّ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحبّ على سبيل الاستعارة المكنية، وإسناد الحب إلى أُحد استعارة تخييلية، والنبي ﷺ يوجه المسلمين إلى أُحد لكي تبقى آثاره ودروسه النبراس الهادي للمسلمين، وليدركوا أن ما أصاب المسلمين في أُحد ليس إلا سنّةً من سنن الله، وسنن الله لا تتخلف، فهذه الاستعارة البديعة موحية بإيجازها بكل ما من شأنه أن يحول بين المسلمين وبين أن ينجرفوا في أودية الأوهام التي يمكن أن تسول بها لهم أنفسهم وشياطينهم فيعتمدوا على أنهم مسلمون بالاسم وينسوا ما كان يوم أُحد وفي أُحد.

٥- قال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ: «الصوم جُنّة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار»[3] وفي الحديث نفسه «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، وفي هذا الحديث يقول ﷺ: «وهل يَكُبّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» فانظر كيف جعل للإسلام عموداً وذروة سنام، وهما استعارتان

---

(١) رواه الإمام أحمد، ٣/ ٩٩.

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد) باب (فضل الخدمة في الغزو) ٣/ ١٠٥٨.

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ٢/ ١٣١٤.

بديعتان، فقد شبه الإسلام ببيت واسع، وجعل الصلاة العمود من هذا البيت، فهي استعارة مكنية تخييلية كما عرفت من قبل، وجَعْلُ الصلاة عمود الإسلام دليل على شرفها ومنزلتها وكونها الأساس الذي لا يغني عنه شيء.

٦- أما قوله ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»[١] فانظر كيف شبه الخطيئة بالنار، وانظر إلى جمال هذا التشبيه. إن الخطيئة لا تحرق صاحبها في الآخرة فحسب، وإنما هي نار في الدنيا كذلك، تأتي على كل عناصر الخير في صاحبها. وبعد أن أدركت جمال التشبيه نقف مع جمال الاستعارة، ولا تنس كذلك ما في الصدقة من استعارة حيث شبهت بالماء، لأن الماء هو الذي يطفئ النار، ولكن الصدقة هي التي تطفئ الخطيئة، ذلك أن الإنسان عندما يتصدق فإنما يتغلب على شحه من جهة، ويذهب تأجج نار الشهوة من نفسه من جهة أخرى.

٧- بقيت في الحديث الشريف استعارتان هما في الحقيقة أجود الاستعارات إحداهما قوله ﷺ: «وهل يكُبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم»[٢] واللسان من أعظم الجوارح خطراً على صاحبه.

يَمُوتُ الفَتَى مِنْ عَثْرٍ بِلِسانِهِ ... وليس يموت المرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

وآلة الحصاد كالمنجل تأخذ كل ما في طريقها نافعاً أو غير نافع، مفيداً أو غير مفيد، واللسان الذي لا يتحرى الحق كذلك، فالاستعارة مكنية، فقد شبه اللسان بالمنجل مثلاً وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهي الحصاد، وإضافته إلى اللسان استعارة تخييلية.

٨- والثانية قوله ﷺ: «وذروة سنامه الجهاد»[٣] وإذا كان الإسلام قد شُبه بالبيت أولاً، وقد ذكرنا ما في ذلك من إيحاءات وماله من ظلال، فلقد شبه هنا بسفينة الصحراء ذلكم الجمل، الذي كانوا يعولون عليه في قطع المسافة من جهة، وحمل الأثقال من جهة،

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ٢/ ١٣١٤.

(٢) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ٢/ ١٣١٤.

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ٢/ ١٣١٤.

وكانوا يجدون فيه الجمال والراحة من جهة ثالثة، ثم انظر كيف جعل الجهاد ذروة السنام، وذروة السنام أرفع ما في الجمل وأعلاه، أليس في ذلك إيحاء للمسلمين وحث لهم بهذا التصوير النبوي البديع الرائع بأن الجهاد وهو القمة التي تتلاشى أمامها أمور كثيرة، وإذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام فهو حث للمسلمين، أن يصعدوا إذا أرادوا أن يسعدوا.

٩- ومنه قوله ﷺ: «يا أنْجَشَةُ رِفْقاً بالقوارير»[١] وهذه استعارة عجيبة لأنه ﷺ شبه النساء في ضعف النحائز، ووهن الغرائز، بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف ويصدعها اللطيف، فنهى عن أن يسمعهن ذلك الحادي ما يحرك مواضع الصبوة وينقص معاقد العفة»[٢].

١٠- ومنه قوله ﷺ: «لا تسألِ المرأةُ طلاقَ أُختها لتَكْفَأَ ما في إنائها»[٣] وفي هذا الكلام استعارة لأنه ﷺ، أراد أن المرأة لا ينبغي لها أن تطلب طلاق أختها، لتتصل بالزوج الذي كان لها طلباً لأن تجرّ حظها إليها وتستبد بالنفع عليها، فتكون كأنها اكتفأت ما في إنائها، أي: أمالت الإناء إلى نفسها فقلبته لتستفرغ ما فيه وتستأثر عليها به. يقال: كَفَأت الإناء إذا كبّتَهُ، واكتفأته إذا شربت ما فيه أجمع، أو أكلت ما فيه أجمع»[٤].

وهذه لعمر الحق تربية للأخلاق ما أشد حاجتنا إليها.

وهذا الأسلوب كثير في كلامه ﷺ كقوله: «هَذِه مَكَّةُ رَمَتْكُمْ بأفْلاذِ كَبِدِها»، «إن الإسلام لَيَأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها»[٥].

---

(١) رواه البخاري كتاب (الأدب)، باب (المعاريض مندوحة عن الكذب)، ٥/ ٢٢٩٤.

(٢) المجازات النبوية، الشريف الرضي، ص٣٥. النحائز: الطباع مفردها نحيزة.

(٣) رواه البخاري، كتاب (البيوع)، باب (لا يبيع على بيع أخيه) ٢/ ٧٥٢، ورواه مسلم، كتاب (النكاح)، باب (تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن له أو يترك)، ٢/ ١٠٣٣.

(٤) المجازات النبوية، ص٥٠.

(٥) رواه البخاري كتاب (فضائل المدينة)، باب (الإيمان يأرز إلى المدينة)، ٢/ ٦٦٣، ليأرز: لينضم أهله ويجتمعون، جحرها: سكنها الذي تأمن إليه.

أما أسلوب الاستعارات التمثيلية وما فيه من جمال وإيجاز فذاك هو سحر البيان:

١- فمن هذا قوله ﷺ: «إن المُنْبَتَّ لا أرْضاً قطع ولا ظَهْراً أبقى» وفي هذا من النهي عن الغلو ما فيه.

٢- ومنه ما روي عن النبي ﷺ - وإن كان فيه ضعف - «إياكُمْ وخضَراء الدِّمَن».

٣- ومنه بديع القول: «لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ مرتين» - قاله ﷺ لأبي عزة الشاعر، وقد أُسر في بدر، لكن النبي ﷺ منَّ عليه وأطلقه، ثم أسر في أُحُد فطلب من النبي ﷺ أن يمن عليه فقال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وقد ذهب بعض الكاتبين إلى أن المقصود بهذا الشاعر نفسه، وهو تعريض بأنه ليس مؤمناً، لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن الذي نراه غير هذا المعنى، وهو أن المؤمنين لدغوا من هذا الشاعر أول مرة ولكنهم بعد ذلك تركوا هذا الجحر وما فيه، وها هم الآن يتعرضون للدغ مرة ثانية والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فهو تشبيه لهذا الشاعر بالأفعى.

٤- ومنه قوله ﷺ: «هذا حين حَمِيَ الوَطيس»(١) والوطيس هو التنور الذي يخبز فيه، وأول من نطق بهذا الرسول ﷺ وهي استعارة تمثيلية، يشبه أمر الحرب حينما يشتد أوارها بالوطيس حينما تشعل فيه النار.

المجاز المرسل في قوله ﷺ:

أما أسلوب المجاز المرسل في قوله ﷺ فهو كثير كذلك، وهو من الأساليب المعبرة المبنية على الإيجاز.

١- استمع إلى قوله ﷺ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»(٢) وما فيه من فضيلة التوجيه وحسن الإرشاد، وروعة العفة تتوج المسلم دائماً، وأنت تعلم أن المقصود إنما هو صاحب اليد، ولكن لما كانت اليد هي التي تأخذ وتعطي عبر بها، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الإيمان)، باب (في غزوة حنين)، ٣/ ١٣٩٩.
(٢) رواه مسلم، كتاب (الزكاة)، باب (بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح) ٢/ ٧١٧.

٢- وانظر إلى قول النبي ﷺ : «إن مكة حرَّمها الله»[١] وقد حرم الله ما فيها وما حولها، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية - كما عرفت - .

٣- وانظر إلى قوله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن يَسُبَّ الرجلُ والديه ! قالوا: وكيف يسب الرجل والديه يا رسول الله؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسبُّ أُمَّه»[٢] فانظر إلى قوله ﷺ : «أن يسب الرجل والديه» إنه مجاز مرسل علاقته السببية كما ترى، ولكن هل تظن أن روعته تقف عند هذا الحد؟ ألا تجد فيه هذا الإلهاب، وذلك التحذير الذي من شأنه أن يحمل المسلم ليبتعد عن كل ما من شأنه عقوق والديه؟

٤- واستمع إلى قوله ﷺ : «عَجِبَ ربُّنا من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل»[٣] وهم في الحقيقة إنما يقادون لدار الإسلام التي توصلهم إلى الجنة، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية، ويظهر لي أننا يمكن أن نوجه الحديث توجيهاً آخر، فنجعله من باب الاستعارة التمثيلية فنشبه حال الذي يُحْمَل على الخير حملاً، ويرغم عليه إرغاماً بحال من يقاد إلى الجنة بالسلاسل، وقد عرفت من قبل أن النص الواحد يمكن أن نلمح فيه وجوهاً بيانية كثيرة باعتبارات متعددة.

٥- واستمع إليه ﷺ وهو يعدُّ لغزوة تبوك «من كان معه فضْلُ ظهرٍ فلْيَعُدْ به على من لا ظَهْرَ له»[٤] ويقصد بالظهر هنا الركوبة المعدّة للجهاد، ولما كان الظهر هو المقصود عبر به عن الدابة من إطلاق الجزء على الكل، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

٦- أما قوله ﷺ : «البسوا من ثيابكم البَياض»[٥] والثياب ليست إلا محلاً للبياض فهو مجاز مرسل علاقته الحالية.

---

(١) رواه البخاري كتاب (العلم)، باب (ليبلغ الشاهد الغائب) ١/ ٥١. وأخرجه مسلم كتاب (الحج)، باب: (تحريم مكة وصيدها وخلاها)، رقم ١٣٥٤.
(٢) رواه مسلم كتاب (الإيمان)، باب (بيان الكبائر وأكبرها)، ١/ ٩١. ورواه أحمد، ٢/ ١٦٤.
(٣) رواه البخاري كتاب (الجهاد)، باب (الأساري في السلاسل) ٣/ ١٠٩٦.
(٤) رواه مسلم كتاب (اللقطة)، باب (استحباب المؤاساة بفضول المال) ٣/ ١٣٥٤.
(٥) رواه الترمذي كتاب (الجنائز)، باب (ما يستحب من الأكفان) ٤/ ٢١٥.

٧- واستمع إلى قوله ﷺ : «الولدُ للفراش وللعاهر الحجر»[1] ففي الجملة الأولى مجاز مرسل علاقته المحلية، وفي الجملة الثانية مجاز مرسل علاقته الآلية لأن الفراش محل والحجر آلة.

٨- أما قوله ﷺ : «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[2] فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون.

٩- واستمع إلى قوله ﷺ يُرَغِّبُ في زيارة المريض: «من عاد مريضاً لم يزلْ في خُرْفَةِ الجنة حتى يرجع»[3] وعائد المريض إنما يعوده في بيته، إلا أن هذا العمل من شأنه أن يوصل فاعله إلى خرفة الجنة، وهو مكان جني ثمرها، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب، هو مجاز مرسل إذن علاقته المسببية.

١٠- ومثل هذا قوله ﷺ : «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[4]، وشد الرحال إنما هو ناشئ عن العناية والإجلال، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية كذلك. وهذا كثير في كلامه ﷺ .

---

(١) رواه البخاري كتاب (البيوع)، باب (تفسير المُشَبَّهات) ٢/ ٧٢٤.
ومعنى الحديث: (الولد للفراش)، الولدُ تابع لصاحب الفراش وهو من كانت المرأة موطوءة له حين الولادة، (وللعاهر الحجر) للزاني الخيبة والحرمان ولا حق له في الولد. والعرب تكني عن حرمان الشخص بقولها: (له الحجر وله التراب).

(٢) رواه البخاري كتاب (الزكاة)، باب (وجوب الزكاة) ٢/ ٥٠٦.
وفي هذا الحديث يتكلم الرسول الكريم عن الأعرابي الذي سأله عن أصول الإسلام وعزم على الالتزام بها من غير زيادة ولا نقصان.

(٣) رواه مسلم كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (فضل عيادة المريض) ٤/ ١٩٨٩. وفي رواية (مَخْرَفَة) وهي سكة بين صفين من نخل، يخترف (يجني) من أيها شاء.
وقيل: المخرفة: الطريق. أي أنه على طريق تؤديه إلى طريق الجنة. أما (خرفة الجنة) فهي اسم ما يجنى من النخل حين يدرك.

(٤) رواه البخاري كتاب (التطوع)، باب (فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة)، ١/ ٣٩٨. ورواه مسلم كتاب (الحج)، باب (سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره)، ٢/ ٩٧٥.

المجاز العقلي في قوله ﷺ :

١- قال ﷺ : «عليكم هدياً قاصداً فإنه من يُشادّ هذا الدين يَغْلِبْهُ»[١] وهو مجاز عقلي علاقته المفعولية كما عرفت من قبل لأن المراد هدياً مقصوداً.

٢- ومنه قوله ﷺ : «كلُّ هوىً شاطنٍ في النار» وهذا مجاز لأنه وصف الهوى بالشطون وهو البعد وأراد به تباعد صاحبه عن الرشد، وترامیه إلى الغيّ، وقال أبو عبيدة: «الشاطن ها هنا المُعْوَجّ عن الحق، والهوى على الحقيقة ليس بجسم فيوصف بالقرب والبُعد والزوال واللبث، وسمي الشيطان شيطاناً لأنه شطن عن أمر ربه أو أبعد في مذاهب غيه، ومنه قيل: نوىً[٢] شَطُون وبئرٌ شَطُون، ومن ذلك سمي الحبل شطناً لأنه يبلغ القعر العميق والماء البعيد. وفي هذا الخبر أيضاً مجاز آخر، وهو أنه ﷺ جعل الهوى الشاطن في النار، ومراده صاحب الهوى الشاطن، وهو الذي يمتد به هواه فيقذفه في المضالّ ويحمله على المزال، ونظير هذا الخبر الآخر، وهو قوله ﷺ : «عليكم بالصدق فإنه من البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه من الفجور وهما في النار»[٣] وأراد ﷺ صاحب الصدق والبرّ، وصاحب الكذب والفجور»[٤].

وإن أردت مزيداً من جوامع كلمه ﷺ فكتب السنّة زاخرة، ونرشدك إلى المجازات النبوية للشريف الرضيّ، وإلى الفصل الذي كتبه أديب العربية الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - في كتابه إعجاز القرآن.

بلاغة الاستعارة:

أسلوب الاستعارة من أكثر الأساليب تأثيراً في النفس، وإرهافاً للحس ولذا فقد كثرت في الكلام المطبوع من شعر الجاهليين، كما كثرت في كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ، من قبل أن تقعد له القواعد، وقد تقدم لنا من قبل تقسيم الاستعارة إلى خاصية وعامية، وبينا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٤/ ٤٢٢ من حديث أبي برزة الأسلمي.
(٢) النَّوَى: الوجه الذي ينويه المسافر من قُرْب أو بُعْد، ونوى شطون: بعيدة شاقة.
(٣) أخرجه ابن ماجة، أبواب الدعاء حديث رقم (٣٨٤٩)، ص٥٥٠، وأخرجه الإمام أحمد - مسند أبي بكر الصديق - حديث رقم (٥)، (١٧).
(٤) المجازات النبوية، ص٧٦.

أن من روعة الاستعارة أنها تجمع بين الحقائق المتباعدة، فهي إذن ليست محسناً بلاغياً ككثير من المحسنات، إنما هي جوهر الأسلوب الأدبي وركيزته الأولى، صحيح أن هذه الاستعارة لا ينبغي أن تكون متكلفة، ولذا نجد النقاد عابوا على بعض الشعراء بعض استعاراتهم.

إن وظيفة الاستعارة إذن لا تقف عند مجرد التزيين والتحلية، كما أنها ليست شرحاً ولا توضيحاً، وليست تقوية ولا تدعيماً لمعنى نثري، وإنما تبدو قيمتها في الحقيقة في أنها وسيلة اكتشاف العالم الداخلي للشاعر، بكل ما فيه من خصوصية وتفرد وتميز، لا تستطيع اللغة العادية التجريدية أن تعبر عنه أو توصله إلى القارئ، وعلى ذلك يتحدث ناقد معاصر عن الاستعارة فيقول:

«الاستعارة تقرب بين حقيقتين بعيدتين إحداهما عن الأخرى كل البعد، وقد تجردتا من أي علاقة يمكن فهمها، فهذه الاستعارة أكثر من أن تكون مجرد استعارة عادية، وربما هي التي تتضمن الأداة المثلى في المعرفة»[(١)].

ولقد عرفنا عندما تحدثنا عن التشبيه أن الشيء الواحد يمكن أن يكون مشبهاً به من جهات كثيرة، وهذا المعنى أكثر وضوحاً في الاستعارة، ولا عجب إذن أن الاستعارة يمكن أن تكون سبباً في تغيير كثير من الأخلاق، فلطالما كانت سبباً في كرم بخيل وجوده وجرأة جبان وشهرة خامل، أليست تظهر الجماد بصورة الناطق؟ أليست تكسو الأشياء الجرداء حُللاً قشيبة[(٢)] خضراء؟ ألم تر كيف أعطتك المعاني الكثيرة بأقل الألفاظ، وهي مع ذلك كله تجسد لك الانفعالات والمشاعر، ألم تر أنك تلمس فيها الجدّة فتأنس إليها نفسك، فتجد الكلمة الواحدة تصاغ في أكثر من قالب وتصور بأكثر من ريشة واحدة؟ ومع ذلك فإنك تجد لكل صورة عناصر جمالها الخاصة بها، وأسباب الحسن، وملاعب العواطف.

---

(١) فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي، د. أحمد عبدالسيد الصاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية، ص٣٤٤.

(٢) القشيب: الشيء الجديد النظيف الحسن.

ولقد مر معك الكثير من هذا، وأزيدك على ما تقدم فنقف أمام هذين المثالين أحدهما قول كُثيِّر[1]:

غَمْــرُ الــرِّداءِ إذا تَبَــسَّمَ ضــاحِكاً غَلِقــتْ لِــضِحْكَتِهِ رِقــابُ المَــالِ

أما المثال الآخر[2]:

يُنــازِعُني رِدائِــي عَبْــدُ عَمْــرٍو رُوَيْــدَكَ يــا أخــا عَمْــرِو بْــنِ بَكْــرِ
لِيَ الــشَّطْرُ الــذِي مَلَكَــتْ يَمينِــي وَدُونَــكَ فَــاعْتَجِرْ مِنْــهُ بِــشَطْرِ

ذكرت كلمة الرداء في كل من البيتين كما رأيت وهي مستعارة في كلا الموضعين، ولكن الذي يزيدك عجباً أنها استعيرت في البيت الأول لغير ما استعيرت له في البيت الثاني، فقد استعيرت في البيت الأول للمعروف، والمعنى الذي تصوره الشاعر والذي يجمع بين المستعار والمستعار له، أي بين الرداء والمعروف بديع لطيف المأخذ، ذلك أن الرداء يستر صاحبه ويردّ عنه سوءاً ويقيه ضرراً، وليس المعروف في ذلك كله بأقل من الثوب، وكلمة (غمر) جاءت تجريداً للاستعارة لأنها تلائم المشبه وهو المعروف، لأن الغمر: الكثير، فلا يقال: كثير الثوب ولكن كثير المعروف، ثم يكمل الصورة بقوله: «إذا تبسم ضاحكاً غلق لضحكته رقاب المال» يقال: غلق الرجل، إذا ضجر وغضب، وغلق الرهن في يد المرتهن إذا لم يستطع صاحبه أن يرده إليه. ومعنى البيت أن الممدوح إذا تبسم ضاحكاً غضبت الأموال وأيقنت أنها ذاهبة من عند صاحبها مملوكة لغيره.

ولنأت للمثال الثاني الذي ذكرت فيه كلمة (الرداء)، ولكنه ليس المعروف هنا، إنما هو السيف، واستعارة الرداء للمعروف رأينا فيها جمال الصورة ودقة المسلك ولطف المأخذ، ولكن ما معنى استعارة الرداء للسيف؟ فإذا عرفنا أن السيف يقي صاحبه الشر، ويردّ عنه غائلة السوء وعوادي الأذى، أدركنا جمال الاستعارة ودقتها وما لها من شأن، إلا أن الاستعارة الأولى كانت مجردة لأنها ذكر فيها ما يلائم المشبه وهي كلمة الغمر لأنها تلائم المال، أما هذه فمرشحة، لأنه ذكر فيها ما يلائم المشبه به وهو الرداء، وهي كلمة

---

(١) الإيضاح ٢/ ١٧١، شروح التلخيص ٤/ ٣٥٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٩٨، اعتجر، يقال: اعتجر بالعمامة إذا لفها على رأسه.

(الاعتجار) لأن الاعتجار هو التلفع والتلفف بالثوب، ولنكمل الحديث عن هذه الصورة.

فلقد عبر عن السبب الذي من أجله مد السيف إلى عبد عمرو بالمنازعة، فكأن السيف وهو بينهما يتجاذبه كل منهما فيقول له: رويدك يا هذا، ليكن السيف بيننا وليأخذ كل منا بشطر منه. أما أنا فلي الشطر الذي ملكته يدي ويعني به مقبض السيف، وأما أنت فخذ الشطر الآخر واعتجر به وهذا من قبيل التهكم، فقد عبر عن اختراق السيف لصدره بالاعتجار والتلفع، ولذا فهم يقولون: إن الاستعارة أبلغ من الحقيقة، ولكن ليس معنى هذا أن المعنى الذي تدل عليه الاستعارة أكثر من المعنى الذي تدل عليه الحقيقة، فإذا قلت: «رأيت بحراً» وتعني الجواد الكريم فليس معنى هذا أن هذا القول - أعني قولك - «رأيت بحراً» - يدل على الكرم أكثر من قولك: «رأيت جواداً» أو «رأيت كريماً»، أي أن الاستعارة ليس فيها زيادة كَمٍّ على ما في الحقيقة، كذلك إذا قلت: «رأيت أسداً» و«رأيت شجاعاً»، لا تدل الأولى على أنه أكثر شجاعة، كل ما تدل عليه الاستعارة أنها تقرب المعنى وتؤكده وتزيده وضوحاً، ولقد فطن الشيخ عبدالقاهر إلى هذه الحقيقة فهو يقول: «اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدَّعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها ..

كذلك ليست المزية التي تراها لقولك: «رأيت أسداً» على قولك: «رأيت رجلاً لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته»، أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسدَ، بل إنك أفدت تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته بل في إيجابه والحكم به.

وهكذا قياس التمثيل ترى المزيَّة أبداً في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه، فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نُبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تُفَخِّمَها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقِرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكَلِم لمن تثبت له، ويُخْبَر بها عنه»[1].

---

(١) دلائل الإعجاز ص١١٤، تعليق محمد عبدالمنعم خفاجي.

بعد هذا يمكننا أن نجمل خصائص الاستعارة ومميزاتها فيما يلي:

١- التزيين أو التجميل.

٢- الاختصار أو الإيجاز.

٣- الجِدّة.

٤- الإيضاح.

وقد تضمن كلام الشيخ عبدالقاهر هذه الخصائص، يقول: «اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي في هذا الضرب دون الأول، وهي أمدّ ميداناً، وأشد افتناناً، وأكثر جرياناً وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعةً، وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً[1]، من أن تُجمَع شُعبُها وشعوبها، وتُحصَر فنونُها وضروبها، نعم وأسحر سِحراً، وأملأ بكل ما يملأ صدراً ويُمْتع عقلاً، ويؤنس نفساً ويوفر أنساً، وأهدى إلى أن تُهدي إليك أبداً عَذارَى قد تُخُيِّرَ لها الجمال، وعُني بها الكمال، وأن تُخرج لك من بحرها جواهرَ إن باهَتْها الجواهرُ مدت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصُر، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تُنكَر، وردَّت تلك بصُفْرة الخجل ووَكَلتها إلى نسبتها من الحَجَر، وأن تُثير من مَعْدنِها تبراً لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغات تُعطّل الحُلِيَّ، وتريك الحَلْيَ الحقيقي، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا، وفضائل لها من الشرف الرتبة العليا، وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، وتستوفي جملة جمالها.

ومن الفضيلة الجامعة فيها: أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجَدَّة تزيد قدره نُبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد، حتى تراها مكرّرة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخِلابةٌ مومُوقة.

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرِج من الصَّدَفة الواحدة عِدَّةً من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر.

---

(١) الغور: هو ما انخفض من الأرض، والنجد: ما ارتفع منها.

وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حدّ البلاغة، ومعها يستحق وصفَ البراعة وجدتها تفتقر إلى أن تُعيرها حُلاها، وتَقصُر عن أن تنازعها مداها، وتصادفها نجوماً هي بدرها وروضاً هي زهرها، وعرائسَ ما لم تُعِرها حَلْيَها فهي عواطل، وكواعب ما لم تُحسِّنها فليس لها في الحسن حظ كامل، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينةً، والمعاني الخفية بادية جلية.

وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تَزِنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير مُعجِبَة ما لم تَكُنْها، وإن شئت أرتك المعانيَ اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمَت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لَطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون»[1].

وكل الذي تقدم كان حديثاً عن الاستعارة نفسها، وينبغي أن لا تنسى أننا ينبغي أن نضيف إلى ما ذكرناه من قبل قضية لها شأنها وخطرها، وهي أن الإطار الذي توضع فيه الاستعارة، والقالب الذي يحيط بها، لا بد أن يكون متناسباً متلائماً في قوته وحسنه، فتجمل به الاستعارة وتكمل، ولا تكون كالدرة النفيسة في العلبة الرخيصة، أو كالعرق الأخضر في الأرض الجرداء. ذلك أن الاستعارة وما يشبهها من الأساليب البلاغية يمكن أن تسمو بالمعنى الذي تحدثت عنه، وإن لم يكن شيئاً يذكر، كما أن المعنى الجيد قد يذهب بجودته القالب الركيك الذي صيغ فيه. يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: «وربما جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة، قال أبو هلال: «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت... ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها، ويغلون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم.. ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً»[2].

---

(١) أسرار البلاغة، ص٤٦-٤٨، تحقيق محمد عبدالعزيز النجار.

(٢) انتهى كلام أبي هلال، ثم يتابع الزيات كلامه: (والحق أن أظهر الدلالات...

والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السرد ونصاعة الإيجاز وبراعة الصنعة فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر والشعور الصادق كان الإعجاز. وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه، ولا بأس أن أقدم إليك مثلاً من آلاف الأمثلة بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام.

قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوابة: «بلغني ما خاطبت به أبا الصقر وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضاً فيمضغه ولا مجداً فيهدمه»، فقال له ابن ثوابة: «ما أنت والكلام يا مكدّي»[1].

فقال أبو العيناء: لا ينكر على ابن ثمانين سنة قد ذهب بصره وجفا سلطانه، أن يعول على إخوانه.. ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف فقال له ابن ثوابة «الساعة آمر أحد غلماني بك»، فقال له أبو العيناء: «أيهما؟ الذي إذا خلوت ركب، أم الذي إذ ركبت خلا؟».

فانظر في هذه الجملة الأخيرة تراه رمى ابن ثوابة في نفسه وفي زوجه، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على ألسنة السبّابين من أوشاب العامة، وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدوه المعجب، تحرك بها لسانك، وتعمل فيها فكرك، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط. تأمل هذا الإيجاز البارع بحذف متعلقات الفعلين (خلا وركب) وفيها جوهر المعنى وإصابة الغرض؛ تجد سر البلاغة كله فيه، لأن هذا الحذف مع وضوح المعنى قد نزه الكلام عن صراحة الفحش، وصان المتكلم عن ذكر القبيح، فلو أنه قال: خلوت بكذا وخلا بكذا، وركبت كذا وركب كذا، لانحطّ الكلام عن مقام البلاغة وصار بهذر العامة، وكان بحسب البليغ هذا الإيجاز المشرق، ولكنه ضم إليه أنواع البديع (العكس)، (أسلوب

---

(١) المكدّي: الذي يسأل الناس.

الحكيم) فعكس الفعلين واستعملهما في معنيين مختلفين، وكل ذلك في غير تكلف ولا تعسف ولا غموض.

فأن ترى أن الصياغة وحدها هي التي سمت بهذه المعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن وتناقلتها الكتب، وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ، فإن اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ويلف الشعور وإن لم يترجم، أما المعنى فكالكهرباء، إذ لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره فلا يعرب ولا يطرب، اقرأ قول القائل:

لَـــمّا أطَعْنَـــاكُمْ في سُـــخْطِ خالِقِنـــا ... لا شَـــكَّ سَـــلَّ عَلَيْنـــا سَـــيْفَ نِقْمَتِـــهِ

ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف، بما رويت لك من كلام أبي العيناء، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول:

«إن القذر يوضع في آنية الذهب فيقبل ويحمل، وإن المسك يوضع في نافجة[1] الطين فيرفض ويهمل»[2].

والذي قاله الأستاذ الزيات - رحمه الله - ومع ما استوفاه من تأمل وتأنق إلا أن من الحق أن نقرر هنا أن المعنى الذي استوفى جمال الصياغة وعناصر البلاغة، لا ينبغي أن يكون فيه إسفاف ورعونة، فيُودي ويذهب بالقيم التي تنمي الفضيلة وتسمو بالحق، والذي نراه أن القيم على تعددها ينبغي أن يؤازر بعضها بعضاً، فقيمة الجمال حريّ بها أن تشد من أزر الحق والخير، ولا تنفصل هذه القيم بعضها عن بعض بما يترتب على هذا الانفصال والانفصام من إضرار ومفاسد، فإذا انفردت قيمة الجمال عن قيمة الحق فسد الخُلُق، وإذا انفصلت قيمة الخير عن قيمة الجمال فسد الذوق، أذكر لك مثالين لتوازن بينهما من حيث الشكل والمضمون، والنتيجة مترتبة عليهما معاً.

أما الأول: «فما روي عن سيدنا عليّ كرم الله وجهه: «ألا إن الخطايا خيل شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهلها، وخُلعت لُجُمُها، فتقحَّمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلل حُمل عليها أهلها، وأُعطوا أزِمَّتها، فأورَدتهم الجنة» تجد هنا صورتين: صورة الفرس الشموس لم

---

(١) النافجة: وعاء المسك.

(٢) دفاع عن البلاغة، ص٢٥-٢٨.

يروض ولم يلجم فيندفع براكبه جامحاً لا ينثني حتى يتردى به في جهنم، وصورة الناقة الذلول قد سلس خَطْوُها وخف عنانها فتنطلق بصاحبها في رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنة. ثم تجد عاطفتين: عاطفة النفور من الألم الذي يشعر به الخاطئ المستطار وقد جمحت به خطاياه الرُّعْن في أوعار الأرض حتى ألقته في سواء الجحيم، وعاطفة الميل إلى لذة المتّقي الوادع وقد سارت به تقواه سيراً ليناً حتى أبلغته جنة النعيم.

ذلك من حيث المضمون، أما من حيث الشكل فتجد اختيار الألفاظ المناسبة كالمطايا وما يلائمها من الانقياد والإيراد هنا، وكالخيل وما يوائمها من الشماس والتقحم هناك. والفروق الطبيعية بين هذين الحيوانين في هذين المكانين لا تخفى على ذي لب، ثم تجد بعد ذلك هذا التأليف المتوازن المحكم الرصين وهذه المقابلة البديعية بين عشرة معانٍ لا تكلف في صوغها ولا تعسف»[(١)].

والمثال الثاني: فهذه الأبيات التي نقلها ابن الأثير في المثل السائر وهو يتحدث عن الاستعارة وهو قول عبدالسلام بن رغبان المعروف بديك الجن:

لَمّا نَظَرْتِ إليَّ عَنْ حَدَقِ المَها ... وَبَسَمْتِ عَنْ مُتَفَتِّحِ النُّوّارِ
وَعَقَدْتِ بَيْنَ قَضيبِ بانٍ أهْيَفٍ ... وَكَثيبِ رَمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنّارِ
عَفَّرْتُ خَدِّيَ بالثَّرى لَكِ طائِعاً ... وَعَزَمْتُ فيكِ عَلى دُخولِ النّارِ[(٢)]

«وهذه الأبيات لا تجد لها في الحسن شريكاً، ولأن يسمى قائلها شحروراً أولى من أن يسمى ديكاً»[(٣)].

وانظر إلى القيمة في كل من القولين وستجد البون الشاسع.

وخلاصة القول أننا كما ينبغي أن نعتد بجمال الصياغة في الاستعارة البليغة، وروعة الأسلوب وجودة السبك، وأصالة المعنى، فحري أن لا نهمل القيمة التي تبعث بها

---

(١) دفاع عن البلاغة، ص٦٣-٦٤.
(٢) المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية، النوّار: الزهر، البان ضربٌ من الشجر.
(٣) المثل السائر لابن الأثير، ١/ ٣٧٧.

الاستعارة إلينا، حتى لا تطغى قيمة على قيمة، وإذا كان ذلك عاماً في الأساليب البلاغية، فهو في الاستعارة أولى لما لها من أثر في النفس.

وأنقل هنا كلمة للأستاذ عبدالحميد الفراهي، أختم بها هذا الباب، يقول: «فاعلم أن النطق زهرة تخرج من كمال الفهم، وصلاح البنية فليس لأحد من الحيوان فِطانةٌ كفطانة الإنسان، ولا لسان كلسانه، فمن كان أكملهم علماً وجسماً كان أشرفهم، ولا يخفى عليك أن اللسان طوع الفهم بعدما سُوِّيت خلقته فهو آلةٌ يقلبها العقل. وهذا الأمر يهديك إلى أنّ حسن النطق ليس في الحقيقة من جهة نغْمته، كنغمة البلبل، بل حسنه في كونه آلةً صحيحةً للعقل، لكيلا يقصُر أدنى الإقصار عن إفصاح ما أراده العقل، وعن إبلاغه إلى قلب السامع، فالنطق هو الرسول بين العقل والعقل، فاجعل هذا الأمر الفطري أُمَّ الأمرِ، وقطبَ رحاه، لا المحاكاة؛ فإنها أمر ثانوي لتكتسب به وسائل النطق، فلو لم يكن النطق في الإنسان لما استطاع المحاكاة، فإن نظرنا من جهة الحكمة إلى أسباب الكلام تبين لنا أن قوة النطق هو العلة الفعلية. وأما المعاني ثم الألفاظ فهما المادة، فالنطق يأخذ المعاني ويلبسها ألفاظاً، سواء كان مما ابتدعها أو مما تعلمها الإنسان بوسيلة المحاكاة، وأما العلة الغائية فرسالة العقل، فإن الأمر العام الذي يجري إليه النطق ليس غير هذا، وأما اللذة فليس من غاية الكلام بل ما من قوة إلا وفي استعمالها لذة، كأنّ كلّ قوة بطبعها تشاقّ البروز إلى الفعل، فالجاهل يستعمل القوة للذة والعاقل لحكمتها، فحكمتها أحق باسم الغاية. وأما العلة الصورية فحسن الكلام، فلا يكون كماله إلا من جهة كمال الإبلاغ، فالإبلاغ هو معيار حسن الكلام.

واعلم أن حسن البلاغ وكماله يحتوي حسن ما يُبلِّغه من الصور والمعاني، وهو أولى باللحاظ فلا نقيم وزناً لكلام أبلغ بكمال الصحة شيئاً خبيثاً من نفس متدنسة، فالخَرَس أحسن من هذا النطق، وهذا رأي يستدعي بياناً لصحته، فإن أبا جعفر قدامة صاحب نقد الشعر وهو أول من جعله فناً من العلوم، قال قولاً يضل به الغافل، وإن كان له وجه صحيح فقال: «ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته»، وقال أيضاً: «إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر،

فلم يرد من الشعر إلا شيئاً نازلاً، وبضاعةً دنيةً كما هو وجه أكثر المتنسبين إليه، وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٢٢٤] ونحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به، وكما وضعته الفطرة الإلهية، ويقتضيه كمال قوة النطق، ويستعمله الشاعر أو الخطيب الجدير بهذا الاسم»[(١)].

فاعلم أن الشعر ليس إلا قسماً من أقسام الكلام، والكلام ليس اسماً للجرس المحض، بل هو شيء مركب من المعنى والصوت، والشيء المركب يحكم بحسنه لحاظاً إلى أصل الأمر فيه. مثلاً إنك لا تصف بالملاحة وجه رجل أعور أفطس إذا وجدت إحدى عينيه مليحة فكذلك الأمر في حسن الكلام، نعم إن شئت قلت: إن وزن هذا الشعر أو صوته حسن. ثم نُؤْزِرُ هذا الرأي بأمر أقرب إلى الكلام من جهة الإبلاغ، وهو أن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفاً، ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار، فإننا إنما نعطي الأشياء اسماً لحاظاً إلى سلامة الحال، وإلا لزمك أن تسمي الكلام حسناً وقبيحاً معاً، أو لا تسميه شيئاً. وهذا أمر يتضح لك كل الاتضاح إذا بحثنا عن أسباب بلوغ المعاني القلوب، فترى أن الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجاباً وثقلاً عليه، كما أن مَلِكاً جعل نفسه سفيراً، فالبليغ هو المعنى، واللفظ مركبه، فالمعنى أجدر باللحاظ في حسن الكلام. فذانك برهانان، ثم نعززهما بثالث: وهو أن العرب لم يحمدوا الكلام إلا لحسن معناه، وليس لهم نزوع إلى قول أدى الخبث، فإنهم يذمونه ويستحقرونه، كما قال زهير بن أبي سلمى[(٢)]:

وَذي نِعْمَــــةٍ تَمَّمْتَهــــا وشَــــكَرْتَها ... وخَـصْمٍ يَكـادُ يَغْلِـبُ الحَـقَّ باطِلُـهُ[(٣)]
دَفَعْـتَ بمَعْـرُوفٍ مَـنَ القَـوْلِ صـائِبٍ ... إذا مــا أَضَـلَّ النَّـاطِقينَ مَفاصِـلُهُ[(٤)]

---

(١) هنا انتهى كلام قدامة، ثم يتابع الفراهي كلامه: فاعلم أن الشعر..

(٢) ديوانه ص٥٦، والقصيدة في مدح حصين بن حذيفة.

(٣) يقول: تُنعِمُ فتتمِّمُ ما أنعمت به، وإذا أُسديتْ إليك نعمةٌ شكرتها.

(٤) دفعت بمعروف: يريد: وربّ خصم دفعته بمعروف من القول، مفاصله: من قولهم: (طبق المفصل) أي أن الجزار الحاذق إذا أراد أن يقطع اللحم أصاب المفصل، فأراد أنه إذا لم يهتدِ الناطقون إلى مفاصل الكلام، فإنك مهتدٍ إليها.

وَذِي خَطَـــلٍ في القَـــوْلِ يَحْـــسَبُ أَنَّـــهُ مُـــصيبٌ فَـــمَا يُلْمِـــمْ بِـــهِ فَهْـــوَ قائِلُـــهْ[1]
عَبَـــأْتَ لَـــهُ حِلْـــماً وَأكْرَمْـــتَ غَـــيْرَهُ وأعْرَضْـــتَ عَنْـــهُ وَهْـــوَ بـــادٍ مَقاتِلُـــهْ[2]

فانظر كيف جعل معروف القول صائبه، وبيّن أن حسن القوافي ربما يضل الناس، ولكن بإزاء المعروف يضمحل رونقه، فإذا جاء الحق زهق الباطل، ثم كيف استحقر من يقول كل ما يجري على لسانه. ولم يرد أنهما لم يبلغا معناهما، ولكنه عده غير صائب نكر، ذا خطل يرده القلب، فهل تظن أنهم يسمون أمثاله بليغاً، أم تظن إن رأيت بذيئاً يشتم أحداً، ذاهباً في كل مذهب من الاستعارة والتشبيه، ومصوراً لكل أمر قبيح، فهل تسميه بليغاً أو فصيحاً، فهذا يبين لك أن حسن الكلام تابع لحسن المعنى، فلا تسمي الكلام حسناً إلا بعد أن حَسُن معناه، ولا نترك للكلام فضيلة إلا صحة الأداء، فإذا أُدي الكلام من قلب المتكلم أُدي حقه، ولكنه مع ذلك غير بليغ إن لم يكن المعنى مما يبلغ القلب، وكثر في كلام العرب ذم الفحش والخنا والهجر والبذاذة[3]، حتى إذا خلط شعرهم بهذه المساوئ صار ساقطاً، ألا ترى كيف أمر الحجر بقتل ابنه امرئ القيس لقول الشعر، وسماه الناس ضليلاً. وكيف ذموا النابغة لمدحه الملوك. والعرب تحب مدح الشاكر وذم الساخط وتأنف عن مدح المتذلل»[4].

---

(١) الخطل في القول: الخطأ، ما يُلْمِمْ به: أي ما يحضره من الكلام، وهذا في وصف خصمه.

(٢) عبأت له حلماً: أراد: حلمت عليه وصفحت عنه وقد بدت لك مقاتله.

(٣) البذاذة: رثاثة الثياب.

(٤) جمهرة البلاغة، المعلم عبدالحميد الفراهي، سلسلة الدائرة الحميدية، طبع بالهند سنة ١٣٦٠هـ، ص٩-١١.

الباب الثالث

الكناية

الباب الثالث

الكنايـة

تعريفها وأركانها:

والكناية لغة أن نتكلم بالشيء ونريد غيره، وهي مصدر كالعناية والرماية والهداية، يقال: هدى هداية، ورعى رعاية ورمى رماية وكنى كناية، والظاهر أن فعلها من ذوات الياء، كنى يكني مثل هدى يهدي ورمى يرمي، وحكى بعضهم فيه لغة أخرى وهي أنه واوي واستشهدوا له بما أنشده الجوهري[1]:

وإنّي لأَكْنُو عَنْ قَذُورَ بغَيْرِها ... وَأعْرِبُ أحْياناً بِها وَأُصارِحُ

(وقَذُور) بفتح القاف وضم الذال: اسم امرأة. والأول أفصح لأنهم يقولون في المصدر: (كناية) ولم يقولوا: (كناوة).

ومعرفة المعنى اللغوي تمهد لنا للمعنى الاصطلاحي، ومن هنا فقد عرفوا الكناية في الاصطلاح (بأن تريد المعنى وتعبر عنه بغير لفظه) كأن تريد إثبات الكرم لإنسان ما، ولكنك تعبر عنه بغير اللفظ الموضوع له، فتقول مثلاً: (كثير الرماد) ولا شك أن كثرة الرماد لم توضع لمعنى الكرم، وهذا الذي اختاره الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - ، وقريب منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية وهو (أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينه لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي).

وهذا التعريف نستطيع ونحن نلقي الضوء عليه أن نفرق بين الكناية وبين المجاز، فلقد عرفت أن المجاز لا بد فيه من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، أما القرينة في

---

(١) الصحاح، ٢/ ٤١٥.

الكناية فلا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، بل يجوز إرادته كذلك، وإنما قلنا: يجوز إرادته لأن بعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي للفظ، ومع ذلك فإن هذا لا يدخلها في المجاز، فالمعول في الكناية إذن أن تعبر عن المعنى بغير لفظه.

ومما سبق تدرك أن الكناية لا بد لها من أركان ثلاثة:

١ - اللفظ المكني به.
٢ - المعنى المكني عنه.
٣ - القرينة التي تجعل المعنى الحقيقي غير مراد سواء كانت هذه الإرادة ممكنة أو غير ممكنة.

وإليك أمثلة توضح ذلك كله:

إذا أردت أن تعبر عن ترف امرأة من النساء وعزها وغناها، يمكنك أن تعبر عن ذلك بقولك: «فلانة نؤوم الضحى» فنؤوم الضحى هو اللفظ الذي كنيت به، والترف والدلال هو المعنى الذي كنيت عنه، والقرينة معنوية يدل عليه السياق، ولا ريب أن بإمكانك أن تريد المعنى الحقيقي كذلك، أي أنها كثيرة النوم تظل نائمة إلى هذا الوقت، وكذلك إذا قلت: «فلان كثير الرماد» فإنك تكني به عن كرمه، فالركن الأول: اللفظ الذي كنيت به، وهو «كثير الرماد» والركن الثاني: المعنى الذي كنيت عنه، وهو (الكرم) والركن الثالث: القرينة التي فُهمت من تضاعيف الكلام وسياقه.

وهذا اللفظ قد لا يكون له وجود، فكثرة الرماد مثلاً لا وجود لها اليوم لأن أكثر الناس لا يستعملون الحطب، ومع هذا فتظل هذه الكناية باقية صحيحة الاستعمال بينة في أسلوبها، وقد نكني عن طول فلان بأنه (طويل النجاد) وهي حمائل السيف، وأنت تعلم أنه لا سيف اليوم ولا سكين، ولكن هذه الكناية باقية، وقد تعبر عن كرم شخص وعزه بقولك: «المجد بين ثوبيه» كناية عن عزه وسؤدده، وأنت خبير بأن هذا التعبير لا يجوز أن نحمله على الحقيقة لأن المجد ليس شيئاً محسوساً حتى يلقى بين الثوبين.

بعد هذا تدرك أن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي يتسابق فيها البلغاء وتتفاوت فيها أقدامهم ومنازلهم لأنه يحتاج إلى اللمحة الذكية والغوص على المعنى،

والمجيء باللفظ الذي يمكن أن يدل عليه دون تكلف أو تصنع، فنحن في الكناية ننطق باللفظ وبالجملة من القول، لكننا نريد بها معنى آخر ولا نريد يقيناً معناها الحقيقي، ولا يضيرنا بعد ذلك أكان المعنى الحقيقي ممكناً كقولك: «نؤوم الضحى» و«كثير الرماد» أم غير ممكن كقولنا: «المجد بين برديه» وسواء كان لهذا اللفظ وجود، أم لم يكن له وجود كقولنا: «كثير الرماد»و«طويل النجاد» فقد لا يكون رماد ولا نجاد ولكن تبقى للفظ قيمته التعبيرية وأسلوبه البياني.

أقسام الكناية:

ولقد أطبق العلماء على تقسيم الكناية إلى أقسام ثلاثة، ذلك لأنهم بعد البحث والاستقصاء وجدوا أن المعنى المكني عنه إما أن يكون صفة كقولهم: «كثير الرماد» فإنه كناية عن الكرم، والكرم صفة - كما تعلم - لأنهم يقصدون بالصفة الصفة المعنوية وليس النعت عند النحويين، وإما أن يكون موصوفاً وذلك كقول أمير الشعراء[1]:

وَلِي بَيْنَ الضُّلوع دَمٌ ولَحْمٌ ... هُما الوَاهِي الذي ثَكِلَ الشَّبابا

فقد كنى بقوله هذا عن القلب، وأما أن يكون نسبة والنسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، وذلك كالمثال المتقدم «الكرم بين برديه» والمراد إثبات الكرم للممدوح وسنحاول توضيح كل من هذه الأقسام الثلاثة ومن الله العون.

أولاً: الكناية عن الصفة:

ولكي يسهل عليك معرفة هذا القسم نبادرك القول بعلاماته ومميزاته، فضابط هذا القسم أن تذكر الموصوف وتنسب له صفة، ولكنك لا تريد هذه الصفة وإنما تريد لازمها ففي قولك: «فلان كثير الرماد» ذكر للموصوف وهو فلان، وذكر لصفته وهي كثرة الرماد، ولكنك لم ترد هذه الصفة نفسها، بل أردت صفة لازمة لها وهي الكرم؛ لأن كثرة الرماد تنشأ عن كثرة النار، وهذه تنشأ عن كثرة الحطب، وهي تنشأ عن كثرة الطبخ، وذلك نتيجة كثرة الضيفان، والكرم لازم لذلك كله، وفي قولك: «خديجة نؤوم الضحى»

---

(١) الشوقيات، ١/ ٦٧.

ذكر للموصوف (خديجة) وذكر لصفتها (نؤوم الضحى) ولكنك لم ترد الصفة نفسها وإنما أردت لازم هذه الصفة وهو الترف، لأن (نوم الضحى) ناتج عنه.

وفي قولك: «فلان طويل النجاد» ذكر للموصوف وذكر لصفته ولكنك تريد غيرها (طول القامة) ذلك لأن السبب في طول النجاد طول القامة، وقولك: «نحن أمة لا نملك قلم الرصاص» كناية عن حرية التعبير، و«نحن أمة لا تملك سكيناً» كناية عن الضعف، فلقد ذكرت الموصوف، ولكن الصفات التي ذكرتها ليست هي المقصودة بالذات، إنما قصدت ما تنشأ عنه هذه الصفات، وقولك: «ما أضيع الذين يطأطئون الجباه لغير الله» فلقد ذكرت الموصوف وذكرت له صفة وأردت لازمها وهو الذل.

ومن هذا قولهم: «فلان جبان الكلب مهزول الفصيل» كناية عن الكرم، فإن (جبان الكلب) هو من اعتاد كلبه رؤية الزائرين، ومن عادة الكلب أن ينبح كلما رأى غريباً في البيت، لكن كثرة الزائرين جعلت الكلب يترك نباحه، وكثرة الزائرين تدل على الكرم كما تعلم، ومن هذا قول الشاعر[1]:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ... جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

وأبدع من هذا قول نُصَيْب[2]:

لِعَبْدِ العَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ ... وَغَيرِهِمُ مِنَنٌ ظَاهِرَة

فَبَابُكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ ... وَدَارُكَ مَأْهُولَةٌ عَامِرَةٌ

وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ... مِنَ الأُمِّ بِابْنَتِهَا الزَّائِرَة

وأبدع منه قول الآخر[3]:

يَكَادُ إذا مَا أَبْصَرَ الضَّيفَ مُقْبِلاً ... يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

فانظر إلى هذه المبالغة في الكناية كيف جعل الكلب يكاد يكلم الضيفان، ويرحب بهم مع أنه لا يستطيع النطق، وأما قولهم: مهزول الفصيل فهو كناية عن الكرم كذلك،

---

(١) هذا البيت لابن هرمة، الصناعتين، ص٢٤٢.

(٢) القصيدة في مدح عبدالعزيز بن مروان، ديوان نصيب بن رباح، ص٩٩.

(٣) هذا البيت لابن هرمة، الحماسة ٢/ ٢٤٨.

فالفصيل ابن الناقة، إلا أن كثرة الضيوف وما يشربونه من لبن النياق، تجعل الفصيل مهزولاً لأنه لا يشبع من لبن أمه، ومنه قول الشاعر وقد تقدم من قبل:

لا أُمْتِعُ العُوْذَ بالفِصال وَلاَ أبْتاعُ إلاّ قَريبَةَ الأجَلِ

فهو كناية عن الكرم لأنه لا يمتع النوق بأبنائها وفُصْلانها، فإنه ينحرها، كما أنه لا يبتاع إلا قريبة الأجل، فهي لا تمكث في بيته بل تنحر عند دخولها بيته.

ومن هذا النوع من الكنايات قول الشاعر:

لاَ يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْناً في مَنازِلِنا إلاّ إلى ضاحِك مِنَّا ومُبْتَسِم

وهذه كناية بديعة أخرى عن الكرم، إذ يلزم من الضحك والابتسام في وجه الضيف الحفاوة به وهذا يستلزم الكرم، وهو من (الإيماء) الذي سيمر بك بعد قليل.

وأبدع منه قول المتنبي في رثاء أحدهم[1]:

ألَسْتَ مِنَ القَوْم الأُلى مِنْ رِماحِهِمْ نَداهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ البُخْلِ

فانظر كيف استعار للبخل مهجةً، ثم للكرم رماحاً طعنت هذه المهجة، فهذه كناية عن كرمهم وإفنائهم للبخل بجودهم.

ومنه قول الخنساء في أخيها صخر[2]:

طَوِيلُ النِّجادِ رَفيعُ العِمادِ كَثيرُ الرَّمادِ إذا ما شَتَا

وهذه ثلاث كنايات عن ثلاث صفات، الأولى كناية عن الطول وهي (طويل النجاد)، والثانية عن السؤدد والرياسة وهي: (رفيع العماد)، والثالثة عن الكرم وهي (كثير الرماد).

---

(١) القصيدة في رثاء أبي الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة.
الألى: بمعنى الذين، نداهم: كرمهم، يقول: - مخاطباً الميت -:
أنت من القوم الذي كرمهم من سلاحهم، والبخل من قتلاهم، أي: أنهم أفنوا البخل بجودهم.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوانها.

ومنه قول المتنبي[1]:

فَمَسَّاهُمْ وَبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وبُسْطُهُمُ تُرابُ

يعني أنهم كانوا في المساء يتصفون بالعز والأمن، ولكن أصبحوا يتصفون بالذل، وهما كنايتان بديعتان (فبسطهم حرير) كناية عن عزهم وغناهم و(بسطهم تراب) كناية عن ذلهم وفقرهم، ومنه قول المتنبي[2]:

تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ إلَيْهَا وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وهي كناية بديعة كذلك كنى بها عن صفة، وهي كذب محبوبته يقول: إنها تشتكي مر الفراق، كما أشتكيه، ولكنها كاذبة في شكواها وفيما تدعيه من شوق، فإن الشوق الصادق يبرح بصاحبه فيجعله نحيل الجسم، وهذا ما أصابني بالفعل، أما هي فليست كذلك، ومنه قوله يصف فرسه[3]:

وَأَصرَعُ أيَّ الوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

يقول: إن فرسه سريع أياً كان الوحش الذي يتبع هذا الفرس، ولكنه حين ينزل عنه لا يجد له تعباً ولا نصباً ولا سآمة، فكلتا حالتيه سواء، حينما يركبه وحينما ينزل عنه، فهو فرس كريم عتيق، ومنه قوله في مديح سيف الدولة[4]:

إلى كَمْ تَرُدُّ الرُّسْلَ عَمَّا أَتَوْا لَهُ كَأَنَّهُمْ فِيمَا وَهَبْتَ مَلاَمُ

ومعنى البيت: أنك ترد رسل ملك الروم الذين جاؤوا يطلبون الهدنة، غير مبالٍ ولا متردد، وهذا الرد المنبعث من الثقة والقوة والجرأة والشجاعة، وما أشبه ردك لهؤلاء بردك الملامة عن نفسك بما وهبت من عطايا للسائلين، فكلمة (ملام) متعلقة بـ (ما وهبت) فهنا صفتان: الشجاعة والجود وقد كنى عنهما كما رأيت.

---

(١) ديوان المتنبي، ١/ ٢١٣.
(٢) ديوان المتنبي ٣/ ٢٦٧.
(٣) ديوان المتنبي ١/ ٢٠٤.
(٤) ديوان المتنبي ٣/ ١١٠.

ومنه بيت الحماسة[1]:

لا يَسْأَلُونَ أخاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... في النَّائِباتِ عَلَى ما قالَ بُرْهانا

والمقصود بهذا القول أن يبين شجاعتهم وإسراعهم في إجابة الداعي وقال النابغة يصف نساءً وهن في الأسر[2]:

يُخَطِّطْنَ بالعيدانِ في كُلِّ مَنْزِلٍ ... ويَخْبَأْنَ رُمّانَ الثُّديِّ النَّواهِدِ

وشبيه بهذا قول ذي الرمة[3]:

عَشِيَّةَ مالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنَّنِي ... بِلَقْطِ الحصَى والخَطِّ في الأرضِ مُوْلَعُ

أخُطُّ وأمْحُو الخَطّ ثُمَّ أُعيدُهُ ... بِكَفِّيَّ والغِرْبانُ في الدَّارِ وُقَّعُ

والتخطيط بالعيدان كناية عن الهم والحزن. (والغربان في الدار) كناية عن خلوها من الناس.

ومنه قول طرفة بن العبد[4]:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ ... خَشاشٌ كَرَأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وهذا كناية عن الحذق والذكاء والمهارة.

ومنه قول أبي تمام في مدح ابن شبانة[5]:

فَإِنْ أنا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صاغِراً ... عَدُوُّك فاعْلَمْ أنني غَيْرُ حامِدِ

يقول مخاطباً ممدوحه: إذا لم يبلغ مدحي لك مبلغاً من الحسن والجمال بحيث يُجبِر حسنُهُ عدوَّك أن يحفظه وينشده - وبالتالي يكون هذا قمة الصغار والذل له، إذ يتغنى

---

(١) شرح ديوان الحماسة، ١/ ٢٣.

(٢) ديوان النابغة ص٩٧، العمدة ١/ ٢٠٦.

(٣) ديوان ذي الرمة، ص٢٧٤.. (والغربان في الدار وقع) أي: الدار خالية والغربان فيها.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص١٤٤. الضرب: الخفيف اللحم، خشاش: رجل لطيف الرأس ماض سريع الدخول في الأمور، المتوقد: الشديد النشاط.

(٥) ديوان أبي تمام ٢/ ٧٧، والقصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة، وأراد أبو تمام بمدح عدو ممدوحه: حفظه مدحه - أي مدح أبي تمام - وإنشاده إياه.

بمدح عدوه - يقول: إذا لم يكن مدحي كذلك فلا تعدني مادحاً. فانظر كيف كنى عن جودة مدحه، ثم تخيل أيّ سعة من الخيال تمتع بها الشاعر، وأي: مستوى من الذوق بلغ.

ومن الكنايات المشتهرة كذلك (فلانة ناعمة الكفين) (نقية الثوب) و(فلان طاهر الذيل) فالجملة الأولى كناية عن الترف والدلال، وفي الثانية كناية عن العفة والثالثة كذلك، ومن الكنايات المشتهرة «قرع فلان سِنَّه» كناية عن الندم، لأن الإنسان حينما يندم يقرع أسنانه بعضها ببعض، و«فلان هجر الفأر بيته» كناية عن الفقر، و«فلان يشار إليه بالبنان» كناية عن الشهرة، و«فلان عريض القفا» كناية عن البله والخمول أو الغباء، ومنها قولهم: «فلان يمشي على بيض» إذا كان بطيئاً في مشيته، و«فلان ركب جناحي نعامة» كناية عن سرعته، ومنها قولهم: «فلان يمشي على ثلاثة» و«فلان لوت الليالي كفه على العصا»، هما كنايتان عن الكِبر والهرم، «فلان قلع أسنانه» كناية عن التجربة والحنكة، و«فلان لا يرى غيره» كناية عن الكِبر والإعجاب بالنفس، وقولهم: «فلان منخرق الجيب» كناية عن كثرة الإنفاق، «قوي الساعد مفتول العضلات» كناية عن القوة «رابط الجأش» كناية عن الشجاعة، «كثير الإخوان، لين الجانب» كناية عن حسن الخلق واليسر في المعاملة.

هذه الكنايات إذا أمعنت فيها النظر وجدت أن كل واحدة منها ذكر فيها الموصوف وذكرت له صفة، إلا أنها لم تكن هي المرادة، إنما المراد صفة غيرها، وهذا ضابط الكناية عن الصفة - كما عرفت من قبل - وهنا أمر آخر لا بد أن أنبه عليه، ارجع إلى الكنايات السابقة تجد أن بعضها كثرت فيه الوسائط على حين قَلَّت في بعضه الآخر، كما أنك تجد بعض الكنايات واضحة المأخذ، سهلة الاستنتاج، بينما يحتاج بعضها الآخر إلى تأمل وفكر، خذ مثلاً قولنا: «فلان كثير الرماد» ألا تجد أن هناك وسائط كثيرة بين المكني به والمكني عنه، أعني بين كثرة الرماد والكرم، لأن كثرة الرماد تستلزم كثرة النار وهذه تستلزم كثرة الحطب، وهذا يستلزم كثرة الطبخ، وهي تستلزم كثرة الضيفان المستلزمة للكرم، لكن قولنا: «فلان طويل النجاد»، و«فلانة بعيدة مهوى القرط»، وهما كنايتان عن الطول لا تستلزمان شيئاً، فإن طول النجاد يلزم منه طول القامة، وكذلك (بعيدة مهوى القرط) وهو ممتد من شحمة الأذن إلى الكتف.

فهاتان كنايتان لا تحتاجان إلى تأمل - كما رأيت - إحداهما كثرت فيها الوسائط، ويسميها السكاكي تلويحاً، والأخرى قَلَّت فيها الوسائط ويسميها السكاكي إيماءً وإشارة، أما إذا كانت الكناية محتاجة إلى تأمل كقولنا: «فلان عريض القفا» أو «عريضُ الوِسَادِ» وهما كنايتان عن البله والغباء - كما عرفت - لكن الأولى نجد فيها الوسائط أكثر من الثانية، فإنها تسمى رمزاً عند السكاكي، فالسكاكي نظر في تقسيم الكناية - إذن - إلى كثرة الوسائط وقِلَّتها من جهة، وإلى سهولة الاستنتاج من جهة أخرى فإذا كانت الكناية سهلة الإدراك وكثرت فيها الوسائط سماها تلويحاً كقولنا: «كثير الرماد» وإذا قَلَّت وسائطها مع سهولتها سماها إشارة وإيماء كقولنا: «طويل النجاد» «بعيدةُ مهوى القرط»، أما إذا كانت بحاجة إلى تأمل وفكر فإنه يسميها رمزاً سواء كثرت وسائطها كقولنا: «عريض القفا» أم قَلَّت كقولنا: «عريضُ الوسادِ».

ثانياً: الكناية عن الموصوف:

ضابط هذا النوع من الكناية أن نذكر الصفة والنسبة ولا نذكر الموصوف المكني عنه، عرفت في القسم الأول وهو الكناية عن الصفة أننا ذكرنا الموصوف ونسبنا له صفة ما، ولكن لم تكن هي الصفة المرادة، وأظنك تلمح من هذا التعريف أن الكناية لا بد فيها من موصوف وصفة ونسبة، ففي الكناية عن الصفة نذكر هذه الثلاث، إلا أن الصفة المذكورة غير الصفة المرادة، فقولنا: «فلان كثير الرماد» ذكرنا فيه الموصوف ونسبنا له صفة معينة كنينا بها عن صفة أخرى.

أما في هذا القسم فنحن نذكر الصفة والنسبة فحسب ولا نذكر الموصوف، ولكي يتضح لك الفرق بين القسمين، ينبغي أن تعلم أن الصفة في القسم الأول كانت كناية عن صفة أخرى، أما الصفة في هذا القسم فإن الغرض من ذكرها أن نتوصل بها إلى الموصوف المحذوف المكني عنه، استمع مثلاً إلى قول شوقي الذي تقدم:

وَلِي بَيْنَ الضُّلوعِ دمٌ وَلَحْمٌ ... هُمَا الوَاهِي الذي ثَكِلَ الشَّبابا

وهو كناية عن القلب، ألا ترى أن المذكور هنا، والذي كنى به عن القلب ليس في الحقيقة إلا صفة لهذا القلب، فالقلب بين الضلوع والقلب دم ولحم. وهذه الصفات كما ترى لا يتصف بها إلا القلب، ألا ترى أنه لو اقتصر على الدم واللحم ما صلح أن يكون

كناية عن القلب، لأن اليد دم ولحم وكثير من الجوارح يمكن أن تكون كذلك، لكن الذي حسن الكناية هنا في هذا البيت أن مجموع هذه الصفات المذكورة لا تصدق إلا على القلب، ومن أمثلة هذا القسم قوله سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]، ولكي تتذوق الكناية نبين لك أن الآية الكريمة جاءت رداً على العرب في جاهليتهم، وقد كانوا يكرهون البنات ويئدونهن ومع ذلك كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآية ناعية عليهم مقررة جهلهم، مسفهة أحلامهم وعقولهم، يقول الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الزخرف:١٥-١٦] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾ [الزخرف:١٩].

ومعنى الآيات أنكم اصطفيتم البنين لكم وجعلتم البنات لله، جعلتم له من ينشأ في الحلية ولا يكون في خصومته مبيناً قوياً، وهذه صفة للنساء كما تعلم، فإنهن ينشأن في الحلي ولا يبنّ في خصامهن، وهو ما عناه شاعرهم حين قال[1]:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيُولِ

ففي الآية الكريمة كناية، فاللفظ المكني وهو قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ..﴾ [الزخرف:١٨] أما المكني عنه فهو النساء، وإذا نظرت إلى الصفة وهي التنشئة في الحلية وجدتها مختصة بالنساء ولكن في أيامنا هذه استوى فيها الماء والخشبة وأصبح كل يشبه الآخر، وهذا يذكرنا بقول المتنبي[2]:

وَمَنْ في كَفِّهِ مِنْهُمْ قَناةٌ كَمَنْ في كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضابُ

وفيه كناية عن الموصوف كذلك، فهو يقول: إن رجالهم أصبحوا كالنساء لأن قوله «من في كفه قناة» كناية عن الرجال، و«من في كفه خضاب» كناية عن النساء.

---

(١) وهو عمرو بن أبي ربيعة.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢١٣.

ومنه قول الشاعر[1]:

والقادِسِيَّةُ حَيْثُ زاحَمَ رُسْتُمٌ كُنَّا الحُماةَ نَهُزُّ كَالأشْطانِ
الضَّارِبينَ بِكُلِّ أبْيَضَ مُخْذَمٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجامِعَ الأضْغانِ

فإن مجامع الأضغان كناية عن القلب، لأنها صفة له في الحقيقة، ومنه قول البحتري في قصيدته التي يتحدث فيها عن طعنه للذئب[2]:

فَأَتْبَعْتُهَا أُخْرَى فَأَضْلَلْتُ نَصْلَها بحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُ وَالرُّعْبُ والحِقْدُ

يريد أنه طعنه في قلبه ولكنه لم يذكر القلب، وإنما ذكر صفة كنى بها عن القلب، وهي قوله: «حيث يكون اللب والرعب والحقد»، ومنه قول الآخر:

قَوْمٌ تَرَى أرْماحَهُمْ يَوْمَ الوَغَى مَشْغُوفَةً بِمواطِنِ الكِتْمانِ

فـ (مواطن الكتمان) صفة القلوب وقد كنى بها عنه، وهكذا إذا قلت: «صفا لي مجمع لب فلان» فأنت تريد القلب، ولكنك لم تذكره وإنما كنيت عنه بصفته، وهكذا تراهم يكنون عن القلوب بهذه الأوصاف المختلفة إلا أنها جميعاً تختص بالقلب كمواطن الكتمان، وهو كذلك مجمع اللب والرعب والحقد، وهو موطن الأسرار كما يقول أبو نواس في الخمر:

وَلَمَّا شَرِبْناها وَدَبَّ دَبِيبُهَا إلى مَوْطِنِ الأسْرارِ قُلْتُ لَها: قِفِي

وهو الدم واللحم بين الضلوع - كما قال شوقي، ومنه قول المعري في وصف السيف[3]:

سَليلُ النَّارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّى كأنَّ أباهُ أوْرَثَهُ السُّلالا

---

(١) وهو عمرو بن معدي كرب، ديوانه، ص١٧٤. والبيت من قصيدة قالها بعد فتح نهاوند على يد النعمان بن مقرن.

(٢) ديوان البحتري ١/ ٣٧١.

(٣) السليل: الولد، السلال، والسل: داء يَدْنَفُ الإنسان منه، يقول: إن هذا السيف ولد النار لأنه نشأ في النار حين أخرج من المعدن، فتراه دقيق الشفرتين حتى كأنه ورث داء السل من أبيه، فدنف، أي: أجهده العشق. شروح ديوان سقط الزند ١/ ٩٨.

فقد كنى عن السيف بهذه الأوصاف التي سمعت من الدقة والرقة.

ومن الأمثلة المتقدمة تدرك أن الكناية عن الموصوف تنقسم إلى قسمين، فاللفظ المكني به قد يكون وصفاً واحداً، (كمواطن الأسرار) و(مجمع اللب والرعب والحقد)، وإما أن يكون أوصافاً متعددة لا بد منها جميعاً لتحقق الكناية، ألا ترى إلى قول شوقي الذي كنى به عن القلب بأنه بين الضلوع وبأنه دم ولحم، ولو أنه اقتصر على الدم واللحم ما صلحت هذه الكناية.

ويمكن أن نمثل لك بمثال آخر، وهو ما يذكره القوم في كتبهم «زارني حيٌّ مُسْتَوي القامة عَرِيضُ الأظفارِ» فمجموع هذه الصفات كناية عن الإنسان، ولو أخذنا كل صفة على حدة ما صلحت هذه الكناية، فلو اقتصرنا على كلمة (حي) لشارك الإنسان جميع الأحياء، ولو اقتصرنا على (مستوي القامة) فقط، لشمل ذلك بعض الجمادات أو بعض الحيوانات كالتمساح، ولعلك معي في أن هذا المثال ليس ذا قيمة فنية أو روعة بيانية، مع أن الأقدمين والمحدثين اجتمعوا على ذكره، ولم تعدم اللغة أمثلة حية مستلهمة من الواقع، كأن تكني بلون وطعم وشكل عن فاكهة معينة، وباللين والطيب والحسن والحساسية عن المرأة.

ولم لا نمثل لذلك ونحن نستصرخ الأمة ونهيب بها كي تقضي على المكر والجبن، والبخل والطغيان، والإفساد والحقد أليست هذه الصفات جميعاً يمكن أن نكني بها عن اليهود، لأن مجموعها منطبق عليهم.

ثالثاً: الكناية عن النسبة:

في القسمين السابقين كنينا بصفة عن صفة تارة، وبالصفة عن الموصوف تارة أخرى ولكننا في هذا القسم الثالث سنسلك مسلكاً آخر، سنذكر الصفة والموصوف إلا أننا بدلاً من أن ننسب هذه الصفة لصاحبها فسوف ننسبها لشيء آخر، والنسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه. فالنسبة في قولنا: «المؤمنون أعزاء» هي إثبات العزة للمؤمنين، وفي قولنا: «المؤمن ليس جباناً» النسبة نفي الجبن عن المؤمن.

ولنبادرك بمثال ينير لك الطريق، إذا قلت: «فلان المجد بين ثوبيه» و«الكرم بين برديه» فأنت إنما تريد أن تثبت له الكرم والسيادة، وقد ذكرت هاتين الصفتين، كل ما في

الأمر أنك لم تنسبها لصاحبها، فلم تقل: الكرم والمجد لفلان، وإنما نسبتها لشيء آخر (البردين والثوبين). ولما كانت النسبة إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، فلا بد أن نمثل لهذا القسم بنوعين من الأمثلة:

الأول: ما كانت الكناية فيه إثباتاً.

والثاني: ما كانت فيه نفياً.

أمثلة القسم الأول:

ومن أمثلة القسم الأول: المثال السابق، ومنه قولك: «لقد كثر المكر في ساحة أعدائكم أيها العرب، وها هو المكر قد نسج في ثيابهم» فهذه صفات كما ترى لم ننسبها للعدو مباشرة، إنما نسبت لشيء آخر: للساحة وللثوب، ولعل في هذا الأسلوب تزييناً للقول، ولعله أكثر تأثيراً في النفوس كذلك. ومن هذا قول زياد الأعجم[(١)]:

إنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

فقد ذكر هذه الصفات ولم ينسبها لابن الحشرج مباشرة وإنما جعلها في قبة مضروبة عليه، ومنه قول أبي نواس[(٢)]:

فَـمَا حَازَهُ جُودٌ وَلاَ حَلَّ دُونَهُ ... وَلَكِن يَسِيرُ الجُود حَيْثُ يَسِيرُ

ففي الشطر الثاني من البيت كناية عن نسبه لأنه يريد أن يثبت الجود للممدوح ولكنه كنّى عن ذلك فجعل الجود ملازماً له يسير حيث يسير، ومنه قول الشاعر:

لا يَنْزِلُ المَجْدُ إلاَّ فِي مَنَازِلِنَا ... كَالنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَأْوىً سِوَى المُقَلِ[(٣)]

ففي الشطر الأول كناية يراد بها نسبة - هي إثبات المجد لهم - ذلك أن قصر نزول المجد على منازلهم إنما هو إثبات المجد لهم.

---

(١) مفتاح العلوم ص١٧٢، وابن الحشرج: هو عبدالله بن الحشرج من سادات قيس وأحد ولاة الدولة الأموية، كان جواداً كثير العطاء.

(٢) البيت من قصيدة في مدح الخطيب بن عبدالحميد العجمي ديوانه ص٢٩٩.

(٣) ولا تنس أن في البيت تشبيهاً ضمنياً، كما مر معك في باب التشبيه.

ومنه قول المتنبي في مدح كافور[1]:

إنَّ في ثَوْبِكَ الذي المَجْدُ فِيهِ ... لَضِياءً يُزرِي بِكُلِّ ضِياءِ

والأصل أن يضيف المجد والنور للممدوح ولكنه نسبهما لثوبه، وقال الشاعر:

اليُمْنُ يَتْبَعُ ظِلَّهُ ... وَالمَجْدُ يَمْشِي في رِكابِهْ

واليمن والمجد صفتان له ولكنه نسبهما لظله وركابه.

أمثلة القسم الثاني:

ومثال الكناية عن النسبة في النفي قول الشنفرَى الأزدي[2]:

يَبِيتُ بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُها ... إذا مَا بُيُوتٌ بِالمَلامَةِ حُلَّتِ

فهو وصف للمرأة بالعفة، ونفي للملام عنها، ولكنه لم يصرح بهذا بل نفى نسبة اللوم عن بيتها ومنه قول العرب: «مثلك لا يبخل» وهي كناية عن نفي البخل عنه، ومنه قولك: «المسلم لا يعطي الذلة» ومن هذا قول النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3] وهي كناية عن أن من يؤذي المسلمين ليس مسلماً، وإن لم يذكر الموصوف هنا إلا أنه فهم من الحديث الشريف.

خلاصة القول: إن الكناية عن النسبة هي إثبات الصفة لغير الموصوف أو نفيها عن غيره مع أن المراد إثباتها له أو نفيها عنه.

ففي قوله: «المجد بين ثوبيه» المكني به نسبة المجد للثوبين، والمكني عنه إثبات المجد للممدوح المتحدث عنه.

هذه أقسام الكناية أرجو أن تكون قد بانت لك وظهرت أقسامها بجلاء، ولا مانع أن يشتمل المقطع الواحد على هذه الأقسام جميعاً. استمع إلى هذا القول، الذي هو نفثة فؤاد مُعَنّى، وصرخة محزون ملهوف. أصيح بها - ويعلم الله - وقد بلغ السيل الزبى،

---

(١) ديوان المتنبي ١/١٥٨، يزري، أي: يستهين.
(٢) المفضليات ص٤١.
(٣) سبق تخريجه، ص١٨١.

دونها تكلف ولا تصنع، راجياً أن تجد محلها في القلوب كيف لا وقد نسجت من ذكرى الخامس عشر من أيار، ذكرى اغتصاب فلسطين: «يا أبناء الصحراء ويا نبال السماء، إن عدوكم الذي أرضع لبان الحقد، وازدحمت ساحاته مكراً، واشتملت ثيابه على الكراهية واللؤم، قد لبس لكم ثوب النمر، وقلب لكم ظهر المجن ولا بد له من رابطي الجأش، مفتولي السواعد، في أثوابهم آساد هواصر، فوجهوا سهامكم إلى مجامع حقده، ومواطن غله، أليس من العار أن تسمعوه سجع الحمام، ويسمعكم زئير الأسد، فلتكن العزة حيث تسيرون، والقوة حيث تحلون وترحلون، فلتطبقوا عليه بمقابض حديدية، ولا تنسوا أن أسلافكم قد بنوا أبياتهم في الشهب، ومشوا فوق رؤوس الحقب،واستولوا على الزمان في ريعان شبابه، وزاحمت هاماتهم نجوم السماء رفعة، وعطروا بسيرتهم كل ناحية وبقعة».

هذه الكلمة إذ تأملتها وجدت فيها أقسام الكناية الثلاثة، ويمكنك أن تستخرج كل قسم على ضوء ما عرفته من قبل.

بين الكناية والتعريض:

تباينت آراء البيانيين واختلفت كلمتهم، فمنهم من ذهب إلى أن الكناية والتعريض شيء واحد، ومنهم من جعل التعريض قسماً من الكناية، وآخرون ذهبوا إلى أن الكناية تختلف عن التعريض، ولعلنا نذهب هذا المذهب، فلقد عرفت أن الكناية هي الستر، وهي أن تعبر باللفظ وتريد لازم معناه، فهناك صلة بين اللفظ المكني به والمعنى المكني عنه، حيث ينتقل الفكر من الملزوم إلى اللازم.

أما التعريض فهو إمالة الكلام إلى عُرض - بضم العين - وهو: الجانب والناحية تقول: (عرضت بفلان) وذلك إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه هو - إياك أعني واسمعي يا جارة - فالتعريض إذن أن نذكر جملة من القول نريد بها شيئاً آخر، ولكن هذا الشيء لا يفهم بطريق اللزوم كما رأينا في الكناية، وإنما يفهم من السياق. وقد حدثناك في علم المعاني في باب القصر حيث بينا لك أن القصر بـ (إنما) يدل على التعريض، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩]، ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وقول العباس بن الأحنف[1]:

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٣٤٥.

أنـــــا لَمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَـــــا إنَّـــما للعَبْـــدِ مَـــا رُزِقَـــا

ومثل قولك: «إنما الصديق عند الضيق» ففي هذا كله تعريض فارجع إليه[1].

ونزيدك هنا فنبين لك أن باب التعريض باب واسع لا يقتصر على (إنما) وحدها، خذ مثلاً قول الحماسي[2] الذي قدمناه لك في الكناية:

لا يَـسْألُونَ أخـاهُم حـينَ يَنْـدُبُهُمْ في النَّائِبـاتِ عَـلَى مَـا قَـالَ بُرْهانـا

وقد قدمنا لك أنه كناية عن صفة، ولكنك إذا عرفت السياق الذي قيل فيه تدرك أن فيه تعريضاً كذلك، فقد قاله الشاعر وهو يلوم قومه لأنهم لم ينجدوه، فهو في ظاهره ثناء على قوم، هم المذكورون في أول القصيدة.

لَـوْ كُنْـتُ مِـنْ مـازِنٍ لَمْ تَـسْتَبِحْ إبِـلي بَنُـو اللَّقِيطَـةِ مِـنْ ذُهْـلِ بْـنِ شَـيْبانا

وهو مع ذلك تعريض بقومه، دليل ذلك قوله:

إذاً لَقَـامَ بِنَـصْرِي مَعْـشَرٌ خُـشُنٌ عِنْـدَ الحَفيظَـةِ إنْ ذُو لَوْثَـةٍ لاَنَـا

قَـوْمٌ إذا الـشَّرُّ أبْـدَى ناجِذَيْـهِ لَهُـمْ طَـارُوا إلَيـهِ زُرافـاتٍ وَوُحْـدانا

لاَ يَـسْألُونَ أخـاهُمْ حِـينَ يَنْـدُبُهُمْ في النَّائِبـاتِ عَـلَى مـا قـالَ بُرْهانـا

ولعمرو الحق إن هذه الأبيات جديرة أن تقال اليوم، وها هم أهل فلسطين يتعرضون لأقصى أساليب البشاعة من اليهود الحاقدين، حتى إنهم ليضربونهم من الجو بسلاح الطائرات الغاشمة الأمريكية (ف١٦). كذلك المسلمون في بقاع الدنيا؛ ففي الشيشان يتعرض المسلمون إلى الحقد الروسي، وفي البوسنا يتعرضون للحقد الصربي، وفي غير هذه المواطن من المعالم، فمتى يستيقظ المسلمون؟ نرجو أن يكون قريباً.

وخذ ما حدثناك عنه من قبل «لا يجد الفأر في بيته شيئاً» فإذا عرفت أن امرأة عرضت لقيس بن سعد وقالت: «أشكو إليك قلة الفأر في بيتي» ففهم مقالتها وأجاب سؤالها، فملأ بيتها طعاماً وكساء، أدركت أن ذلك من باب التعريض.

---

(١) راجع البلاغة فنونها وأفنانها للمؤلف، ج١، ص٢٨٦.

(٢) الحماسة، ج١، ص٢٣.

ونحسب أن ابن الأثير - رحمه الله - من أكثر البيانيين الذين تحدثوا في هذا الموضوع فوفاه حقه، وإليك طرفاً من قوله: «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: «والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني» فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة: «إنك لخلية وإني لعَزَب» فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً، والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عُرضه، أي: من جانبه، وعُرض كل شيء: جانبه.

واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبتة، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب»[1].

«... وأما التعريض فقد سبق الإعلام به وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣] وغرض إبراهيم عليه السلام من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم، لأنه قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام، والقول فيه أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم، والاستهزاء بهم...» .

---

(١) المثل السائر ص١٩٨.

«... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]، فقوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحقُّ بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾.

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قِبل معاوية فعزله، فلما قدم عليه قال له: عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأوجبت عزلك: إحداهن أني أمَّرتك على عبدالله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه، والثانية كراهتك أمر زياد، والثالثة: أن ابنتي رملة اسْتَعْدَتْك على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها، فقال له مروان: أما عبدالله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه، وأما كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان، فوالله إنه لتأتي عليّ سنةٌ وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوباً - يريد بذلك أن رملة إنما استعدت لطلب الجماع - فقال له معاوية: يا ابن الوَزَغِ[1] لست هناك، فقال له مروان: هو ذاك، وهذا من التعريضات اللطيفة.

ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب ﷺ، وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة، فدخل عثمان بن عفان ﷺ فقال عمر: أية ساعة هذه؟ فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، انقلبتُ من أمر السوق فسمعت النداء فما زدتُ على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل؛ فقوله: «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب.

(١) الوزغ: دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحلية.

ووقفت في كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع، وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الفأر في بيتي، فقال: ما أحسن ما ورّت عن حاجتها، املؤوا لها بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «والله إنكم لتُجَبِّنونَ وتُبَخِّلون وتُجَهِّلون، وإنكم لمن ريحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوجّ». اعلم أن وجّاً وادٍ بالطائف، المراد به غُزاةُ حنين، وحنين: وادٍ قِبَلَ وجّ، لأن غزاة حنين أُوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة، أي: قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ﷺ : «وإن آخر وطأة وَطئها الله بوجّ» على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده، لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال: وإنكم لمن ريحان الله، أي من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع[1] عن قوله: وأنا مفارقكم عن قريب بقوله: «إن آخر وطأة وطئها الله بوجّ» وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ .

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشَّمَيْذر الحارثي:

بَنـي عَمِّنـا، لا تَـذْكُرُوا الـشِّعْرَ بعـدما دَفَنْـتُم بِـصَحْراءِ الغُمَـيْرِ القَوافِيَـا

وليس قصده ها هنا الشعر، بل قصده ما جرى في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً بما قصده، أي: لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان.

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مَسْعدة الكاتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه، وهو: «أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنُظرائه من الخاصة، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك

(١) أي: عرّض أو كنى.

تعدّي طاعته، فوقّع المأمون في ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعريضك لنفسك وقد أجبناك إليهما»[1].

الكناية في كتاب الله تعالى:

جرياً على ما عودناك من قبل، نذكر لك شيئاً من الكناية في كتاب الله تعالى وفي حديث النبي ﷺ.

كتاب الله هو نهاية البلاغة وهو أعلى طبقات البيان، أرفعها عماداً وأكثرها مداداً، ولأسلوب الكناية من ذلك نصيب وافر، إلا أن للكناية في القرآن الكريم أهدافاً متعددة، وأسباباً متنوعة وأغراضاً ذات شأن.

١- فقد تأتي الكناية في كتاب الله تعالى لتصور لك المعنى المعقول في صورة محسوسة، وقد عرفت ما للحسيات من أثر في النفوس.

استمع إلى قوله سبحانه وهو يرد على ذوي العقائد الفاسدة، الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومع هذا فهم إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يقول تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]، وقفْ أمام هذه الكناية البديعة الرفيعة الموحية.

قال الزمخشري: «ينشأ في الحلية، أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به على من يخاصمه.. وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: «اخشوشنوا وتَمَعْدَدوا» وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى»[2].

---

(١) المثل السائر ٢١٢-٢١٥.

(٢) الكشاف، ٤/ ٢٤٣. (تمعددوا)، أي: عيشوا معيشة العرب الأُول، أي: عيشة خشنة فيه شظف وشدة، لا عيشة المترهلين، لأنها تؤدي إلى الترف والبطر، فتحول بينكم وبين الجهاد والعمل، واللفظ (تمعددوا) نسبةً إلى (معد) أبي العرب الأول.

واستمع إلى قوله سبحانه ينفر من البخل وينهى عن التبذير: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩]، وانظر إلى هذه الصورة المحسوسة التي تصل إلى جذور النفس، فصورة اليد المغلولة إلى العنق يمكن لكل واحد أن يتصورها بدون عناء ولا تكلف، ولم يجعلها مغلولة فحسب، ولكنها إلى العنق كذلك، ووازن بين هذا التعبير وبين قولنا: اجتنب البخل؛ تجد فروقاً كثيرة بين اللفظين، وانظر إلى قوله: (كل البسط) لتدرك أن النهي ليس عن أي حالة من حالات البسط، وإنما عن البسط الذي فيه تفريط.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، فانظر إلى هذه الصورة في النهي عن الغيبة ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أليس النيل من العرض كتمزيق اللحم؟ وهل هناك شيء تنفر منه النفس أكثر من أكل لحم الإنسان؟ فكيف إذا كان هذا الإنسان أخاً؟! وانظر إلى قوله: (ميتاً) كيف تزيد هذه الصورة بشاعة واشمئزازاً، وإذا كان اللحم المأكول لحم ميت فكذلك المغتاب تنال منه وهو لا يدري ولا يعلم، فالقرآن يرشدنا إلى أننا ينبغي أن ننفر من الغيبة كما ننفر من هذه الصورة، صورة أكل لحم الأخ ميتاً، تلك صورة محسوسة لشيء معنوي، عبر عنها بهذه الكناية الموحية الهادفة.

وقف مع قوله سبحانه: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٥٦]، وهي كناية عن العفة، ولكن أين هذا التعبير من قولنا: «هن عفيفات»، فالتعبير القرآني يصور لنا أن هؤلاء النسوة قد قصرن الطرف عن غير أزواجهن، فهذه القناعة وتلك العفة طبيعة فيه، فهن لا يتجاوزن بنظراتهن أحداً من الرجال.

٢- ومن أهداف الكناية في القرآن الإيجاز، وإن كانت تلك ميزة في الأساليب القرآنية جميعاً، إلا أن في هذا النوع زيادة إيجاز. انظر إلى قوله سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:٢٤]، وقد جاءت الآية الكريمة في سياق التحدي ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، أي إن لم

تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله، ولن تستطيعوا ذلك فاتركوا العناد، وانقادوا لهذا النبي وآمنوا بهذا القرآن. فانظر كيف كنى عن هذا كله وغيره بهاتين الكلمتين الجامعتين (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) وما فيهما من روعة الإيجاز ونهايته. ومثله قوله سبحانه: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج:٧٧]، وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].

٣- ومن أهداف الكناية في كتاب الله تعالى (التهذيب)؛ لنتعلم الأدب في الحديث حتى لا تثير العبارات نزوات النفوس، وكوامن العواطف، وسهام الغرائز، أين هذا مما سموه أدباً مكشوفاً- وما هو بأدب - استمع إلى قوله سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، وقف أمام قوله: ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ، الكناية لفظ أطلق وأريد لازم معناه - كما عرفت - وماذا ينتج عن الأكل، إنه التغوُّط، ولكن القرآن اكتفى بالملزوم فكنى بالأكل عما بعده، وهذا يتنافى مع الألوهية، فما أبدع هذا المنطق وما أنظف هذا الأسلوب. واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وما تبعثه كلمة (الحرث) وتدل عليه من الغايات النبيلة.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، وإلى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٢١]، وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة:٦]، هذه الكنايات مع إيجازها وإيحائها حيث نستشف منها المعنى كاملاً غير منقوص، نجدها ذات أدب رفيع وهي تعلم وتهذب، وأخيراً نستمع إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، تلك كناية عن موصوف، ولكي تدرك الروعة القرآنية وتسمو مع الآيات الكريمة لا بأس أن تستمع إلى بعض أقوال الشعراء من كنايات في هذا المعنى نفسه، قال أبو نواس:

أَتَتْ بجرابِها تَكْتالُ فيهِ ... فَقَامَتْ وَهْيَ فارِغَةُ الجِرابِ

وقال المتنبي(١):

إنّي على شَغَفِي بِما في خُمْرِها ... لأعِفُّ عَمّا في سَراويلاتِها

وقال الشريف الرضي(٢):

يَحِنُّ إلى ما تَضْمَنُ الخُمْرُ والحِلَى ... ويَصْدُفُ عَمّا في ضَمانِ المآزِرِ

وهناك كنايات كثيرة ليست بخير من التصريح، آثرنا خلوّ الكتاب منها، وأظنك مع تفضيلك لكناية الرضي على غيرها، إلا أن الكناية القرآنية تبقى محتفظةً بشموخها ورفعتها وترفعها، مع وقارٍ وعفة.

ومن كنايات القرآن البديعة:

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢]، فهذه كنايةٌ عن الندم؛ لأن النادم يفعل ذلك عادة.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [المائدة:٦٠]، أثبت الشر لمكان الشيء، كناية عن إثباته لهم وهي أبلغ في الدلالة على شرّهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:٣٣]، أي بشركاء لا يعلمهم سبحانه، وإذا كان لا يعلمهم - وهو عالم بكل شيء مما كان أو يكون، فهم لا حقيقة لهم. فهو نفي لهم بنفي لازمهم.

واعلم أن موضوع الكناية من أول الموضوعات البيانية التي تحدث عنها العلماء، تجد هذا في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو من أقدم المؤلفات، حيث كان تأليفه عام مئة وثمانية وثمانين للهجرة (١٨٨هـ)، وقد تحدث فيه عن كثير من كنايات القرآن وغيرها من الأساليب البيانية، وفي هذا أبلغ رد على الذين يزعمون أن بلاغتنا بعيدة عن الأصالة تدين بالتبعية لأرسطو وغيره.

---

(١) ديوان المتنبي ١/ ٣٤٨.

(٢) ديوان الشريف الرضي ١/ ٤٤٧. الخُمْر: جمع خمار: وشاح، ويجمع أيضاً على خُمُر وأخمِرة، يصدف: يُعرض، ضمان المآزر: ما تحتويه المآزر والحزم من الخصر وما حوله.

الكنايات في أقوال الرسول ﷺ :

وإذا استعرضنا السنّة النبوية وجدنا أسلوب الكناية يؤدي دوره البياني إيجازاً وتصويراً، ووظيفته الاجتماعية تعليماً وتهذيباً، وسنذكر لك طرفاً من هذه الكنايات من جوامع كلمه ﷺ .

١ - وليكن أولها قوله ﷺ : «أُعْطيتُ جوامِعَ الكَلِم»[1] وهي كناية بديعة - كما ترى - عبر بجوامع الكلم عن الكلمات المؤثرة المشتملة على المعاني الكثيرة، إلى ما هنالك من صفات للكلمة المؤثرة.

٢ - ومن ذلك قوله ﷺ : «رُويدك سَوْقَكَ بالقوارير»[2] يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير[3].

٣ - ومنه قوله ﷺ : «خيارُكُم أَلينُكُم مناكب في الصلاة»[4] فهي كناية لطيفة، عبر بلين المناكب عن سهولة الانقياد وسرعة الحركة لسد الفرج في الصلاة.

٤ - وقال ﷺ : «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقْره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، فلا يُمسي إلا فقيراً ولا يُصبح إلا فقيراً، وما أَقْبل عبدٌ على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالودِّ والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع»[5]، ففيه كنايات بديعة لطيفة، فكنى بقوله: «من كانت الآخرة همه» عن التمسك بدين الله، وبقوله: «جعل الله غناه في قلبه» عن القناعة بما قسم الله له من رزق وهكذا.

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب التعبير - باب (رؤيا الليل) (١١). ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - حديث (٥).

(٢) سبق تخريجه ص٢٦٤.

(٣) قدمنا لك من قبل أن هذا من باب الاستعارة، ولكننا قدمنا لك كذلك أن النص الواحد يمكن أن تنظر إليه من أكثر من حيثية واحدة.

(٤) أخرجه أبو داود في (السنن)، كتاب الصلاة، باب (تسوية الصفوف)، حديث رقم (٦٧٢)، ص١٦٠.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٨٣ حديث رقم (٢١٩٢٥).

٥- ومنه قول النبي ﷺ: «إنه كانت امرأةٌ فيمن كان من قبلنا وكان لها ابن عم يحبها فراودها عن نفسها، فامْتنعت عليه حتى إذا أصابتها شدة فجاءت إليه تسأله فراودها فمكّنته من نفسها، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له: لا يحل لك أن تفُضّ الخاتمَ إلا بحقه، فقام عنها وتركها»(١).

٦- وقال ﷺ: «لقد أُخفتُ في الله ما لم يُخفْ أحد وأوذيت في الله ما لم يؤذَ أحد، ولقد أتى عليّ ثلاثون ما بين يومٍ وليلة وما لي ولا لبلال من الطعام إلا شيء يواريه إبطُ بلال»(٢) وهذه كناية عن القلة.

٧- وقال ﷺ: «خِصاءُ أمتي الصِّيام»(٣) كناية عن شدة تأثير الصيام على النفس.

٨- وعن عمر بن الخطاب ﷺ: أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله هلكت. قال: وما أهلكك، قال: حوَّلتُ رحْليَ البارحة، فقال له النبي ﷺ: أقبِل وأدْبِر واتَّقِ الدُّبُرَ والحَيْضَة»(٤).

٩- ولما نزل رسول الله ﷺ على الركيَّة جاءه بُدَيل بن ورْقاء في نفر من قومه من أهل تهامة فقال: «تركتُ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عِداد مياه الحديبية معهم العوذُ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوكَ عن البيت»(٥).

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع، باب (٩٨) (إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي)، حديث رقم ٢١٠٢.

(٢) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة، باب بعض ما لاقاه ﷺ أول أمره، حديث رقم ٢٤٧٤ قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه أحمد بن حنبل، المسند ج٢، ص١٧٣.

(٤) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب من سورة البقرة رقم (٢) حديث ٢٩٨٤ قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.

(٥) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب (١٥) الشروط في الجهاد والمصالحة في الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، العوذ: جمع عائذ: وهي الناقة التي مضى على ولادتها عشرة أيام، المطافيل: يقال: طفِلَت الناقةُ طفلاً، أي: ربّت طفلها.

١٠- وقال ﷺ: «إذا مشتْ أُمَّتي المُطَيْطاءَ[1]، وخدمتها أبناء الملوك فارس والروم سُلِّط شِرارها على خِيارها»[2].

١١- وقال ﷺ: «مَنْ يضمنُ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجليه أضمنُ له الجنة»[3].

١٢- ويرى أن عمرو بن العاص زوّج ولده عبدالله ﷺ فمكثت المرأة عنده ليالي ثلاثاً لم يدنُ منها. وإنما كان مُلْتفتاً إلى صلاته فدخل عليها عمرو بعد ثلاثٍ فقال: «كيف تَرينْ بعلك؟ فقالت: نِعمَ البعلُ إلا أنه لم يُفتِّش لنا كنفاً ولا قَرُبَ لنا مضجعاً».

١٣- وقال ﷺ: «المؤذنون أطولُ أعناقاً يوم القيامة»[4].

وهذه الكنايات، وأنت تقف مع كل واحدة منها، تجد لها أهدافها المتعددة، وكنا نودّ أن نقف معك عند كل كناية، ولكن بدا لنا أن الأمر من السهولة بحيث لا يحتاج إلى شرح وتبسيط.

بلاغة الكناية:

لا نود هنا أن نفاضل بين الأساليب البيانية، أيها أكثر بلاغة، وأنفذ سحراً، وأكثر تأثيراً، فلكل أثره الذي يمتاز به عن غيره، إلا أننا نود أن نقرر هنا أن لأسلوب الكناية لونه الخاص به فهو من حيث التأثير - كما رأيت - ومن حيث الملاحة والعذوبة يشترك مع غيره من الأساليب السابقة، إلا أننا نجد فيه ما لا نجده في غيره.

فهو أولاً مع إمتاعه يمتاز بالإقناع، لأنه لا يأتيك بالدعوى إلا ومعها دليلها، ألا ترى أن قولهم: «كثير الرماد»، التي يكنون بها عن الكرم إنما جاءت دليلاً محسوساً لإثبات هذا الكرم، وكذلك كل كناية إن تأملتها، تجد أنها جاءت دليلاً على المعنى المراد منها.

---

(١) المطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي، وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣٣].

(٢) رواه الترمذي كتاب الفتن باب رقم ٧٤ حديث رقم ٢٢٦٢، قال أبو عيسى: حدث غريب.

(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق باب (٢٣) (حفظ اللسان) حديث رقم ٦١٠٩.

(٤) رواه مسلم كتاب الصلاة باب فضل الأذان، وهرب الشيطان عند سماعه رقم (٨) حديث رقم ٣٨٧.

وربما تقول: لقد حدثتنا عن هذا وما يشبهه، في بعض أنواع التشبيه، كالتشبيه الضمني وغيره من أنواع التمثيل، فلقد جاءت بعض التشبيهات أدلة لإثبات ما ادّعيناه، ونحن لا ننكر هذا، كيف وقد جئنا له بالأمثلة الكثيرة، ولكن مع ذلك يبقى فرق بينه وبين الكناية، فهذا في بعض أنواع التشبيه - كما رأيت - ، ولكننا نجده في كل كناية، على معنى أنه ليس كل تشبيه نجد فيه دليلاً على دعوى نريدها، إنما هو في نوع خاص منه، ولكن كل كناية كذلك، ثم إن هناك فرقاً بين التشبيه وبين الكناية كذلك، فالكناية أوجز لفظاً، ففي التشبيه لا بد من بيتين أو بيت واحدٍ على الأقل فمثال البيتين:

دانٍ إلى أيْدِي العُفَاةِ وشَاسِعٌ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَضَرِيبِ
كَالْبَدْرِ أفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوْؤُه ... لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

فأنت ترى أن البيت الأول اشتمل على الدعوى، واشتمل البيت الثاني على دليل، ومثال البيت الواحد:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنْهُمْ ... فَإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

فأين هذا من الإيجاز الذي نجده في قولنا: «كثير الرماد».

خلاصة القول: إن من خصائص الكناية، ومميزاتها أنها دليل على الدعوى التي نريد إثباتها، وهذا ذاتي في الكناية ولكنه عارض في بعض أنواع التشبيه.

وهناك ميزة أخرى للكناية، وهي أننا نستطيع أن نعبر بواسطتها عن كثير مما نتحاشى التصريح به، فهي باب واسع تجد النفس فيها المكمن الآمن، والطريق الذي ليس فيه خطورة ولا وعورة، والمسلك الخالي من كل ما يجلب التعب والأذى.

ألا ترى أنك بأسلوب الكناية يمكنك أن تشْفي غُلة نفسك، فكم من كلمة لا تود التصريح بها ترفُّعاً، فتجد في الكناية متنفساً فتنتقل من المعنى المكشوف إلى المعنى المكسوف، ربما كان ذلك خشيةً لا ترفُّعاً، فتنال بأسلوب الكناية من خصمك وتبلغ ما لا تستطيعه في غيرها.

يقول الأستاذ علي الجارم[1]:

«الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، والسرُّ في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيِّها برهانها كقول البحتري في المديح[2]:

يَغُضُّونَ فَضْلَ اللَّحْظِ مِنْ حَيْثُ ما بَدَا ... لَهُمْ عَنْ مَهيبٍ في الصُّدورِ مُحَبَّبِ

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح وهيبتهم إياه، بغضّ الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال، وتظهر هذه الخاصة جليةً في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكناية أنها تضع لك المعاني في صورة المُحسّات، ولا شك أن هذه خاصة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً.

فمثلاً «كثير الرماد» في الكناية عن الكرم، و«رسول الشر»في الكناية عن المزاح، وقول البحتري[3]:

أوَ مَا رَأيْتَ المَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ ... في آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوّلِ

في الكناية عن نسبة الشرف إلى آل طلحة، كلُّ ذلك يبرز لك المعاني في صورة تشاهدها وترتاح نفسك إليها.

ومن خواص الكناية أنها تمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له إليك سبيلاً، ودون أن تخدش وجه الأدب، وهذا النوع يسمى بالتعريض، ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافوراً ويعرّض بسيف الدولة[4]:

---

(١) البلاغة الواضحة، ص١٣٩.
(٢) ديوان البحتري ١/ ١١٧، والبيت في مدح الفتح بن خاقان.
(٣) ديوانه، ٢/ ١٦٠.
(٤) ديوان المتنبي ج٤، ص٢٦٤.

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكٍ بأجْفانِ شادِنٍ عَلَيَّ وَكَمْ بَاكٍ بأجْفانِ ضَيْغَم[1]

وَمَا رَبةُ القُرْطِ المَلِيحِ مَكانُهُ بأجْزَعَ مِنْ رَبِّ الحُسامِ المُصَمِّمِ[2]

فلو كانَ ما بي مِنْ حَبيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ وَلكِنْ مِنْ حَبيبٍ مُعَمَّمِ[3]

رَمَى وَاتَّقَى رَمْيِي وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوىً كاسرٌ كَفِّي وَقَوسِي وَأَسْهُمِي[4]

إذا ساءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ[5]

فإنه كنى عن سيف الدولة أولاً بالحبيب المعمم، ثم وصفه بالغدر الذي يدّعي أنه من شيمة النساء، ثم لامه على مبادرته بالعدوان، ثم رماه بالجبن لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتار خلف غيره، على أن المتنبي لا يجازيه على الشر بمثله؛ لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوىً قديماً يكسرُ كفه وقوسه وأسهمه إذا حاول النضال، ثم وصفه بأنه سيئ الظن بأصدقائه لأنه سيئ الفعل كثير الأوهام والظنون، حتى ليظن أن الناس جميعاً مثلُهُ في سوء الفعل، وضعف الوفاء، فانظر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفاً.

هذا ومن أوضح ميزات الكناية: التعبير عن القبيح بما تُسيغُ الآذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم وكلام العرب، فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم يكنون عن المرأة بالبيضة والشاة.

ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

---

(١) الشادن ولد الغزال، والضيغم: الأسد، أراد بالباكي بأجفان الشادن: المرأة الحسناء، وبالباكي بأجفان الضيغم: الرجل الشجاع، يقول: كم من نساء ورجال بكوا على فراقي وجزعوا لارتحالي.

(٢) القُرط: ما يعلق في شحمة الأذن، والحسام: السيف القاطع، والمصمم الذي يصيب المفاصل ويقطعها.

(٣) أراد بالمقنع: المرأة لأن سمتها القناع، والمعمم: الرجل لأنه يلبس العمامة. يقول: لو كان الذي أشكوه (الغدر بي) من امرأةٍ لعذرتها ولكنه من رجل.

(٤) المعنى: إن حبي إياه منعني عن المكافأة بالإساءة، عبَّر بالرمي عن الإساءة وعن أمنه من المكافأة بالهجاء بالاتقاء.

(٥) المعنى: المسيء يسيء الظنّ وما يخطر بقلبه من التوهم على إساءة غيره يصدق ذلك؛ فكلما سمع عن غيره كلام سوء ظنه فيه.

أَلاَ يَا نَخْلَةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ الله السَّلامُ

فإنه كنى بالنخلة عن المرأة التي يحبها».

ولعل عبدالقاهر أشار لكثير من هذا حينما حدثنا عن الكناية بأنها أبلغ من الإفصاح، وليس معنى هذا أنها تدل على الكثرة من حيث الكمّ - كما يقولون - فقولنا: «فلان كثير الرماد» لا يُفهم منه أنه يدلّ على كثرة الكرم، أكثر من قولنا: هو جواد لا يبخل بشيء، لكن الكناية أكثر تأثيراً في النفس وأكثر تأكيداً للمعنى الذي نريد. يقول الشيخ رحمه الله:

«قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، إلا أن ذلك وإن كان معلوماً على الجملة، فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يُغَلْغِل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة، فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: «هو طويل النجاد» و«هو جم الرماد». كان أبهى لمعناك، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد، وكذا إذا قلت: «رأيت أسداً» كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت: «رأيت رجلاً هو والأسد سواء في معنى الشجاعة، وفي قوة القلبِ وشدة البطش وأشباه ذلك»، وإذا قلت: «بلغني أنك تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى». كان أوقع من تصريحه الذي هو قولك: «بلغني أنك تتردد في أمرك» وإنك في ذلك كمن يقول: «أَخرُج ولا أَخرُج» فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيه فإنما تسكن أنفسنا تمام السكون إذا عرفنا السبب في ذلك والعلة، ولم كان كذلك، وهيأنا له عبارة تُفهِم عنا مَن نريد إفهامه. وهذا هو القول في ذلك.

اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن لَيست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، لكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها. تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح» أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد. فليست المزية في قولهم: «جمُّ الرماد»، أنه دلّ على قِرىً

أكثر بل إنك أثبت له القِرَى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجاباً هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق».

«... أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح؛ أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غُفلاً؛ وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يُشكّ فيه ولا يُظَن بالمُخبِر التجوزُ والغلط»[1].

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا، ص٥٥.

القسم الثاني

علم البديع

علم البديع

البديع لغةً واصطلاحاً:

جاء في لسان العرب المحيط: (بَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُهُ بَدْعاً، وابْتَدَعَهَ: أنشأه وبدأه، وبَدَعَ الرَّكِيَّةَ: استنبطها وأحدثها، ورَكِيٌّ بَديعٌ: حديثةُ الحفر، والبَديع والبِدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً. وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، أي: ما كنت أول من أُرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير) [١].

وإذا كان البديع لغةً: الجديد والحديث، فإن المعنى الاصطلاحي للبديع منسجم تمام الانسجام مع هذا المعنى اللغوي، فلقد أطلق البديع فناً من فنون القول على ما أحدثه الشعراء المولدون[٢] من أساليب بيانية، كمسلم بن الوليد، وبشار وأبي تمام، إلا أن أول كتاب ظهر يحمل هذا الاسم هو البديع لعبدالله بن المعتز (٢٩٦هـ)، وذكر في مقدمته بأنه أراد أن ينبه على أن هؤلاء الشعراء ليسو هم الذين اخترعوا هذا الفن من القول، ولكنهم أكثروا منه وغلوا فيه.

لمحة تاريخية:

ولقد كانت فنون البديع تشمل أكثر المباحث البلاغية، وعلى التحديد تشمل ما يعرف اليوم بمسائل علم البيان وبعض القضايا في علم المعاني، وهذا يظهر مما كتبه ابن المعتز ومِن بعده قدامةُ في نقد الشعر، ونتيجة لحتمية التطور بدأت قضايا البديع تكون

---

(١) لسان العرب المحيط، ١/ ١٧٤.

(٢) الشعراء المولدون: هم الشعراء من آباءٍ عرب وأمهاتٍ غير عربيات.

مجموعة خاصة لتفصل عن غيرها، فإذا كان المجاز والكناية بأقسامها، والتشبيه كذلك، إذا كانت أولئك جميعاً تعدّ من البديع فلقد أصبحت فيما بعد تكون فناً خاصاً.

ولما ازدهرت العلوم البلاغية على يد الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - ، لم تكن هذه العلوم استقرت على النهج الأخير الذي عرف فيما بعد، إلا أن الشيخ - رحمه الله تعالى - شاء الله له أن يكتب سفريه النفيسين ليخلدا ذكره: (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة)، تحدث في الأول عن نظرية النظم وهو ما عُرف فيما بعد بعلم المعاني، وتحدث في الثاني عما عُرف بعد بعلم البيان، ولكنه لم يفصل بين هذين العلمين، حيث نجده يستعمل كلمة النظم وكلمة البيان غير مفرق بينهما، ولم يول الفنون البديعية كبير عناية، وإنما اقتصر على ذكر نوعين: السجع والتجنيس، وكان ذكره لهما منشقاً عن نظرية النظم التي أراد بيانها وشرحها.

ونظن أن أول من فصل بين مسائل علمي المعاني والبيان الإمام الزمخشري - رحمه الله - ، كما يظهر ذلك في مقدمة كشافه، ولم يكن يعد مسائل البديع من صلب البلاغة، ثم جاء السكاكي فنهج نهج الزمخشري، فذكر المحسنات البديعية في القسم الثالث من مفتاحه، لا على أنها علم مستقل، بل على أنها محسنات فحسب.

ويظهر أن أول من جعل هذه المسائل علماً مستقلاً بدر الدين بن مالك في مصباحه، حيث قسم البلاغة إلى ثلاثة فنون هي المعاني والبيان والبديع، وهذا هو ما استقر عليه الأمر إلى يومنا هذا، فعلم المعاني هو نظرية النظم التي تتحقق به هذه المقولة.. «لكل مقام مقال»، على أن البلاغة سيظلُّ علما المعاني والبيان ركنيها الرئيسين الأساسيين، وعلم البيان هو الذي يؤدى به المعنى الواحد بصور متعددة، وعلم البديع يأتي بعد هذين العلمين، فهو علم المحسنات، وهذه المحسنات، قد تكون من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى كما ستعرفه.

وحينما أصاب البلاغة ما أصابها من جمود وذبول وذهول أصيب به دارسوها أخذ الناس يتبارون في هذه المحسنات البديعية، مهما طغى ذلك على رونق المعنى وجمال الأسلوب، وصار همّ كل واحد أن يستنتج أكثر من غيره من الأنواع، فابن أبي الإصبع مثلاً في «تحرير التحبير» يُنيّف على العشرين بعد المائة من الأنواع البديعية، ثم كان فيما بعد ما يسمى بالبديعيات، وهي منظومات في مدح الرسول ﷺ.

ولقد جنت هذه الصنعة البديعية على البلاغة أيما جناية، وكثير من الأنواع التي كانوا يذكرونها كان بعضها متداخلاً في بعضه الآخر، ومن جهة أخرى فإن الكثير منها حقه أن يذكر في علم المعاني، كالالتفات، والاحتراس، والإيغال، والاعتراض، والتتميم، مما حدثناك عنه هناك في الجزء الأول من هذا الكتاب، ونحن لا ننكر أن بعض هذه الأنواع تُكسِب الكلامَ جمالاً ما دامت غير متكلفة.

من كل ما سبق نستخلص أن علم البديع هو العلم الذي يوشّى به الكلام بأوجه الحسن، وقد يكون ذلك الحسن من جهة اللفظ وقد يكون من جهة المعنى، ومن هنا فلقد قسموا مباحث هذا العلم إلى قسمين:

أولاً: المحسنات المعنوية.

ثانياً: المحسنات اللفظية.

فالمحسنات المعنوية هي ما يرجع الجمال فيها إلى المعنى، والمحسنات اللفظية هي ما يرجع الجمال فيها إلى اللفظ، وليس معنى هذا، أن ينظر إلى هذه المحسنات بعيدة عن الأساليب التي قُرِّرَت في علمي المعاني والبيان، بل الحق أن ننظر إلى النص نظرة موضوعية شاملة، حيث يجب أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كما قرر في علم المعاني، وأن يكون بأسلوب مؤثر، بعيداً عن التعقيد كما قرر في علم البيان.

أما إذا أردنا أن نأخذ هذه المحسنات على حدة، فذلك من شأنه أن يؤدي إلى التكلف، وإلى أن يصبح الكلام بارداً ممجوجاً، ويظهر فيه التصنع الممقوت، ولذا كانت مباحث هذا العلم تذكر بعد فني المعاني والبيان، وسنقتصر على ذكر بعض هذه المحسنات مما يظهر أثره في تحسين القول، ومما له أثر في تزيين الكلام متجنبين الإغراب، والإغراق في كل ما لا طائل من ذكره.

الفصل الأول
المحسنات المعنوية

المبحث الأول
الطباق

والطباق في الأصل مصدر، يقال: طابقتُ بين الشيئين طباقاً، وقد لوحظ هذا المعنى في الطباق الاصطلاحي، فالطباق في الاصطلاح هو الجمع بين الشيء ومقابله أو الشيء وضده، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما اسمين أو فعلين أو حرفين.

فمثاله في الاسمين، الظلمات والنور في قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، والسماء والأرض في قوله سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام:١]، والإنس والجن في مثل قوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن:٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ [الكهف:١٨]، ومنه قول الشاعر:

وأصدعُ شكّي باليقينِ وإنّني ... لِنفسِي على بَعْضِ المَساءةِ حابِسُ

وقول الشاعر:

إنّما الدُّنيا هِباتٌ ... وَعَوارٍ مُسْتَرَدَّةْ
شِدَّةٌ بَعْدَ رخاءٍ ... وَرخاءٌ بَعْدَ شِدَّةْ

تقول: «الحياة إما سلم وإما حرب»، و«الوضع الذي تعيشه أمتنا مستهجن إذ لا هو سلمٌ ولا هو حرب»، ومن كلمات النبوة الجامعة «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»[1].

ومثاله في الفعلين قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم:٤٣-٤٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء:٧٩-٨١]، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]، وفي الأثر «رحمانَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما تعطي منهما من تشاء ارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمةِ مَنْ سواك»، وكذلك ما جاء في الدعاء «اللهم أغننا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك»[2]، ومنه قول دعبل الخزاعي[3]:

لا تعْجَبِي يا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ... ضَحِكَ المَشيبُ بِرأْسِهِ فبَكَى

ومثاله في الحرفين قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقولك: «الأمة التي تستحق الحياة لا تسكت عما لها من حقوق ضعفاً وجبناً، ولا تترك ما عليها من الواجبات كسلاً وأنانية»، ومنه قول الشاعر:

عَلَى أنَّنِي راضٍ بأنْ أحْمِلَ الهَوَى ... وأخْلُصَ مِنْهُ لا عَلَيَّ ولا لِيَا

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب ٤٠ (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع) حديث ٤٧٧.
(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع).
(٣) معاهد التنصيص، ٢/ ١٨٤.

وقد يكون الطباق بين اسم وفعل وذلك مثل قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فالمقابلة هنا بين (ميتاً) وهي الاسم، و(أحييناه) وهي الفعل. ومنه قول طفيل الغنوي[(١)]:

بِساهِمِ الوَجْهِ لَمْ تُقْطَعْ أباجِلُهُ   يُصانُ وَهْوَ لِيَوم الرَّوْعِ مَبْذُولُ

وقد يكون إدراك الطباق واضحاً جلياً لا خفاء فيه كما مر، فأنت تجد أنه من السهل عليك أن تدرك كل معنيين متقابلين في الأمثلة السابقة، وقد يحتاج إلى نوع من الفكر والتأمل، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، فلأول وهلة قد يظن أن ليس في الآية الكريمة طباق، ولكننا حينما نعرف أن إدخال النار معناه الإحراق فكأنه قيل: (أُغرقوا فأُحرقوا)، يظهر لنا الطباق في الآية الكريمة.

أقسام الطباق:

والطباق قد يكون طباق إيجاب لا نفي فيه، وقد يكون طباق سلب، فطباق الإيجاب ما تقدم، ومثال طباق السلب قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٦-٧]، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم:٥٩-٦٠]، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، ومنه قول السموأل[(٢)]:

وَنُنْكِرُ إنْ شِئْنَا عَلى النَّاسِ قَولَهُم   ولا يُنْكِرُونَ القَولَ حِينَ نَقُولُ

ومنه قول البحتري[(٣)]:

يُقَيِّضُ لِيْ مِنْ حَيْثُ لا أعْلَمُ الهَوَى   ويَسْرِي إليَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أعْلَمُ

---

(١) الصناعتين ص٣٠٣، بساهم الوجه، أي: قليل لحم الوجه لطول غزوه وكثرة عتقه، لم تقطع أباجله، أي: لم يصبه داءٌ يقطعه البيطار، والأبجل: عِرقٌ في الرِّجْل. الطباق هنا بين الفعل (يُصان) والاسم (مبذول).

(٢) ديوان المعاني ٢/ ٥٩، العقد الفريد ٤/ ٢.

(٣) ديوانه ٢/ ٢٢٩.

وقول أبي الطيب المتنبي[1]:

فَلَقَدْ عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْتَ حَقِيْقَةً ... وَلَقَدْ جُهِلْتَ وَمَا جُهِلْتَ خُمُولا[2]

وقول الآخر:

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لَمكْرُمَةٍ ... فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا
رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ ... فكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

وقول الآخر:

شَيَّبَتْنِي وَمَا يُشَيِّبُنِي السِّنُّ ... هُمُومٌ تَتْرَى وَدَهْرٌ عَنِيدُ

---

(١) ديوانه ٣/ ٣٦٢.

(٢) الخامل: الساقط الذي لا نباهة له ولا شهرة، يقول: إن الناس قد عرفوك بما ظهر من سخائك وجودك ولكنهم لم يعرفوك حق معرفتك لأنهم لا يبلغون كنه قدرك، وإذا لم يعرفوك حق المعرفة فقد جهلوك، فليس جهلهم إياك لأنك خامل الذكر.

المبحث الثاني
بين الطباق والمقابلة

جمهور العلماء على أن المقابلة غير الطباق، والمقابلة عندهم أن يؤتى بمعنيين فأكثر ثم بما يقابل هذه المعاني. أما الطباق فلا يكون إلا بين معنى واحد وما يقابله، فأنت ترى أن الطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد، كل ما في الأمر أن الطباق يكون بين معنيين، أما المقابلة فيشترط لها أكثر من ذلك. ولا نرى ضرورة لهذا الاصطلاح ما دام الموضوع واحداً، ولم لا تكون المطابقة والمقابلة شيئاً واحداً، وتكون بين المعنى الواحد وما يقابله، أو بين معنيين وما يقابلهما، أو بين ما يزيد على اثنين، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما يقولون.

وقد عرفت في الطباق كيف أننا نأتي بالمعنى وما يقابله أو يضادُّه، ونحدثك الآن عن المقابلة أو المطابقة فيما هو أكثر من ذلك.

التقابل في اثنين:

فمثالها في أمرين قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة:٨٢]، فقد جمع بين الضحك والبكاء والقلة والكثرة، وقوله سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧]، ومنه قوله ﷺ : «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيء إلا شانه»[(١)] وما رُوي عنه ﷺ : «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[(٢)]. ومنه قول النابغة[(٣)]:

فَتَـىً كـانَ فيـهِ مَـا يَـسُرُّ صَـدِيقَهُ ... عَـلَى أنَّ فيـهِ مَـا يَـسُوءُ الأعادِيَـا

---

(١) رواه مسلم كتاب البر، باب فضل الرفق حديث ٧٨:٤٤/ ٢٠٠٤.

(٢) رواه الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض رقم (٦٠)، حديث رقم ١٩٩٨، قال أبو عيسى: غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه.

(٣) العمدة ٢/ ١٤.

ومنه قول الشاعر:

فَوَاعَجَبـاً كَيْـفَ اتَّفَقْنَـا فَنَاصِـحٌ وَفِيٌّ وَمَطْـوِيٌّ عَـلَى الغِـلِّ غـادِرُ

ومنه قول ابن المعتز[1]:

جُمِـعَ الحَـقُّ لَنَـا في إمـامٍ قَتَـلَ البُخْـلَ وَأَحْيَـا السَّمَاحا

ومنه قول المتنبي[2]:

إذا أَنْـتَ أَكْرَمْـتَ الكَـريمَ مَلَكْتَـهُ وَإنْ أَنْـتَ أَكْرَمْـتَ اللَّئِـيمَ تَمَـرَّدا

التقابل في ثلاثة:

ونمثل له بقوله سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فهنا ثلاثة معانٍ قابلتها ثلاثة أخر، أما الثلاثة الأولى: فهي ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ، أما الثلاثة الأخر فهي ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، فالمقابلة بين (يحرم ويحل)، (لهم وعليهم)، (الخبائث والطيبات) ففي كلٍّ اسمٌ وفعلٌ وحرف، ومنه قول أبي الطيب:

فَـلا الجُـودُ يُفْنـي المـالَ والجِـدُّ مُقْبِـلٌ وَلاَ البُخْـلُ يُبْقِـي المـالَ والجِـدُّ مُـدْبِرُ

(فالجود) يقابله (البخل)، و(إفناء المال) يقابله (إبقاؤه)، و(مقبل) يقابله (مدبر)، ومنه قول جرير:

وَبَاسِـطُ خَـيْرٍ فِـيكُمْ بيَمينِـهِ وَقَـابِضُ شَرٍّ عَـنْكُمُ بِـشِمالِهِ

وقال البحتري[3]:

فَـإذا حَـارَبُوا أَذَلُّـوا عَزيـزاً وَإذا سَالَـمُوا أَعَـزُّوا ذَلـيلاً

---

(١) سبق ذكر البيت، ص٢١٤.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢٨٨.

(٣) ديوان البحتري ٢/ ٢٩٢، والبيت من قصيدة في مدح محمد بن علي بن عيسى القُمّي.

ومنه قول أبي دلامة(١):

مَـا أحْـسَنَ الـدِّينَ وَالـدُّنْيَا إذا اجْتَمَعَـا وَأقْـبَحَ الكُفْـرَ والإفْـلاسَ بِالرَّجُـلِ

فقد قابل بين الحسن والقبح، والدين والكفر، والدنيا والإفلاس. ومنه قول الخليفة الراشد: «الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه». ومنه قولنا: «رحم الله أسلافنا، فلقد رفعوا الحق فوق رؤوسهم، ووضعوا الباطل تحت أرجلهم، وكانوا رهبان ليل رحماء، وفرسان نهار أقوياء، وما كانوا يجمدون في حق مع ضعيف، ولا يذوبون في باطل مع قوي».

التقابل فيما فوق الثلاثة:

مثالها فيما فوق ثلاثة: قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠]، فمقابل العطاء البخل، ومقابل التقوى الاستغناء، ومقابل التصديق التكذيب، ومقابل اليسر العسر. ومنه قول الشاعر المتنبي(٢):

أَزُورُهُـم وَسَـوادُ اللَيْـلِ يَـشْفَعُ لي وأَنْثَنِـي وَبَيـاضُ الـصُّبْحِ يُغْـرِي بِي

وقول الشاعر:

عَـلَى رَأْسِ عَبْـدٍ تـاجُ عِـزٍّ يُزِينُـهُ وَفي رِجْـلِ حُـرٍّ قَيْـدُ ذُلٍّ يُـشِينُهُ

فقد قابل بين الرأس والرِّجل، والعبد والحر، والتاج والقيد، والعز والذل، والزين والشين.

وبالجملة فهذا النوع من البديع يكون مقبولاً، إذا كان النظم الذي جاء فيه مطابقاً لمقتضى الحال، وكان خالياً من التعقيد، خالياً من الصنعة المتكلفة كذلك.

---

(١) معاهد التنصيص ٢/ ٢٠٧.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ١٨٨، وسواد الليل يشفع لي، أي: يسترُ عليّ، وبياض الصبح يغري بي، أي: يشهر بي ويدلُّ عليّ.

المبحث الثالث

التورية

وهي مصدر مثل تحلية وتخلية وتعمية وتنقية، يقال: ورّى الخبر تورية إذا ستره وأظهر غيره، وهذا المعنى اللغوي يرشدنا إلى المعنى الاصطلاحي، فالتورية في الاصطلاح: أن يذكر اللفظ المفرد ويكون له معنيان، أحدهما قريب والآخر بعيد، ويكون البعيد هو المراد، ولا بد لها من قرينة تبيّن المعنى المراد، وهذه القرينة تدرك بالتأمل.

استمع إلى قول ذلك الجبان:

أَقُولُ وَقَدْ شَدّوا إلى الحَرْبِ غارةً ... دَعُوني فَإنّي آكُلُ الخُبْزَ بِالجُبْنِ

وأنت تعلم أن للجبن معنيين، معنى قريباً وهو الجبن الذي يؤكل، ومعنى بعيداً وهو ضد الشجاعة، والمراد هنا هذا المعنى البعيد، والقرينة «أقول وقد شدوا إلى الحرب غارة» وإن كان المعنى القريب هو المتبادر لأنه جاء مع أكل الخبز.

وقال ابن الظاهر:

شكراً لِنَسْمَةِ أرضِكُم ... كَمْ بَلّغَتْ عَنّي تَحِيّةْ

لاَ غَرْوَ إنْ حَفِظَتْ أحا ... دِيثَ الهَوى فَهْيَ الذَّكِيّةْ

والتورية في كلمة (ذكية) فإن لها معنيين، أحدهما قريب وهو الساطعُ الرائحة، والثاني بعيد وهو الفطنة، وهذا هو الذي قصده الشاعر. ومنه قول أبي الحسين الجزار:

كيفَ لا أشْكُرُ الجِزارةَ ما عِشْتُ ... حِفاظاً وأهْجُرُ الآدَابا

وَبِهَا صَارَتِ الكِلابُ تُرَجّيني ... وَبِالشِّعْرِ كُنْتُ أرْجُو الكِلابا

وكلمة الكلاب لها معنيان: أحدهما قريب تبادر إلى الذهن وهو الحيوان المعروف، وسبب تبادر هذا المعنى للذهن التمهيد له بذكر الجزارة، والثاني بعيد وهو لئام الناس وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الشاعر.

وقال بدر الدين الذهبي:

يَـا عَـاذِلِي فيـه قُـلْ لِي ... إذا بَـدا كَيْـفَ أَسْـلُو؟
يَمُـرُّ بِي كُـلَّ وَقْـتٍ ... وَكُلَّـمَا مَـرَّ يَحْلُـو

وكلمة (مَرَّ) لها معنيان: أحدهما قريب وهو المرور، والآخر بعيد وهو ضد الحلاوة، وهذا ما قصده الشاعر. وقال نصير الدين الحمامي:

أبيـاتُ شِـعْرِكَ كالقُـصُورِ ... وَلا قُـصُورَ بِهـا يَعُـوقُ
وَمِـنَ العَجَائِـبِ لَفْظُهَـا ... حُـرٌّ وَمَعْنَاهَـا رَقِيـقُ

فكلمة (رقيق) لها معنيان: معنى قريب متبادر وهو العبد المملوك، وسبب تبادره إلى الذهن ذكره لكلمة (حر)، والمعنى البعيد هو اللطيف السهل،وهو ما أراده الشاعر. وقال ابن دانيال:

يـا سَـائِلي عَـنْ حِرْفَتِـي في الـوَرَى ... وَأَضْـيِعَتي فِـيهِمْ وإفـلاسِي
مَـا حـالُ مَـنْ دِرْهَـمُ إنْفاقِـهِ ... يَأْخُـذُهُ مِـنْ أَعْـيُنِ النَّـاسِ

فإن في قوله: «يأخذه من أعين الناس» معنيين معنى قريباً، وهو أنه يأخذ الدرهم أجراً لعلاج العيون، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن حديثه عن حرفته، والمعنى البعيد أنه يأخذ الدرهم من الناس رغماً عنهم، وهذا هو المعنى المراد هنا.

وقال سراج الدين الوراق:

أَصُـونُ أَدِيـمَ وَجْهِـي عَـنْ أُنـاسٍ ... لِقـاءُ المَـوْتِ عِنْـدَهُمُ الأَدِيـبُ
وَرَبُّ الـشِّعْرِ عِنْـدَهُمُ بَغِـيضٌ ... وَلَـوْ وَافَى بِـهِ لَهُـمُ حَبِيـبُ

فكلمة (حبيب) لها معنيان: معنى قريب وهو المحبوب، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن ذكره كلمة (بغيض)، ومعنى بعيد وهو اسم الشاعر أبي تمام وهو حبيب بن أوس، وهذا هو الذي أراده الشاعر.

والتورية كما رأيت من الأمثلة السابقة أساسها الذي بنيت عليه، هو اللفظ المشترك، والمشترك هو ما اتحد لفظه واختلف معناه. كالعين التي تطلق على عين الماء وعلى العين المبصرة وغيرهما، وككلمة الصقر التي تطلق على الحيوان المعروف وعلى اللبن الحامض، وخِطط الشعر في أذن الفرس والدبس الرطب.

ولقد فطن لها النوع ابن دريد فألف فيه كتاب (الملاحن) ذكر فيه كثيراً من الكلمات المشتركة، سواء كانت من الجوامد أم من المشتقات، فكلمة (لَعِبْتُ) المعنى القريب منها اللعب، ولكنّ لها معنى بعيداً آخر وهو سيل اللعاب، فإذا قلت: «ما لعبت على هذه الأرض، ولا أعرتها حشاشة نفسي»، فالمعنى القريب أنك تنفي اللعب عن نفسك، ولكنك تقصد أنه ما سال لعابك على ما في هذه الدنيا. وإذا قلت: «ما ظلمت فلاناً وما آذيته بالصقر»، فالمعنى القريب أنك تنفي عن نفسك ظلمه وإيذاءه بالحيوان المعروف، ولكن المعنى البعيد أنك ما أسقيته (الظليم) وهو اللبن قبل أن يروب، وما آذيته كذلك باللبن الحامض، فمن معاني الصقر اللبن الحامض كما عرفت.

ونحن نقبل التورية إذا كان لها سبب مقبول، ولم يكن فيها تكلف وجَوْر على المعنى، ونلحظ من كتب البلاغة والأدب أن أكثر ما مثلوا به للتورية جُلّه ليس من كلام المتقدمين، على النقيض مما رأينا في الاستعارة والتشبيه وأنواع المجاز، وهذا يدلنا على أن هذه المحسنات قد صارت فيما بعد من الأمور المتكلفة، لذا فإن ما نقبله منها ما كان متسقاً مع قواعد البلاغة، فالبلاغة كلٌّ لا يتجزأ. فلا يمكننا أن نستحسن في فن من فنونها ما كان مستقبحاً في فنٍّ آخر.

المبحث الرابع

حسن التعليل

من المحسنات المعنوية، حسن التعليل، وهذا الموضوع يقوم في أساسه على التظرف والتفكه، ومن هنا كان بحاجة إلى فطنة وبديهة، ويقصدون بحسن التعليل أن يأتي المتكلم للشيء الذي يتحدث عنه بعلّةٍ ليس له، تظرفاً ومبالغة. وقد يكون هذا الشيء ليس له علة، ولكن الأديب يأبى إلا أن يعلله، وقد يكون له علة ولكن المتكلم يتناساها ليأتي بعلةٍ أخرى.

سألني أحدهم وقد ظهر الشيب في وجهي، (ما هذا؟) فقلت: «صنعت لأحدهم معروفاً وكان من الصالحين فدعا لي قائلاً: «بيّض الله وجهك» فاستجيبت دعوته».

وقريب من هذا قول الشاعر[1]:

قَـــدْ يَـــشيبُ الفَتَـــى وَلَـــيْسَ عَجيبـــاً ... أنْ يُـــرى النَّـــوْرُ في القَـــضيبِ الرَّطيـــبِ

فالشيب معروفة أسبابه معلومة عِلَلُهُ، ولكننا وجدناهم قد عللوه بغير ما هو له.

ومما عدّوه من حسن التعليل ما علل به بعضُ الشعراء زلزالاً حدث في مصر فقال:

مَـا زُلْزِلَـتْ مِـصْرُ مِـنْ سُـوءٍ أُريـدَ بهـا ... لكِنَّهـــا رَقَـــصَتْ مِـــنْ عَدْلِـــهِ طَرَبـــاً

فجعل الزلزال ناشئاً عن عدل ممدوحه وهو تعليل كما ترى.

وقريب من هذا التعليل تعليل القعود عن الجهاد، بأن العدو وإن هزمنا في معارك ثلاث أو أربع، إلا أننا نهزمه كل يوم في معركة سياسية، وبأن العدو لم يبلغ أمنيته لأنه يريد أن ينال من الأنظمة، فأمنيته الأنظمة وليست الأرض. وقال الشاعر:

مـا قـصَّرَ الغَيْـثُ عَـنْ مِـصْرٍ وَتُرْبَتِهـا ... طَبْعـاً ولكـنْ تعـدَّاكُم مِـنَ الخَجَـلِ

---

(١) سبق ذكر البيت ص٨٥.

فهو يعلل لعدم وجود الغيث بكثرة فضل الممدوح وخيره، وهذا كالذي يعلل قطع الكهرباء في الليل المظلم بنور فلان من الناس.

ولعلك أدركت الآن ما يراد بحسن التعليل في علم البديع وإليك بعض الأمثلة:

١- يعلل المتنبي لنزول المطر من السماء بعلةٍ طريفةٍ غريبة في قوله(١):

لَمْ تَحْكِ نائِلَكَ السَّحَابُ وَإنَّمَا ... حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ

يقول: لا تظن أن هذا السحاب يمكن أن يحاكيك في عطائك أو يجاريك في كرمك، لأن هذا أمر ميئوس منه، فليس للسحاب أن يَطْمَعَ فيه، كل ما في الأمر أن السماء أصابها عَرَقٌ من الحُمّى حسداً لك فمرضت، فما تراه من الماء النازل، ليس إلا أثراً لهذه الحمّى التي أصيبت بها السماء، ونحن نعلم أن الحُمّى إذا ألمت بإنسانٍ ما كَثُرَ عَرَقُه، فكأن هذا الماء النازل هو عرق من هذا المرض.

٢- ومن حسن التعليل قول المتنبي كذلك(٢):

ما بِهِ قَتْلُ أعادِيهِ ولكِنْ ... يَتّقي إخْلاَفَ مَا تَرْجُو الذِّئابُ

يقول: إن ممدوحه ليس به حاجة إلى قتل أعدائه فهو يبسط سلطانه عليهم من غير قتل، كل ما في الأمر أنه لا يريد أن يخيب رجاء الذئاب، فالذئاب التي تعيش في سلطانه ترجو أن لا تجوع إبّان حكمه وإمارته، فهو إن قتل أعداءه فإنما من أجل الذئاب حتى لا يخلفها ما ترجوه.

٣- ومن حسن التعليل قول ابن نباتة في وصف الفرس(٣):

وَأدْهَمَ يَسْتَمِدُّ الليْلُ مِنْهُ ... وتَطْلُعُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ الثُّرَيّا

سَرَى خَلْفَ الصَّباح يَطِيرُ زَهْواً ... وَيَطْوِي خَلْفَهُ الأفْلاكَ طَيّا

فَلَمّا خافَ وَشْكَ الفَوْتِ مِنْهُ ... تَشَبَّثَ بِالقَوائِمِ والُمحَيّا

---

(١) ديوان المتنبي ١/ ١٥٤، النائل: العطاء، الرُّحَضَاء، أي: العَرَق من أثر الحمى.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢٦٢.

(٣) اليتيمة ٢/ ٢٣٦٢.

يقول: إن فرسه لشدة سواده يستمد الليل سواده منه، ولكن فرسه مع هذا السواد الشديد أبيض القوائم والوجه، فكيف جاء هذا البياض في قوائم الفرس ووجهه، مع شدة سواده؟! يعلل ابن نباته ذلك بقوله: إن فرسه سريع العدو، عجيب في سرعته فهو قد عدا يريد أن يسبق الصباح، ولما أيقن الصباح أنه مسبوق وأن لا قبل له بسبق هذا الفرس، احتال حتى لا يُسبق فتشبث بقوائم هذا الفرس ومحياه، فهذا البياض ليس إلا من تشبث الصبح حينما خشي أن يسبق !

٤ - وفي هذا المعنى يقول ابن نباتة كذلك:

فكـأنّما لَطَـمَ الـصَّباحُ جَبينَـهُ   فَـاقْتَصَّ مِنْـهُ فَخَـاضَ في أحْـشائِهِ

وهو معنى عجيب حقاً وتعليل غريب، يقول: إن الصبح اعتدى على فرسه، فلطمه في جبينه، فهذا البياض الذي في جبين الفرس ليس إلا من لطمة الصبح، ولكن هذا الفرس لا يسكت على ضيم ولا يقابل الاعتداء بالمودة، شأنه شأن صاحبه، وليس كأولئك الذين يسكتون على الاعتداء ويعللون ذلك بالكرم والتسامح. خلاصة القول إن الفرس أراد أن يقتص من الصبح فلم يكتف أن يلطمه لطمة واحدة، بل خاض بقوائمه في أحشاء الصبح، فابيضت هذه القوائم فانظر إلى هذين التعليلين، بياض جبهة الفرس، كان بسبب لطمة الصبح، وبياض قوائمه لأنه أراد أن يقتص من الصبح فخاض في أحشائه، فانظر كيف جعل للصبح أحشاءً وهي استعارة مكنية فيها حسن تخييل كما عرفت من قبل.

٥ - ومن حسن التعليل قول أبي هلال العسكري[1]:

زَعَـمَ البَنَفْـسَجُ أنَّـهُ كَعَـذارِهِ   حُـسْناً فَـسَلُّوا مِـنْ قَفَـاهُ لِـسانَهْ

والعذار هو أول ما يبدو من الشعر على الخدّ، وللبنفسج ورق يبدو من خلفه يشبه اللسان، وأبو هلال يريد أن يعلل لهذه الظاهرة وهي كون هذا الورق يبدو من خلف البنفسج، فكيف يعللها وبم؟ ، يقول: لقد زعم البنفسج زعماً غير صحيح، وادّعى دعوى

(١) ديوان العسكري، ص٢٢٤.

كاذبة، زعم أنه يشبه عذار ممدوحه، ولا بد للمدّعي افتراء أن ينال جزاءه، وهذا ما كان للبنفسج بالفعل فلقد سلّوا لسانه من قفاه عقاباً له على ذلك الزور وهذا الافتراء.

٦- ومن حسن التعليل قول أبي طالب المأموني في مدح بعض الوزراء[١]:

لا يَــذُوقُ الإغْفــاءَ إلا رَجَــاءَ   أنْ يَــرَى طَيْــفَ مُــسْتَميح رَوَاحــاً

فهو يدّعي بأن هذا الوزير لا ينام، لأن في النوم راحة ولكن لما كانت عادة السائلين أن يأتوا نهاراً ليُعْطُوا ما سألوا، أما في الليل فهم منقطعون عن السؤال، لذا فإن هذا الوزير ينام ليلاً علّه يراهم في منامه فيستريح لرؤيتهم.

٧- ومن بديع حسن التعليل قول ابن المعتز[٢]:

قــالُوا اشْـتَكَتْ عَيْنُــهُ فَقُلْــتُ لَهُــمْ   مِــنْ كَثْــرَةِ القَتْــلِ نالَهــا الوَصَــبُ
حُمْرَتُهَــا مِــنْ دِمَــاءِ مَــنْ قَتَلَــتْ   والــدَّمُ في النَّــصْلِ شَــاهِدٌ عَجَــبُ

ونحن نعلم أن العين تشتكي بسبب الرمد أو المرض، ولكن ابن المعتز عدل عن هذه العلة، وبيّن أن شكوى العين ليست لشيء من هذا، فإنما شكواها لكثرة من قتلت من أولئك الذين أصابتهم سهامها، فحمرةُ العين ناشئةٌ عن كثرة القتل، وهي من دم أولئك الذين قتلتهم بغير قود - أي دية - .

٨- ومن حسن التعليل قول الرافعي - رحمه الله - :

إنّــما الإسْــلامُ في الــصَّحْرا امْتَهَــدْ   لِيَجِــيءَ كُــلُّ مُــسْلِم أسَــد[٣]

٩- ومن هذا القبيل حسن التعليل في رجم الزاني المحصن - أي المتزوج - «أنه بهذه الفاحشة يهدم بيت الزوجية» فهو يرجم بالحجارة ليعرف أن هذه الحجارة هي حجارة البيت الذي هدمه.

---

(١) الإيضاح ٦/ ٧٠، الرواح: وقت العشي، أي: عَلَّهُ يرى طيف السائلين ليلاً (وقت العَشي).
(٢) ديوان ابن المعتز ص٣٤٥. الوصب: المرض، النصل: حد السيف.
(٣) امتهد: أي اتخذ الصحراء مهداً، والمعنى كانت الصحراء مهد الإسلام ليكون المسلمون آساداً؛ إذ مهدُ الأسود الصحراء.

١٠- ومن هذا القبيل ما قيل: «إن الله لم يخلق المرأة من رأس الرجل حتى لا تستعبده وتذله ولم يخلقها من قدميه حتى لا يستعبدها ويسلبها شخصيتها، وإنما خلقت من ضلع قريب من القلب حيث الحنان والرحمة» وهذا كثير، وبخاصة عند المتأخرين.

ونظرة في الأمثلة المتقدمة تجد أن حسن التعليل يقوم على المبالغة، ولكننا في بعض الأحيان كما رأينا نجد فيها تكلفاً وتصنعاً كما رأينا في تعليل زلزال مصر وعدم نزول الغيث.

المبحث الخامس

تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح

جعلوا هذا القسم من المحسنات المعنوية في علم البديع فالأول، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وله أسلوبان من القول:

الأسلوب الأول: أن يذكر صفة ذم منفية، ثم يأتي بأداة الاستثناء، فيتوهم السامع أنه يريد أن يستثني من هذا المنفي شيئاً يذم به الممدوح، ذلك لأن المستثنى يخالف المستثنى منه، فإذا قلنا: «استيقظت الأمم المظلومة من رقدتها إلا أمتنا» فالمستثنى هنا مخالف للمستثنى منه.

ففي هذا الأسلوب ننفي عيباً ثم نستثني شيئاً، إلا أن هذا المستثنى عند التأمل نجده مدحاً آخر. استمع إلى قول النابغة الذبياني[1]:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

فقد نفى العيب كما رأيت بقوله: (ولا عيب فيهم)، ثم جاء بأداة الاستثناء فتوهم أنه يريد أن يثبت عيباً، ولكن هذا الذي استثناه لم يكن سوى مدحٍ على مدح.

وجعلوا منه قوله سبحانه - ما قاله السحرة لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف:١٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨]، كذلك قوله سبحانه: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]. قال ابن الرومي:

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ ... لا تَقَعُ العَيْنُ عَلى شِبْهِهِ

وقال آخر:

(١) الإيضاح، ٦/ ٧٥، الفلول: الثلوم جمع ثلم، القراع: المجالدة، الكتائب: الجيوش.

ولاَ عَيْبَ فِي مَعْرُوفِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ ... يُبَيِّنُ عَجْزَ الشَّاكِرِينَ عَنِ الشُّكْرِ

وقال ابن نباتة المصري:

ولاَ عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُهُ ... فَأَنْسَتْنِيَ الأَيَّامُ أَهْلاً وَمَوْطِنَا

وقال آخر:

وَلاَ عَيْبَ فِيكُمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوفَكُمْ ... تُعَابُ بِنِسْيَانِ الأَحِبَّةِ وَالوَطَنْ

وقال صفي الدين الحلي:

لاَ عَيْبَ فِيهِم سِوَى أَنَّ النَزِيلَ بِهِمْ ... يَسْلُو عَنِ الأَهْلِ وَالأَوْطَانِ وَالحَشَمِ

الأسلوب الثاني: أن يذكر المتكلم صفة مدحٍ ثم يستثني منها صفة، فيظن أن المستثنى مذموم، ولكن في الحقيقة يكون مدحاً على مدح، ومنه قوله ﷺ : «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» ومنه قول النابغة الجعدي[(1)]:

فتىً كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ ... جَوادٌ فَمَا يُبْقِي عَلَى المَالِ بَاقِيا

وقول الآخر:

وَجُوهٌ كَأَزْهَارِ الرِّيَاضِ نَضَارَةً ... وَلَكِنَّهَا يَوْمَ الهِيَاجِ صُخُورُ

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فله أسلوبان كذلك:

الأول: أن ينفي صفة خير ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتوهم أنه يريد مدحاً.

الثاني: أن يثبت صفة ذمٍّ ثم يأتي بأداة استثناء فيتوهم أنه يريد مدحاً إلا أن المستثنى يكون ذماً كذلك.

ومثال الأسلوب الأول: «لا خير فيهم إلا أنهم يجبنون عن الحق»، «لا أيمان لهم إلا أنهم يضيعون الأمانة»، «لا جمال في القصيدة إلا أنها معوجة الوزن»، «لا فائدة في الكتاب إلا أنه كثير الأخطاء اللغوية»، «لا عمق في البحث إلا أنه كثير الاستطراد».

---

(1) ديوان النابغة الجعدي، ص١٧٣.

ومثال الأسلوب الثاني: «قوم يخشون أعداءهم إلا أنهم يفْتِكون بذويهم»، «هم يبذرون المال إلا أنهم يسلبون حقوق الناس»، «هم يضحكون لخصومهم إلا أنهم قساة على بني جلدتهم»، «يكثرون من اللغو في الباطل إلا أنهم يسكتون عن الحق» ومنه قول الشاعر:

لَئِيمُ الطِّبَاعِ سِوَى أَنَّهُ ‏ ‏ ‏ جَبَانٌ يَهُونُ عَلَيهِ الهَوَانُ

المبحث السادس
أسلوب الحكيم

من المحسنات المعنوية أسلوب الحكيم، وتدرك لأول وهلة من هذه التسمية، أنه يبنى على الحكمة في مخاطبة الناس، فأسلوب الحكيم أن تحدث المخاطب بغير ما يتوقع وهو ضربان:

الأول: إما أن نتجاهل سؤال المخاطب فنجيبه عن سؤال آخر لم يسأله.

الثاني: وإما أن نحمل كلامه على غير ما كان يقصده ويريده، وفي هذا توجيه للمخاطب إلى ما ينبغي عليه أن يسأل عنه، أو يقصده من كلامه.

ومن أمثلة الضرب الأول قوله سبحانه: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة:١٨٩]، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ: «ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ؟» كان سؤالهم عن السبب والعلة، لكن القرآن الكريم قال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾، وهذه الإجابة ليس عن سبب تغير الهلال، إنما هي عن الحكمة منه، فقد سألوا عن العلة والسبب، ولكن القرآن الكريم أجابهم عن الحكمة من تغير الأهلة وهي أنها مواقيت للناس والحج، سألوا عن شيء ولكنهم أجيبوا عن شيء آخر، وهذا فيه من الحكمة ما فيه، كأنه يقول لهم: حري بكم أن تسألوا عما يمسّ واقعكم، ألا ترى أنه قال لهم بعد ذلك: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٥]، فقد سألوا عما ينفقون ولكن القرآن الكريم أجابهم عن سؤال آخر وهو لمن ينبغي أن تكون النفقة.

ومثل هذا أن يسألك أحد الطلاب الكسالى عن موعد الامتحان والمادة المقررة فتقول له: «من أراد النجاح فلا بد أن يشمر عن ساعد الجدّ». وأن يسألك أحد الجشعين الذين يمتصون دماء الناس وعرقهم «كيف يمكن أن تسترد أمتنا السليب والمقدس؟ كيف تنشئ نفسها تنشئة عسكرية؟» فتجيبه بقولك: «إن أول خطوة في رقي الأمم أن لا يبغي بعضها على بعض، وأن يأخذ الضعيف فيها حقه من غير تعتعة ولا مشقة، وأن يرحم بعضها بعضاً»، وإذا سألك مستبدٌ عن عوامل القوة وأسبابها في الأمم أجبته بقولك: «إن أول ما تمتاز به الأمم المتقدمة حرية التعبير عن الرأي».

فأنت ترى في هذه الأمثلة جميعاً أن الإجابة لم تكن عن السؤال نفسه، إنما كانت عن سؤال آخر كان حرياً به أن يسأل عنه، وكأننا نقول للسائل بلطف وأدب وذوق: «جدير بك أن تسأل غير هذا السؤال، جدير بك أن تسأل عن كذا وكذا»، وقد تكون عدم الإجابة عن سؤال السائل، لأنه لم يستطع استيعاب السؤل لصغر سنّه أو قصر إدراكه.

استمع إلى هذا الأب وقد جاءه ولده يسأله عن بعض القضايا التي تاهت فيها الفلسفة وحارَ بها المتكلمون، جاء يسأله عن ماهية الروح وماهية النفس والفرق بينهما، والأب يدرك أن ولده لا يستطيع استيعاب هذه القضايا، فكيف يتصرف مع ولده يا ترى؟ لنستمع إليه:

جَاءَنِي ابْنِي يَوْماً وَكُنْتُ أَراهُ ... لِي رَيْحَانَةً وَمَصْدَرَ أُنْسِ
قَالَ مَا الرُّوحُ؟ قُلْتُ إِنَّكَ رُوحِي ... قَالَ مَا النَّفْسُ؟ قُلْتُ إِنَّكَ نَفْسِي

ألم تر كيف كان الأب حكيماً حقاً، حيث جنب ولده ما يعسر عليه فهمه ويصعب عليه إدراكه.

قد يسألك سائل وأنت تهاتفه من أين تتكلم، ولا تريد أن تخبره عن المكان الذي أنت فيه، فتقول: «من فمي»، فيدرك ويكف عن السؤال. «قيل: إن رجلاً من أهل الحيرة جاء خالد بن الوليد ﷺ فسأله خالد: فيمَ أنت؟ قال: في ثيابي. فقال: علامَ أنت؟ قال: على الأرض. فقال: كم سنك؟ قال: اثنتان وثلاثون، فقال: أسألك عن شيء وتجيبني بغيره؟ فقال: إنما أجبت عما سألت».

ومثال الضرب الثاني وهو أن تحمل كلام المخاطب على غير ما يقصد، وهو قريب من الضرب الأول، إلا أن الضرب الأول كان ناشئاً عن سؤال كما رأيت، وإليك بعض الأمثلة التي تبينه، وأظنك قد سمعت حكاية الحجاج، فقد بلغه أن القبعثري، لما ذُكر الحجاج بينه وبين أصحابه في بستان قال: اللهم سود وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه، فوُشي به إلى الحجاج. فلما مثل بين يديه سأله عن ذلك قال: إنما أردت العنب فقال الحجاج: لأحملنك على الأدهم؛ وكان يقصد أنه سيقيده بالحديد. فقال هذا الرجل: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب»، وقد حمل كلام الحجاج على غير ما قصد، فالأدهم الذي يريد الحجاج القيد، ولكن الرجل حمله على الفرس، قال الحجاج: إنه حديد، قال الرجل: «لأن يكون حديداً خير من أن يكون قديداً»[1]. ومثل هذا قول ابن حجاج أبي عبدالله بن أحمد البغدادي[2]:

قَــالَ ثقّلْــتُ إذْ أتَيْــتُ مِــراراً   قُلْــتُ ثقّلْــتَ كَــاهِلي بالأيَــادِي
قَــالَ طَوّلْــتُ قُلْــتُ أوْلَيْــتَ طَــوْلاً   قَــالَ أبْرَمْــتُ قُلْــتُ حَبْــلَ وِدادِي

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع وكيف أراد أن يقي صاحبه الذلة، ويذهب عنه الحرج، يقول له: أنا ثقلت عليك بكثرة ما أسأل، ولكنه يريد هذا المعنى بأن الأمر على العكس من ذلك، فأنت إنما ثقلت كاهلي بالنعم فلك الشكر، قال: لقد طولت عليك وأخذت من وقتك، فيقول له: لقد أوليت طَوْلاً - أي نِعَماً- فيحمل كلمة طولت على غير ما قصدها المتكلم، قال: أبرمت، أي: جعلتك تسأم مني وتضيق بي، فيحملها المخاطب محملاً آخر، فيقول: إنما أبرمت حبل مودة وعهد صفاء.

وهناك بعض الأمثلة مما اشتهر في الأسلوب الحكيم. قال الشاعر:

وَلَقَــدْ أتَيْــتُ لِــصاحِبي وَسَــألْتُهُ   في قِــرْضٍ دِينــارٍ لأمْــرٍ كَانَــا
فَأجَــابَنِي وَالله دَارِيَ مَــا حَــوَتْ   عَيْنــاً فَقُلْــتُ لَــهُ وَلا إنْــسانا

(١) المعنى: أن يكون هذا الفرسُ قوياً خيرٌ من أن يكون ضعيفاً.
(٢) اليتيمة ٣/ ٣، نهاية الأرب ٧/ ١٧١.

فالمخاطب حمل كلمة عيناً على الذهب، لكن المتكلم حملها على العين الباصرة.. وهذا ما لم يقصده المخاطب.

وقال آخر:

طَلَبْــــــتُ مِنْـــــــهُ دِرْهَمـــــــاً يَوْمـــــــاً فـــــأَظْهَرَ العَجَـــــبْ
وَقَـــــالَ ذا مِـــــنْ فِـــــضَّةٍ يُـــــصْنَعُ لا مِـــــنَ الـــــذَّهَبْ

وفي هذا صرف للمخاطب عن طلبه للدرهم، فقد ذهب المسؤول يشرح له مم يُصنع الدرهم، وأنه من الفضة وليس من الذهب ليشعر المخاطب بأنه كان ينبغي له أن لا يطلب مثل هذا الطلب.

وسئل أحد العمال: ماذا ادخرت من المال؟ فقال لا شيء يعادل الصحة.

وقال الشاعر:

وَلَمَّــا نَعَــى النَّــاعِي سَــأَلْنَاهُ خَــشْيَةً وَلِلْعَـينِ خَـوْفَ البَـيْنِ تَـسْكَابُ أمطـارِ
أجـابَ: قَـضَى قُلْنَـا لَـهُ: حَاجـةَ العُـلا فَقَــالَ: مَــضَى قُلْنَـا: بِكُــلِّ فَخَــارِ

فقد حمل المخاطب كلمة (قضى) على إنجاز الحوائج وقضائها، أما المتكلم فقصد منها الموت. وكذلك قوله: (مضى) أراد المتكلم (مات)، وحملها المخاطب على أنه ذهب بالفضل ولم يدع لأحد شيئاً.

هذه بعض المحسنات المعنوية ولعل ما اقتصرنا عليه هو أخطرها شأناً وأكثرها فائدة، وقد ذكروا كثيراً من هذه المحسنات كما عرفت من قبل، وإن كان كثير منها لا فائدة فيه، وبعضها متداخلٌ في بعضه الآخر، وثالث فيه تكلف، وإليك بعضها بإيجاز:

تجاهل العارف:

وهو قريب من الأسلوب الحكيم. وهو أن يسأل المتكلم عن شيء يعلمه إلا أنه يظهر بمظهر غير العالم، وذلك لغرض من الأغراض التي يقتضيها المقام، كالتعجب أو التوبيخ أو المبالغة في المدح أو الذم، فمثال التعجب قوله سبحانه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[الطور:١٥-١٦]، ومثال التوبيخ قولك: «ما بال الشمس ساطعةً ألا تستحي مما نحن فيه من ألم ومرارة؟»، ومنه قول الشاعر:

أَيَا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً　　كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

ومثال المبالغة في المدح قول البحتري[1]:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ؟　　أم ابْتِسَامَتُهَا بِالمَنْظَرِ الضَّاحِي؟

وقول محمد الأسمر:

زَهْرُ الرَّبِيعِ يُرى أَمْ سادَةٌ نُجُبُ　　وَزَهْرَةٌ أَيْنَعَتْ أَمْ حَفْلَةٌ عَجَبُ

ومثال المبالغة في الذمّ قول زهير:

وما أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي　　أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وقولك: «لا أدري أقلوبهم من صخر أم عقولهم».

والحق أن هذا الضرب حريٌّ به أن يكون في علم المعاني، فهو إلى أبوابه أقرب وبموضوعه ألصق، وكثير من هذه المحسنات كذلك، ولقد أحسن السكاكي صنعاً حينما عدّ كثيراً منها من علم المعاني. وقد آثرت أن أنبه على هذه القضية.

العكس:

وهو أن نقدم في الكلام جزءاً ونؤخر جزءاً، ثم نعكس فنجعل المقدم مؤخراً، والمؤخَّر مقدَّماً، وقد يكون في جملة واحدة كقولك: «المعرّي شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء»، و«علي محمود طه شاعر المهندسين ومهندس الشعراء» وقولك: «كلام الملوك ملوك الكلام».

وقد يكون في جملتين كقوله سبحانه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الروم:١٩] ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة:١٠]. ومن العكس قول الشاعر:

طَوَيْتُ بِإِحْرازِ الفُنُونِ وَنَيْلِها　　رِداءَ شَبابٍ وَالجُنُونُ فُنُونُ

---

(١) ديوانه: ص٣٣، العمدة ٢/ ٣٥.

فَحِـينَ تَعَاطَيْـتُ الفُنُـونَ وَحَظَّهـاَ ... تَبَـيَّنَ لِي أنَّ الفُنُـونَ جُنُـونُ

وحينما طغت الصنعة البديعية، وبعدت عن الموطن الأساسيّ للبلاغة، صار العكس عكس ما تقتضيه قواعد البلاغة كقول ذلك القائل:

كَأنَّنـا وَالمـاءُ مِـنْ حولِنَـا ... قَـوْمٌ جُلُـوسٌ حَـوْلَهُمْ مَـاءُ

وقريب من هذا قول القائل:

إنَّ لِلْوَجْـدِ في فُـؤادِي تَـرَاكُمْ ... لَيْـتَ عَيْنِـي قَبْـلَ المَمَاتِ تَـراكُمْ

فِي هَـوَاكُمْ يَـا سَـادَتِي مِـتُّ وَجْـداً ... مِـتُّ وَجْـداً يـا سَـادَتِي فِي هَـواكُمْ

والحق أن قضية العكس يمكن أن تقبل إذا كانت تعكس غرضاً بيانياً لتجليه، وإذا كان يقتضي ذلك المقام، ونظن أن للعكس المقبول صلة بعلم المعاني كذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، وإلى قوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام:٩٥]، فانظر إلى التغاير في النظم وكيف عبر بالاسم تارة في قوله: «هن حل» وبالفعل تارة في قوله: «ولا هم يحلون» وكذلك الآية الثانية.

المشاكلة:

وهي أن نقصد شيئاً بلفظ آخر؛ أعني أن نذكر كلمة ولكننا لا نريد معنى هذه الكلمة، وإنما ذكرناها لوقوعها في مصاحبة لفظة تشبهها.

استمع إلى قوله سبحانه: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠]، إن جزاء السيئة لا يسمى سيئة، ولكن لما ذكرت كلمة السيئة أولاً ذكرت كلمة السيئة ثانيةً من باب المشاكلة. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٤]، ألا ترى أن رد الاعتداء لا يسمى اعتداءً، ولكنها المشاكلة ومنه قوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] ومنه قوله سبحانه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧].

اللف والنشر:

وهو أن نذكر عدة أشياء ثم نذكر لكل واحدٍ ما يناسبه وما يتصل به اعتماداً على فهم المخاطَب، وهو قسمان:

١ - **اللف والنشر المرتب**: وهو أن نذكر الأشياء المتعددة، ثم نذكر ما يتصل بها على سبيل الترتيب، الأول للأول والثاني للثاني وهكذا.

٢ - **اللف والنشر المشوش**: وهو أن نذكر الأشياء ثم نذكر ما يتصل بها، ولكن لا على سبيل الترتيب، فربما نذكر المتقدم للمتأخر والمتأخر للمتقدم وهكذا.

وإليك الأمثلة لكل قسم من القسمين:

فمن أمثلة القسم الأول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣]، فقد جمع الليل والنهار ثم ذكر لكلٍّ ما يختص به، فذكر أولاً ما يختص بالليل وهو ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ ، ثم ذكر ما يختص بالنهار وهو ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ومنه قول الشاعر(١):

عُيونٌ وَأَصْداغٌ وَفَرْعٌ وَقَامَةٌ ... وَخَالٌ وَوَجْنَاتٌ وَفَرْقٌ وَمَرْشَفُ
سُيُوفٌ وَرَيْحَانٌ وَلَيْلٌ وَبَانَةٌ ... وَمِسْكٌ وَيَاقُوتٌ وَصُبْحٌ وَقَرْقَفُ

ومثال اللف والنشر المشوش: كقول الشاعر(٢):

وَلَحْظُهُ وَمُحَيَّاهُ وَقامَتُهُ ... بَدْرُ الدُّجا وَقَضِيبُ البَانِ وَالرّاحُ

فبدرُ الدُّجا: راجع إلى المحيّا الذي هو الوجه، وقضيب البان راجع إلى القامة، والراح راجع إلى اللحظ.

---

(١) أصداغ: جمع صدغ: وهو جانب الوجه من العين إلى الأذن، الفرع: الشعر التام، الفرق: الفرقُ من الرأس: الفاصل بين صفين من الشعر، المرشف: موضع الرشف وعنى به هنا الفم، بانة: مؤنث البان: وهو ضربٌ من الشجر سبط القوام ليّن، ورقه كورق الصفصاف يُشبه به الحسان، القرقف: هو الماء البارد الصافي.

(٢) البان: ورد معناها في شرح البيت السابق، الراح :الخمر.

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

المبحث الأول

الجناس

من المحسنات اللفظية الجناس، ولعله زينتها وأشهرها، ولذا خصّه والسجعَ الشيخُ عبدالقاهر بالذكر، ويسمى المجانسة والتجانس، وهو أن يتفق اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، ومعنى هذا أنك تذكر الكلمة في موضعين فيكون لها في كل موضع معنى يختلف عن الآخر، وقد تكون الكلمتان اسمين أو فعلين، أو تكون إحداهما اسماً والأخرى فعلاً، وهو قسمان: جناس تام وجناس ناقص.

فالجناس التام أن تتفق الكلمتان في أربعة أشياء.

١ - في نوع الحروف.

٢- في الشكل.

٣- في العدد.

٤- وفي الترتيب.

والجناس الناقص أن تختلف الكلمتان في واحد من هذه الأربع. واعلم أن الجناس إنما يقبل في الكلام إذ كانت الصنعة فيه توافق الطبع، قال الشيخ رحمه الله:

«أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، أتُراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله[1]:

ذَهَبَتْ بِمُذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوَتْ فِيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَبٌ أمْ مُذْهَبُ؟

واستحسنت تجنيس القائل (حتى نجا من خوفه وما نجا)[2] وقول المحدَث هو أبو الفتح البستي على الأصح:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمَذهَب ومُذهَب على أن أسمعك حروفاً مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة - من حُلَى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسنٌ، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذُمَّ الاستكثارُ منه والولعُ به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصرَّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستَها، المستحقَّةَ طاعتَها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته، وذلك مَظَنَّة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين... » .

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ١٢٩، والبيت من قصيدة في مدح الحسن بن وهب. ذهبت بمذهبه: يحتمل وجهين فتح الميم وضمها، فعلى الفتح يكون المعنى: ذهبت بطريقته السماحة، أي: غلبت عليه، كما يقال: (ذهب فلانٌ بالمجد) أي: حازه وصار له، وعلى الضم يكون المعنى ذهبت بثيابه المُذْهَبة. أي أنه يخلعها ويبذلها هبةً وعطاءً، مُذهب: إدمانٌ وتوسوسٌ في عملٍ ما. يقول: (إنه يبذلُ حتى رداءه الثمين في العطاء حتى التبس أمره على الناس فلم يدروا إذا كان ما يصدر منه عن عقيدةٍ عاقلةٍ أم أنه خرج فيه عن طوره لأنه خرق به مألوف عادته، والمعنى أنه يدأب على ما يثير دهشة الآخرين من العطاء فلا يفقهون له تفسيراً).

(٢) (نجا) الأولى بمعنى أحدث - من الحدث الذي ينقض الوضوء - والثانية بمعنى خَلَصَ.

«... وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن ها هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقُّه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهُّبٍ لطلبه، أو ما هو لحسن ملائمته - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة. وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعي - رحمه الله تعالى - وقد سئل عن النبيذ فقال: «أجمع أهل الحَرَمينِ على تحريمه» ومما تجده كذلك قول البحتري[1]:

يَغْشَى عَنِ المَجْدِ الغَبِيُّ وَلَنْ تَرى ... في سُؤْدُدٍ أَرَباً لِغَيْرِ أَرِيبِ»[2]

وإليك أمثلة لكل من النوعين.

١ - الجناس التام: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]، فقد ذكرت الساعة مرتين ولكل منهما معنى، فالساعة الأولى: القيامة، والثانية: الجزء من الزمن. ومنه قولك: «علا قدر النبي ﷺ على كل قدر» فالكلمة الأولى فعل، والثانية حرف. وقال الشاعر:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ ... أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

فالكلمة الأولى وهي ناظراه فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعل، والكلمة الثانية مرفوعة بالألف لأنها مثنى، وكذلك كلمة أو دعاني، فهي مركبة من كلمتين (أو) وهي حرف عطف، ودعاني وهي فعل أمر بمعنى اتركاني، وأما أودعاني الثاني فهي فعل ماضٍ.

ومنه قول أبي تمام:

فَأَصْبَحَتْ غُرَرُ الأَيَّام مُشْرِقَةً ... بِالنَّصْرِ تَضْحَكُ مِنْ أَيَامِكَ الغُرَرُ

---

(١) ديوان البحتري ١/ ٦٤٥، والبيت من قصيدة في مدح إسحاق بن نوبخت، يعشى: من عشى، أي: ساء بصره في الليل والنهار، السؤدد: الشرف والرفعة.

(٢) أسرار البلاغة، ص١٧-٢٠.

فالغرر الأولى بمعنى البياض والإشراق، والثانية بمعنى الكرم والشرف.

وقال كذلك[1]:

مَـا مَـاتَ مِـنْ كَـرَمِ الزَّمَـانِ فَإنّـهُ ... يَحْيَـا لَـدَى يَحْيَـى بـنِ عَبْـدِ الله

فـ (يحيا) الأولى من الحياة وهي فعل، والثانية اسم لشخص، ومنه قول الآخر في رثاء صغير:

وَسَـمَّيْتُهُ يَحْيَـى لِيَحْيَـا فَلَـمْ يَكُـنْ ... إلى رَدِّ أمْـرِ الله فيـهِ سَـبيلُ

وقال أبو نواس[2]:

عَبَّـاسُ عَبَّـاسٌ إذا احْتَـدَمَ الـوَغَى ... والفَـضْلُ فَـضْلٌ وَالرَّبيـعُ ربيـعُ

وقال المتنبي:

لِـسَيْفِ الدَّوْلَـةِ اتَّـسَقَتْ أُمُـورٌ ... رَأَيْنَاهَـا مُبَـدَّدةَ النِّظَـامِ

سَـمَا وَحَمَـى بَنِـي سَـام وَحَـام ... فَلَـيْسَ كَمِثْلِـهِ سَـامٍ وَحَـامِ

فـ (سام وحام) في الشطر الأول من البيت الثاني هما ولدان من أولاد نوح عليه السلام وقوله: (سام وحام) في الشطر الثاني من السمو والحماية. وقال أبو سعيد المخزومي[3]:

حَـدَقُ الآجَـالِ آجَـالُ ... وَالهَـوى لِلْمَـرءِ قَتّـالُ

فالآجال الأولى جمع (إجْل) بكسر الهمزة وسكون الجيم: وهو القطيع من بقر الوحش، والثانية جمع (أجَل) بفتح الهمزة وفتح الجيم وهو أمد العمر.. وقال أبو تمام[4]:

إذا الخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الحَرْبِ صَدَّعُوا ... صُـدُورَ العَـوالي في صُـدُورِ الكَتَائِـبِ

فـ (صدور) الأولى بمعنى أعالي الرماح، والثانية نحور الأعداء. وقال آخر:

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ٣٤١.

(٢) ديوان أبي نواس، ص٩٢.

(٣) الوافي في العروض والقوافي، ورقة ٦٦، تحرير التحبير، ص٣٩٣.

(٤) ديوان أبي تمام ١/ ٢٠٧، والبيت من قصيدة في مدح أبي دلف العجلي، يقول: إذا شقّت الخيلُ غبار الحرب فإنهم يطعنون الأبطال بالرماح حتى يكسّروها في صدورهم.

إذا رَمَــاكَ الــدَّهْرُ في مَعْــشَرٍ قَــدْ أجْمَــعَ النَّــاسُ عَــلَى بُغْــضِهِمْ
فَــدارِهِمْ مَــا دُمْــتَ فِي دَارِهِــمْ وَأرْضِــهِمْ مَــا دُمْــتَ فِي أرْضِــهِمْ

(فدارهم) الأولى وهي فعل أمر والثانية اسم، وكذلك (أرضهم) فالأولى أمر والثانية اسم. قال أبو العلاء المعري:

لَمْ نَلْــقَ غَــيْرَكَ إنْــساناً يُــلاذُ بِــهِ فَــلا بَرِحْــتَ لِعَــيْنِ الــدَّهْرِ إنْــسانا

فـ (إنسان) الأولى جنس بني آدم، والثانية ما يُرى في سواد العين. وقال أبو الفتح البستي[1]:

كُلُّكُــمْ قَــدْ أخَــذَ الجَــامَ وَلاَ جَــامَ لَنَــا
مَــا الــذي ضَرَّ مُــديرَ الجَــام لَــوْ جَامَلَنَــا

فاللفظ الأول مركب من كلمتين هما (جام) بمعنى الكأس، و(لنا) جار ومجرور، والثاني مفرد وهو فعل ماض من المجاملة، بمعنى (عاملنا بالجميل).

ومثل هذا الأقوال المشتهرة:

رَأيْــتُ النَّــاسَ قَــدْ مَــالَوا إلى مَــنْ عِنْــدَهُ مَــالُ
وَمَــنْ لاَ عِنْــدَهُ مَــالُ فَعَنْــهُ النَّــاسُ قَــدْ مَــالُوا
رَأيْــتُ النَّــاسَ قَــدْ ذَهَبُــوا إلى مَــنْ عِنْــدَهُ ذَهَــبُ
وَمَــنْ لاَ عِنْــدَهُ ذَهَــبُ فَعَنْــهُ النَّــاسُ قَــدْ ذَهَبُــوا

٢- الجناس الناقص: قلنا إن الجناس الناقص أنْ تختلف الكلمتان في نوع الحرف أو شكله أو عدده أو ترتيبه، فالاختلاف في نوع الحروف كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى:٩-١٠]، فقد اختلف اللفظان (تقهر وتنهر) في حرفي، القاف والنون. قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ [الأنعام:٢٦]، فاختلفت الكلمتان

---

(١) الإيضاح ٦/ ٩٤، معاهد التنصيص ٣/ ٢٢١.

في حرف الهمزة وحرف الهاء. ومنه قوله ﷺ : «الخيل معقود في نواصيها الخير»[1] فاختلفت الكلمتان (الخيل والخير) في حرف اللام والراء. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء:٨٣]، فكلمة (أمرٌ) وكلمة (أمن) اختلفتا في حرف الراء وحرف النون. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر:٧٥]، وقال البحتري[2]:

أَلِـمَا فَـاتَ مِـنْ تَـلاقٍ تَـلافِ ... أم لِـشَاكٍ مِـنَ الـصَّبابَةِ شَـافِ

فاختلفت كل كلمتين من (تلاق وتلاف) و(شاك وشاف) في حرف من حروفها وقال كذلك[3]:

نَـسِيمُ الـرَّوْضِ فِي رِيـحِ شَـمَالٍ ... وَصَـوْبُ الْمُـزْنِ في رَاحِ شَـمُولِ

ومن الاختلاف في شكل الحروف قول ابن الفارض[4]:

هـلاّ نَهاكَ نُهـاكَ عَـنْ لَـوْمِ امْـرِئٍ ... لَمْ يُلْـفَ غَـيْرَ مُـنَعَّمٍ بِـشَقَاءِ

فـ (نهاك) الأولى مفتوحة النون وهي فعل، والثانية مضمومة وهي بمعنى العقل ومنه قول أبي العلاء[5]:

والحُـسْنُ يَظْهَـرُ في بَيْتَـيْنِ رَوْنَقُـهُ ... بَيْـتٍ مِـنَ الـشِّعْرِ أَوْ بَيْـتٍ مِـنَ الـشَّعَرِ

فالأول ساكن العين بمعنى النظم، والثاني مفتوح العين وهو الشَعر المعروف، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات:٧٢-٧٣]، فالمنذرين الأولى بكسر الذال اسم فاعل، والثانية بفتح الذال اسم مفعول.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب (إثم مانع الزكاة)، حديث رقم ١٦.
(٢) ديوان البحتري ٢/ ٦٠١، التلاقي: التدارك. والمعنى: هل يمكن أن يُدرَكَ ما فات؟!
(٣) ديوان البحتري ٢/ ١٦٠، العمدة ١/ ٢٢٣، الصوب: الانصبابُ والنزول، المزن: السحاب، شمول: الخمر، وقيل البارد منها، الراح: الوعاء الذي يوضع الخمرُ فيه.
(٤) ديوان ابن الفارض، ص٦٧.
(٥) ديوان سقط الزند، ص١٠٧.

ومن الاختلاف في عدد الحروف قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة:٢٩-٣٠]، فعدد حروف المساق زائد على عدد حروف كلمة الساق.

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

إنَّ البُكــــاءَ هُـــوَ الـــشِّفاءُ مِــنَ الجَــوَى بَــيْنَ الجَــوَانِح

فالجوانح عدد حروفها زائد عن عدد حروف كلمة الجوى. وكقول أبي تمام[1]:

يَمُــدُّونَ مِــنْ أيْــدٍ عَــواصٍ عَوَاصِــمٍ تَــصُولُ بأسْــيافٍ قَــواضٍ قَواضِــبِ

وقال البحتري[2]:

لَــئِنْ صَــدَفَتْ عَنَّــا فَرُبَّــةَ أَنفُــسٍ صَــوادٍ إلى تِلْــكَ الخُــدُودِ الــصَّوادِفِ

وقال حسان بن ثابت ﷺ[3]:

وكُنَّــا متـــى يَغْــزُ النَّبِــيُّ قَبيلَــةً نَــصِلْ جانِبَيْــهِ بِالقَنــا وَالقَنابِــلِ

ومن الاختلاف في ترتيب الحروف، قول عبدالله بن رواحة ﷺ:

وَتَحْمِلُــهُ النَّاقَــةُ الأَدْمــاءُ مُعْتَجِــراً بِــالبُرْدِ كَالبَــدْرِ جَــلّى نُــورَهُ الظُّلَــمَا[4]

والشاهد في قوله: «بالبرد كالبدر». ومنه قول أبي الطيب[5]:

مُنَعَّمَـــــــــةٌ مُمَنَّعَــــــــةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّــفُ لَفْظُهَــا الطَّــيْرَ الوُقُوعَــا

---

(١) ديوان أبي تمام ٢/ ٢١٣، يقول: إنهم يمدون أيديهم الصلبة التي تأبى الذل بسيوف قاطعة تقطع بالحق على الباطل.

(٢) ديوان البحتري ٢/ ١٠٣، والبيت من قصيدة في مدح إسحاق التبريدي، صدفت: مالت، الصوادي: الشديدة العطش، وفي رواية (إلى تلك الوجوه)، الصوادف: المائلة، رُبّة مثل ثمّة يقال رُبّ وربّة.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ﷺ ص٣١٥، القنابل: جمع قَنْبلة - بفتح القاف: وهي الجماعة من الخيل ومن الناس. يقول: متى يغزُ النبيُّ قبيلةً نحدق به بخيلنا وسلاحنا ذائدين عنه مدافعين.

(٤) معتجراً، أي: لافاً العمامة على رأسه.

(٥) ديوان المتنبي ٢/ ٣٥٨، امرأةٌ رداح: ضخمة العجيزة ثقيلة الأوراك، كذلك ناقةٌ رداح وكبشٌ رداح أي: ضخمُ الإلية، ودوحةٌ رداح، أي: عظيمة، يقول: إذا سمعت الطيرُ لفظها وقعت لحسنه.

أي: ممنعة يمنعها أهلها ويحمونها، ورداح ضخمة الإلية أو ثقيلة الأوراك والشاهد في قوله: ممنعة ومنعمة.

وقال أبو تمام[1]:

بيضُ الصَفائِح لا سُودُ الصَحائِفِ في ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِّيَبِ

وقول الأحنف:

حُسامُكَ فِيهِ للأَحْبابِ فَتْحٌ ... وَرُمْحُكَ فيهِ للأَعْداءِ حَتْفُ

والشاهد في قوله: فتح وحتف.

وإليك أمثلة مما اشتهر على الألسنة من هذا النوع من جناس تام أو جناس ناقص.

قال بعض الحكماء: «الدنيا دارُ مفر وليست دارَ مقرٍّ، فلا تَغْتَرَّ فيها بأملٍ فإنما تفترُّ لك عن ألم، فهي إذا حَلَتْ أَوْحَلَتْ، وإذا رَمَتْ أَوْرَمَتْ، وإذا أقبلت بلتْ، وإذا صَبَتْ أَوْصَبَتْ، وهذه القبور تُبنى ولكننا ما تُبنا، فأدِم النظر وكن على حذر، واعلم أن خير المعاني ما يجبب إليك المعالي ويبعدك عن المعاصي».

وقال آخر: «الخيبةُ تذهب بالهيبة، والمنيَّةُ تضحك من الأُمنية، كما تضحك القبور من القصور، فخذ العِبرة واسكب العَبْرة، واعلم أن خير المعاشرة ما يوجب المباشرة، فدع التهجم والتهكم، وتجنب التعدي والتحدي، واحذر العَدْوَ إلا على عَدُوٍّ أدار لك حربته ونبله، وأراد لك أن تذل وتبلى، واعلم أن لكل مستبد علاماتٍ فإذا علا ماتَ».

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ٤٠، من قصيدته المشهورة في مدح المعتصم بعد فتح عمورية. وعنى بالصحائف جمع صحيفة وبالصفائح - جمع صفيحة - السيوف.

المبحث الثاني

السجع

من المحسنات اللفظية السجع: وهو أن تتفق الفاصلتان في الحرف الأخير، والفاصلة في النثر كالقافية في الشعر، وتسمى كل من الجملتين فقرة، وأحسن السجع ما تساوت فِقَرهُ.

واعلم أن السجع مأخوذ من قولهم: سجعت الحمامة، ولا يكون محموداً مقبولاً، إلا إذا كان غير متكلَّف، وكان اللفظ فيه تابعاً للمعنى، أما إذا كان متكلفاً وكان المعنى تابعاً فيه للفظ فهو من السجع المذموم، وقد ذمه النبي ﷺ في قوله: «أسجعاً كسجع الكُهّان»[1].

ومثال السجع المحمود ما جاء في الحديث الشريف: «اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً»[2]، وقال ﷺ: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»[3].

وقد اختلفوا في وقوع السجع في كتاب الله تعالى فمنعه قوم منهم الرماني والباقلاني فيما كتباه في إعجاز القرآن، وقالوا: إن ما جاء على صورة السجع في كتاب الله كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:١-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات:١-٢]،وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٧-٨]، ومثل قوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٢٨-٣٠]، وغيره في التنزيل كثير، قالوا: إن ذلك لا يسمى سجعاً وإنما هو فواصل. وقد أطال الباقلاني الكلام في ذلك.

---

(١) رواه مسلم كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني باب (١١) حديث ١٦٨٢.

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب (١٧) (في المنفق والممسك) حديث ١٠١٠.

(٣) قال في كشف الخفاء رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ج١، ص٥١٤.

وأجازه قوم منهم ابن الأثير في المثل السائر وإليك شيئاً مما قاله في هذا:

«السجع، وحدُّه أن يقال: تواطُؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد. وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإن قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة، كسورة (الرحمن)، وسورة (القمر)، وغيرهما، وبالجملة فلم تخلُ منه سورة من السور، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وكقوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:١-٨].. وأمثال ذلك كثير.

وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي ﷺ شيء كثير أيضاً:

فمن ذلك ما رواه ابن مسعود ؓ قال، قال رسول الله ﷺ : «استحيوا من الله حقَّ الحياء» قلنا: إنا لنستحيي من الله يا رسول الله. قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا»(١).

ومن ذلك ما رواه عبدالله بن سلام فقال: لما قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما تبينت وجهه علمت أنه ليس بوجه كذّاب، فكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(٢).

---

(١) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة باب (٢٥) حديث رقم ٢٤٦٠، قال أبو عيسى: حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، الباب ٤٢، حديث (٢٤٨٥) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

فإن قيل إن النبي ﷺ قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع: «أسجعاً كسجع الكهّان» ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي ﷺ ؟

فالجواب عن ذلك أنا نقول: لو كره النبي ﷺ السجع مطلقاً لقال: «أسجعاً؟» ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان؟ فلما قال: «أسجعاً كسجع الكهّان» صار المعنى معلقاً على أمر، وهو إنكار الفعل لِمَ كان على هذا الوجه؟، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سَجْع الكهّان لا غير، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق، وقد ورد في القرآن الكريم، وهو ﷺ قد نطق به في كثير من كلامه، حتى إنه غيّر الكلمة عن وجهها اتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع، فقال لابني بنته - الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما - : «أعيذه من الهامة والسّامة، وكل عين لامّة»[1] وإنما أراد مُلِمَّة لأن الأصل فيها من ألَمَّ فهو مُلِم، وكذلك قوله ﷺ : «ارجعن مأزورات غيرَ مأجورات»[2]، وإنما أراد موزورات من الوِزر، فقال: مأزورات لمكان مأجورات، طلباً للتوازن والسجع، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع[3].

على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن إنكار سجع الكهان عندي فيه نظر، فإن الوهم يسبق إلى إنكاره، يقال: فما الكهان الذي يتعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله ﷺ؟ والجواب عن ذلك: أن النهي لم يكن عن السجع نفسه، وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع، ألا ترى أنه لما أمر رسول الله ﷺ في الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل: «أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل» فقال رسول الله ﷺ : «أسجعاً كسجع الكهان» أي أتتّبعُ سجعاً كسجع الكهان.

وكذلك كان الكهنة كلهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاؤوا بالكلام مسجوعاً..

... فالسجع إذن ليس بمنهي عنه، وإنما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن، فقال رسول الله ﷺ : «أسجعاً كسجع الكهان» أي أحكماً كحكم الكهان، وإلا

---

(١) رواه الترمذي كتاب الطب، باب (١٨) حديث (٢٠٦١) قال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجة كتاب الجنائز، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز باب رقم (٥٠) حديث رقم (١٥٧٨).

(٣) لسنا مع ابن الأثير في تأويل الحديثين فكلمة لامة ومأزورات لهما وجه آخر من الجمال غير ما ذكره.

فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال: «أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل» وهذا كلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرةٍ عبد أو أمة.

واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجّاعاً، وما من أحد منهم لو شدا شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنّانة رنانة لا غثّة ولا باردة، وأعني بقولي: غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن... » .

«... فإذا صُفِّيَ الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُموَّهٍ، على باطن مشوّهٍ، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما».

... فإن قيل: فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً، وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع؟

قلت في الجواب: إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتي جميعها مسجوعة، وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب.

وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع؛ لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغُ في باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين.

واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة، فإن عُرِّيَ الكلام المسجوع منه فلا يعتدّ به أصلاً، وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري، وسأبينه ها هنا، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم، وأمثل لك مثالاً إذا حذوته أمنت الطاعن والعائب، وقيل في كلامك: ليبلغ الشاهد الغائب، والذي أقوله في ذلك: هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجعتان تدلاّن على معنى واحد كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه، وجُلُّ كلام الناس المسجوع جار عليه، وإذا تأملت كتابة المُفِلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فإنك ترى أكثر المسموع منه كذلك، والأقل منه على ما أشرت إليه... ».

«فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط:

الأولى: اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذي أشرت إليه فيما تقدم

الثانية: اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت إليه أيضاً فيما تقدم.

الثالثة: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا المعنى تابعاً للفظ.

الرابعة: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها. فهذه أربعُ شرائط لا بد منها»[1].

---

(١) المثل السائر، ص١٩٢-١٩٩، ج١.

المبحث الثالث
رد العجز على الصدر

من المحسنات اللفظية في علم البديع رد العجز على الصدر، ورد العجز على الصدر يكون في النثر وفي الشعر، وهو أن نأتي بلفظين مكررين أو متجانسين فنجعل أحدهما في أول الجملة والآخر في آخرها، أو أن يكون أحدهما في الشطر الأول من الشعر والثاني في الشطر الآخر، وإنما قلنا أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، لأن اللفظتين قد تكونان من معنى واحد ومن مادة واحدة، وقد يكون كل منهما من مادة.

فمثال اللفظتين المختلفتين من حيث المادة قوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨]، فكلمة قال من القول، وكلمة قالين من القِلى وهو البغض، قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣]، وقولك: «سائِلُ اللئيمِ يرجع ودمعُه سائل» فسائل الأولى من السؤال والثانية من السيلان. وقولك: «رب قوم لا يشربون الماء وإنما يشربون رُبّا» فرب الأولى حرف للتقليل والثانية عصير العنب وقولك: «ما جارَ مثلُ مَنْ أهانَ جاره». وهو قريب من الجناس كما ترى، إلا أن هذا جاءت إحدى الكلمتين في أول الجملة والثانية في آخرها، ولا يشترطون ذلك في الجناس. والجناس لا بد فيه من اختلاف الكلمتين من حيث المعنى، وقد يتحد المعنى هنا.

ومثال الثاني: أي ما اتحدت مادته قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]، وقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

ومثاله في الشعر قول المغيرة بن عبدالله (الأقيشر) (١):

سَريعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلْطِمُ خَدَّهُ   وَلَيْسَ إلى دَاعي النَّدَى بِسَريع

---

(١) الأغاني ١٠/ ٨٤-٩٧، تحرير التحبير، ص١١٦.

ومنه قول المعري[1]:

فَـوَا عَجَبَـا كَـمْ يَـدَّعِي الفَـضْلَ نَـاقِصٌ   وَوَا أَسَـفَا كَـمْ يُظْهِـرُ الـنَّقْصَ فاضِـلُ

ونكتفي بهذا القدر وإذا أردت مزيداً فارجع إلى إيضاح القزويني، أو تحرير التحبير لابن أبي الإصبع، وستجد مصداقية ما قلته لك من قبل، من أنك ستجد التكرار أو التكلف أو التداخل في كثير من هذه التي سموها محسنات.

ولنذكر لك كما عودناك من قبل من بدائع القرآن وبدائع السنّة المشرفة.

(١) ديوان سقط الزند، ص٢٢٩.

بدائع القرآن

يتسق ذكر البديع في القرآن الكريم مع غيره من الأساليب التي جاءت في أرفع درجات البلاغة، لذلك نجد أن ما جاء في القرآن منه، - أي من هذا البديع - كان أولاً في غاية الحسن، مطبوعاً ليس فيه أثر للصنعة أو الكلفة كما رأينا في أنواع البديع الكثيرة وبخاصة عند المتأخرين، كما جاء كذلك غير منفصل عما يقتضيه النظم، ويتطلبه المقام، أي أن بدائع القرآن لم تأت منفصلة عن روعة النظم التي عرفناها في علم المعاني، كما لا يأتي منفصلاً عن جمال الصورة التي عرفناها في علم البيان.

نقول هذا لأننا عرفنا أن كثيراً من أنواع البديع المتكلفة كان يُجاء بها لذاتها فحسب، دون مراعاة لما يقتضيه النظم أو ينسجم مع الصورة البلاغية، فكانت بحق جناية على البلاغة، وجرأة على البيان، ولقد مرّ معنا بعض الآيات الكريمة عند الحديث عن أنواع البديع، ونودّ هنا أن نتوسع بعض الشيء في ذكر بدائع القرآن الكريم، على عادتنا حينما تحدثنا عن التشبيه والاستعارة والكناية، وليس معنى هذا أننا سنبالغ في عد الأنواع البديعية، ونتكلف لها في استنتاج الأمثلة والشواهد، فهذا ليس منهجنا ولا ينسجم مع فكرة هذا الكتاب، ومن أراد ذلك فنرشده لـ (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع و(الإتقان) للإمام السيوطي - رحمهما الله تعالى - فلقد ذكر صاحب بديع القرآن أكثر من مائة نوع اختصرها صاحب الإتقان وزاد عليها - كما يقول - وهذه الأنواع هي: (المجاز، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والإرداف، والتمثيل، والإيجاز، والاتساع، والإشارة، والمساواة، والبسط، والإيغال، والتتميم، والتكميل، والاحتراس، والاستقصاء، والتذييل، والزيادة، والترديد، والتكرار، والتفسير، والإيضاح، ونفي الشيء بإيجابه، والمذهب الكلامي، والقول بالموجب، والمناقضة، والانتقال، والإسجال، والتسليم، والتمكين، والتوشيح، والتسهيم، ورد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، ولزوم ما لا يلزم، والتخيير، والتسجيع، والتسريع والإيهام: وهو التورية، والاستخدام، والالتفات، والاطراد، والانسجام، والإدماج، والافتنان، والاقتدار، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف اللفظ مع المعنى، والاستدراك، والاستثناء، وتأكيد المدح بما يشبه الذم،

والتفويف، والتغاير، والتقسيم، والتدبيج، والتنكيت، والتضمين، والجناس، وجمع المؤتلف والمختلف، وحسن النّسق، وعتاب المرء نفسه، والعكس، والعنوان، والفرائد، والقسم، والمبالغة، والمطابقة، والمقابلة، والمواربة، والمراجعة، والنّزاهة، والإبداع، والمقارنة، وحسن الابتداء، وحسن الختام، وحسن التخلص، والاستطراد) (1):

وسنذكر بعض ما يسمح به المقام ويفتح به العلاّم، مفيدين مما ذكره الأوائل، فإذا بدأنا بالمحسنات المعنوية وجدنا ما جاء منها في كتاب الله تعالى على غاية من الحسن، لا يستطيع أحد أن يفصله على حدة، على معنى أنه لم يأت ثانوياً، إنما جاء في صلب النظم، ولنقف مع قوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

هاتان الآيتان الكريمتان يستخرج منهما علماء البديع أكثر من محسِّن واحد، ولكن هذه المحسنات على تعددها نجد أنها جاءت في صلب النظم ومن مقتضياته، فإذا وقفنا أولاً مع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ نجد أن الآية بدأت بهذا النداء المنبئ عما بعده، والدال بحق على العظمة، فهو نداء يستدل منه السامع على عظمة الحق تبارك وتعالى، فهو كالعنوان الدالّ على موضوع الكتاب وهو نوع من البديع، كما رأيت في أسماء الأنواع التي نقلناها عن ابن أبي الإصبع.

فإذا وقفنا مع قوله سبحانه: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾، رأينا تلك العظمة في التصوير والروعة في الأسلوب لا تقف عند الطباق أو المقابلة فحسب بين (تؤتي) و(تنزع) و(تعز) و(تذل)، ولا يمكننا أن نفصل ذلك عن قوله: (من تشاء)، هذه الجملة التي يظهر فيها أمران كبيران، العموم في كلمة

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري تحقيق د. حنفي شرف مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧م.

(مَنْ) والإرادة المهيمنة في قوله: (تشاء)، أليس هذا النظم في هذا الأسلوب يجعل الإنسان في حذر دائم، لأنه لا يملك لنفسه شيئاً، وإنما ما شاء الله كان.

ثم لتقف مع قوله سبحانه: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ تلك صورة أخرى من صور العظمة، وعلماء البديع يسمّون هذا عكساً، ولكن أين هو من العكس الذي مرت معك أمثلته من قبل، والتي ظهر فيها التكلف والتصنع والتعمل، وقل لي بربك أيمكنك أن تفصل هذا العكس عن الصورة البلاغية في هذا النظم، التي تتمثل في اختيار كلمتي (تولج) و(تخرج) - وهم يسمون ذلك جناساً ناقصاً - حيث جاءتا في صيغة المضارع الدالة على التجدد دائماً، وهما صورتان في الكون والحياة، صورة الزمان وصورة الخلق.

وكيف جاءت هذه المقابلة سلسلة بين النهار والليل والميت والحي، وهكذا نرى أن ألوان البديع في كتاب الله تعالى لم تأتِ من قبيل المحسنات فحسب.

وهكذا يمكنك أن تقف مع قوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ٥-١٨]، أنعم النظر في هذه الآيات وستجد فيها أنواعاً كثيرة من البديع: المقابلة بين الآيات الثلاث الأولى والآيات التي بعدها، أي بين قوله: (أعطى واتقى وصدق) وقوله: (بخل واستغنى وكذب) وبين (العسرى) و(اليسرى)، وما فيه من التقسيم كذلك، وبين قوله: (يغني) و(تردى)، وما بين قوله: (علينا) و(لنا)، و(الآخرة) و(الأولى)، و(الأشقى) و(الأتقى). ولكن هذه الأنواع جميعاً جاءت في هذا القالب من النظم في هذه الصور المزدوجة، وتزيد الروعة في نفسك إذا عرفت أن هذه الآيات جاءت في سورة الليل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١-٤].

هل يمكنك أن تفصل هذه الأنواع البديعية جميعها عن صورة النظم وجمال التركيب؟، كيف ابتدأت السورة بالقسم، ثم كان جوابه هذه الجملة المؤكدة ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ

لَشَتَّىٰ﴾ الذي بنى عليها هذا التقسيم فيما بعد، ولولاها ما كان ليصح ذلك، ثم هذه الأداة الدالة على التأكيد (أما) ثم هذا العموم في قوله (من)، ثم في هذه الإرادة العادلة (فسنيسره)، وهكذا إذا أنعمت النظر في جميع آيات السور الكريمة تجد أن ما فيها من بديع إنما هو من لبّ النظم.

وقف مع قوله سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١-١١].

واستخرج ما شئت من أنواع البديع سواء من المقابلة بين ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، و﴿لَلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾، أم مما يسمونه (اللف والنشر) في قوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ إلى آخر السورة، حيث ذكره بنعم ثلاث: نعمة الإيواء وهو يتيم، ونعمة الهداية وهو حائر، ونعمة الغنى وهو عائل، ثم رتب عليها ما يقابلها، فإذا كنت يتيماً فآواك الله ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وإذا كنت ضالاً حائراً فهداك الله وعلمك ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ويعني به سائل العلم، وإذا كنت عائلاً فأغناك الله وأنعم عليك ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

ولكن ترى أيمكننا أن نقف مع أنواع البديع في السورة الكريمة منفصلة عن النظم الخلاب والبيان الجذاب؟ اللهم لا، وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، لا يمكن حصره ويصعب استقصاؤه، وقد تحتاج بعض الآيات إلى تأمل ورُوِيّ.

قف مثلاً مع قوله سبحانه وهو يحدثنا خبر آدم في سورة (طه): ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا

مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١١٦-١٢٣].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾، و﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، حيث جمع بين الجوع والعُرْي، والظمأ والضحوة، والمتبادر للذهن أن يجمع بين الجوع والظمأ، ولكن القرآن الكريم عدل عن هذا المتبادر، لأن الجوع ألصق بالعري، لأن الجوع خلو من الطعام والعري خلو من الكساء، وفي الظمأ والضحوة كليهما حرارة.

وانظر إلى المناسبة بين قوله تعالى: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، وبين قوله سبحانه: ﴿وَعَصَىٰ﴾ و﴿فَغَوَىٰ﴾، وما بعدها ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، وبين قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ وما بعده من هذا التقسيم، مما يمكنك أن تستخرجه بذهنك وتدركه بقريحتك، لكن ذلك كله لا ينبغي أن نقف به عند هذه المحسنات منفصلة عن روعة النظم وجمال الصورة.

وانظر إلى الجمع والتقسيم في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥]، وإلى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، وإلى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٥-١٠٧].

وهكذا لو أردت أن تستعرض أنواع المحسنات البديعية، وجدت من ذلك في كتاب الله ما يستريح له الطبع وتأنس به النفس. انظر إلى أسلوب التورية في قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٧-٤٨]، فإن كلمة (أيد) لها معنيان معنى قريب وهو جمع يد، ومعنى بعيد وهو القوة والإحكام، وهو

المراد هنا - والله أعلم - وليس هذا في الآية فحسب، بل انظر إلى ما بين السماء والأرض (بنيناها وفرشناها).

وانظر إلى التورية في قوله سبحانه: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن:٥-٦]، فالنجم له معنيان الساطع في السماء وهو المعنى القريب، والنبات الذي ليس له ساق وهو المعنى البعيد، وهو المراد هنا، وإن كان ذكر الشمس والقمر يجعل الأول هو المتبادر للذهن.

ولقد مرت معك من قبل أمثلة للمشاكلة في مثل قوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ ﴾ [المائدة:١١٦]، وهو مثال أيضاً لطباق السلب بين (تعلم) و(لا أعلم)، وهذا يؤيد ما قلناه من قبل من أن بدائع القرآن الكريم ليست فنوناً جيء بها من أجل التنميق فحسب، إنما هي في صلب المعنى وجوهر النظم.

قف مثلاً مع هذه الآيات الكريمة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦-٢٧]، وانظر إلى المشاكلة في قوله: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ ، ثم انظر إلى أسلوب المقابلة في قوله سبحانه: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ ، وبين قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ﴾ و﴿كَفَرُوا۟ ﴾ وبين قوله: ﴿ يُضِلُّ ﴾ ﴿ وَيَهْدِى ﴾، ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ و﴿ يُوصَلَ ﴾، إلى غير ما هنالك مما في الآيات الكريمة. وإليك طرفاً مما ذكره جار الله الزمخشري.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٣]، مشيراً إلى المقابلة في الآية الكريمة وفي التي قبلها وهي قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا

﴿نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١١-١٢]، يقول: «فإن قلت: فَلِمَ فُصِلَتْ[١] هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون)؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر، والتجاذب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له»[٢].

ويقول عند قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

«والمعنى: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلفَّ بين القولين ثقة بأن السامع يردُّ إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لما عُلم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه»[٣].

ويقول عند قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

فقوله: (ولتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدّة، (ولتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفِطَر، (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير. وهذا نوع من اللفّ لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبينه إلا النَّقّاب المحدث من علماء البيان[٤].

---

(١) أي لماذا كانت فاصلة الآية ﴿لا يعلمون﴾.
(٢) الكشاف، ج١، ص٦٤.
(٣) الكشاف، ج١، ص١٧٧.
(٤) الكشاف ج١ ص٢٢٨.

فإذا جئت إلى المحسنات اللفظية وجدت جمال اللفظ دون أن ينال ذلك من المعنى شيئاً، ولقد مر معنا من قبل أمثلة للجناس مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ [الروم:١٢]، ومثل قوله سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ [النور:٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦]، وكله منسجم مع النظم، والذي نود أن نؤكده هنا بأن القرآن الكريم مع عنايته باختيار الألفاظ إلا أن هذا الاختيار مع ما يتوخى فيه من دقة للدلالة على الموضوع ورقة في المعنى، فإنه لا يقيم لجانب التنسيق والتنميق في الألفاظ وزناً إذا كان ذلك على حساب المعنى، ويمكن أن نمثل لذلك بكثير من الآيات الكريمة.

أنعم النظم في قوله سبحانه: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [إبراهيم:٦]، وأنت تعلم أن المنسجم مع لفظ الأبناء، لفظ البنات، ولكن القرآن لم يقل ويستحيون بناتكم، وذلك لأن في لفظ النساء معنى قصد إليه القرآن، ولو أنه ذكر البنات لفات هذا المعنى، والقرآن يقصد أن آل فرعون لن يقتلوا البنات الوليدات كما يفعلون ذلك مع الأبناء، بل سيبقون عليهن حتى يكبرن ويصرن نساءً، ولا شك أن في هذا من الإذلال والإهانة والإيلام للنفس الكثير الكثير.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]، والمتبادر إلى الذهن أن يقول الغفور لأنه هو المناسب والمتسق مع قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ، ولكن القرآن لم يلق بالاً لهذه المناسبة اللفظية، ذلك لأنها ستخل بالمعنى المراد من الآية الكريمة، وهو أنه لن يغفر للعاصين، قال السيوطي: «فإن قوله وإن تغفر لهم يقتضي أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) وكذا نُقلت عن مصحف أُبيّ وبها قرأ ابن شنبوذ، وذكر في حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يردُّ عليه حكمه، فهو العزيز، أي: الغالب، والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله، وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أي إن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معتَرَض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته»[1].

---

(١) الإتقان ٣/ ٣٥٢.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، ولم يقل: (وما أنت بمصدق)، ذلك لأن في كلمة مؤمن ما لا يوجد في كلمة مصدّق ولذا آثر القرآن جانب المعنى. وأنعم النظم في قوله سبحانه: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [الصافات:١٢٥]، ويتساءل بعضهم لِمَ لَمْ يقل: (وتَدَعون أحسن الخالقين) فإن - (تَدْعون) بمعنى (تعبدون) و(تَدَعون) بمعنى (تتركون) - فيهما تناسب من حيث اللفظ، ولكن القرآن مع ذلك أهمل هذا التناسب ولم يعره عناية، ذلك لأن هناك فرقاً بين (تَدَعون) و(تذرون)، وإن كانا في الظاهر كما يظن الناس معناهما واحد وهو الترك فكلمة (دع) إنما تقال في جانب الشيء الذي له في حياة الإنسان شأن مأخوذ من توديع المسافر، وقد قُرئ شاذاً (ما وَدَعَكَ ربك وما قلى)، أما كلمة (ذر) فتقال بجانب الشيء الذي لا يُعتنى به ومنه الوَذَرَة وهي قطعة من اللحم تطرح لأنها لا تصلح للأكل، ولذا لا تقول (ذر صديقك) و(ذر هذا الكتاب) إذا كان مفيداً، إنما تقول: (دع صديقك الآن) و(دع هذا الكتاب الآن) وتقول: (ذر فلاناً لأنه غير سوي) و(ذر هذا الكتاب لأنه كثير المغالطات)، ولا يجوز أن تقول: (دع)، ومن هنا تدرك السر في اختيار الكلمة القرآنية؛ اختيار (تذرون) على (تدّعون)، لأنهم لم يرجوا الله وقاراً، ولم يقدروه سبحانه حقّ قدره.

وأخيراً قف مع قوله سبحانه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة:٣٥]، ولو أن القرآن يقصد تنميق اللفظ على حساب المعنى لقال: (ولا شرابٌ إلا من حميم) ولكن القرآن عدل عن ذلك كله فقال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ .

وبعد، فبدائع القرآن لا تخرج عن هذا السَّنَنِ الذي ذكرته لك، وهو الانسجام بين الموضوع المتحدَّث عنه، والألفاظ التي اختيرت له، والمعاني المرادة من هذه الألفاظ، وتلك لعمر الحق آية الجمال وحكمة البيان.

البديع في الحديث الشريف

أما البديع في السنّة المطهرة فهو منسجم كذلك مع فصاحة سيدنا رسول الله ﷺ، وهو الذي نعى على المتشدقين المتفيهقين، وكان يكره التكلف في كل شيء، لا عجب أن يكون ما جاء من أسلوب البديع في كلامه الشريف - إذن - منسجماً مع هذه المبادئ مطبوعاً غير مصنوع، وسنكتفي بذكر أمثلة لتقف أمامها وتدرك ما تشير إليه من رقة في الطبع، ودقة في الوضع، وما تحدثه من راحة في السمع، والأمثلة الشريفة التي نذكرها تشتمل على كثير من المحسنات المعنوية واللفظية من طباق ومقابلة ومشاكلة وجناس وسجع وصحة تقسيم وغير ذلك مما يمكن أن تستخرجه بنفسك.

١ - يقول ﷺ : «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»[١].

٢ - وكان يقول ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهلُ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد وكلُّنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ»[٢].

٣- وقال ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «إنكم لتكثُرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع».

٤ - وقال ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣] وقوله لهرقل عظيم الروم في كتاب بعثه ﷺ له جاء فيه: «أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»[٤].

---

(١) رواه البخاري كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ : اغفر لي ما قدمت وما أخرت باب (٦١) حديث ٦٠٣٥.

(٢) رواه مسلم كتاب الصلاة باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام.

(٣) رواه البخاري كتاب المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة باب رقم (٩) حديث رقم ٢٣١٥.

(٤) رواه مسلم كتاب الجهاد رقم (٣٢) باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام رقم ٢٦.

٥- عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»(١).

٦- وعن عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا، وكان أحبُّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»(٢).

٧- وقال ﷺ: «غِفارُ غَفَرَ اللهُ لها، وأَسْلَمُ سالمها الله، وعُصَيَّةُ عَصَت اللهَ ورسوله»(٣).

٨- وقال ﷺ: «ليس لك من مالِكَ إلا ما أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ أو لَبِسْتَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأَمْضَيْتَ»(٤).

٩- قال ﷺ: «لَعَلَه كان يتكلّم بما لا يَعْنيه أو يبخل بما لا يَنقُصُه»(٥).

١٠- وقال ﷺ وقد رأى أبا مسعود البدري يضرب عبداً له: «اعلم أبا مسعود، والله للهُ أَقْدَرُ عليكَ مِنْكَ على هذا»(٦).

---

(١) رواه البخاري كتاب العلم رقم (٣) باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها رقم (٨) حديث رقم ٦٦.

(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان رقم (٢) باب أحب الدين إلى الله أدومه رقم (٣١) حديث ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المناقب باب (ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع)، حديث رقم ٣٥١٣.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»، ٧/ ٨٠، حديث (٣٤٣٣٩)، وبنحوه أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر، حديث رقم (٢٩٥٨).

(٥) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء فيمن تكلم فيما لا يعنيه رقم الباب (١١) رقم الحديث ٢٣١٧ قال الترمذي: حديث غريب.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند الشاميين - حديث رقم (١٧٢١٥)، ص١٢٣٠، وتتمة الحديث قول أبي مسعود: (فحلفت أن لا أضرب مملوكاً أبداً).

١١ - عن عائشة قالت: جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً قالت الأولى: زوجي لحمُ جَمَلٍ غَثٌّ، على رأسِ جبلٍ، لا سَهْلٍ فيُرتقى ولا سمين فيُنتقلُ، قالت الثانية: زوجي لا أَبُثُّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكُرْه أذكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَه، قالت الثالثة: زوجي العَشَنّق، إن أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وإن أَسْكُتْ أُعلَّق، قالت الرابعة: زوجي كَليلِ تِهامةَ لا حَرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مخافةَ ولا سآمة، قالت الخامسة: زوجي إنْ دَخَل فَهِدَ، وإن خرج أسد، ولا يسألُ عما عهد، قالت السادسة: زوجي إن أكل لفَّ، وإن شرِبَ اشْتفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولِجُ الكفَّ ليعلم البثَّ، قالت السابعة: زوجي غياياءُ، أو عياياء طباقاء، كلُّ داءٍ له داء، شجّكِ أو فلّكِ أو جمع كلاً لكِ، قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرْنَبٍ والريح ريح زرنبٍ، قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد، قالت العاشرة: زوجي مالك وما مالك، مالك خيرٌ من ذلك، له إبلٌ كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سَمِعْنَ صوت المزهر،أيقنَّ أنهن هوالك، قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع، أناس من حليٍّ أُذُنيَّ، وملأ من شحمٍ عَضُدَيَّ وبَجَّحني فَبَجِحَتْ إليَّ نفسي، وجدني في أهلِ غُنَيْمةٍ بشقٍّ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائسٍ ومُنَقٍّ، فعنده أقول فلا أُقَبَّحُ، وأرقد فأَتَصَبَّحُ، وأشْرَبُ فأتَقَمَّحُ. أُمُّ أبي زرع فما أُمُّ أبي زرعٍ عُكومُها رداحٌ وبيتها فساحٌ، ابنُ أبي زرع فما ابنُ أبي زرعٍ، مَضجَعُه كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ ويشبعه ذراع الجَفْرة، بنتُ أبي زرع فما بنت أبي زرعٍ، طَوْعُ أبيها وطوع أمّها، وملءُ كسائها وغَيْظُ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع لا تبثُ حديثنا تبثيثاً، ولا تُنَقِّثُ ميرتنا تنقيثاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً. قالت: خرج أبو زرع والأوطابُ تُمْخَضُ فلقي امرأة معها وَلَدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمّانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً ركب شريّاً وأخذ خطّيّاً وأراح عليّ نَعَماً ثَرِياً، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجاً وقال: كلي أمَّ زرعٍ وميري أهلك، قالت: فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغرَ آنيةِ أبي زرع».

قالت عائشة قال رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرعٍ لأُمِّ زرعٍ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح (٧٠) باب حسن المعاشرة مع الأهل (٨٢) حديث رقم ٤٨٩٣. =

= تعاقدن: أخذن على أنفسهن أن يصدقن وتواثقن على ذلك (غث) شديد الهزال (فينتقل) لا ينقله الناس إلى بيوتهم لهزاله، وتعني بهذا قلة خيره وبخله، وهو مع ذلك شامخ بأنفه شرس في خلقه متكبر متعجرف (أبث) أشيع وأظهر حديثه الطويل الذي لا خير فيه (لا أذره) لا أتركه لطوله ولكثرته فلا أستطيع استيفاءه (عُجَره وبُجَره) عيوبه الظاهرة وأسراره الكامنة أو ظاهره المستور الحال وباطنه الرديء.

(العشنق) السيئ الخلق أو الطويل المذموم (أُعَلَّق) أبقى معلقه: لا مطلقة فأتزوج غيره، ولا ذات زوج فأنتفع به (تهامة) من التهم وهو ركود الريح أو المراد مكة، تريد أنه ليس فيه أذى بل فيه راحة ولذة عيش، كليل تهامة معتدل ليس فيه حر مفرط ولا برد قارص، (قر) برد (سآمة) ملل (فهد) كالفهد وهو حيوان شديد الوثوب، تعني أنه كثير النوم فلا ينتبه إلى ما يلزمها إصلاحه من معايب البيت. وقيل: تعني: إنه يثب عليها وثوب الفهد أي يبادر إلى جماعه من شدة حبه لها، فهو لا يصبر عنها إذا رآها (أسد) تعني إنه إذا صار بين الناس كان كالأسد في الشجاعة (عهد) لا يتفقد ماله وغيره لكرمه، وقيل: المراد أنه يعاملها معاملة وحشية، وهو بين الناس أشد قسوة، ولا يسأل عن حالها ولا يكترث بها (لف) أكثر من الأكل مع التخليط في صنوف الطعام بحيث لا يبقي شيئاً (اشتف) استقصى ما في الإناء (التف) بثوبه وتنحى عنها فلا يعاشرها (لا يولج الكف) يولج يدخل، أي لا يمد يده إليها ليعلم حزنها وسوء حالها (البث) الحزن الشديد (غياياء) لا يهتدي لمسلك يسلكه لمصالحه (عياياء) لا يستطيع إتيان النساء من العي وهو الضعف (طباقاء) أحمق تطبق عليه الأمور وقيل: يطبق صدره عند الجماع على صدرها فيرتفع عنها أسفله فيثقل عليها ولا تستمتع به (كل داء له داء) ما تفرق في الناس من العيوب موجود لديه ومجتمع فيه والداء المرض (شجك) جرحك في رأسك (فلك) جرحك في أي جزء من بدنك (جمع كلاً لك) أي جمع بين الشج والجرح وتعني أنه كثير الضرب وشديد فيه لا يبالي ماذا أصاب به (المس مس أرنب) أي حسن الخلق ولين الجانب، كمس الأرنب إذا وضعت يدك على ظهره فإنك تحس بالنعومة واللين (ريح زرنب) هو نبت طيب الرائحة تعني: أنه طيب رائحة العرق، لنظافته وكثرة استعماله للطيب (رفيع العماد) هو العمود الذي يرفع عليه البيت ويدعم به، وهو كناية عن الرفعة. والشرف (طويل النجاد) حمائل السيف، وهو كناية عن طول قامته (عظيم الرماد) أي لكثرة ما يوقد من النار وهو كناية عن الكرم وكثرة الضيوف (الناد) هو كناية عن الكرم والسؤدد، لأن النادي مجلس القوم ومتحدثهم، فلا يقرب منه إلا من كان كذلك، لأنه يتعرض لكثرة الضيوف (مالك وما مالك) أي ما أعظم ما يملك (مالك خير من ذلك) عنده من الصفات ما هو خير من كل ما ذكرتُنّ (كثيرات المبارك) تبرك كثيراً لتحلب ويسقى حليبها (قليلات المسارح) لا يتركها تسرح للرعي إلا قليلاً، حتى يبقى مستعداً للضيوف (صوت المزهر) الدّف الذي يضرب عند مجيء الضيفان (هوالك) مذبوحات، لأنه قد جرت عادته بذلك: يضرب الدف طرباً بالضيوف ثم يذبح لهم الإبل، فالإبل قد اعتادت على هذا وأصبحت تشعر به (أناس من حلي أذني) حركها بما ملأهما به من ذهب ولؤلؤ (ملأ من شحم عضدي) سمنني وملأ بدني شحماً، بكثرة إكرامه، وسمن العضدين دليل سمن البدن (بجحني) عظمني وفرحني (فبجحت إليّ نفسي) عظمت عندي (أهل غنيمة) أصحاب =

١٢ - قال ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير»[١].

= أغنام قليلة، وليسوا أصحاب إبل ولا خيل (بشق) مشقة وضيق عيش (أطيط) صوت الإبل، أي: أصحاب خيل وإبل ووجودهما دليل السعة والشرف (دائس) يدوس الزرع ليخرج منه الحب وهي البقرة (مُنَقٍّ) يزيل ما يخلط به من قشر ونحوه، وتعني أنه ذو زرع إلى جانب ما ذكرته من النعم (أقبح) لا يرد قولي ولا يقبحه، بل يقبله ويستظرفه (أرقد فأتصبح) أنام حتى الصبيحة وهي أول النهار، وتعني أنها ذات خدم يكفونها المؤونة والعمل (فأتقمح) أي: لا أتقلل من مشروبي ولا يقطعه علي شيء حتى أرتوي، وفي رواية (فأتقنح) أي أشرب حتى أرتوي وأصبح لا أرغب في الشراب (عكومها) جمع عكم وهو الوعاء الذي تجمع فيه الأمتعة ونحوها. (رداح) كبيرة وعظيمة، (فساح) واسع كبير وهو دليل سعة الثروة والنعمة (مضجعه) موضع نومه (كمسل شطبة) صغير يشبه الجريد المشطوب من قشره، أي هو مهفهف كالسيف المسلول من غمده (الجفرة) الأنثى من المعز إذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها (ملء كسائها) أي تملأ ثوبها لامتلاء جسمها وسمنتها (غيظ جارتها) تغيظ ضرتها لجمالها وأدبها وعفتها (تبث) تذيع وتفشي (تبثيثاً) مصدر بث (تنقث) تفسد وتذهب (ميرتنا) طعامنا وزادنا (تعشيشاً) لا تترك القمامة مفرقة في البيت كأعشاش الطيور وقيل: هو كناية عن عفتها وحفظ فرجها فهي لا تملأ البيت وسخاً بأخدانها وأطفالها من الزنا وفي رواية (تغشيشاً) من الغش أي لا تملؤها بالخيانة، بل هي ملازمة للنصح فيما هي فيه (الأوطاب) جمع وطب وهو وعاء اللبن (تمخض) تحرك لاستخراج الزبد (كالفهدين) في الوثوب (برمانتين) ثديين صغيرين حسنين كالرمانتين من حيث الرأس، والاستدارة فيهما نوع طول، بحيث إذا نامت قربا من وسطها حيث يجلس الولدان (سريّاً) شريفاً وقيل: سخياً (شريّاً) جيداً يستشري في سيره، أي: يمضي فيه بلا فتور ولا انقطاع (خطياً) منسوباً إلى الخط وهو موضع بنواحي البحرين، تجلب منه الرماح (أراح) من الإراحة، وهو الإتيان إلى موضع البيت بعد الزوال (نَعَماً) إبلاً ونحوها (ثرياً) كثيراً (من كل رائحة) من كل شيء يأتيه (زوجاً) اثنين أو صنفاً (ميري أهلك) صليهم وأوسعي عليهم من الطعام (ما بلغ أصغر آنية أبي زرع) لا يملؤها وهو مبالغة، أي: كل ما أكرمني به لا يساوي شيئاً من إكرام أبي زرع [صحيح البخاري شرح د. مصطفى ديب البغا ج٥، ص١٩٨٨.

(١) سبق تخريجه ص٣٥٢.

الصور البيانية في الشعر الحديث

وعدتك في أثناء الحديث عن الصور البيانية أن أكتب لك شيئاً عن الصور البيانية في الشعر المعاصر، ذلك لأن الكثيرين من المؤلفين يقتصرون في الصور البيانية على ما للشعراء الأقدمين، من تشبيه واستعارة وكناية، وكثير من أنواع البديع كذلك، وفي الشعر الحديث صور حيّة رائعة ليس من الإنصاف أن تهمل ويسدل عليها الستار، وسأكتفي بنقل قليل من الإشارات والتحليلات تاركاً لقريحتك وأريحيتك أن تجتلب الصور بذهنك بعد أن تختلب أذنك، وأظنك إذا استوعبت ما قلته لك من قبل، فإن من اليسير عليك أن تدرك دون عناء وأن تتذوق دون مشقة الأحاسيس والصور المتعددة في أولئك الشعراء، وتدرك كيف يمسّون موضوعاتهم برفقٍ وكيف يتّسم شعرهم بالرقة، وستجد وضوح الصورة وجمالها تشبيهاً كانت تلك الصورة أم استعارة أم كناية، كما ستجد أنواعاً من البديع دون تكلف أو تعسف.

أولاً: أمير الشعراء:

١ - استمع إلى قول أمير الشعراء[١]:

عَرَضــوا الأمــانَ عــلى الخَــواطِرْ ... واسْتَعرضــوا الــسُّمْرَ الخَــواطِرْ[٢]
فَوَقَفْــــتُ في حَــذَرٍ، ويــــا ... بـــى القلـــبُ إلا أنْ يُخـــاطِرْ
يَـــا قَلْـــبُ شَـــأْنَكَ والهَـــوى ... هـــذي الغُـــصُونُ وأنـــت طـــائرْ
إن التـــــي صـــادَتْك تـــســ ... ـــعى بـــالقلوب لهـــا النـــواظِرْ
يـــا ثغرَهـــا أمـــسيتُ كالغَـــ ... ـــواص، أحلـــم بـــالجواهرْ
يالحظَهـــا، مَـــن أمُّهـــا؟ ... أو مَـــن أبوهـــا في الجـــآذرْ
يـــا شَـــعرَها، لا تَـــسْعَ في ... هتكـــي منـــشآت الليـــل ســـاترْ
يـــا قـــدَّها، حتّـــامَ تغــ ... ـــدو عـــاذِلاً وتـــروح جـــائرْ

---

(١) ديوانه ٢/ ١٢٤.

(٢) السمر: الرماح والخواطر: المهتزات، يقال خطر الرمح إذا اهتز وهي هنا كناية عن القدود.

وبـــــأيِّ ذنـــــبٍ قـــــد طعَنْـــــــــــتَ حَـــشايَ يـــا قـــدَّ الكبـــائرْ

وإذا وقفت أمام هذه الأبيات فستجد صوراً خلابة مختلفة، وأول ما يقابلك هذا الجناس التام في كلمتي الخواطر، والجناس الناقص في (عرضوا) و(استعرضوا)، ولكنه جناس صاغه الشاعر من أحاسيسه ومشاعره، ولكن الشأن ليس لهذا الجناس أن يؤخذ منفصلاً عن غيره من الصور البديعة، فانظر كيف عبّر عن القدود المهتزة بالرماح، ثم انظر إلى الصور التشبيهية في قوله: (هذي الغصون وأنت طائر)، وانظر إلى الاستعارة البديعة في قوله: (صادتك)، وفي قوله: (تسعى بالقلوب).

ثم انظر إلى تلك الصورة في البيت الخامس وقد صور الثغر بأنه مليء باللؤلؤ، ولما كان اللؤلؤ في أعماق البحر لا بد له من غواص جاء بهذا التشبيه، فهو غواص يحلم بالجواهر، وَقِفْ عند هذه الصورة الحيّة - وقارن بينها وبين ما مرّ معك من قبل - التي تتحدث عن الثغر ويقيننا أنك تحسّ هنا، بما لم تحس به هناك.

ويستمر أمير الشعراء يحكي لنا بهذه الصورة الشعرية شجّي لحنه، فهذا الشَّعْر حريٌّ به أن يستره لا أن يهتكه، أليس شعرها كالليل، ثم أليس الليل ساتراً لا فاضحاً، وكذلك هذا القد الذي يشبه الرمح، والرمح من شأنه أن يطعن.

نحن لا نودّ هنا أن نقف مع تحليل الأبيات تحليلاً تاماً، أعني تحليلاً بيانياً وتحليلاً وجدانياً، فمن شأن هذا أن يطيل بنا التطواف ولكن هدفنا هو الأول فحسب - أعني التحليل البياني - ، فمعذرة إن لم نقف مع الشاعر أو الناثر في كل ما بثه في شعره من فكرة وعاطفةٍ ومشاعر، ومع القطعة في ألفاظها وعناصرها.

٢- ويقول أمير الشعراء في قصيدته منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة[(١)]:

لمـــن غُـــرةٌ تـــنجلي مـــن بعيـــد ... بمـــرأىً كـــما الحُلم ضـــاحَ ســـعيدْ؟
تَهُـــزُّ الوجـــــودَ تباشـــــيرُها ... كـــما هـــزَّ مِـــنْ والديـــه الوليـــدْ
هـــي الـــشمسُ، كانـــت كـــما شـــاءها ... ممـــاتُ القـــديمِ، حيـــاةُ الجديـــدْ

---

(١) ديوانه ٢/ ٣٠.

تَـــــرُدُّ الميـــــاهَ إلى حَـــــدِّها ... وتُـــبْلي جبـــالَ الـــصفا والحديـــدْ
وتطلُـــعُ بـــالعيشِ أو بـــالرَّدى ... عـــلى الـــزرع: قائِمِـــه والحـــصيدْ
وتـــسعى لِـــذا النـــاسِ مهـــما سـعتْ ... بخـــيرِ الوعـــودِ، وشرِّ الوعيـــدْ
وقـــد تـــتجلّى إذا أقبلـــتْ ... بِنُعْمـــى الـــشقي وبُؤســـى الـــسعيدْ
وقـــد تتـــولى إذا أدبـــرتْ ... وليـــست بمأمونـــة أن تعـــودْ
فـــما للغـــروب يَهـــيجُ الأســـى ... وكـــانَ الـــشروقُ لنـــا أيّ عيـــدْ؟
كـــذا المـــرء ســـاعةَ مـــيلادِهِ ... وســـاعَةَ يـــدعو الحِـــمامُ العنيـــدْ
ولـــيس بجـــارٍ ولا واقـــعٍ ... ســـوى الحـــقّ ممـــا قـــضاه المريـــدْ

وهذه صورة رائعة ثانية من صور أمير الشعراء، يحدثك عن الطبيعة التي أبدعتها يد الصانع جل وعلا، ولكنه حديث متصل بهذا الإنسان كذلك، هذا الإنسان الذي خلقت هذه الطبيعة من أجله، يجد فيها أنسه، وعناصر بقائه، ولكن فيها عناصر تلاشيه كذلك.

يُـــسَرُّ المـــرءُ مـــا ذهـــب الليـــالي ... وكـــان ذهـــابُهن لـــه ذهابـــا

فانظر إلى كل من التشبيهين في البيت الأول، فهو في الشطر الأول تشبيه محسوس بمعقول، وفي الشطر الثاني تشبيه محسوس بمحسوس، وبالطبع ليس هذا موطن الروعة في البيت، ولكنها الصورة التي اختارها الشاعر، ومن منا ليس للحلم السعيد في نفسه أثر طيب ومن منا لا يهزه هذا الحلم، وإن كل والدين يمتلكهما هذا التشبيه، وتلك سنّة الله أن يهز كل وليد والديه، هذه الهِزّة هزة الطرب والفرح.

ثم انظر إلى حديثه عن الشمس وهذه المقابلات الرائعة «ممات القديم»، «حياة الجديد»، «العيش والردى»، «قائمه والحصيد»، «خير الوعود وشر الوعيد»، «نعمى الشقي وبؤسى السعيد»، ولا تنس التصوير بالمجاز العقلي في مثل قوله: «تبلى»، «تسعى» إلى غير ما يمكن أن تستخرجه أنت بفكرك وقريحتك.

وهذا كثير في شعر شوقي. فمن الاستعارات في شعره قوله في قصيدة (غاب بولونيا)[1]:

---

(١) غاب بولونيا منتزه مشهور في باريس، ديوانه ج، ص٢٧.

يـــــا غـــــابَ بولـــــــون، ولي ذِمَـــــمٌ عليـــــك، ولي عُهـــودْ
خَفَقَــــتْ لرؤيتــــكِ الــــضلو عُ وزُلْـــزِلَ القلـــبُ العميـــدْ[1]

وقوله في قصيدته (أنس الوجود)[2]:

قــف بتلــك القــصور في الــيم غرقــى ممــسكاً بعــضُها مــن الــذعر بعــضا
كعــذارى أخفــيْنَ في المــاء بــضّاً[3] ســـابحاتٍ بــــه، وأبْــدَيْنَ بـــضّا
مــشرفاتٍ عــلى الــزوالِ، وكانــت مــشرفات عــلى الكواكــب نهــضا
شــاب مــن حولهــا الزمــان وشــابت وشــباب الفنــونِ مــا زال غــضا

وقوله في مناجاة النيل:

وبـــأيِّ نَـــوْلٍ أنـــت ناســـجُ بُـــردَةٍ لِلـــضِفَّتَيْنِ جديـــدُها لا يَخْلَـــقُ
تَـــسوَدُّ ديباجـــاً إذا فارقتَهـــا فـــإذا حَـضَرْتَ اخـضوضرَ الإسـتبرقُ
في كـــل آونـــة تُبَـــدِّل صِـــبْغَةً عجبـــاً وأنـــت الـــصابغ المتـــأنِقُ

ومن الكنايات في شعره: قوله في قصيدته (ذكرى المولد)[4]:

أخـــا الـــدنيا أرى دنيـــاك أفعـــى تُبـــدّل كـــل آونـــةٍ إهابـــا
وإن الـــرُّقْطَ أيْقَـــظُ هاجعـــاتٍ وأتـــرعُ في ظـــلال الـــسِّلمِ نابـــا[5]
ومـــن عجـــبٍ تـــشيب عاشـــقيها وتفنـــيهم ومـــا برحـــت كَعابـــا[6]
فمـــن يغـــتر بالـــدنيا فـــإني لبـــستُ بهـــا فأبليـــتُ الثيابـــا
لهـــا ضَـــحِكُ القِيـــانِ إلى غبـــيٍّ ولي ضَـــحِكُ اللبيـــب إذا تغـــابى
جنيـــتُ برَوْضِـــها ورداً وشـــوكاً وذقـــتُ بكأسِـــها شَـــهْداً وصـــابا

---

(١) العميد: الذي هدّه العشق.
(٢) الديوان ج٢، ص٥٧.
(٣) البض: اللين الناعم، وبشرة بضة: رقيقة نضرة.
(٤) الديوان ج١، ص٦٩.
(٥) الرقط جمع رقطاء وهي الحية على جلدها سواد مشوب البياض، وأترع: أسرع.
(٦) الكعاب: الجارية الناهد.

وقوله في نفس القصيدة:

ولي بـين الـضلوع دمٌ ولحـمٌ ... همـا الـواهي الـذي ثكـل الـشبابا[١]
تـسرّب في الـدموع، فقلـتُ: ولّى ... وصـفّق في الـضلوع، فقلـتُ: ثابـا[٢]

ونكتفي من شعر أمير الشعراء بهاتين القطعتين البديعين وهما بحق ذواتا أثر في النفس أولاهما من قصيدته الأندلسية يقول[٣]:

يـا نـائح الطلْـح أشـباهٌ عَوادينـا ... نـشجى لواديـك أم نأسـى لوادينـا[٤]
مـاذا تقـصُّ علينـا غـير أن يـداً ... قـصّت جناحـك جالـت في حواشـينا
رمـى بنـا البـينُ أيكـاً غـير سـامِرنا - أخـا الغريـب - وظـلاً غـيرَ نادينـا
كـلٌّ رمَتْـهُ النّـوى: ريـشَ[٥] الفـراقُ لنـا ... سَـهْماً، وسَـلَّ عليـكَ البـينُ سـكينا
إذا دعـى الـشوقُ لم نَـبْرحْ بمُنْـصَدِعٍ ... مـن الجنـاحين عـيٍّ لا يُلَبِّينـا
فـإن يَـكُ الجنسُ يـا ابـنَ الطّلْـح فرَّقنـا ... إنّ المـصائب يجْمَعْـنَ المـصابينا
لم تـألُ مـاءك تحنانـا، ولا ظمـأً ... ولا ادّكـاراً[٦] ولا شـجواً أفانينـا[٧]
تجُـرُّ مـن فَـنَنٍ[٨] سـاقاً إلى فَـنَنٍ ... وتـسحَب الـذيل ترتـادُ المؤاسـينا
أُسـاةُ[٩] جـسمِكَ شَـتّى حـين تطلـبُهم ... فَمـنْ لروحـك بـالنُّطسِ المُـداوِيا[١٠]

---

(١) الواهي الضعيف: ثكل الشباب: فقده، والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.
(٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.
(٣) الديوان ١/ ١٠٥.
(٤) الطلح: نوع من الشجر سمي به واد بظاهر إشبيليا كان ابن عباد شديد الولوع به، عوادينا: عوادي الدهر النازلة بنا، وهي مصائبه.
(٥) ريش: من راش السهم ألصق عليه الريش.
(٦) ادّكارا: تذكراً.
(٧) أفانين: أجناس.
(٨) الفنن: الغصن المستقيم.
(٩) الأساة: الأطباء.
(١٠) النطس: الأطباء الحذاق.

والثانية من قصيدته (خلافة الإسلام) يقول[1]:

عـادت أغـاني العـرسِ رَجْـعَ نُـواح ... ونُعيـتِ بـين معـالم الأفـراحِ[2]
كُفِّنـتِ في ليـل الزفـاف بثوبـهِ ... ودُفِنْـتِ عنـد تـبلُّج الإصـباحِ[3]
شُـيِّعْتِ مـن هَلَـع بِعَـبْرةِ ضـاحكٍ ... في كـلِّ ناحيـةٍ، وسـكرةِ صـاحِ[4]
ضـجّتْ عليـكِ مـآذنٌ، ومنـابرٌ ... وبكـت عليـك ممالـكٌ، ونَـواحِ
الهنـدُ والهـةٌ، ومـصرُ حزينـةٌ ... تبكـي عليـكِ بمـدمَع سـحّاحِ[5]
والـشام تـسألُ والعـراق وفـارسٌ ... أمَحَـا مـن الأرض الخلافـةَ مـاحِ؟
وأتـت لـك الجُمَـعُ الجلائـل مأتمـاً ... فقعـدن فيـه مقاعـد الأنـواحِ[6]

ثانياً: شاعر النيل حافظ إبراهيم:

وحافظ شاعر الوطنية، وكم من صرخة قوية، وكم من زفرة قلب، وكم من لوعة أسى، كانت ترتسم على شفاه قصائده، يهيب بالأمة ويحذر الشباب وقد أحاط بهم عدوهم، إحاطة الذئاب بقطعان الغنم، ونختار لك هذه الأبيات لتلمح ما فيها من تصوير بالكناية تارة وبالاستعارة أخرى تصويراً يجسّد الأحداث وينطق الجهاد ويذكى أوار الجهاد قال - رحمه الله -:

لمـصرَ أم لربـوع الـشام تنتـسب ... هنـا العـلا وهنـاك المجـد والحـسبُ
خِـدران للـضاد لم تُهتَـك سُـتُورُهُما ... ولا تَحَـوَّلَ عـن مغناهمـا الأدبُ
أُمُّ اللغـات غـداة الفخـر أُمُّهُمـو ... وإن سـألتَ عـن الآبـاءِ فـالعربُ

---

(١) الديوان ١/ ١٠٥.

(٢) الأغاني: جمع أغنية: وهي ما يترنم به ويتغنى فيه من شعر ونحوه، والرجع: ما يرد من في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته، والمعالم جمع معلم: وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

(٣) تبلج الإصباح: إشراقه وإنارته.

(٤) الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تغيض، وقيل: هي تحلب الدمع.

(٥) الوالهة: الحزينة، أو التي ذهب عقلها حزناً، وسحاح: كثير السح وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

(٦) الجمع: واحدتها جمعة وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم، والأنواح: النائحات.

إذا ألمــت بـــواد النيـــل نازلـــةٌ		باتــت لهــا راسـياتُ الـشام تــضطربُ
وإن دعـــا في ثـــرى الأهـــرام ذو ألم		أجابـــه في ذرى لبنـــان مُنْتَحِـــبُ
لـــو أخلــص النيــل والأردن وُدَّهُمــا		تــصافحت مــنهما الأمــواهُ والعُــشُبُ

وإليك هذه الأبيات لتستخرج ما فيها من صور بالتشبيه وصور بالكناية:

متـى أرى النيــل لا تحلــو مَــوارِدُه		لغــير مرتهـــبٍ لله مُرتقـــبِ
فقـد غـدتْ مـصرُ في حـال إذا ذُكـرتْ		جـادتْ جفـوني لهـا بـاللؤلؤ الرَّطـبِ
كـأنّني عنــد ذكــري مــا ألمّ بهــا		قَــرْمٌ تــردّد بـين المــوتِ والهــربِ
إذا نطقـــتُ فقـــاعُ الــسجن متكـــأٌ		وإن ســكتُّ فــإن الـنفسَ لم تطــبِ
أيــشتكي الفقــر غادينـــا ورائحُنـــا		ونحـن نمـشي عـلى أرض مـن الـذهبِ
والقومُ في مـصر كالإسـفنج قـد ظفِـرتْ		بالمـــاء لم يتركـــوا ضَرعـــاً لمحتَلـــبِ

وأخيراً تلك صرخة من صرخات شاعر النيل حينما كممت الأفواه ومرّغت الجباه، واختنقت الكلمة وقيدت حرية الصحافة ويا حسرة الأمة العربية، فلا نقول ما أشبه اليوم بالبارحة، بل شتان شتان وما أبعد اليوم عن البارحة... !

إن البَليّـــةَ أن تُبـــاع وتُـــشْتَرى		مِـــصْرٌ ومـــا فيهـــا وأن لا تنطِقـــا
كانَـــتْ تواســـينا عـــلى آلامِنَـــا		صُـــحُفٌ إذا نَـــزَلَ الـــبلاءُ وأطْبقـــا
فـإذا دَعَـوْتُ الـدمعَ فاستعـصى بكـتْ		عنـــا أســـىً حتـــى تَغَـــصَّ وتَـــشْرَقا
كانــتْ لَنَـــا يـــومَ الــشَدّائِدِ أســهماً		نَرمـــي بهـــا وســـوابقاً يـــوم اللّقـــا
كانَـــتْ صِـــماماً للنفـــوس إذا غَلَـــتْ		فيهـــا الهمـــومُ وأوْشَـــكَتْ أن تزهقـــا
كـم نَفَّـسَت عـن صَـدْرِ حُـرٍّ واجـدٍ		لـــولا الـــصِّمامُ مـــن الأســـى لتَمَزَّقـــا
مـــالي أنـــوحُ عـــلى الـــصَحافةِ جازعـــاً		مـــاذا ألَمّ بهـــا؟ ومـــاذا أحْـــدَقَا
قـــصُّوا حواشـــيها وظنـــوا أنهـــم		أمنـــوا صـــواعقَها فكانـــت أصْـــعَقَا
وأتـــوا بحـــاذِقِهم يكيـــد لهـــا بِـــما		يَثْنـــي عَزائِمَهـــا فكانـــت أحْـــذقا

فاستمع وحاول أن تتذوق هذه الصورة البيانية علها تهز من نفسك أو ترهف حسك.

ثالثاً: الرافعي:

وإليك بعضاً من صور التشبيه عند الرافعي، يقول:

إني أرى الـشمسَ تحت البحـر مُطْفَـأةً ... والمـاءُ مـا زالَ ذا بـأسٍ عـلى النّـارِ
كـأنّما هـو كـفُّ الأرض قـد بُـسِطَتْ ... إلى الـسّماءِ فجادتهـا بـدينارِ

ويشبه إنساناً يبطره غناه ويطغيه فيغفل عما يجره الطغيان من عوامل قد تؤدي إلى الضعة بعد الرفعة أو إلى الهلاك بعد السلامة بالبهائم التي ترعى لكنها تعمى عن رؤية الشوك الكثير وكل ذلك من أجل قليل من العشب.

أرى الإنـسان يطغـى حـين يغنـى ... ومـا أولى الهبـوطَ مـن الـصعودِ
كـما تعمـى البهـائم حـين ترعـى ... عـن الـشوك الكثـير لأجـل عـودِ

رابعاً: الشاعر أبو سلمى:

وأبو سلمى عاش مأساة فلسطين فناحها فمه وانتحبه دمه، ومن قصائده (يا رفاق الفكر):

يـا رِفـاقَ الفِكْـرِ أعْيانـا الـسُّرَى ... وطَوَيْنَـاهُ دُرُوبـاً وبِطاحـا
نَحْـنُ خُـضْنا ثَـوْرَةَ الفِكْـرِ معـاً ... واقْتَحَمْناهـا مَيـادِينَ وَسَـاحا
وكَتَبْنـا بـاللَّظى أحْرُفَهـا ... ونَـسَجْنا لَهَـبَ الحَـرْفِ وِشـاحا
مُنْـذُ خَـطَّ الحَـرْفُ تـاريخَ الـدُّنا ... حَطَّـمَ القَيْـدَ، وبـالظُّلْم أطاحـا
هـذِهِ الحريـةُ الحَمْـراءُ مـا ... عَرَفَـتْ إلا فِلَـسْطينَ مَراحـا
بَكَـتِ الأحـرارُ في أوْطانِهـا ... كَيْـفَ لا نَبْكـي حِمانـا المُـسْتباحا
شَرّدوا أهْـلي، وصَـحْبي فَعَـلى ... كُـلِّ دَرْبٍ شَـبَحُ النَّكْبَـةِ لاحـا
ناحَـتِ الأرْضُ عَـلى أرْبابِهـا ... أيـنَ مَـنْ يَـسْمَعُ مِـنْ أرْضِي النُّواحـا
يـا رِفـاقَ الفِكْـرِ حُـرّاً ثـائراً ... إنَّ في حُرِيَّـةِ الفِكْـرِ اصْـطِلاحا

حـــارِبوا الظُّلْـــمَ مــــدى الـــدَّهْرِ إلى ... أن يَـــرفَّ الكَـــوْنُ طُهْـــراً وصــــلاحا
وإذا المــــــــــستَعْمِرونَ انتــــــــشروا ... يمْلـــؤون الأرضَ جَـــوْراً واجتراحــــا
حـــرّروا الـــدنيا مـــن اســـتعمارها ... شرفُ الإنـــسانِ أن يقـــضي كفاحـــا

خامساً: وهذه صرخة من صرخات أمير البيان شكيب أرسلان:

قائلاً محذراً أمته يوم أن أطبقت الدنيا على الخلافة العثمانية. وفيها من الكنايات البديعة ما كان حرياً أن يتأثر به القوم، ولكن كان ما كان، ولله الأمر من قبل ومن بعد، يقول:

فَيَـــا وَطَنـــي لا نَـــتْرُكِ الحَـــزْمَ لحظـــةً ... بعـــصرٍ أُحيطَـــتْ بالزِّحـــام مناهلُـــه
وكُـــنْ يقظـــاً لا تَـــسْتَنِمْ لمكيـــدةٍ ... ولا لكـــلام يـــشبه الحـــقَّ باطلُـــه
وكيـــدٌ عـــلى الأتـــراكِ قيـــل مُـــصَوَّبٌ ... ولكـــن لـــصيد الأُمَّتَـــيْنِ حبائلُـــه
تـــذكَّرْ قـــديمَ الأمـــرِ تعلَـــمْ حديثَـــهُ ... فكـــلٌّ أخـــيرُ قـــد نَمَتْـــهُ أوائلُـــه
إذا غالَـــتِ الجَـــليَّ أخـــاكَ فإنـــه ... لقـــد غالـــكَ الأمـــرُ الـــذي هـــو غائلُـــه
فليـــست بغـــير الاتحـــادِ وســـيلةٌ ... لمـــن عـــاف أن تغـــشَى عليـــه منازلُـــه
ولـــيس لنـــا غـــيرَ الهـــلالِ مَظَلَّـــةٌ ... يَنـــالُ لـــديها العِـــزَّ مَـــن هـــو آملُـــه
ولـــو لم يَفْـــدِنا عِـــبرةٌ خطـــبَ غيرِنـــا ... لهـــان ولكـــن عنـــدَنا مَـــن نـــسائلُه
ســـيعلم قـــومي أننـــي لا أغـــشّهُم ... ومهـــا استطال الليـــلُ فالـــصبح واصلُه

ونرى من المناسب في آخر المطاف، أن نزيدك شيئاً من الصور البيانية من خلال أبياتٍ من بعض القصائد اخترناها لك - أيها القارئ الكريم - تلامس واقعنا وتتحسس جراحاتنا وتذكر آلامنا وآمالنا، آملين أن تؤتي في نفسك أثرها، وأن تتذوق ما فيها من صورٍ بيانيةٍ بنفسك بعد أن خضت غمار هذا الكتاب.

أولاً: قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية:

الـــسَّيْفُ أصـــدقُ أنبـــاءً مِـــنَ الكُتُـــبِ(1) ... في حَـــدِّه الحـــدُّ بـــينَ الجِـــدِّ واللَّعِـــبِ

---

(1) كان المنجمون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت نضج التين والعنب.

بيضُ الصَفائِح لا سُودُ الصَحائِفِ في ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ والرِّيَبِ
والعِلمُ في شُهُبِ الأرْماح لامِعَةً ... بينَ الخَمسَيْنِ لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أينَ الرِّوايَةُ أمْ أينَ النُجُومُ وما ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فيها وَمِنْ كَذِبِ
فَتْحُ الفُتُوحِ تعالى أن يُحِيطَ بِهِ ... نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أو نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ
فَتْحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السماءِ لَهُ ... وتَبْرُزُ الأرْضُ في أثوابِها القُشُبِ
يا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمورِيَّةَ انْصَرَفَتْ ... مِنْكَ المُنى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ
أبْقَيْتِ جِدَّ بني الإسلامِ في صَعَدٍ ... والمُشْرِكِينَ ودارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ
تَدْبيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ ... للهِ مُرتَقِبٍ في اللهِ مُرْتَغِبِ
رَمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْها فَهَدَّمَها ... ولو رَمَى بِكَ غيرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ
لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً[1] هَرَقْتَ لَهُ ... كَأسَ الكَرى وَرِضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
بَصُرْتَ بِالرّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَها ... تُنالُ إلاّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَعَبِ

ثانياً: قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ ... فَلا يُغَرُّ بِطيبِ العَيْشِ إنْسانُ
هيَ الأُمورُ كما شَاهَدْتَها دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزْمانُ[2]
وَهذِهِ الدارُ لا تُبْقي على أحَدٍ ... ولا يَدُومُ على حالٍ لَها شانُ
يمزِّقُ الدَهْرُ حَتْماً كُلَّ سابِغَةٍ ... إذا نَبَتْ مَشْرَفِيّاتٌ وخُرْصانُ[3]

ثم يقول:

فَجائِعُ الدَّهْرِ أنْواعٌ مُنَوَّعَةٌ ... وللزمانِ مَسَرّاتٌ وأحْزانُ
وللحَوادِثِ سِلْوانٌ يُسَهِّلُها ... وَما لِما حَلَّ بالإسْلامِ سِلْوانُ

---

(١) كانت امرأةٌ اعتدي عليها في (زبطرة) فصرخت (وامتعصماه) فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، والغضب لله وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

(٢) دول: متداولة.

(٣) السابغة: الدروع. المشرفيات: السيوف، ونبوها: ألا تصيب الضريبة، والخرصان: أراد بها الرماح.

دَهَى الجَزِيرَةَ أمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... هَوى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلانُ[1]
أصابَها العَيْنُ في الإسْلام فَارْتَزَأَتْ ... حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أقْطارٌ وبُلْدانُ[2]
فاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَةٍ ... وأيْنَ شَاطِبَةٌ أمْ أيْنَ جيَّانُ
وأيْنَ قُرْطُبَةٌ دارُ العُلُوم، فَكَمْ ... مِنْ عالم قَدْ سَمَا فيهَا لَهُ شَانُ
وأيْنَ حِمْصٌ وما تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهرُهَا العَذْبُ فَيّاضٌ ومَلآنُ[3]
قَوَاعِدٌ كُنَّ أرْكانَ البِلاد فَما ... عَسَى البَقَاءُ إذا لَمْ تَبْقَ أركانُ
تَبْكي الحَنيفِيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَما بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْمانُ[4]
عَلى ديارٍ مِنَ الإسْلام خَالِيَةٍ ... قَدْ أقْفَرَتْ وَلَهَا بالكُفْرِ عِمْرَانُ
حَيْثُ المَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيهِنَّ إلاّ نَواقِيسٌ وَصُلْبَانُ
حَتَّى المحاريبُ تَبْكي وَهْيَ جَامِدَةٌ ... حَتَّى المَنَابِرُ تَرْثي وَهْيَ عِيدَانُ

ثم يقول:

ألا نُفُوسٌ أبِيَّاتٌ لَهَا هِمَمٌ ... أمَا عَلَى الخَيْرِ أنْصَارٌ وَأعْوَانُ
يَا مَنْ لِذِلَّةِ قَوْم بَعْدَ عِزِّتِهم ... أحَالَ حَالَهُمُ كُفْرٌ وَطُغْيَانُ
بالأمْسِ كَانُوا مُلوكاً في مَنَازِلِهِمْ ... وَاليَوْمَ هُمْ في بِلادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ[5]
فَلو تَراهُمْ حَيَارَى لاَ دَليلَ لَهُمْ ... عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيَابِ الذُّلِّ ألْوَانُ
وَلَو رَأَيْتَ بُكَاهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمُ ... لَهَالَكَ الأمْرُ واسْتَهْوَتْكَ أحْزَانُ
يَا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا ... كَمَا تُفَرَّقُ أرْوَاحٌ وَأبْدَانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْلَ حُسْنِ الشَمسِ إذْ طَلَعَتْ ... كَأَنَّما هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ[6]

---

(١) أحد وثهلان: جبلان.
(٢) وفي رواية (أصابها العين في الإسلام فامتحنت).
(٣) حمص: اسم إشبيلية، سميت بذلك لأن الفاتحين من أهل حمص الشام نزلوها.
(٤) الحنيفية البيضاء: الإسلام.
(٥) عبدان: عبيد.
(٦) الطفلة: الفتاة الناعمة.

يَقُودُهـا العِلْـجُ لِلْمَكْـرُوهِ مُكْرَهَـةً ... والعـينُ بَاكِيَـةٌ والقَلْـبُ حَـيْرَانُ

لمِثْـلِ هَـذا يَـذُوبُ القَلْـبُ مِـنْ كَمَـدٍ ... إنْ كَـانَ في القَلْـبِ إسْـلامٌ وإيـمانُ

ثالثاً: قصيدة (الأندلس الجديدة) لأحمد شوقي:

يَـا أُخْـتَ أنْـدَلُسٍ، عَلَيْـكِ سَـلاَمُ ... هَـوَتِ الخِلاَفَـةُ عَنْـكِ وَالإسْـلاَمُ[(١)]

نَـزَلَ الهِـلاكُ عَـنِ السَّمَاءِ، فَلَيْتَهـا ... طُوِيَـتْ، وَعَـمَّ العَـالَمِينَ ظَـلامُ

أَزْرَى بِـهِ، وَأزَالَـهُ عَـنْ أوْجِـهِ ... قَـدَرٌ يَحُـطُّ البَـدْرَ وَهْـوَ تَمَـامُ[(٢)]

جُرحَـانِ تَمْـضِي الأُمَّتَـانِ عَلَـيْهِما ... هَـذا يَـسيلُ، وَذَاكَ لاَ يَلْتَـامُ[(٣)]

بِكُـما أُصِـيبَ المُـسْلِمُونَ، وَفـيكُما ... دُفِـنَ الـيَرَاعُ وغُيِّـبَ الصَّمْـصَامُ[(٤)]

لَمْ يُطْـوَ مَأْتَمُهَـا، وَهَـذا مَـأْتَمٌ ... لَبِـسُوا الـسَّوَادَ عَلَيْـكِ فيـهِ وَقَـامُوا[(٥)]

مـا بَـيْنَ مَـصْرَعِها وَمَـصْرَعِكِ انْقَـضَتْ ... فـيما نُحِـبُّ وَنَكْـرَهُ الأَيَّـامُ

خَلَـتِ القُـرونُ كَلَيْلَـةٍ، وَتَـصَرَّمَتْ ... دُوَلُ الفُتُـوحِ كَأنَّهَـا أحْـلامُ[(٦)]

والـدَّهْرُ لا يَـأْلُوا المَمالِـكَ مُنْـذِراً ... فَـإذا غَفِلْـنَ فَـمَا عَلَيْـكِ مَـلامُ[(٧)]

ثم يقول:

صَـبْراً أَدِرْنَـةُ! كُـلُّ مُلْـكٍ زَائِـلٌ ... يَوْمـاً، وَيَبْقَـى المَالِـكُ العَـلاَّمُ[(٨)]

---

(١) يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة، وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثير من سلاطين آل عثمان. جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة (١٩١٢) بعد أن أبلت حاميتها في الدفاع عنها بلاءً حسناً.

(٢) أزرى به: وضع من شأنه. والأوج: العلو.

(٣) جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم. والأمتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

(٤) اليراع: القلم. والصمصام: السيف.

(٥) لم يطو مأتمها، أي: مأتم الأندلس.

(٦) خلت: مضت. وتصرمت: انقضت.

(٧) لا يألوا: لا يقصر ولا يبطئ.

(٨) صبراً أدرنة، أي: اصبري صبراً.

خَفَـتَ الأذانُ، فَـما عَلَيْـكِ مُوَحِّـدُ ... يَـسْعَى، وَلاَ الجُمْـعُ الحِـسَانُ تُقـامُ[1]
وَخَبَـتْ مَـسَاجِدُ كُـنَّ نُـوراً جامِعـاً ... تَمْـشِي إلَيْـهِ الأُسْـدُ وَالآرامُ[2]
يَـدْرُجْنَ في حَـرَم الـصَلاةِ قَوانِتـاً ... بِـيضَ الإزارِ، كَـأنَّهُنَّ حَمـامُ[3]
وَعَفَـتْ قُبُـورُ الفـاتِحِينَ، وَفُـضَّ عَـنْ ... حُفَـرِ الخَلائِـقِ جَنْـدَلٌ وَرِجَـامُ[4]
نُبِـشَتْ عَـلى قَعْـسَاءِ عِزَّتِهـا، كَـما ... نُبِـشَتْ عَـلى اسْـتِعْلائِهَا الأهْـرَامُ[5]
في ذِمَّـةِ التَّـاريخ خَمْـسَةُ أشْـهُرٍ ... طَالَـتْ عَلَيْـكِ فَكُـلُّ يَـوْم عـامُ[6]
الـسَيْفُ عـارٍ، والوَبَـاءُ مُـسَلَّطٌ ... والـسَيْلُ خَـوْفٌ، والثُلُـوجُ رُكـامُ[7]
والجُـوعُ فَتَّـاكٌ، وفيـهِ صَـحَابَةٌ ... لَـوْ لَمْ يَجُوعُـوا في الجِهـادِ لَـصَامُوا
ضَـنُّوا بِعِرْضِـكَ أنْ يُبـاعَ وَيُـشْتَرى ... عِـرضُ الحَرائِـرِ لَـيْسَ فِيـهِ سُـوَامُ[8]
ضَـاقَ الحِـصارُ كـأنَّما حَلَقَاتُـهُ ... فَلَـكٌ، ومَقْـذُوفاتُها أجْـرامُ[9]
وَرَمـى العِـدَى، وَرَمَيْـتِهِمْ بِجَهَـنَّم ... ممـا يَـصُبُّ اللهُ لا الأقْـوَامُ

---

(١) خفت: سكن وانقطع. والموحد: من يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.

(٢) خبت: سكنت. والأُسد هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها، والرئم: الظبي الأبيض.

(٣) يدرجن: يمشين، والضمير للآرام في البيت المتقدم. والقوانت: جمع قانتة، من القنوت،وهو الطاعة والدعاء.

(٤) عفت: اضمحلت ومُحيت. و(فض جندل ورجام): أي كسر متفرقاً، والجندل: الحجارة. والرجام: ما يبنى عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو.

(٥) العزة القعساء: المنيعة الثابتة.

(٦) خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنة.

(٧) السيف عار، أي: مجرد من غمده كما يتجرد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمر. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادة في كل مكان يكثر فيه القتل والقتال، ويكون محصوراً من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والثلوج ركام، أي: متراكم بعضها فوق بعض.

(٨) الحرائر: جمع حرة. والسوام (بضم السين): أن تعرض السلعة ويذكر ثمنها.

(٩) الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

بِعْـــتِ العَـــدُوَّ بِكُـــلِّ شِـــبْرٍ مُهْجَـــةً ... وَكَـــذا يُبـــاعُ المُلْـــكُ حِـــينَ يُـــرَامُ[1]
مَـــا زَالَ بَيْنَـــكِ في الحِـــصارِ وَبَيْنَـــهُ ... شُـــمُّ الحُـــصُونِ، وَمِـــثْلُهُنَّ عِظـــامُ[2]
حَتّـــى حَـــواكِ مَقـــابِراً، وَحَوَيْتِـــهِ ... جُثثـــاً، فـــلا غَـــبْنٌ ولا اســـتِذْمَامُ[3]

رابعاً: قصيدة «حوار أمام بوابة الهزيمة» للعشماوي[4] ومنها:

أَوَ مَالَنـــا في المَجْـــدِ أَلْـــفُ حِكايَـــةٍ ... تَعِبَـــتْ عَـــلى تَـــدْوِينِها الأَقْـــلامُ
أَوَ مَـــا جَـــرَتْ أَنْهارُنـــا رَقْرَاقَـــةً ... بِالخَيْـــلِ تُرْفَـــعُ فَوْقَهَـــا الأَعْـــلامُ
أَوَ مَـــا لَـــدَيْنَا النَبْـــعُ يَـــصْفُو مـــاؤُهُ ... وَعَلَيْـــهِ مِـــنْ شَـــغَفِ القُلُـــوبِ زِحـــامُ
أَوَ لَمْ نَكُـــنْ جِـــسْرَ النَجَـــاةِ لِعـــالَمٍ ... يَـــشْقَى بِـــهِ الـــضُعَفاءُ والأَيْتـــامُ
أَوَ مَـــا سَرَى في الكَـــوْنِ صَـــوْتُ بِلالِنـــا ... وَعَـــلَى صَـــدَاهُ تَهَـــاوَتِ الأَصْـــنامُ
أَوْ لَمْ تَكُـــنْ ذاتُ الـــسَّلاسِلِ لَوْحَـــةً ... مَرْسُـــــومَةً وإِباؤُنـــــا الرَّسَّـــــامُ
أَوَ مـــا رَأَى اليَرْمُـــوكُ كَيْـــفَ اسْتَبْشَرَتْ ... بِبُـــزوغِ فَجْـــرِ المُـــسْلِمينَ الـــشامُ
أَوَ لَمْ تَكُـــنْ لِلقادِسِـــيَّةِ قِـــصَّةٌ ... أَدْلَى بِوَصْـــفِ شُـــمُوخِها الصَّمْـــصامُ
أَوَ لَمْ نُعَلِّـــقْ في المَـــدَائِنِ شَـــمْعَةً ... بَيْـــضَاءَ فَـــرَّ أَمامَهـــا الإِظْـــلامُ
أَوَ لَمْ نُلَقِّـــنْ قَيْـــصَراً وَحُـــشُودَهُ ... دَرْســـاً تَحَـــارُ أَمامَـــهُ الأَفْهَـــامُ
أَوَ لَمْ تَخُـــضْ بَحْـــرَ البُطُولَـــةِ خَيْلُنَـــا ... وَبِقَلْـــبِ أَنْـــدَلُسٍ لَهَـــا إِعْظـــامُ
أَوَ لَمْ تَقُـــلْ لِلـــصِينِ خَيْـــلُ قُتَيْبَـــةٍ ... جِئْنـــا يَـــزُفُّ صَـــهيلَنَا الإِقْـــدامُ

---

(١) المهجة: الروح أو دم القلب، أي أن العدو لم ينلك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلاً من رجاله.
(٢) شم الحصون: أي الحصون العالية.
(٣) حواك: ملكك، والاستذمام: فعلُ ما يقتضي الذم، والمعنى: أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صارت مقابر لرجاله جثثاً هامدة وبهذا لم تفعلي ما فيه غبن ولا ما يقتضي الذم.
(٤) هو عبدالرحمن بن صالح العشماوي وُلد سنة ١٣٢٥هـ في قرية من قرى منطقة الباحة جنوب السعودية أنهى دراسته من جامعة الإمام محمد بن سعود وحصل منها على شهادة الدكتوراه وعين مدرساً بها.

أوَ لَمْ تَــصُغْ حِطّــينُ لحْنــاً خالِــداً تَهْفُــوا إلى أَنْغَامِـــهِ الأنْغَـــامُ
أوَ لَمْ تَكُــنْ في عَــيْنِ جـالُوتٍ لَنَـا هِمَــمٌ لِــرَدْعِ المُعْتَــدِينَ عِظَــامُ
أوَ هكَــذا تَطْــوِي عَــزَائِمَ جيلِنَـا قَــصَصٌ تُــصَوِّرُ فُحْــشَهَا الأفــلامُ
قُــلْ لي أبي أَنَظَــلُّ نَأْكُــلُ خُبْزَنَــا وَعَلَيْــهِ مِــن دَمِنــا المُــراقِ إدامُ
قُــلْ لي أبي أَنَظَــلُّ نَــشْرَبُ مائَنَــا والقُــدْسُ يُهْتَــكُ عِرْضُــهَا وَتُــضامُ
قُــلْ لي أبي أيَبِيــتُ طِفْــلٌ سَــاهِراً في كَفِّــهِ حَجَــرٌ وَنَحْــنُ نَنَــامُ
وَرِمَــتْ عُيُــونُ المُخْــبِرينَ وَرَاءَهُ وَعَــلى شِــفاهِ الــصَامِتينَ حُطــامُ
سَــكَتُوا لأنَّ الــسَيْفَ مَــسْلُولٌ إذا نَطَقُــوا بِــهَا لاَ يَرْغَــبُ الأقْــزَامُ
سَــيْفَانِ يَــا أبَتَــاهُ سَــيْفُ عَــدُوِّنَا صَــلْتٌ وَسَــيْفٌ سَــلَّهُ الحُكّــامُ
كُفْــرٌ وَرَبِّــكَ يَــا أبي يَنْــوِي بِنَــا شَرّاً وَنَحْــنُ كأَنَّنَــا الأنْعَــامُ
قُــلْ لي أبي أَنَظَــلُّ نَعْلِــكُ صَــمْتَنَا وَعَــلى الأُنُــوفِ مَذَلَّــةٌ وَرَغَــامُ
أَنَظَــلُّ نَخْفِــضُ للــصَّليبِ رُؤُوسَــنَا وَيَنَــامُ فَــوْقَ فِراشِــنا الحَاخَــامُ
أوَ هَكَــذا ابَتَــاهُ نَنْــسَى دِينَنَــا ويُزِيحُنــا عَــنْ مَجْــدِنا استِــسْلامُ
كــانَ الأبُ المِــسْكِينُ يَحْــبِسُ دَمْعَــهُ وَالحُزْنُــهِ بَــيْنَ الــضُلُوع ضِرَامُ
أبُنَــيَّ لاَ تَنْطِــقْ فَقَــدْ أَلْجَمْتَنِــي أوّاهُ كَــمْ يُــؤْذِي الكَــرِيمَ لِجَــامُ

خامساً: قصيدة «قناديل على مآذن القدس» للشاعر صالح الجيتاوي(١):

لي في هَـــواكِ مَـــدائنٌ ومرابـــعُ وعَـــلى شَـــجاكِ سَـــحائبٌ تتـــدافعُ
وعَـــلى جبينِـــكِ قُبلتـــي، وأهِلّتـــي للبُـــشْرَياتِ عَـــزائمٌ وطلائـــعُ
يـا قُــدسُ يـا فَــرحَ الحيـاةِ، إذا ارتـوى ظمـــأ، فمِـــنْ عينيـــكِ فيـــه نـــوازعُ
وإذا شَــدا في الأيــكِ صَــبٌّ فهــو في سِرّ ابتـــساميكِ الحزينـــةِ خاشـــعُ

---

(١) هو صالح عبدالله أحمد الجيتاوي وُلد عام ١٩٤٣م في قرية من قرى نابلس بفلسطين وهو حاصل على شهادة بكالوريوس في الهندسة المدنية وعضو في رابطة الأدب الإسلامي ومن مؤلفاته ديوان (صدى الصحراء) و(قناديل على مآذن القدس) الذي اخترنا منه هذه القصيدة.

أرَقُ الوجـــود عـــلى غِلالَتِــكِ التـــي ... تـــسقي الخيــــال، شـــمائلٌ وروائـــعُ
رَسَـــمَ الوجـــــود جمالهـــا وكمالهــــا ... وظلالهـــــا، والحادثــــاتُ ذرائــــعُ
وأنـــا عـــلى شـــفة الخلـــود مُعـــاقِرٌ ... طيـــب اللَّـــما، وفـــمُ الأثـــيرةِ شـــافعُ
وعـــلى مَـــدى إيـــماءِ عينيـــكِ قـــائمٌ ... وعـــلى شَـــذاكِ مُـــرابِطٌ ومُقـــارعُ
إن كـــان حُبُّـــكِ حَجَّـــةً مـــبرورةً ... يحـــدو لهـــا الحـــادي ويهفـــو الـــسامعُ
فأنـــا ببابِـــكِ ناســـكٌ، وعـــلى رُموشِـــكِ ... عاشـــقٌ، وعـــلى بحـــورِكِ ضـــارعُ
رَوَيـــتُ شِـــعري في صَـــلاتِكِ مُثخَنـــاً ... والقلـــب في سُـــبُحاتِ وجهِـــكِ راكـــعُ
والبـــيضُ تـــسجدُ في أرومتِـــكِ التـــي ... وَطِـــفَ الغـــمامُ لهـــا وأوفى الـــزراعُ
في راحتيـــــكِ حمـــــائمٌ وولائـــــمٌ ... وكتائـــــبٌ ومواكـــــبٌ ومَـــــصارعُ
حَـــلاّكِ بَـــدْرٌ، والبـــدورُ أهلَّـــةٌ ... حَـــدِبَتْ عليـــه، مُبـــارِكٌ ومُبـــايعُ
حَفَلَـــتْ بـــه الـــدنيا لـــديكِ، وأشرقَ ... المـــسرى وقامـــت للخيـــال مجـــامعُ
جَـــلَّى جبينُـــك مـــا الخيـــالُ ومـــا الـــسُّرى ... صَـــنَعا، فـــما بخـــلا، وجَـــلَّ الـــصانعُ
وَهَـــجُ الكرامـــةِ كَعبـــةٌ للعاشـــقين ... إقامـــــةٌ وشـــــفاعةٌ ومـــــدامعُ
فَـــضْلُ العـــليِّ عـــلى الـــصفيِّ ولايـــةً ... والكـــون بـــالأمر المهـــيمنِ صـــادعُ
تَبقـــى القلـــوب حِيالَهـــا مَـــشوبةً ... وإذا غفـــتْ فعـــلى رُؤاكِ هواجـــعُ
يـــا قـــدسُ مـــالي في هـــواكِ تَقِيَّـــةٌ ... فـــالعمرُ دونـــكِ أجْـــدُبٌ وبَلاقِـــعُ
يَرضى الـــذي يَـــرضَى، ويـــسخطُ ســـاخطٌ ... سِـــيَّانِ عنـــدي، لـــست فيـــك أصـــانعُ
مـــا ظَـــلَّ غـــيرُ حُـــشاشةٍ أُرْمَـــى بهـــا ... وَلَـــئِنْ رُميـــتُ بهـــا فـــإني بـــائعُ
حَطَـــمَ الزمـــانُ عمـــودَ روحـــي، وانثنـــى ... لـــضُلوع مملكتـــي، وَلَـــجَّ الطـــامعُ
فأنـــا الغريـــب عـــلى حِياضِـــكِ، والمـــدى ... لَـــمْعُ الـــسراب، وأعْبُـــدٌ تتـــصارعُ
جاســـوا بأنفـــاس الـــصدورِ ومـــا رَعَـــوْا ... إلاَّ، وأوحـــى شـــيخُهم فتبـــايعوا
مِـــنْ تـــاجرٍ شَربَ الـــدماء رواحـــلا ... أو خـــانع أدمـــى قَفـــاهُ الـــصافعُ
أو فـــاجرٍ ألقَتْـــهُ أقبيـــةُ الـــرَّدى ... بـــين الـــضلوع، ومـــا عـــساهُ الـــضالعُ

سَـكرانُ مـا عـرف الـصلاةَ ولا الهُـدى والـيـــومَ عـــن عَتَباتِهـــا يترافـــعُ

هَزُلَـتْ عـلى سُـوح الطِّـماح قَـضِيَّةٌ فُرســـانُها عُوَّارُهـــا المُتَـــدافعُ

قـــالوا الـــسلامَ، قُـــل الـسلامُ عـــلى السلام، وقل عـلى هـذا الـسلام زَعـازعُ

أأنـــا الملـــومُ إذا رفعـــت عَقـــيرَتي فَهَفَـــتْ إليَّ بلابـــلٌ وَسَـــواجعُ

أأنـــا الملـــومُ إذا رَجَمْـــتُ خَطيئَـــةً أطَّ الحَطـــيمُ لهَوْلهـــا والجـــامعُ

القـــدسُ قـــدسي والقِبـــابُ صـــوامعي ولهـــم كهـــوفٌ للخَنـــا وصـــوامعُ

خاتمة

بعد هذا التطواف مع البلاغة في فنونها وأفنانها، نرى لزاماً أن نختم بكلمة موجزة نعرض فيها لتلك الأزمة الخانقة، التي تعيشها بلاغتنا ولغتنا على السواء، ونظن أننا في هذه الرحلة الطويلة مع البلاغة العربية، استطعنا أن ندرك بما لا يدع مجالاً للشك والارتياب بأن هذه البلاغة، سواء في مباحثها، أم في اتصال هذه المباحث بعضها مع بعض، أم في الأمثلة والنصوص قديمها وحديثها، أقول: نستطيع أن ندرك أن هذه البلاغة في أصالتها ومرونتها واستيعابها لكل ما تنتجه القرائح، القرائح اللوامح الوقادة، والطبائع المسترسلة المنقادة، لا تعوزها الدقة ولا تفتقر إلى عنصر غربي غريب، لتكمل به وتجمل.

ولكن ما يتفطر له القلب ويحار له اللب أن نجد من يجردون على هذه البلاغة سيوفهم ويصوبون لها سهامهم - وما نظن أن كالبلاغة مستهدفاً - مع أن تراثنا كله مستهدف، ولكنها بصفة خاصة كانت هدف الرماة، وإن تعجب فعجب أمر أولئك الذين يتباكون عليها زاعمين أنهم بُناتُها، ويعلم الله أنهم جُناة وليسوا بُناة، فكم من متظاهر بأنه من دعاتها وما هو في الحقيقة إلا من نعاتها، ولو أن هذه السهام كانت من أعدائها فحسب، لكان من السهل أن تتقي هذه السهام بأصالتها وقوتها، ولكن المؤلم أن هذه السهام من الأدعياء والدعاة كذلك.

١ - ونحن نسمع بين الحين والحين دعوات مشبوهة لطرحها وتناسيها بحجة أنها شاخت وهرمت، وصارت لا تواكب الحياة الأدبية ولا تصلح للعصر الذي نعيش فيه.

٢- وفريق آخر يتهمها في ولادتها ونشأتها، وأصلها وأصالتها، فتارة يزعمون أنها يونانية الأب والأم واللحم والدم، وتارة يدعون أنها هندية الخال والعم، وثالثة يتقولون عليها بأنها فارسية الكيف والكم.

٣- وفريق ثالث: يتهمها في رجالها، فهم لا يملكون الفهم، بل يعيشون على الوهم.

وقد خصصنا كتابنا الثالث في البلاغة لهذه الافتراءات جميعها.

ونحن على يقين من أن هذه الحملة الشعواء والهجمة النكراء على بلاغتنا ولغتنا، ليست إلا أثراً من الحقد على كتاب العربية، والذي كان له الفضل في نشأة البلاغة العربية، فالحملة على البلاغة وتشكيكهم فيها رأوا أنها جزء من الحملة العامة على تراث هذه الأمة، فلقد توصلهم إلى هذا الهدف أكثر مما توصلهم إليه الحملة على الشعر الجاهلي.

ولا ننكر أن هناك من حسنت نيتهم فتأثروا عن غير قصد بهذه الدعوات المشبوهة، وهؤلاء ينحون باللائمة على السكاكي الذي عمل على جمود البلاغة وذبولها وتساقط أوراقها، ونحن لا نناقشهم في هذا، إلا أن الذي لا نرضاه أن ترمى هذه البلاغة بالعقم، صحيح أن السكاكي فلسف البلاغة وعقدها، ولكننا لا ننسى أنه وضع لها المصطلحات الدقيقة، التي كان لا بد منها للبلاغة لتصبح علماً له شخصيته المتميزة.

وإذا كنا نشفق على البلاغة، فلم لا نرجع بها إلى مصادرها الأولى مفيدين من التحليل الدقيق الذي وضعه السكاكي ومن بعده، مهملين كل ما لا يتفق مع شخصية هذه البلاغة العربية، وكثير من أولئك الطاغين يودون أن تترجم البلاغة للأمم الغربية لتحل محل بلاغتنا، وهم يتخبطون في ذلك، فبعضهم يرى أن نستغني عن كل مباحثنا البلاغية، لتحل محلها دراسات مبنية على الأصول الأوروبية، وأولئك لم تكن لهم وجهة واحدة، فهم يتخبطون أكثر مما يخططون، نحن لا ننكر بل ندعو إلى أن يصبح البحث البلاغي عندنا شاملاً، بحيث لا يقف عند الجملة والجملتين، وتلك قضية لن نعدمها في تراثنا البياني لا كما يزعم بعض الكاتبين[1].

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور شوقي ضيف في كتابيه النقد والبلاغة تطور وتاريخ. وسنزيد هذه القضية تحليلاً في كتابنا إعجاز القرآن.

أما ما يدّعي من وجوب طرح كثير من مباحث هذه البلاغة، فما نظن ذلك مستقيماً مع حقائق العلم وواقع الأمر كذلك، نعم إن ما يمكن طرحه هي تلك الأبحاث التي أقحمت على البلاغة وحشيت فيها حشواً كالجامع الذي وضعه السكاكي في مباحث الفصل والوصل، وبعض تقسيمات التشبيه وبعض الفنون البديعية التي يظهر فيها التكلف.

وإننا على يقين من أن هذه البلاغة العربية إذا هيئ لها ذوو النيات الحسنة ممن وُهبوا صفاء القرائح وتهيأت لهم سعة الاطلاع وكان ينمي ذلك كله غيرة على تراث هذه الأمة، فإن البلاغة ستواكب كل متطلبات هذا العصر كما واكبت العصور التي قبله، وستؤدي رسالتها كما أدتها من قبل، وستسفر لنا عن لآلئ ودرر، وتكشف لنا كثيراً من وجوه إعجاز الكتاب الخالد.

قلت من قبل: إن هناك من لا نشك في حسن نيتهم، لكنهم تأثروا بقوة الأصوات من حولهم فراحوا ينادون كذلك بأصوات عالية بوجوب تغيير هيكل البلاغة تغييراً تاماً، وإليك بعض هذه الآراء كما نقلها صاحبا كتاب نحو بلاغة جديدة الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي والدكتور عبدالعزيز شرف.

وذهب محمد عرفة إلى وجوب فهم التراث فهماً جيداً، وإلى الإضافة عليه، والتجديد فيه.

وذهب الخولي إلى أن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع لا طائل تحته، ولا جدوى منه: وإلى أن البحث البلاغي يجب أن يشمل الكلمة والجملة والفقرة والقطعة الأدبية جميعاً دون البحث عن الجملة أو الجملتين فحسب، كما ذهب إلى أن طريقة العجم وأصحاب الفلسفة في البلاغة يجب اجتنابها، ليقوم مكانها دراسات فنية تعتمد على الإحساس بالجمال والتعبير عنه، وهذه الدراسات نجدها في علم النفس الذي يجب أن نبحث في أثره في التعبير الأدبي، وفي دراسة الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني، وفي الخيال والذاكرة والذوق والإحساس، وتحدث في كتابه فن القول عن مسائل كثيرة حول البلاغة ومشكلاتها، وذهب إلى أن فن القول يدور حول أقسام ثلاثة:

١ - المبادئ.

٢- المقدمات.

٣- البحوث.

والمبادئ لتعريفنا بفن القول وأهدافه وغايته وصلته بغيره من الدراسات. والمقدمات تدور حول دراسات علم النفس وغيره من حيث اتصال ذلك كله بالتعبير الأدبي، والبحوث تسير في بحث الكلمة والجملة، والفقرة، والقطعة، ثم ندرس الأسلوب وأنواعه: من أسلوب فكاهي وتهكمي ورمزي وغير ذلك.

ويذهب أحمد الشايب إلى أن البلاغة يمكن حصرها في موضوعين رئيسين، هما: الأسلوب والفنون الأدبية. ففي الفنون الأدبية ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها، وقواعد هذه الفنون: كالقصة والرسالة والمناظرة والتاريخ والمقالة والوصف، وسوى ذلك.

وفي الأسلوب ندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة وأنواع الأسلوب.

وينادي العلايلي بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية وعلم المعاني عنده متصل بالأدب وبكتبه. وكذلك البديع يدرس كما يدرس علم المعاني[1].

أما مؤلفا كتاب نحو بلاغة جديدة فهما يناديان بوجوب تغيير هيكل هذه البلاغة ويتلخص رأيهما في ما يلي:

«أ- يحذف ما نسميه علم المعاني والبديع ويحل محلها فن الأسلوب، على أن تكون موضوعات بحث هذا العلم، هي: صور التعبير البلاغي بلاغة الإيجاز، بلاغة الإطناب، بلاغة القصر، قوة الأسلوب وعذوبته، أسلوب الالتفات، أسلوب التجريد - الأسلوب الحكيم، أسلوب الخبر، أسلوب الإنشاء، أسلوب التكرير، الذوق البلاغي وأثره في الأسلوب، الإسناد إلى الفاعل وغيره، بلاغة الإسناد العقلي، ثقافة الكاتب والأسلوب، الطبع والصنعة، ويدخل في الصنعة بعض الصور التي هي مباحث ما نسميه بعلم البديع.

---

(١) نحو بلاغة جديدة، ص١٧٨.

ب- يحذف ما نسميه علم البيان ويحل محله (فن الخيال البياني) أو «الصور البيانية» ويشتمل هذا على ما يلي: الحقيقة والخيال، الخيال في التشبيه - الخيال في الكناية - الخيال في الاستعارة - الخيال في حسن التعليل - الفكرة الفلسفية والتعبير - الخيال والمبالغة - صور الخيال في البيان العربي - التجديد في الخيال.

وإن أردنا اسماً قديماً لهذا الفن فما أحرانا أن نطلق عليه (فن المعاني) بدلاً من البيان ونطلق على الفن السابق وهو فن الأسلوب اسم فن البيان.

ج- يحذف من البلاغة كل ما يتصل بالنحو العربي عن مثل: مباحث باب المسند وباب المسند إليه.

د- يحذف منها كل ما يتصل بالمنطق والفلسفة.

هـ- تختار أمثلة جديدة لشتى بحوث البلاغة من ناصع الأدب العربي وبليغه في مختلف العصور وبخاصة مما يحفظه الطلاب من نصوص أدبية على أن توجد هذه النصوص في مختلف المدارس والمعاهد في العالم العربي للفرق المتساوية.

ينشأ درس للنقد البلاغي يدرس فيه شخصية الأديب وسمات أدبه، وخصائصه الأسلوبية، وتجديده البياني، ومدى ما يشتمل عليه أدب الأديب من عاطفة وصدق وإثارة، ومدى ما وصل إليه الأديب من تجديد في فنه الأدبي»[1].

ومع تقديرنا لهذا الذي ذكراه، إلا أننا لا نجد فيه أموراً جوهرية، باستثناء ما ذكراه في رقم (د) وهو بحث ما يتعلق بالفلسفة، أما ما عدا ذلك فلا تعدو أن تكون خلافاً في اللفظ والمصلح فلماذا نسمي علم المعاني علم البيان ونغير اسم علم البيان فنسميه علم المعاني، وكيف يمكن أن نقطع الصلة بين البلاغة والنحو ودوحة العربية متصلة الفروع، وما الداعي إلى أن نحذف مباحث المسند والمسند إليه مع أنها لبُّ المعاني - كما نعلم - وكيف يمكن أن ندرس مباحث الحذف والذكر والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير،

---

(١) نحو بلاغة جديدة، ص١٨٢.

بل أسلوب القصر كذلك، كيف يمكن أن ندرسها منفصلة عن المسند أو المسند إليه والفعل والفاعل والمفعول؟

صحيح أننا لا ينبغي أن نجمع هذه المباحث فندرسها في المسند على حدة وفي المسند إليه كذلك كما فعل السكاكي ومن بعده، إنما نرجع بها إلى صنيع الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - فندرس أسلوب الحذف على حدة سواء كان في المسند إليه أم في المسند أم في المفعول، كذلك نفعل في أسلوب التقديم والقصر والتعريف والتنكير، وهو ما سرنا عليه في الكتاب الأول الذي تحدثنا فيه عن علم المعاني.

إن الدعوة لتغيير البلاغة العربية، لا تختلف في ظننا عن الدعوة إلى تغيير مباحث النحو، التي أشرنا إليها في خاتمة كتابنا علم المعاني.

ولا يظن أحد أننا من أنصار الدعوة إلى الجمود، نحن ندعو إلى التجديد، ولكنه تجديد يبقي لبلاغتنا ولغتنا بل لتراثنا كله جوهره وأصالته، وإننا ليحدونا الأمل ويملأ نفوسنا الرجاء بأن يهيئ الله لهذه البلاغة بخاصة واللغة بعامة الغيورين على تراث هذه الأمة وشخصيتها حتى لا نفقد أعز ما نملك وما به قوامنا وبقاؤنا. والله يجزي المخلصين خير الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتابة سنة ١٩٧٤م.

٢- أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبدالعزيز النجار، مكتبة ومطبعة علي صبيح، مصر، سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٣- البحر المحيط للإمام أثير الدين أبي عبدالله محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة، محافظة مصر.

٤- البديع، ابن المعتز، طبعة كراتشوفسكي.

٥- بديع القرآن، لابن الإصبع المصري، تحقيق د. حفني شرف مطبعة نهضة مصر، سنة ١٩٥٧م.

٦- البلاغة والتطبيق للدكتور أحمد مطلوب والدكتور حسن البصير الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ، الجمهورية العراقية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

٧- البلاغة الواضحة للمدارس الثانوية تأليف علي الجارم ومصطفى أمين.

٨- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، ط. هارون.

٩- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق الدكتور محمد حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث القاهرة سنة ١٣٨٣هـ.

١٠- التلخيص في علوم البلاغة، للإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني شرح الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

١١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م دار المعارف بمصر.

١٢- الجمان في تشبيهات القرآن لأبي قاسم عبدالله بن محمد بن الحسين ابن ناقيا البغدادي تحقيق عدنان زرزور ومحمد الداية، المطبعة العصرية بالكويت، سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، الطبعة الأولى.

١٣- جمهرة البلاغة، المعلم عبدالحميد الفراهي، سلسلة الدائرة الحميدية طبع بالهند سنة ١٣٦٠هـ.

١٤- جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٥- الحيوان، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر طبعة هارون.
١٦- دراسات تفصيلية شاملة بلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير، عبدالهادي العدل، تحقيق عبدالسلام سرحان، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، المطبعة المنيرية.
١٧- دفاع عن البلاغ، أحمد حس الزيات، مطبعة الرسالة، سنة ١٩٤٥م.
١٨- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق عبدالمنعم خفاجي، الناشر مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ.
١٩- رغبة الآمل من كتب الكامل لسيد بن علي المرصفي، المطبعة الأولى، سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، مطبعة النهضة، مصر.
٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.
٢١- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي.
٢٢- سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث.
٢٣- شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
٢٤- شرح ديوان المتنبي، عبدالرحمن البرقوقي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٢٥- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ضبط وترقيم، د. مصطفى البغا، الطبعة الأولى، دار القلم.
٢٦- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
٢٧- صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي، الطبعة الأولى سنة ١٩٣١م.
٢٨- الصناعتين لأبي هلال العسكري، طبعة الخانجي سنة ١٣٢٠هـ.
٢٩- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٣٠- علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي مطبعة محمد محمد مطر، مصر، سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م، ١٩٧٤.
٣١- علم البيان، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
٣٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل بيروت، لبنان الطبعة الرابعة.
٣٣- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
٣٤- فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي، د. أحمد السيد الصاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.

٣٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

٣٦- المثل السائر أبو الفتح ضياء الدين نصر ابن الأثير الموصلي تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

٣٧- المجازات النبوية تأليف الشريف الرضي، شرح طه عبدالرؤوف سعد، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأخيرة سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٣٨- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي بيروت.

٣٩- مطول على التلخيص، العلامة سعد التفتازاني، تصحيح عثمان أفندي زاده أحمد رفعت سنة ١٣٣٠هـ.

٤٠- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤١- من بلاغة القرآن، الدكتور أحمد أحمد بدوي، الطبعة الثالثة، الناشر مكتبة مصر بالفجالة.

٤٢- نحو بلاغة جديدة للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي الدكتور عبدالعزيز شرف، الناشر مكتبة غريب.

فهرس

مقدمة ٥

القسم الأول
علم البيان

تمهيد ٩
البيان تعريفه وتطوره ٩
فائد علم البيان ١٣

الباب الأول: التشبيه ١٩

الفصل الأول أركان التشبيه ٢٧
الركنان الأولان: المشبه والمشبه به ٢٧
الركن الثالث من أركان التشبيه: الأداة ٣٣
الركن الرابع من أركان التشبيه: وجه الشبه ٣٦

الفصل الثاني: أقسام التشبيه ٤٩
أقسام التشبيه عند المبرد ٤٩
أقسام التشبيه عند الرماني ٥٣
أولاً: تقسيم التشبيه من حيث طرفاه ٥٥
ثانياً: تقسيم التشبيه من حيث الأداة ٦٤
ثالثاً: تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه ٦٦
تشبيه التمثيل ٦٧
المذهب الأول: مذهب عبدالقاهر ٦٧
المذهب الثاني: مذهب السكاكي ٧٢
المذهب الثالث: مذهب صاحب الإيضاح الخطيب القزويني ٧٣

التشبيه التمثيلي كما استقرت عليه أقوال البيانيين ٧٥
التشبيه الضمني ٨٠
أسباب تأثير التشبيه ٨٦
التشبيه القريب والتشبيه الغريب ٩١
الفصل الثالث: التشبيه في القرآن ٩٩
خصائص التشبيه في القرآن ١٠١
أولاً: الترغيب والترهيب ١٠٥
ثانياً: الإنسان في القرآن ١٠٧
ثالثاً: تشبيهات عامة ١١٧
(كذلك) في كتاب الله ١٢٢
(الكاف) في كتاب الله ١٢٣
هل في القرآن تشبيه مقلوب؟ ١٢٤
الفصل الرابع: التشبيهات في السنّة المطهرة ١٢٧
الفصل الخامس: أغراض التشبيه وبلاغته ١٣٣
أغراضه ١٣٣
أولاً: فمما يرجع فيه الغرض إلى المشبه ١٣٣
ثانياً: ما يرجع الغرض فيه إلى المشبه به ١٣٦
بلاغة التشبيه ١٣٦
أمثلة مما كان يدور في مجالس الأمراء والخلفاء ١٤٠
الباب الثاني: المجاز ١٥٣
تمهيد ١٥٣
أولاً: تعريفه ١٥٣
ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين ١٥٨
ثالثاً: تعدد الوضع ١٦٠
رابعاً: أنواع المجاز ١٦٢
الفصل الأول: المجاز العقلي ١٦٥
الفصل الثاني: المجاز اللغوي ١٧٧
المبحث الأول: المجاز المرسل ١٧٧

أمثلة على المجاز المرسل من الشعر ١٨٣
المبحث الثاني: الاستعارة ١٨٧
قيمة الاستعارة ١٨٧
أركان الاستعارة ١٨٨
الاستعارة مجاز لغوي أم عقلي ١٨٩
قرينة الاستعارة ١٩٠
الجامع في الاستعارة ١٩١
أقسام الاستعارة ١٩١
التقسيم الأول للاستعارة ١٩٢
أولاً: استعارة المحسوس للمحسوس ١٩٢
ثانياً: استعارة المعقول للمعقول ١٩٤
ثالثاً: استعارة المحسوس للمعقول ١٩٥
رابعاً: استعارة معقول لمحسوس ١٩٩
التقسيم الثاني للاستعارة ١٩٩
التقسيم الثالث: الاستعارة التصريحية والمكنية ٢٠٢
الاستعارة التصريحية ٢٠٢
الاستعارة المكنية ٢٠٤
التقسيم الرابع: الاستعارة التحقيقية والتخييلية ٢١١
إجراء الاستعارة ٢١٣
التقسيم الخامس: الأصلية والتبعية ٢١٦
الاستعارة التبعية في الفعل ٢١٩
إجراء آخر للاستعارة ٢٢١
الاستعارة التبعية في غير الفعل ٢٢٣
الاستعارة في الحرف ٢٢٤
التقسيم السادس: الاستعارة التمثيلية ٢٢٦
هل هناك مجاز مركب غير الاستعارة ٢٣٠
التقسيم السابع: تقسيمها من حيث الجامع ٢٣٢
التقسيم الثامن: تقسيم الاستعارة باعتبار الملائم إلى مرشحة ومجردة ومطلقة ٢٤٢
أولاً: الاستعارة المرشحة ٢٤٤
ثانياً: الاستعارة المجردة ٢٤٦

ثالثاً: الاستعارة المطلقة ٢٤٨
الاستعارة في كتاب الله ٢٤٩
المجاز المرسل في كتاب الله ٢٥٩
المجاز العقلي في كتاب الله ٢٦٠
الاستعارات في كلامه ﷺ ٢٦٠
المجاز المرسل في قوله ﷺ ٢٦٥
المجاز العقلي في قوله ﷺ ٢٦٨
بلاغة الاستعارة ٢٦٨

الباب الثالث: الكناية ٢٨١
تعريفها وأركانها ٢٨٣
أقسام الكناية ٢٨٥
أولاً: الكناية عن الصفة ٢٨٥
ثانياً: الكناية عن الموصوف ٢٩١
ثالثاً: الكناية عن النسبة ٢٩٤
بين الكناية والتعريض ٢٩٧
الكناية في كتاب الله تعالى ٣٠٢
الكنايات في أقوال الرسول ﷺ ٣٠٦
بلاغة الكناية ٣٠٨

القسم الثاني
علم البديع

الفصل الأول: المحسنات المعنوية ٣٢١
المبحث الأول: الطباق ٣٢١
أقسام الطباق ٣٢٣
المبحث الثاني: الطباق والمقابلة ٣٢٥
التقابل في اثنين ٣٢٥
التقابل في ثلاثة ٣٢٦
التقابل فيما فوق الثلاثة ٣٢٧
المبحث الثالث: التورية ٣٢٨
المبحث الرابع: حسن التعليل ٣٣١

المبحث الخامس: تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح ٣٣٦
المبحث السادس: أسلوب الحكيم ٣٣٩

الفصل الثاني: المحسنات اللفظية ٣٤٧
المبحث الأول: الجناس ٣٤٧
المبحث الثاني: السجع ٣٥٥
المبحث الثالث: رد العجز على الصدر ٣٦٠
بدائع القرآن ٣٦٢
البديع في الحديث الشريف ٣٧١
الصور البيانية في الشعر الحديث ٣٧٦
أولاً: أمير الشعراء ٣٧٦
ثانياً: شاعر النيل حافظ إبراهيم ٣٨١
ثالثاً: الرافعي ٣٨٣
رابعاً: الشاعر أبو سلمى ٣٨٣
خامساً: صرخة من صرخات أمير البيان شكيب أرسلان ٣٨٤

خاتمة ٣٩٣
المراجع ٣٩٩
الفهرس ٤٠٣